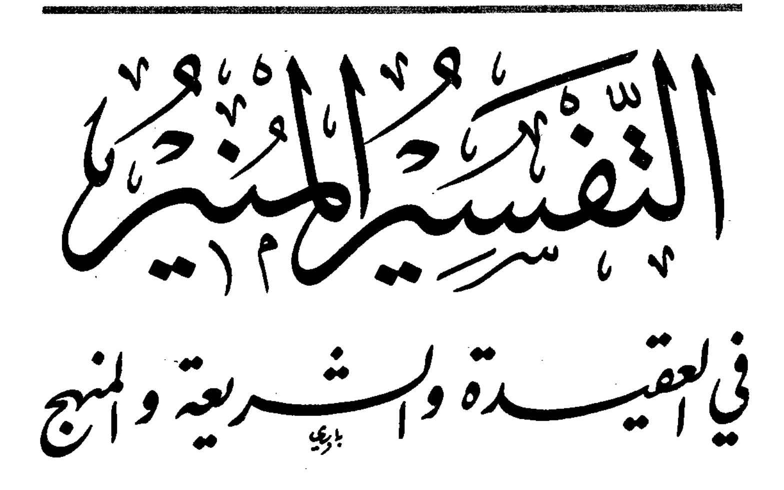
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾
الأنفال ٨/ ٢٤



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد السادس

الجزءان ١١ ـ ١٢







دار الفكر - دمشق - البرامكة



٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد السادس

الرقم الاصطلاحي: ٦- ١١٠،٠١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

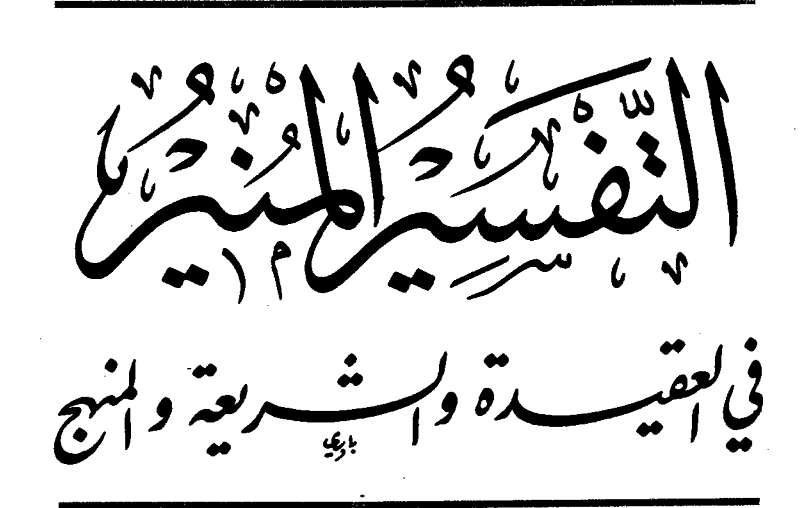
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٣٢ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد السادس

الجزءان ١١ ـ ١٢



مؤاخذة المتخلفين الأغنياء بغير عذر

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ واجدون للأهبة ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ماهو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف من النساء والصبيان والعجزة، إيثاراً للدعة والراحة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها بسبب تقصيرهم حتى غفلوا عن سوء العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يدركون مغبة عملهم.

المناسبة:

لما قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ قال في هذه الآية: إنما السبيل على من كان مستأذناً من الأغنياء، أي إن طريق المعاتبة بالتخلف عن الجهاد لهؤلاء المنافقين.

التفسير والبيان:

لما بيّن الله تعالى من لا سبيل عليه وهم ذوو الأعذار بحق، ذكر من عليهم السبيل، أي إن الملامة والمعاتبة لا على المحسنين، وإنما على هؤلاء الذين يستأذنون في القعود عن الجهاد، وهم أغنياء قادرون على إعداد العدة من زاد وراحلة وسلاح وغير ذلك، فلا عذر لهم ألبتة، والسبب في استحقاقهم المؤاخذة: أنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف والخالفين من النساء

والصبيان والعجزة والمرضى والمعذّرين المفسدين، فكان شأنهم قبول المهانة والمذلة والانتظام في جملة الخوالف، وذلك من أخس مظاهر الخزي والعار في عرف العرب وغيرهم. وقد تكرر هذا مع الآية السابقة [٨٧] لترسيخ هذا الوصف فيهم، وللتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم.

وترتب على تقصيرهم ما قاله تعالى في الآيتين: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي وختم عليها، حتى لا يصل إليها الخير، ولا ينفذ إليها النور، فهم لذلك لا يهتدون، ولا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا، بسبب ما أحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم، فأصبحوا لا يدركون حقيقة أمرهم، وسوء عاقبتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

الإسلام دين العقل والمنطق والواقعية، كما أنه دين الرحمة والحق والعدل، لذا فإنه تعالى نفى السبيل على المحسنين، أي رفع العقوبة والإثم عن المؤمنين ذوي الأعذار، وأوجب العقوبة والمأثم على المنافقين المستأذنين وهم أغنياء ذوو قدرة على الجهاد بالمال والنفس. وقد كرر تعالى ذكرهم للتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم.

فلا عذر لهم بالتخلف عن الجهاد، وإنما كان السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة والخسة، وخذلان الله تعالى إياهم، وأن الله طبع على قلوبهم، بسبب سوء أعمالهم.

ويالها من خسارة! فقد شُلّ فيهم عنصر أو أداة التمييز بين الخير والشر، وبين المصلحة والضرر. وإنهم خسروا الدنيا والآخرة، ففي الدنيا أصبحوا قوماً منبوذين عن المجتمع، وفي الآخرة ينتظرهم العذاب الأليم.

اعتذار المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك وحلفهم الأيمان الكاذبة

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾

القراءات:

﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (ماواهم).

الإعراب:

﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ نبّأ: بمعنى أعلم، وهو يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، ويجوز أن يقتصر على واحد، ولا يجوز أن يقتصر على اثنين دون الثالث. ولهذا لا يجوز أن يكون ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ زائدة، وإنما تعدى إلى مفعول واحد، ثم تعدى بحرف جر.

﴿جَزَاءً بِمَا﴾ يجوز أن يكون مصدراً، وأن يكون علة أي مفعولاً لأجله.

البلاغة:

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بينهما طباق، وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى

عَـٰلِمِ﴾ أي إليه، فوضع الوصف موضع الضمير، للدلالة على أنه مطلع على سرّهم وعلنهم، لا يفوت عليه شيء من ضمائرهم وأعمالهم.

﴿لَا يَـرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ فيه أيضاً إظهار في موضع الإضمار؛ لزيادة التشنيع والتقبيح، وأصله: لا يرضى عنهم.

المفردات اللغوية:

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ في التخلف ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ من الجهاد أو من هذه السفرة ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ بالمعاذير الكاذبة؛ لأنه ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لن نصدقكم؛ لأنه ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي أخبرنا بأحوالكم، وأعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو مافي ضمائركم من الشر والفساد ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ هل تتوبون عن الكفر أم تبقون عليه، وكأنه إعطاء فرصة للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بالبعث ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي إلى الله. والغيب: كل ما غاب عنك علمه. والشهادة: كل ما تشهده وتعرفه من عالم الحس ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه بالتوبيخ والعقاب عليه ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ رجعتم إليهم ووصلتم من تبوك ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ لتصفحوا عنهم ولا تعاتبوهم ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ ولا توبخوهم ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾ قذر، لخبث باطنهم، فيجب الإعراض عنهم، ولا ينفع فيهم التأنيب ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل، أي إن النار كفتهم عتاباً، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المقصود من الآية: النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم. فلا ينفع رضاكم مع سخط الله وتأكد عقابه إياهم.

سبب النزول:

روي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في الجدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن

قُشَير وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، أمر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بألا يجالسوهم ولا يكلموهم.

وقال قتادة ومقاتل: إنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ، فإنه حلف للنبي ﷺ بعد عودته ألا يتخلف عنه أبداً، وطلب أن يرضى عنه، فلم يفعل.

المناسبة:

بعد أن لام الله تعالى المنافقين المعذّرين الذي انتحلوا الأعذار للتخلف عن غزوة تبوك، وعذَر المحقين من أصحاب الأعذار، ورفع الحرج عن الضعفاء والمرضى والفقراء، أخبر المؤمنين بما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن تبوك، بعد عودتهم. وهذا من شأن الوحي على النبي ﷺ ومن الإخبار عن المغيبات في المستقبل.

التفسير والبيان:

هذا كلام مستأنف قصد به الإخبار عن المنافقين إذا رجع المؤمنون من تبوك إليهم، أنهم يعتذرون إليكم أيها المؤمنون عن سيئاتهم وتخلفهم عن القتال بغير عذر إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك. قل لهم أيها الرسول: لا تعتذروا بالأعذار الكاذبة؛ لأنا لن نصدقكم أبداً.

والسبب في عدم تصديقكم أن الله قد أخبرنا سلفاً بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وأحوالكم: وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد ومناقضة الحقائق. وسيرى الله عملكم ورسوله، أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ويعلم مستقبلكم من الإصرار على النفاق أو التوبة منه، فإن تبتم فإن الله يتقبل توبتكم، ويغفر لكم ذنوبكم، وإن مكثتم فيما أنتم عليه من النفاق، عاملكم الرسول بما تستحقون.

وفي هذا ترغيب لهم بالتوبة وإمهال لإظهارها وإصلاح شؤونهم.

ثم يكون مصيركم إلى الله عالم الغيب والشهادة، فيعلم ما تكتمون وما تعلنون، فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها، ويجزيكم عليها، علماً بأنكم أشد عذاباً من الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥/٤] وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ تصريح بالتوبيخ والعقاب على أعمالهم.

وهذا يتضمن ضرورة تجنب المعاذير الكاذبة، وتحاشي كل ما يعتذر منه من السيئات، كما قال ﷺ فيما رواه الضياء عن أنس: «إياك وكل أمر يعتذر منه».

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم سيؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة، فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي إنهم سيحلفون لكم بالله معتذرين، لتعرضوا عنهم، فلا تعاتبوهم ولا تؤنبوهم على قعودهم مع الخالفين من النساء وأمثالهم.

فأعرضوا عنهم ولا توبخوهم، احتقاراً لهم؛ لأنهم رجس أي قذر معنوي، وخبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، لا يقبلون التطهير، وهذا علة الإعراض وترك المعاتبة.

ومأواهم في آخرتهم جهنم، جزاءً بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام والخطايا. وهذا من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة.

ثم أعلمنا الله تعالى بأن أيمانهم الكاذبة التي يحلفونها هي مجرد استرضاء لكم، لتستديموا في معاملتهم كأهل الإسلام.

وإنكم إن رضيتم عنهم، فلا ينفعهم رضاكم، إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، بسبب فسقهم، أي خروجهم عن طاعة الله وطاعة رسوله،

فليكن همهم إرضاء الله ورسوله، لا إرضاؤكم، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨/٤] وقال سبحانه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣/٥٩].

وهذا إرشاد إلى منع المؤمنين من الرضا عنهم، والاغترار بأيمانهم الكاذبة، وكفى بالله شهيداً، وكفى بالله عليماً ومعلماً للمؤمنين طريق الاستقامة والصواب ومواقف الحزم والسداد.

ونظراً لأهمية هذه المعاني أعيدت هنا مرة أخرى، ويكون الكلام شاملاً مناهج المنافقين كلهم، سواء كانوا من أهل الحضر وهم من سبق أو من أهل البادية، وهم المقصودون هنا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - عدم تصديق المنافقين في اعتذاراتهم، بعد إعلام الله بحقيقة أمرهم وأخبارهم.

٢ - المستقبل خير شاهد وكفيل لإظهار كذب المنافقين.

٣ - الله تعالى عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم مافي بواطن المنافقين من خبث ومكر ونفاق، وكذب وكيد. وفي هذا تخويف شديد، وزجر عظيم لهم.

٤ - الجزاء على الأعمال ثابت، يردع كل فاسق وعاتٍ وظالم.

٥ - المنافقون أنجاس أرجاس رجساً معنوياً يقتضي الاحتراز عنهم، كما يجب الاحتراز عن الأرجاس الحسية، خوفاً من التأثر بأعمالهم والميل إلى

طبائعهم. وزادهم رجساً أنهم حصب جهنم هم لها واردون، جزاء بما كسبوا في الدنيا من أعمال النفاق وخبث الأفعال وسوء الأخلاق.

٦ - ينبغي الابتعاد عن كل ما يقتضي الاعتذار من الذنوب والسيئات.

٧ - لا ينفع رضا الناس مع سخط الله، فإن المعول عليه عند العقلاء وأهل الإيمان الحق التماس رضا الله تعالى، أخرج الترمذي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضاء الله بسُخْط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسُخط الله، وكله الله إلى الناس».

٨ - إن سخط الله على المنافقين وأمثالهم إنما هو بسبب فسقهم وخروجهم عن دائرة الطاعة الواجبة لله وللرسول.

كفر الأعراب ونفاقهم وإيمانهم

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

القراءات:

﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾:

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دائرة السُّوء).

﴿قُرْبَةٌ﴾:

وقرأ ورش (قُرُبة).

الإعراب:

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم، والدائرة في الأصل: مصدر أو اسم فاعل من دار يدور، سمي بها دورة الزمان، وهي هنا ما يحيط بالإنسان حتى لا يجد له منه مخلصاً، وأضيفت إلى السوء (بضم السين وفتحها) للمبالغة والتأكيد والبيان، كقولهم: شمس النهار، ورجل صدق.

﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: مفعول ثان ليتخذ، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: صفتها، أو ظرف ليتخذ.

البلاغة:

﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ مجاز مرسل أي في جنته، من باب إطلاق الحال وإرادة المحل أي محل الرحمة.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ لفظ عام معناه الخصوص في جماعة من أهل البدو من العرب، والعرب: من ينطق بالعربية، سواء البدو والحضر وسميت العرب عرباً؛ لأن ولد إسماعيل نشؤوا من عَرَبة، وهي من تهامة، فنسبوا إليها ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من أهل المدن، لجفائهم وغلظ طباعهم، وبعدهم عن سماع القرآن ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ أحق وأولى ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾ بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ من الأحكام والشرائع ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٞ﴾ في صنعه بهم.

﴿مَغۡرَمٗا﴾ غرامة وخسراناً لازماً؛ لأنه لا يرجو ثوابه، بل ينفقه خوفاً، وهم أسد وغطفان ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ ينتظر ﴿بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ دوائر الزمان ذات

الضرر والسوء أن تنقلب عليكم فيتخلص من الإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصونه، أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم، أي يدور العذاب والهلاك عليهم، لا عليكم، والسوء: اسم لما يسوء ويضر ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال الناس ولما يقولون عند الإنفاق ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم وبما يضمرون.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كجهينة ومزينة ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ جمع قربة: وهي ما يتقرب به إلى الله تعالى، ويقصد بها هنا اتخاذ المنزلة والمكانة عند الله ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ جمع صلاة ويراد بها هنا دعاؤه واستغفاره، فالصلاة من الله تعالى: الرحمة والخير والبركة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٣] والصلاة من الملائكة: الدعاء، وكذا هي من النبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٣] أي دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة ﴿أَلَآ﴾ استئناف بحرف التنبيه ﴿إِنَّهَا﴾ أي نفقتهم ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي تقرّبهم من رحمة الله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ جنته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٩٧):

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ قال الواحدي: نزلت في أعاريب من أسد وغطفان، ومن أعاريب حاضري المدينة.

نزول الآية (٩٩):

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن مجاهد أنها نزلت في بني مُقَرِّن الذين نزلت فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٩٢] وأخرج عن عبد الرحمن بن معقل المزني قال: كنا عشرة ولد مقرِّن، فنزلت فينا هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم بالمدينة، ذكر أحوال الأعراب خارج المدينة وهم سكان البادية، وأخبر أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين. ويرى الرازي أن هذه الآيات كسابقتها مباشرة تخاطب منافقي الأعراب وأصحاب البوادي أي الصحاري. ويرى المفسرون الآخرون أن ما سبق كله في منافقي المدينة وهذا في منافقي الأعراب.

التفسير والبيان:

إن كفر بعض الأعراب سكان البادية ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأحرى وأولى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله أي فرائض الشرع؛ لأنهم أغلظ طبعاً وأقسى قلباً، وأكثر جهلاً، روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «من سكن البادية جَفَا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن» ورواه أبو داود والبيهقي أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً، وزاد فيه: «وما ازداد أحد من سلطانه قرباً إلا ازداد من الله بُعْداً» لأن السلاطين لا يريدون غالباً النصح وصراحة القول، فلا يتقرب منهم إلا المراؤون عادة. والله عليم واسع العلم بأحوال خلقه من أهل المدن والبوادي، حكيم فيما شرعه لهم وفيما يجازي محسنهم ثواباً ومسيئهم عقاباً.

وليس هذا طعناً في الأعراب وإنما هو وصف لأحوالهم، وذم لواقعهم ما داموا راضين به، وكل من نزل البادية فهم أعراب. وأما من استوطن القرى والبلاد فهم عرب، ولا يقال للمهاجرين والأنصار أعراب، إنما هم عرب، وقد قال النبي ﷺ: «حب العرب إيمان»(١).

ومن الأعراب أناس ينفقون أموالهم رياءً أو تَقيَّة، وتقرباً للمسلمين

(١) حديث ضعيف رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك.

ويعدون ذلك مغرماً وخسارة؛ لأنهم لا يرجون به ثواباً عند الله، وينتظرون بكم الحوادث والآفات، فيتخلصون من الإنفاق، وقد كانوا يتوقعون انتصار المشركين على المؤمنين، فلما يئسوا انتظروا موت النبي ﷺ ظناً منهم أن الإسلام ينتهي بموته.

روي أنهم أسد وغَطَفان كانوا يفعلون ذلك. فرد الله عليهم: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي هي منعكسة عليهم، والسوء دائر عليهم وحدهم، أو أن هذا دعاء عليهم بنحو ما ينتظرونه في المسلمين، وقد تحقق هذا الدعاء، فدارت دائرة السوء والشر عليهم، وأصيبوا بالهزيمة والخيبة والخذلان، والله سميع لما يقولون عند الإنفاق، ولدعاء عباده عليهم، عليم بما يضمرون وبمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٩/٥٢] .

وكما أن في الأعراب كفاراً ومنافقين، فيهم أيضاً مؤمنون لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ﴾ أي وبعض آخر من الأعراب يؤمنون إيماناً صحيحاً، مثل جُهينة ومُزَيْنة، وبنو أسلم وغفار، وقال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن من مُزَينة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ وهؤلاء الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله تعالى، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، أي صلواته.

ألا إن ذلك قربة حاصلة لهم، وهذا شهادة من الله بصحة معتقدهم، وتصديق لرجائهم وتمنيهم، على الاستئناف مع حرف التنبيه، وإنّ المحققة للنسبة. وضمير ﴿إِنَّهَا﴾ لنفقتهم.

سيدخلهم الله في رحمته أي في جنته ورضوانه، وهذا وعد لهم بإحاطة الرحمة بهم، إن الله غفور رحيم واسع المغفرة والرحمة للمخلصين في أعمالهم،

فهو يستر لهم ما فرط منهم من ذنب أو تقصير، ويرحمهم بهدايتهم إلى صالح الأعمال المؤدية إلى حسن الختام والمصير، وإحاطة الرحمة في هذه الآية أبلغ في إثباتها لهم في مثل قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٩/٢١].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين. أما الكفار والمنافقون فهم أشد كفراً ونفاقاً من غيرهم، بسبب قسوة البيئة التي يعيشون فيها، وضعف مستوى الثقافة والمعرفة والعلم في أوساطهم، مما يجعلهم قساة الطباع والأكباد والقلوب، ويرتعون في مفاسد الجهل والأهواء ونقص السياسة والتأديب.

وهم أيضاً لذلك أولى بألا يعلموا حدود الشرائع ومقادير التكاليف والأحكام وما أنزله الله على رسوله بالوحي الثابت.

وترتب على ذلك أحكام ثلاثة[١]:

أولها - لاحق لهم في الفيء والغنيمة، كما قال النبي ﷺ في صحيح مسلم من حديث بريدة: «ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم بأنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

وثانيها - إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة؛ لما في ذلك من تحقق

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٣٢

التهمة. وأجازها أبو حنيفة قال: لأنها لا تراعى كل تُهمَة، والمسلمون كلهم عنده على العدالة. وأجازها الشافعي إذا كان عدلاً مرضياً، قال القرطبي: وهو الصحيح.

وثالثها - أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة؛ لجهلهم بالسنة، وتركهم الجمعة. وقال الشافعي والحنفية: الصلاة خلف الأعرابي جائزة.

ومن الأعراب جماعة منافقون يعدون النفقة خسارة، وينتظرون أن تحيط الدواهي والمصائب والحوادث بالمسلمين ليتخلصوا من الإنفاق. فقوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ يعني الموت والقتل، وانتظار موت الرسول ﷺ، وانتصار المشركين. ولكن الأمر سيكون بالعكس مما يتوقعون، فعليهم وحدهم دائرة العذاب والبلاء.

وبعض آخرون من الأعراب مؤمنون، وصفهم الله بوصفين:

الأول: كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر، وهذا دليل على أنه لابد في جميع الطاعات حتى الجهاد من تقدم الإيمان.

والثاني: كونهم ينفقون أموالهم تقرباً إلى الله تعالى، وبقصد التوصل إلى صلوات الرسول ﷺ أي استغفاره ودعائه؛ لأن الرسول ﷺ كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كقوله: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ كما تقدم.

وقد شهد الله تعالى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، أي إن نفقاتهم تقربهم من رحمة الله، وذلك حاصل لهم، وهو وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد.

أصناف الناس في المدينة وما حولها

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

القراءات:

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

وقرأ ابن كثير (جنات تجري من تحتها).

الإعراب:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ومعناه: رضي الله عنهم لأعمالهم وكثرة طاعاتهم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟﴾ عطف على: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أو خبر لمحذوف تقديره: قوم مردوا على النفاق، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه. مثل: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا.

البلاغة:

﴿عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ بين الصالح والسيء طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وهم من شهد بدراً، أو

الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين أسلموا قبل الهجرة، وأهل بيعة العقبة الأولى وكانوا اثني عشر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زُرارة مُصعَب بن عمير، أو جميع الصحابة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من الفئتين، أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي قبل طاعتهم وارتضى أعمالهم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية، أو بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدين والدنيا.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ ممن حول بلدتكم المدينة يا أهل المدينة ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ هم جُهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿مَرَدُواْ﴾ مرنوا وحذقوا واستمروا ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم أيها النبي ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل في الدنيا، وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة وإنهاك الأبدان ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو النار.

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو الجهاد السابق قبل ذلك أو إظهار الندم والتوبة ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو تخلفهم، وهم أبو لبابة وجماعة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، وحلفوا ألا يحلهم إلا النبي ﷺ، فحلّهم لما نزلت ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

سبب النزول:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: الصحيح عند الرازي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾: قال البغوي، والواحدي نقلاً عن الكلبي: نزلت في جُهَينة ومُزَيْنَة وأشجع وأسلم وغفار من أهل المدينة أي كانوا حول المدينة، يعني عبد الله بن أبي، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قُشَير، والجلاس بن سويد، وأبي عامر الراهب.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾: أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ، فتخلَّف أبو لبابة وخمسة معه، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا، وقالوا لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ففعلوا، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم، فرجع رسول الله ﷺ من غزوه، فقال: من هؤلاء الموثقون بالسواري؟ فقال رجل: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فقال: لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، فأنزل الله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ الآية. فلما نزلت أطلقهم وعذرهم، وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فجعل أناس يقولون: هلكوا إذ لم ينزل عذرهم، وآخرون يقولون: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، حتى نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى فضائل قوم من الأعراب ينفقون تقرباً إلى الله تعالى ومن أجل دعاء الرسول، أبان فضائل قوم أعلى منهم منزلة وأعظم، وهي منازل السابقين الأولين، ثم أتبعهم ببيان حال طائفة من منافقي المدينة وما حولها، وإن كانوا غير معلومين بأعيانهم، وحال طائفة أخرى خلطوا صالح العمل بسيئه وهؤلاء يرجى قبول توبتهم، ثم عاد بعدئذ لبيان حال طائفة أخرى يرجى أمر قبول توبتهم إلى الله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/١٠٦].

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن رضاه على أرفع منزلة في المسلمين وتفضيلهم على من عداهم، **وهم السابقون الأولون**، وهم ثلاث طبقات:

الأولى: السابقون الأولون من المهاجرين الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، فتقدموا على غيرهم في الهجرة والنصرة. وأفضل هؤلاء الخلفاء الراشدون الأربعة، ثم العشرة المبشرون بالجنة، وأول السابقين من المهاجرين: أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن المعول عليه في السبق: الإيمان والهجرة والجهاد والبذل والنصرة.

والثانية: السابقون الأولون من الأنصار: وهم أصحاب بيعة العقبة الأولى في مِنَى سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا اثني عشر، ثم أصحاب بيعة العقبة الثانية، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين.

والثالثة: التابعون للأولين بإحسان: أي بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة.

وهؤلاء جميعاً رضي الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من الشرك والضلال، ووفقهم إلى الخير، وهداهم إلى الحق، وأعزهم وأغناهم، وأعز بهم الإسلام، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز غيره، وهو فوز شامل، كما أن نعيم الجنة شامل للبدن والروح معاً.

ويلاحظ أن الاتباع المطلوب هو الاتباع بإحسان، أي إحسان الأعمال والنيات والظواهر والبواطن، أما الاكتفاء بظاهر الإسلام فلا يحقق شرط الإحسان. وحينئذ ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠] وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

ثم أخبر الله تعالى **عن فئة المنافقين** حول المدينة وفيها، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أي إن في المدينة وما حولها مردة المنافقين الذين مرنوا على النفاق وأتقنوه، وثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا، وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم

وغفار، الذين كانت منازلهم حول المدينة، وكان جماعة منهم آخرون في المدينة من الأوس والخزرج، لا تعلمهم أو لا تعرفهم بأعيانهم أيها النبي، ولا تعلم عاقبة أمورهم، وإنما نحن نختص بعلمها وبمعرفتهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٤٧/٢٩-٣٠].

وقوله ﴿وَمِمَّنْ﴾ يشير إلى بعضهم، أما الآخرون فهم مؤمنون بدليل ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالي لله تعالى، لا موالي لهم غيره» وقال ﷺ أيضاً داعياً لبعضهم: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إني لم أقلها، لكن قالها الله تعالى».

هؤلاء المنافقون سنعذبهم في الدنيا مرتين: بالفضيحة والمصائب في أموالهم وأولادهم أولاً، ثم بآلام الموت وعذاب القبر ثانياً، أو بأخذ الأموال وإنهاك الأبدان. قال ابن عباس: بالأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة. فمرض المؤمن كفارة، ومرض الكافر عقوبة.

ثم يكون لهم عذاب جهنم، وهو أشد العذاب.

والغرض من الآية بيان مضاعفة العذاب عليهم.

وهناك **فريق آخر حول المدينة وفيها** وهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي إنهم جماعة أقروا بمعاصيهم واعترفوا بها لربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، إن الله غفور لمن تاب، رحيم بمن أحسن وأناب: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٦].

وهذه الآية، وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين. قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه. وقال ابن عباس وآخرون: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه... إلخ ما ذكر في سبب النزول.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار: وهم الذين سبقوا إلى الهجرة قبل صلح الحديبية، وإلى النصرة في بيعتي العقبة الأولى والثانية. وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبية، أو أهل بدر.

وأفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة المبشرين بالجنة، ثم البدريون، ثم أصحاب أُحُد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحدَيْبِيَة. ولا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق.

وقال ابن العربي: السبق يكون بثلاثة أشياء: وهو التقدم في الصفة أو في الزمان أو في المكان، فالصفة: الإيمان، والزمن: لمنْ حصل في أوان قبل أوان، والمكان: من تبوَّأ دار النصرة واتخذه بدلاً عن موضع الهجرة. وأفضل هذه الوجوه: سبق الصفات. والدليل عليه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «نحن الآخرون الأولون، بَيْد أنهم أوتوا الكتاب مِنْ قَبْلنا، وأوتيناه من بعدهم. فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فاليهود غداً، والنصارى بعد غد» فأخبر النبي ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان، فجئنا بعدهم، سبقناهم بالإيمان، والامتثال لأمر الله تعالى، والانقياد إليه،

والاستسلام لأمره، والرضا بتكليفه، والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه، ولا نختار معه، ولا نبدِّل بالرأي شريعته، كما فعل أهل الكتاب، وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله[1].

والصحابي في علم الحديث: كل مسلم رأى رسول الله ﷺ. والتابعي: من صحب الصحابي. قال أحمد بن حنبل: أفضل التابعين سعيد بن المسيِّب، فقيل له: فعلقمة والأسود؟ فقال: سعيد بن المسيب، وعلقمة والأسود. وفي التابعين طبقة تسمى المخضرمين: وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله ﷺ وأسلموا ولا صحبة لهم، وعددهم كما ذكر مسلم عشرون نفساً، منهم أبو عمرو الشيباني، وسويد بن غفلة الكِندي، وعمرو بن ميمون الأودي. وممن لم يذكره مسلم: أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثُوَب، والأحنف بن قيس.

لكن رجح الرازي: أن السبق ليس في زمن الإيمان أو الإسلام؛ لأن لفظ السابق مجمل أو مطلق، يمكن حمله على السبق في سائر الأمور، لكن وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصاراً، وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه: السابقون الأولون في الهجرة والنصرة، إزالة للإجمال عن اللفظ[2].

٢ - الرضا الدائم عنهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ يتناول جميع الأحوال والأوقات، بدليل أنه لا وقت ولا حال إلا ويصح استثناؤه منه، مثل وقت طلب الإمامة، ولأن ذلك الحكم معلل بكونهم سابقين في الهجرة، والسبق في الهجرة وصف دائم في جميع مدة وجوده،

---

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٩٩٠، ٩٩٣

(٢) تفسير الرازي: ١٦/ ١٦٨ - ١٦٩

ولأن إعداد الجنات لهم يقتضي بقاءهم على تلك الصفة التي لأجلها صاروا مستحقين لتلك الجنات.

وبعض العلماء أثبت هذا المدح لجميع الصحابة؛ لأن كلمة ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ليست للتبعيض، بل للتبيين، فأوجب الله لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان. وشرط على التابعين شرطاً هو أن يتبعوهم بإحسان في العمل: وهو أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتدوا بهم في غير ذلك.

٣ً - الرضا عن التابعين والثواب إلى يوم القيامة مشروط باتباع الصحابة بإحسان، أي إحسان القول والعمل، فمن لم يحسن القول في المهاجرين والأنصار لا يكون مستحقاً للرضوان من الله تعالى، ولا يكون من أهل الثواب لهذا السبب.

٤ً - هناك قوم منافقون مردوا على النفاق، أي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه، وهم قوم من الأعراب حول المدينة، يعني مُزَينة وجُهَيْنة وأَسلَم وغِفار وأشْجَع، وقوم من أهل المدينة أيضاً. وهؤلاء لهم عذاب مضاعف: في الدنيا بالأمراض والمصائب، وفي الآخرة بالإصلاء (الإلقاء) في نار جهنم. وقيل: بالفضيحة في الدنيا، ثم عذاب القبر. وقيل بغير ذلك. والأولى في رأي الرازي حمل قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ على عذاب الدنيا بجميع أقسامه، وعذاب القبر، وأما قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يراد منه العذاب في يوم القيامة.

٥ً - ومن أهل المدينة ومن حولها قوم أقروا بذنبهم، وآخرون مرجون لأمر الله، يحكم فيهم بما يريد. والصنف الأول: إما قوم من المنافقين، تابوا عن النفاق وما مردوا عليه، أو إنهم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك، لا للكفر والنفاق، لكن للكسل، ثم ندموا على ما فعلوا ثم تابوا.

ومجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة وإنما هو مقدمة للتوبة، فإذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في المستقبل، كان ذلك توبة.

وقد تاب هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والمفسرون قالوا: إن (عسى) من الله يدل على الوجوب.

قال ابن عباس: نزلت في عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك، فأوثق سبعة منهم أنفسهم في سواري المسجد. وقال بنحوه قتادة، وقال: وفيهم نزل: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً﴾ وهي الآية التالية.

أخذ الصدقة وقبول التوبة والأمر بالعمل الصالح

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

القراءات: ﴿صَلَوٰتَكَ﴾: قرئ:

١- (صلاتَك) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (صلواتِك) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم﴾ جملتان فعليتان في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿خُذۡ﴾ أو أن يكون ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ وصفاً لصدقة، وتزكيهم: حالاً من ضمير: ﴿خُذۡ﴾.

البلاغة:

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ، وأصله كالسكن، فحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ي استفهام للتقرير في النفس، قصد به حثهم على التوبة والصدقة.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ مجاز عن قبوله لها.

المفردات اللغوية:

﴿صَدَقَةً﴾ ما ينفقه المؤمن قربة لله ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين، فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ادع لهم واستغفر ﴿سَكَنٌ﴾ أي تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، والسكن في الأصل: ما تسكن إليه النفس وترتاح من منزل وأهل ومال ودعاء وثناء ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة، أي يقبل توبة عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم، صيغة مبالغة أيضاً. ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ماشئتم ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بالبعث ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الله ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يجازيكم به.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠٣):

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن هؤلاء الذين أطلقهم النبي ﷺ من سواري المسجد لما اعترفوا بذنوبهم وتاب الله عليهم، وهم أبو لبابة وأصحابه، جاؤوا بأموالهم، فقالوا: يارسول الله، هذه أموالنا التي كانت سبباً في تخلفنا، فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية. فأخذ

الرسول ﷺ من أموالهم الثلث. قال الحسن البصري: وكان ذلك كفارة الذنب الذي حصل منهم. وقال جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، وعلى هذا يكون قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ هو لجميع الأموال والناس، وهو عام يراد به الخصوص في الأموال، إذ يخرج عنه الأموال التي لا زكاة فيها كالديار والثياب[١].

وهذا النص، وإن كان خاصاً بالرسول ﷺ، وذا سبب خاص، فهو عام يشمل خلفاء الرسول ومن بعدهم من أئمة المسلمين، لذا قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعي الزكاة من أحياء العرب، حتى أدّوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، وقال الصدِّيق: «والله لو منعوني عقالاً - أو عناقاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنهم على منعه».

المناسبة وتعيين المراد بالصدقة:

إذا كان المقصود من كلمة ﴿صَدَقَةً﴾ كفارة الذنب الذي صدر من المتخلفين عن غزوة تبوك، كما قال الحسن البصري فيما تقدم، فالمناسبة بين هذه الآية وما قبلها واضحة؛ لأن المراد علاج خطأ هذه الفئة من الناس، وتكون الآية خاصة بهم. ويمكن تعميم المراد بالآية بأن يقال: إنكم لما رضيتم بإخراج الصدقة التي هي غير واجبة، فلأن تصيروا راضين بإخراج الواجبات أولى.

وأما إذا كان المقصود من الآية الزكوات الواجبة أو إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء، وهو رأي أكثر الفقهاء، وهو الصحيح، فالمناسبة تكون على النحو التالي: لما أظهر هؤلاء التوبة والندامة عن تخلفهم عن غزوة تبوك، وأقروا بأن السبب الموجب لذلك التخلف هو حبهم للأموال، وشدة حرصهم على صونها عن الإنفاق، فكأنه قيل لهم: إنما تظهر صحة قولكم في ادعاء هذه التوبة

(١) البحر المحيط: ٥/ ٩٥

والندامة لو أخرجتم الزكاة الواجبة؛ لأن الدعوى لا تتقرر إلا بالمعنى، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. فإن أدوا تلك الزكوات عن طيب نفس، ظهر كونهم صادقين في توبتهم، وإلا فهم كاذبون.

ومما يدل على أن المراد الصدقات الواجبة قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي تطهرهم عن الذنب بسبب أخذ تلك الصدقات.

قال الجصاص: والصحيح أنها الزكوات المفروضة، إذ لم يثبت أن هؤلاء القوم أوجب الله عليهم صدقة دون سائر الناس، سوى زكوات الأموال، وإذا لم يثبت بذلك خبر، فالظاهر أنهم وسائر الناس سواء في الأحكام والعبادات، وأنهم غير مخصوصين بها دون غيرهم من الناس.

ولأنه إذا كان مقتضى الآية وجوب هذه الصدقة على سائر الناس لتساوي الناس في الأحكام إلا من خصه دليل، فالواجب أن تكون هذه الصدقة واجبة على جميع الناس، غير مخصوص بها قوم دون قوم، وإذا ثبت ذلك كانت هي الزكاة المفروضة؛ إذ ليس في أموال سائر الناس حق سوى الصدقات المفروضة.

وقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ لا دلالة فيه على أنها صدقة مكفرة للذنوب غير الزكاة المفروضة؛ لأن الزكاة المفروضة أيضاً تطهر وتزكي مؤديها؛ وسائر الناس في المكلفين محتاجون إلى ما يطهرهم ويزكيهم[(١)].

التفسير والبيان:

خذ أيها الرسول وكل حاكم مسلم بعدك من أموال هؤلاء التائبين ومن غيرهم صدقة مقدرة بمقدار معين، تطهرهم بها من داء البخل والطمع،

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ١٤٨

وتزكي أنفسهم بها، وتنمي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين. والتزكية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال، أي أنه تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب إخراج قدر الزكاة سبباً للإنماء، وفي الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة: «ما نقصت صدقة من مال».

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي ادع لهم واستغفر وترحم، فإن دعاءك واستغفارك سكن لهم يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم. والصلاة من الله على عباده: الرحمة، ومن ملائكته: الاستغفار، ومن النبي والمؤمنين: الدعاء.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم، وسميع لدعائك سماع قبول وإجابة، عليم بما في ضمائرهم وبإخلاصهم في توبتهم وصدقاتهم وبما فيه الخير والمصلحة لهم.

فالصدقة مطهرة للنفس، مرضاة للرب، وحصن للمال.

ألم يعلم أولئك التائبون وجميع المؤمنين أن الله هو الذي يقبل توبة عباده، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويأخذ الصدقات أي يقبلها ويثيب عليها ويضاعف أجرها، كما قال: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ [التغابن: ٦٤/١٧] وفي الحديث الثابت الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة: «إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فَلُوَّه» أي ولد الفرس، وهذا تمثيل لزيادة الأجر. وفي هذا حث على التوبة وإعطاء الصدقة سواء كانت فريضة أو تطوعاً. قيل في سبب نزول هذه الآية: قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس، لا يُكلَّمون ولا يجالسون، فما لهم الآن؟ وما هذه الخاصة التي خُصُّوا بها؛ فنزلت: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ فالضمير في ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين.

وأن الله هو التواب الذي من شأنه قبول توبة التائبين، والتفضل عليهم، وهو الرحيم بعباده التائبين، الذي يثيبهم على أعمالهم الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢] وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥] والتوبة مفيدة في تجديد همة النفس والعهد، ومحو الذنب.

وقل أيها الرسول لهؤلاء التائبين ولغيرهم: اعملوا، فإن عملكم لا يخفى على الله وعباده، خيراً كان أو شراً، فالعمل أساس السعادة، وسيرى الله عملكم، ورسوله والمؤمنون بإطلاعه إياهم على أعمالكم. وهذا وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار على الذنب والذهول عن التوبة، ولكل المخالفين أوامر الله، بأن أعمالهم ستعرض عليه تعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٨] .

وقال النبي ﷺ فيما يرويه أحمد والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كُوَّة، لأخرج الله عمله للناس، كائناً ماكان» وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي، روي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك».

وستردون يوم القيامة إلى الله الذي يعلم سرائركم وعلانيتكم، يعلم الغائب والحاضر، والباطن والظاهر، فيعرفكم أعمالكم، ثم يجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهذا كلام جامع للترغيب والترهيب.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام الثلاثة التالية:

١ - فرضية أخذ الصدقات وهي الزكوات الواجبة لتطهير النفوس وتزكيتها وتنمية الأموال والبركة فيها. وأن صلاة الرسول ﷺ شفاعة وطمأنينة.

٢ - قبول الله توبة التائبين بحق أي التوبة الصحيحة، وقبول الصدقات الصادرة عن خلوص النية والإثابة عليها، وسمى تعالى نفسه باسم ﴿ٱللَّهَ﴾ لينبه على أن كونه إلهاً يوجب قبول التوبة، والتخصيص بالله يدل على أن قبول التوبة وردها إلى الله، لا إلى الرسول ﷺ.

٣ - كل إنسان مجزي بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والعمل مشهود عند الله ورسوله والمؤمنين، وفي ذلك وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ، وعلى المؤمنين، في عالم البرزخ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١٨].

لكن آية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ عامة في أصناف الأموال، لم تبين نوع المال المأخوذ منه ولا مقدار المأخوذ، فيقتضي الظاهر أن يؤخذ من كل صنف بعضه؛ لأن ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ تقتضي التبعيض، فدلت الآية على أن القدر المأخوذ بعض تلك الأموال، لا كلها، لكن البعض غير مذكور هنا صراحة في اللفظ، فجاءت السنة والإجماع لبيان مقدار المأخوذ والمأخوذ منه، ومقادير الأنصبة ووقت الاستحقاق، ويكون لفظ الزكاة مجملاً في هذه الوجوه كلها، مفتقراً إلى البيان فيما ذكر كما قال الجصاص. وقد نص القرآن على زكاة الذهب والفضة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٩/٣٤] ونص أيضاً على زكاة الزروع

والثمار في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/١٤١] وأوضحت السنة زكاة سائر الأموال الأخرى التي تجب فيها الزكاة، وهي عروض التجارة، والأنعام السائمة (الإبل والبقر والغنم) وبينت مقاديرها وأنصبتها. روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمس أواق من الورِق صدقة، وليس فيما دون خمس ذَوْد من الإبل صدقة»(١) وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهماً؛ فإذا ملك الحر المسلم مئتي درهم من الفضة، وهي الخمس الأواق المنصوصة في الحديث، حولاً كاملاً، فقد وجبت عليه صدقتها، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم.

وإنما اشترط الحول لما أخرجه الترمذي من قوله ﷺ: «ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول. وما زاد على المئتي درهم من الفضة فبحساب ذلك في كل شيء منه رُبُع عُشُرِه، قل أو كثر.

وأما زكاة الذهب فتجب في رأي جمهور العلماء إذا كان الذهب عشرين ديناراً قيمتها مئتا درهم، فما زاد، عملاً بحديث علي الذي أخرجه الترمذي.

وأما زكاة الغنم ففي كل أربعين شاةً شاة، على ماجاء في كتاب الصِّدِّيق لأنس لما وجهه إلى البحرين، وأخرجه البخاري وأبو داود والدارقطني والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

وزكاة البقر في كل ثلاثين بقرة تبيع أو تبيعة، وفي كل أربعين مُسِنَّة(٢)؛ لما رواه الدارقطني والترمذي عن معاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن.

---

(١) الخمسة أوسق ٦٥٣ كغ، والورق: الفضة، والذود من الإبل: مابين الثلاث إلى العشرة.

(٢) التبيع: ولد البقرة في أول سنة، والمسنّ: ما أتم سنتين ودخل في الثالثة.

ولا زكاة في رأي الجمهور على الأنعام إلا إذا كانت سائمة ترعى في البراري ونحوها؛ لما روى الدارقطني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ليس في البقر العوامل صدقة» وروى الخمسة (أحمد وأصحاب السنن) عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وفي البقر في كل ثلاثين تبيع، وفي الأربعين مُسِنَّة» وروى أبو داود والدارقطني عن علي «ليس على العوامل شيء» وفي حديث البخاري عن أنس أن النبي ﷺ كتب لأبي بكر الصديق كتاباً في الصدقات، جاء فيه: «صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين، فيها شاة» فنفى بذلك الصدقة عن غير السائمة.

وقال مالك والليث: في العوامل صدقة، لعموم قوله ﷺ في حديث أنس المتقدم: «في خمس من الإبل شاة» والجواب: ذلك مخصوص بالأحاديث المتقدمة. وظاهر عموم هذه الآية يوجب الزكاة في مال المديون وفي مال الضمان أي الكفالة.

وأما قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فقال الزجاج: والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ، أي فإنك تطهرهم وتزكيهم بها، على القطع والاستئناف. ويجوز الجزم على جواب الأمر، والمعنى: إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم. وظاهر الآية يدل على أن الزكاة إنما وجبت طهرة عن الآثام، وبما أن الإثم لا يتقرر إلا في حق البالغ، فوجب ألا تجب الزكاة في حق الصغير، كما قال أبو حنيفة رحمه الله. وأوجب الجمهور الزكاة في مال الصبي والمجنون؛ لأن الآية تدل على أخذ الصدقة من أموالهم، فتكون طهرة للأموال.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أنه يجب على الإمام أو نائبه إذا أخذ الزكاة أن يدعو للمتصدق بالبركة، وهذا رأي الظاهرية. وأما سائر الأئمة فحملوا الأمر على الندب والاستحباب؛ لأن النبي ﷺ قال لمعاذ في الحديث

المتفق عليه عن ابن عباس: «أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، وترد في فقرائهم» ولم يأمره بالدعاء لهم، ولأن الفقراء إذا أخذوا الزكاة لا يلزمهم الدعاء.

ومع هذا، روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم: قال: «اللهم صل عليهم» فأتاه ابن أبي أوفى بصدقته، فقال: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» والصلاة هنا: الرحمة والترحم. وبناء عليه قال الحنابلة والظاهرية في صيغة الدعاء: لا مانع أن يقول آخذ الزكاة: اللهم صل على آل فلان. وقال باقي الأئمة: لا يجوز هذا القول؛ لأن الصلاة صارت مخصوصة بالأنبياء عليهم السلام. ولا خلاف أن يجعل غير الأنبياء تبعاً لهم، فيقال: اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأتباعه؛ لأن السلف استعملوه، وأمرنا به في التشهد.

والسلام في حكم الصلاة؛ لأن الله تعالى قرن بينهما، فلا يفرد به غائب على غير الأنبياء. أما استحباب السلام في مخاطبة الأحياء تحية لهم وفي تحية الأموات فهو ثابت في السنة.

واستحسن الشافعي أن يقول: آجرك الله فيما أعطيت، وجعله لك طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت.

وقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ دليل على كونه تعالى رائياً للمرئيات، ودليل لأهل السنة أن كل موجود فإنه يصح رؤيته، أي إبصاره؛ لأن الرؤية المعداة إلى المفعول الواحد معناها الإبصار. والعمل المرئي يشمل أعمال القلوب كالإرادات والكراهات والأنظار، وأعمال الجوارح، كالحركات والسكنات.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ نص صريح في أن الله تعالى هوالآخذ لها والمُثيب عليها وأن الحق له جل وعز، والنبي ﷺ واسطة، فإن توفي فعامله هو الواسطة بعده، والله عز وجل حي لا يموت. وهذا يبين أن قوله سبحانه

وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ ليس مقصوراً على النبي ﷺ، وإنما يشمل الأئمة بعده، كما تقدم. روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيُرْبِيها لأحدكم، كما يُربِي أحدكم مُهْره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أُحُد»، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، و﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. وفي صحيح مسلم: «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه، فتربُو في كفّ الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل». وهذا كناية عن القبول والجزاء عليها، كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض، تعطفاً عليه بقوله في الحديث القدسي: «يا ابن آدم، مرضتُ فلم تَعُدْني». وخُصَّ اليمين والكف بالذكر؛ إذ كل قابل لشيء إنما يأخذه بكفه وبيمينه، أو يوضع له فيه؛ فخرج على ما يعرفونه، والله جل وعز منزه عن الجارحة.

الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك والتوبة عليهم

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

القراءات: ﴿مُرْجَوْنَ﴾: قرئ:

١- (مُرْجَون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مُرْجَؤُون) وهي قراءة الباقين.

المفردات اللغوية:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون عن العقوبة، وموقوف أمرهم ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم بأن يأمر فيهم بما شاء ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بأن يميتهم بلا توبة وإما يتوب عليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه.

سبب النزول:

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وآخرون: هم الثلاثة الذين خُلِّفوا عن التوبة، وهم مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية من بني واقف، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً.

وكان المتخلفون عن غزوة تبوك أصنافاً ثلاثة(١):

١ً - المنافقون الذين مَرَدُوا على النفاق، وهم أكثر المتخلفين.

٢ً - التائبون المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا فتاب الله عليهم، وهم الذين ربطوا أنفسهم بالسواري وهم أبو لبابة وأصحابه، فنزلت توبتهم.

٣ً - الذين بقوا موقوفين وهم المؤمنون الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا إلى النبي ﷺ عن تخلفهم، وأرجؤوا توبتهم، فلم يربطوا أنفسهم بالسواري، فأرجأ الله الحكم في أمرهم، فوقف أمرهم خمسين ليلة، وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، والذين نزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة: ٩/١١٨].

التفسير والبيان:

وآخرون من المتخلفين موقوفون مرجون أي مؤخرون لأمر الله في شأنهم، ولا يدري الناسماينزل فيهم، هل يتوب الله عليهم أو لا، وقد نهى الرسول ﷺ عن مجالستهم، وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن، إلى أن نزل قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ٩/١١٨].

(١) تفسير الرازي: ١٦/١٩١

هؤلاء في هذه الآية أمرهم متردد بين أمرين: التعذيب والتوبة. وقد ترك أمرهم غامضاً، لا للشك، فالله تعالى منزه عنه، وإنما ليكون أمرهم على الخوف والرجاء، وإثارة الغم والحزن في قلوبهم، ليقدموا على التوبة، ويصير أمرهم عند الناس على الرجاء، فجعل أناس يقولون: هلكوا إذا لم ينزل الله تعالى لهم عذراً، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم.

ولا شك أن القوم كانوا نادمين على تأخرهم عن الغزو، فلم يحكم تعالى بكونهم تائبين؛ لأن الندم وحده لا يكون كافياً في صحة التوبة، ثم ندموا على المعصية لكونها معصية، فصحت توبتهم.

والله عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، وبما يصلح عباده ويربّيهم، حكيم في أفعاله وأقواله، وفيما يشرعه لهم من الأحكام المؤدية لهذا الصلاح. ومن حكمته: إرجاء النص على توبتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن الحكمة الإلهية قد تقتضي البت في شأن بعض العباد، وقد ترجئ ذلك، ليظل الناس في أمل ورجاء ورهبة وخوف، وقد أثمرت هذه الحكمة في دفع هؤلاء المخلفين عن التوبة إلى مزيد من الشعور بالقلق والاضطراب والخوف والهلع، وكادوا يحسون باليأس من قبول عذرهم، حتى أنزل الله في شأنهم مايدل على قبول توبتهم في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه لا حكم إلا أحد هذين الأمرين، وهو إما التعذيب وإما التوبة. أما العفو عن الذنب من غير توبة فغير معتبر.

مسجد الضِّرار (مسجد المنافقين) ومسجد التّقوى (مسجد قباء)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (الذين اتخذوا).

﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (أُسِّس).

﴿جُرُفٍ﴾: قرئ:

١- (جُرْف) وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، وخلف.

٢- (جُرُف) وهي قراءة الباقين.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾: قرئ:

١- (إلا أن تَقَطَّع) وهي قراءة ابن عامر، وحفص، وحمزة.

٢- (إلا أن تُقَطَّع) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ عطف على ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ أو مبتدأ، وخبره: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾، أو خبره محذوف، أي وفيمن وصفنا أو ممن ذكرنا الذين اتَّخذوا، أو كما رجح أبو حيان منصوب على الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٢] .

﴿ضِرَارًا﴾ إما منصوب على المصدر أي مضارّة للمؤمنين، وإما مفعول به، وما بعده من المنصوبات عطف عليه .﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بحارب أو باتَّخذوا، أي اتَّخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتَّخلف، لما روي أنه بني قبيل غزوة تبوك.

﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ فيه مضاف محذوف، تقديره: من تأسيس أول يوم؛ لأن ﴿مِنْ﴾ لا تدخل على ظروف الزمان. ويرى الكوفيون أنها تدخل على ظروف الزمان، فلا تحتاج إلى تقدير مضاف.

﴿هَارٍ﴾ صفة، أصله هائر، فقلب، كما قالوا: لاثٍ في لائث، وشاكٍ في شائك. وحذفت الياء كما حذفت في نحو قاضٍ ورامٍ في الرّفع والجرّ.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ من: بمعنى الذي مبتدأ، وخبره: ﴿خَيْرٌ﴾.

البلاغة:

﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ استعارة مكنية، حيث شبهت التّقوى

والرّضوان بأرض صلبة يقوم عليها البناء، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو التّأسيس. والاستفهام معناه التّقرير.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾ مصدر أريد به اسم المفعول.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي ومنهم الذين اتّخذوا مسجد الضِّرار، وهم اثنا عشر من المنافقين. ﴿ضِرَارًا﴾مضارّة لأهل مسجد قباء، والضِّرار: إيقاع الضَّرر بالغير ولا منفعة لك فيه، والضَّرر: إيقاع الضَّرر بالغير وفيه لك منفعة. وكلاهما ممنوع للحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس: «لا ضرر ولا ضرار». ﴿وَكُفْرًا﴾ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الرّاهب، ليكون معقلاً له، يقدم فيه من يأتي من عنده، وكان ذهب ليأتي بجنود من قيصر، لقتال النَّبي ﷺ. ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يصلّون بقباء، بصلاة بعضهم فيه، أي الذين يجتمعون للصّلاة في مسجد قُباء. ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقُّباً وانتظاراً مع العداوة. ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعني من قبل بنائه، وهو أبو عامر الراهب. ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ما أردنا ببنائه. ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الفعلة أو الخصلة أو الإرادة الحسنى من الرّفق بالمسكين في المطر والحرّ والتّوسعة على المسلمين. ﴿إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في حلفهم ذلك، وكانوا سألوا النَّبي ﷺ، فنزل: ﴿لَا تَقُمْ﴾.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا تصلِّ فيه أبداً، فأرسل جماعة هدموه وحرقوه وجعلوا مكانه كُناسة تلقى فيها الجيف.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أسسه رسول الله ﷺ وصلَّى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة. والتّأسيس: وضع الأساس الأول الذي يقوم عليه البناء. ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي بني مَن أول أيام وجوده، يوم حللت بدار الهجرة، وهو مسجد قباء، كما في البخاري. والتّقوى: ما يرضي الله ويقي من

سخطه. ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أجدر بأن تقوم فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ هم الأنصار. ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي يثيبهم.

﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ مخافة من الله. ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ ورجاء رضوان منه وهذا مثال مسجد قباء. ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ طرف أو حرف أو حدّ. ﴿جُرُفٍ﴾ جانب الوادي ونحوه. ﴿هَارٍ﴾ مشرف على السقوط. ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ سقط مع بانيه. ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا تمثيل للبناء على غير التقوى بما يؤول إليه، وهو مثال مسجد الضِّرار.

﴿رِيبَةً﴾ شكّاً وحيرة. ﴿تَقَطَّعَ﴾ تنفصل وتتفرّق قلوبهم أجزاء، بأن يموتوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه بهم.

سبب النّزول:

نزول آية ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾:

قال المفسّرون: إن بني عمرو بن عوف وهم من الأوس اتّخذوا مسجد قُبَاء[١]، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسدهم إخوانهم بنو غُنْم بن عوف وهم من الخزرج، وقالوا: نبني مسجداً، ونبعث إلى النّبي ﷺ يأتينا فيصلّي لنا فيه، كما صلّى في مسجد إخواننا، ويصلّي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشّام؛ فأتوا النّبي ﷺ، وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجداً لذي الحاجة، والعِلّة، والليلة المطِيرة، ونحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة.

فقال النّبي ﷺ: «إنّي على سفر وحال شغل، فلو قدِمنا لأتيناكم، وصلّينا لكم فيه».

---

(١) لما هاجر النّبي ﷺ إلى المدينة، نزل أولاً قباء على كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف، وهم بطن من الأوس. وقباء: قرية على ميلين جنوب المدينة، وأقام بها رسول الله ﷺ من الاثنين إلى الجمعة، وأسس مسجد قباء.

فلما انصرف النَّبي ﷺ من تبوك أتوه وقد فرغوا منه، وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار.

فدعا النَّبي ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، ومَعْن بن عدي، وعامر بن السَّكَن، ووَحْشياً قاتل حمزة، فقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه».

فخرجوا مسرعين، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من منزله شعلة نار، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً.

وأما أبو عامر الراهب: فهو رجل من الخزرج، كان قد تنصَّر، وكان له منزلة كبيرة في أهل الكتاب، فلما قدم النَّبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً، واجتمع عليه المسلمون، وعلت كلمة الإسلام، خرج فارّاً إلى مكة، وألَّب المشركين على المسلمين في وقعة أُحد. ولما فرغ الناس من الموقعة فرَّ إلى هرقل ملك الرّوم يستنصره، فوعده وحباه.

وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النِّفاق: أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمداً ويغلبه، وأمرهم أن يتَّخذوا له مَعْقِلاً يأوي إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك.

والخلاصة: أن هذا المسجد بناه اثنا عشر رجلاً من المنافقين، بمشورة أبي عامر الرّاهب، ولقي هوىً في نفوس أبناء عم بني عمرو بن عوف، لينافسوهم على تأسيس مسجد قباء، ومضاهاتهم به، وليكون مقرّاً لأبي عامر إذا قدم، ليكون إمامهم فيه.

سبب نزول: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾:

أخرج التّرمذي عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم.

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال: أحدث قوم الوضوء بالماء من أهل قباء، فنزلت فيهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة، فقال: «ما هذا الطّهور الذي أثنى الله عليكم؟» فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال: مقعدته، فقال النَّبي ﷺ: «هو هذا».

وقيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ، ومعه المهاجرون، حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون، وأنا معهم، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرّخاء؟» قالوا: نعم، قال عليه الصّلاة والسّلام: «أنتم مؤمنون، وربِّ الكعبة» فجلس، ثم قال: «يا معشر الأنصار، إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء، وعند الغائط؟»، فقالوا: يا رسول الله، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء، فتلا: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أوصاف المنافقين وطرائقهم المختلفة في النِّفاق، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾.

التفسير والبيان:

ومن المنافقين الذين ذكرناهم جماعة بنوا مسجد الضِّرار بجوار مسجد قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج، لأسباب أربعة هي:

١ً - مضارّة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذي بناه النَّبي ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة.

٢ً - الكفر بالنَّبي عليه الصّلاة والسّلام وبما جاء به، وللطعن عليه وعلى الإسلام، واتِّخاذه مقرّاً للكيد والتّآمر على المسلمين، فصار مركز الفتنة، وبيت النِّفاق، ومأوى المنافقين، للتّهرُّب من أداء الصّلاة. وهذا كفر؛ لأن الكفر يطلق على الاعتقاد والعمل المنافيين للإيمان.

٣ً - التّفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلّون خلف النَّبي ﷺ في مسجد واحد، فإذا صلَّى فيه بعضهم، حدثت الفرقة، وبطلت الألفة، وتفرّقت الكلمة. لذا كان الأصل أن يصلِّي المسلمون في مسجد واحد، ويكون تكثير المساجد لغير حاجة منافياً لأغراض الدِّين وأهدافه.

٤ً - الإرصاد، أي التّرقب والانتظار لمجيء من حارب الله ورسوله إليه، ويتّخذه مقرّاً له، ومكاناً لقوم راصدين مستعدين للحرب معه، وهم المنافقون الذين بنوا هذا المسجد.

والمقصود بمن حارب الله ورسوله كما ذكر في سبب النزول: هو أبو عامر الراهب من الخزرج، والد حنظلة الذيَ غسلته الملائكة، وسماه رسول الله ﷺ: الفاسق، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وترهّب وطلب العلم، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه؛ لأنه زالت رياسته، وقال للرّسول ﷺ يوم أُحد: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم» فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزم مع هوازن، هرب إلى الشّام، ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقِنَّسرين (بلد في شمال سوريا) وحيداً. وقيل: كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب، فلما انهزموا خرج إلى الشّام.

فذهاب أبي عامر إلى هرقل كان إما بعد يوم أُحد، أو بعد يوم حنين، أو بعد يوم الأحزاب (الخندق) بحسب ما دلّت عليه الرّوايات.

وليحلفن هؤلاء المنافقون: ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهي الرّفق بالمسلمين، وتيسير صلاة الجماعة على أهل الضّعف والعجز، وفي أثناء المطر؛ ليصدقهم الرّسول ﷺ، وليصلّي معهم فيه، تغريراً لبقية المسلمين، والله تعالى يعلم أنهم لكاذبون في أيمانهم وادّعائهم، منافقون في أعمالهم، وقد أطلع رسوله بذلك، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾: أنه يعلم خبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه.

وبما أنهم بنوه للضّرر والإساءة نهى الله تعالى بوحيه إلى جبريل أن يصلّي فيه؛ والأمّة تبع له في ذلك، فقال: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ أي لا تُصَلِّ فيه أبداً، وقد يعبر عن الصّلاة بالقيام، يقال: فلان يقوم الليل، ومنه الحديث الصحيح لدى البخاري: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه». ويلاحظ استعمال الظّرف ﴿أَبَدٗاۚ﴾ الذي يستغرق الزمن المستقبل كله؛ لاتّصاله بلا النافية، فيفيد العموم.

ثم حثّه على الصّلاة في مسجد قباء لأمرين: الأول - أنه بني على التّقوى، أي الذي أسس من أول يوم بنيانه على التّقوى وهي طاعة الله وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، فقال: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي إن المسجد المؤسس على التقوى، تقوى الله، بإخلاص العبادة فيه، وجمع المؤمنين على محبة رسول الله ﷺ، والعمل على وحدة الإسلام، أولى وأحق من غيره بالصّلاة فيه أيها الرّسول.

والمراد به كما جاء في صحيح البخاري، وكما دلّ عليه السياق والقصة: مسجد قباء، لهذا جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة».

لكن روى أحمد ومسلم والنسائي أنّ النّبي ﷺ سئل عنه، فأجاب بأنه مسجده الذي في المدينة. ولا مانع من إرادة المسجدين؛ لأن كلّاً منهما قد بني على التّقوى، من أول يوم بدئ ببنائه.

الثاني - إن في هذا المسجد رجالاً يحبّون أن يتطهّروا طهارة معنوية: وهي التّطهُّر عن الذّنوب والمعاصي، وطهارة حسية للثوب والبدن بالوضوء والاغتسال، وبالماء بعد الحجر في الاستنجاء، وهذا النوع الأخير هو قول أكثر المفسّرين، والأولى إرادة نوعي التّطهُّر.

والله يحبّ المطّهّرين، أي المبالغين في الطّهارة الرّوحية المعنويّة والجسديّة البدنيّة، وهؤلاء هم الكمل بين النّاس. قال البيضاوي: فيه رجال يحبّون أن يتطهَّروا من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله، وقيل: من الجنابة، فلا ينامون عليها. والله يحبّ المطهّرين: يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحبّ حبيبه.

وقال في الكشّاف: محبّتهم للتّطهُّر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحبّ للشيء المشتهي له على إيثاره، ومحبة الله تعالى إياهم: أنه يرضى عنهم، ويحسن إليهم، كما يفعل المحبّ بمحبوبه(١).

فمحبة الله عباده: معناها الرِّضا والقبول والإدناء؛ لأن الله تعالى منزه عن مشابهة صفاتنا، فحبّه غير حبّنا، وهو شيء يليق بكماله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي الذي يرويه البخاري: «ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنّوافل حتى أحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به». والحبّ في هذه الآية يشبه أيضاً حبّ الله تعالى في تطهير آل بيت النّبوة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٣] .

ثم قارن الله تعالى بين أهداف بناء المسجدين فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ أي لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، أي على

---

(١) الكشاف: ٢/٥٨

أساس متين نافع في الدُّنيا والآخرة، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جُرُف هارٍ، أي ساقط، وجرُف: جانب الوادي الذي ينحفر بالماء، والمعنى: على طرف حفرة أو واد، أي أساس ضعيف منهار، مشرف على السقوط، فإذا انهار فإنما ينهار في قعر جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين أي لا يصلح عمل المفسدين، ولا يوفقهم إلى الحق والعدل والسّداد والصّواب وما فيه صلاحهم ونجاتهم.

قال الرّازي[1]: ولا نرى في العالم مثالاً أجدر مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال!

وحاصل الكلام أن أحد البناءين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه، والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر، فكان البناء الأول شريفاً واجب الإبقاء، وكان الثاني خسيساً واجب الهدم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قيل: إن ذلك حقيقة، أي إنه موضع من مواضع جهنم، وقيل: إنه مجاز، والمعنى: صار البناء في نار جهنم، فكأنه انهار إليه وهوى فيه.

ثم أبان الله تعالى ما يجسِّده إقامةُ المنافقين مسجد الضِّرار من معانٍ سيئة ثابتة راسخة على ممرّ التاريخ، فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾ أي لا يزال بناؤهم هذا وهدمه سبب شكهم في الدِّين، وتزايد نفاقهم؛ لأنه يجسِّد آثار النِّفاق والكفر، فقد أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبّه، وأصبح وسمه لا يزول عن قلوبهم، فلا يزال هذا شأنهم في جميع الأحوال إلا في حال تقطع قلوبهم أجزاءً، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك، أي بموتهم، وهو في غاية المبالغة، والاستثناء من أعم الأزمنة.

---

(١) تفسير الرّازي: ١٦/١٩٧

والمراد أن هذا البناء الذي فرحوا به مصدر استلهام الشّكوك في الدِّين، ومظهر تجسيد الكفر والنِّفاق الجاثم في نفوسهم، فحينما أمر النَّبي ﷺ بهدمه، ثقل ذلك عليهم، وازداد بغضهم له، وازداد ارتيابهم في نبوّته، وعظم خوفهم، وارتابوا في أمرهم: هل سيُتركون أو يُقتلون؟ فكان ذلك البنيان نفسه ريبة، لكونه سبباً للرِّيبة، وظهرت سببيّته للرِّيبة بتخريبه وهدمه.

والله عليم بأعمال خلقه، حكيم في مجازاتهم عنها من خير أو شرّ، ومن حكمته تبيان حال المنافقين وإظهار ما خفي من أمرهم، لمعرفة الحقائق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ً - من المنافقين جماعة أقاموا مسجد الضِّرار بجوار مسجد قباء لمقاصد أربعة: محاولة الضِّرار، والكفر بالنَّبي ﷺ وبما جاء به، وتفريق جماعة المؤمنين، واتِّخاذه معقلاً لمن عادى الله ورسوله.

والمقصود في الضِّرار بالمسجد من أهله، وليس لذات المسجد ضرار.

٢ً - كانت أيمانهم على حسن النِّيّة، وسلامة القصد كاذبة.

٣ً - قال المالكية: كل مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصّلاة فيه. ولا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه والمنع من بنائه، لئلا ينصرف أهل المسجد الأول، فيبقى شاغراً، إلا إذا كانت البلدة كبيرة، وأهلها كثيرون، ولم يعد يكفيهم مسجد واحد، فيبنى حينئذٍ. ولا ينبغي أن يبنى في البلد الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثاني؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجْزه[١].

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٥٤

٤ً - قال العلماء: إن من كان إماماً لظالم لا يصلَّ وراءه، إلا أن يظهر عذره أو يتوب، فإن عمر بن الخطّاب في خلافته لم يأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلِّي إماماً في مسجد قباء؛ لأنه كان إمام مسجد الضِّرار، ثم أذن له لمّا تبيَّن أنه كان جاهلاً بما أضمر عليه المنافقون.

٥ً - إذا كان المسجد الذي يتّخذ للعبادة يُهدم إذا كان فيه ضرر بغيره، فكل ما فيه ضرر يزال ويهدم، كمن بنى فُرْناً أو رحىً أو حفر بئراً أو غير ذلك مما يُدخل به الضَّرر على الغير. والضابط: أن من أدخل على أخيه أو جاره ضرراً مُنع، وهذا ما يسمَّى حديثاً عند القانونيين: نظرية التّعسُّف في استعمال الحقّ. وقد سبق فقهاء المالكية وغيرهم إلى تقرير هذه النّظرية.

٦ً - الكفر العملي: قال ابن العربي: لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُباء ولا لمسجد النَّبي ﷺ، كفروا بهذا الاعتقاد.

٧ً - دلّ قوله تعالى: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنّ المقصد الأسمى من وجود الجماعة تأليف القلوب واتّحادهم على الطّاعة، حتى يأنسوا بالمخالطة، وتصفو القلوب من الأحقاد.

واستنبط مالك من هذه الآية: أنه لا تصلَّ جماعتان في مسجد واحد بإمامين، خلافاً لسائر العلماء.

٨ً - دلّ قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، على أن الأفعال تختلف باختلاف المقصود والإرادة.

٩ً - تحريم الصّلاة في مسجد الضِّرار؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعني مسجد الضِّرار.

١٠ً - أحقيّة مسجد التّقوى بالصّلاة فيه، والتّقوى: هي الخصال التي تُتّقى بها العقوبة.

١١ - ترغيب الإسلام بالنّظافة المعنوية (السّلامة من الأحقاد وصفاء النّفس وصحّة الإيمان) والنظافة البدنيّة (بالوضوء والاغتسال وإزالة النّجاسة عن الثَّوب والبدن والمكان) لأن الله تعالى في هذه الآية أثنى على من أحبَّ الطَّهارة وآثر النَّظافة.

وللعلماء في إزالة النّجاسة ثلاثة أقوال:

الأول - أنه واجب فرض، ولا تجوز صلاة من صلَّى بثوب نجس، عالماً كان أو ساهياً، وهو قول الشّافعي وأحمد، وروي عن مالك.

الثاني - إن كانت النّجاسة قدر الدّرهم أعاد الصّلاة. وقدر الدّرهم قياس على حلقة الدّبر. وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف.

الثالث - إزالة النّجاسة من الثياب والأبدان سنّة وليس بفرض، وهو قول آخر لمالك وأصحابه.

قال القرطبي: والقول الأول أصح إن شاء الله؛ لأنّ النّبي ﷺ - فيما يرويه البخاري ومسلم - مرّ على قبرين، فقال: «إنهما ليعذَّبان وما يعذَّبان في كبير، أما أحدهما: فكان يمشي بالنّميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله» ولا يعذّب الإنسان إلا على ترك واجب. وروى أبو بكر بن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال: «أكثر عذاب القبر من البول».

واحتجّ الآخرون بخلع النَّبي ﷺ نعليه في الصّلاة لما أعلمه جبريل عليه السّلام أنّ فيهما قذراً وأذىً[١]. ولما لم يعد ما صلَّى دلّ على أنّ إزالة النّجاسة سنّة، وصلاته صحيحة، ويعيد ما دام في الوقت، طلباً للكمال.

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

١٢ً - دلّت آية: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ على أن كل شيء ابتدئ بنيّة تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم، هو الذي يبقى، ويسعد به صاحبه، ويصعد إلى الله ويرفع إليه: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/٤٦].

١٣ً - كان مسجد الضِّرار سبباً لريبة المنافقين، فإنهم لما بنوه عظم فرحهم به، ولما أمر الرّسول ﷺ بتخريبه، ثقل ذلك عليهم، وازداد بغضهم له، وزاد ارتيابهم في نبوّته. وظلّ ذلك الرَّيب في قلوبهم حتى الموت.

صفات المؤمنين الصادقين الكمل
وهم المجاهدون التائبون العابدون

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

القراءات:

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (فيُقتَلون ويقتُلون).

﴿وَالْقُرْآنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (والقران).

الإعراب:

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ إما بدل من واو ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم التائبون، أو مبتدأ وخبره: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ﴾ وما بعده.

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف.

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ استعارة تبعية، شبه بذلهم الأنفس والأموال وإثابتهم عليها بالجنة بالبيع والشراء. ولا يجوز أن يشتري الله شيئاً في الحقيقة؛ لأن الله مالك لكل شيء. ولهذا قال الحسن: اشترى أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها.

﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ بينهما جناس ناقص، لاختلاف الشكل.

﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب.

﴿ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ أي المصلون، فيه مجاز مرسل، من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الإظهار في موضع الإضمار أي بشرهم للتكريم والاعتناء بهم، وللتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل: من اتصف بتلك الصفات.

المفردات اللغوية:

﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بأن يبذلوها في طاعته كالجهاد، وهذا تمثيل مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ٢/١٦و ١٧٥].

﴿يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملة استئناف بيان للشراء .﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ

بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا أحد أوفى منه .﴿وَذَٰلِكَ﴾ المبيع .﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ المحقق غاية المطلوب.

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ المخلصون العبادة لله .﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ له على كل حال. ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون .﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ المصلون .﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ لأحكامه بالعمل بها .﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالجنة.

سبب النزول:

نزلت هذه الآية لما بايع الأنصار - وكانوا سبعين رجلاً - رسول الله ﷺ في البيعة الثانية، وهي بيعة العقبة الكبرى، وكان أصغرهم سِنّاً عقبة بن عمرو. أخرج ابن جرير عن عبد الله بن رَوَاحة قال لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: «أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا نُقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن أوضح الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأبان أصناف المقصّرين من المؤمنين، ذكر حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، وأولها الجهاد في سبيل الله.

التفسير والبيان:

هذه الآية تمثيل قصد به الترغيب في الجهاد، عبَّر فيه تعالى عن بذل المؤمنين أنفسهم وأموالهم وإثابتهم بالجنة، كرماً وفضلاً وإحساناً، عبر عن ذلك بالشراء والمعاوضة، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له. قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

والمعنى: إن الله تعالى اشترى من المؤمنين الأنفس والأموال بثمن هو الجنة، أي مثّل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بصفقة الشراء. ثم استأنف بيان ما لأجله تم الشراء، وكيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقال: يقاتلون في سبيل الله فيقتلون الأعداء، أو يستشهدون في سبيل الله، فسواء قَتَلوا أو قُتلوا أو اجتمع الأمران، فقد وجبت لهم الجنة.

ثم أكد الله تعالى وعده وإخباره بقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ أي وعدهم بذلك وعداً أوجبه على نفسه وجعله حقاً ثابتاً مقرراً فيما أنزله على رسله في التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وضياع التوراة والإنجيل وتحريفهما لا ينفي وقوع ذلك، فقد أثبته الله في القرآن الذي جعله مصدقاً لتلك الكتب ومهيمناً عليها.

ومن أوفى بعهده من الله؟ أي لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤/ ٨٧] وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٢].

وهذا مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً.

وإذا كان الوفاء بالعهد مؤكداً على هذا النحو، فأظهروا غاية السرور والفرح على ما فزتم به من الجنة، ثواباً من الله وفضلاً وإحساناً على بذلكم أنفسكم وأموالكم لله. وذلك الفوز هو الفوز العظيم والنعيم المقيم الذي لا فوز أعظم منه.

وهؤلاء المؤمنون المذكورون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله هم التائبون عن الكفر حقيقة، الراجعون إلى الله، بتركهم كل ما ينافي مرضاته، والتوبة تختلف باختلاف نوع المعصية، فالتوبة عن الكفر بالرجوع عنه، وتوبة المنافق بترك نفاقه، وتوبة العاصي: بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم

العود لمثله في المستقبل، وتوبة المقصر في شيء: بالتعويض عن تقصيره، وتوبة الغافل عن ربه: بالإكثار من ذكره وشكره.

وهم العابدون: الذين عبدوا الله مخلصين له الدين، الحامدون لنعمائه، أو لما نالهم من السرّاء والضراء، قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا أتاه الأمر يسرُّه قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال».

السائحون في الأرض للجهاد أو لطلب العلم أو للرزق الحلال، أو الصائمون، لقوله ﷺ فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة: «السائحون هم الصائمون» لأنه يعوق عن الشهوات واللذات، كما أن السياحة كذلك غالباً، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت.

الراكعون الساجدون أي المؤدون صلواتهم المفروضة، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما ولما فيهما من الدلالة على التذلل والتواضع لله تعالى.

الآمرون بالمعروف أي الداعون إلى الإيمان والطاعة، والناهون عن المنكر أي عن الشرك والمعاصي. والعاطف الواو هنا للدلالة على أنهما في حكم خصلة واحدة، كأنه قال: الجامعون بين الوصفين.

والحافظون لحدود الله أي الحافظون لفرائض الله وشرائعه وأحكامه، وهذا مجمل الفضائل، وما قبله مفصل لها، فمن اتصف بتلك الصفات كان حافظاً حدود الله. وذكرت الواو هنا لقربه من المعطوف عليه وهو: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. وقيل: إنها زائدة، وهذا ضعيف لا معنى له.

وجزاؤهم المعبر عنه بقوله: بشر أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الفضائل بخيري الدنيا والآخرة. وحذف المبشر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - إن ثواب الجهاد في سبيل الله بالمال أو النفس أو بهما معاً هو الجنة. وقد دل الله تعالى على هذا المعنى من طريق المجاز، بتمثيل المبذول وعوضه بصفقة بيع وشراء، فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنوال. وأكد تعالى منحه الثواب والجنة بمؤكدات عشرة هي: كون المشتري هو الله، وإيصال الثواب بالبيع والشراء، وذلك حق مؤكد، وقوله: وعداً، ووعد الله حق، وإثباته في الكتب الكبرى: التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا يتضمن إشهاد جميع الكتب وجميع الرسل والأنبياء على هذه المبايعة، وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ وهو غاية في التأكيد، وقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ وهو أيضاً مبالغة في التأكيد، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢ - قال العلماء: كما اشترى من المؤمنين البالغين المكلفين، كذلك اشترى من الأطفال، فآلمهم وأسقمهم، لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبالغين، لأن هؤلاء يكونون أكثر صلاحاً وأقل فساداً عند ألم الأطفال، ثم يعوض الله عز وجل هؤلاء الأطفال عوضاً حسناً.

٣ - القتال في سبيل الله وحده ومن أجل مرضاته هو المستحق لهذا الجزاء وهو الجنة.

٤ - تشريع الجهاد أو مقاومة الأعداء قديم من عهد موسى عليه السلام.

٥ - لا أحد أوفى بعهده من الله، وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد، لكن وعده للجميع، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين، وببعض الذنوب، وفي بعض الأحوال.

٦ - قال الحسن عن آية: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ﴾: والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة.

٧ - آية ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ ذكرت أوصافاً تسعة، بعد صفة المجاهدين، فتكون أوصاف المؤمنين الكمل عشرة، والآيتان مرتبطتان ببعضهما، لا مستقلتان. قال ابن عباس: لما نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيةَ، قال رجل: يا رسول الله، وإن زنى، وإن سرق، وإن شرب الخمر، فنزلت ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الآية[1].

والأوصاف التسعة هي: الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله، المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه، والراضون بقضاء الله، المصرفون نعمته في طاعته، الذين يحمدون الله على كل حال، الصائمون، وسمي الصائم سائحاً لأنه يترك اللذات كلها من المطعم والمشرب والمنكح. وقال عطاء: السائحون المجاهدون.

و ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ في الصلاة المكتوبة وغيرها ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالإيمان أو بالسنة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من الكفر والبدعة والمعصية ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي القائمون بما أمر به، والمنتهون عما نهى عنه.

هذه أوصاف المؤمنين الكَمَلة، ذكرها الله، ليتسابق المؤمنون في الاتصاف بها.

٨ - الحافظون لحدود الله تشمل جميع التكاليف الشرعية، سواء ما يتعلق منها بالعبادات أو بالمعاملات. وأما تفصيل الصفات التسع قبلها، فلأنها أمور تلازم المكلف غالباً.

---

(١) البحر المحيط: ١٠٣/٥

٩ - قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتنبيه على أن البشارة المذكورة لم تتناول إلا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات.

الاستغفار للمشركين
وشرط المؤاخذة (العقاب) على الذنوب

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

القراءات:

﴿لِلنَّبِيِّ﴾:

وقرأ نافع: (للنبيء).

البلاغة:

﴿لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ بينهما طباق. وكذلك بين ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾ يطلبوا المغفرة. ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ ذوي قرابة. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ النار، بأن ماتوا على الكفر. ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ بقوله:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧/١٩] رجاء أن يسلم. ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الكفر. ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ وترك الاستغفار له. ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ كثير التضرع والتأوه والدعاء. ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى لا يغضب. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع معاداته له ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ ليسميهم ضلالاً أو يؤاخذهم.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام. ﴿مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ من العمل أي يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، فإذا لم يتقوه استحقوا الإضلال. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم كل شيء، ومنه مستحق الإضلال والهداية.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من غيره. ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظكم منه. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعكم من ضرره.

سبب النزول:

أخرج أحمد والشيخان وابن أبي شيبة وابن جرير وغيرهم من طريق سعيد ابن المسيب عن أبيه، قال: لما حضر أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم: قل: لا إله إلا الله، أُحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى آخر شيء كلمهم به: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك، ما لم أُنْهَ عنك، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية. وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦/٢٨].

وظاهر هذا أن الآية نزلت بمكة؛ ولأن أبا طالب مات بمكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين. ونظراً لأن هذه السورة مدنية، فقد استبعد بعض العلماء أن تكون نزلت في أبي طالب.

وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر

لأبويه، وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك، وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه، وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل وغيرهما عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكيت لبكائه، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها، فلم يأذن لي، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وأخرج أحمد وابن مردويه، واللفظ له، من حديث بريدة قال: كنت مع النبي ﷺ، إذ وقف على عُسْفان، فأبصر قبر أمه، فتوضأ وصلى وبكى، ثم قال: استأذنت ربي أن أستغفر لها، فنهيت، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها، فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكّركم الموت».

دلت الروايات على أن سبب النزول أبو طالب أو أم النبي، أو رجل مسلم يستغفر لأبويه.

قال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون لنزول الآية أسباب: متقدم، وهو أمر أبي طالب، ومتأخر، وهو أمر آمنة، وقصة علي وجمع غيره بتعدد النزول.

المناسبة:

كان موضوع سورة التوبة من أولها إلى هنا إعلان البراءة من الكفار

والمنافقين في جميع الأحوال، ثم بيَّن هنا أنه تجب البراءة أيضاً من أمواتهم، وإن كانوا أقرب الناس إلى الإنسان كالأب والأم، كما وجبت البراءة من أحيائهم. والمقصود بيان وجوب مقاطعتهم في الحالات كلها.

التفسير والبيان:

ما ينبغي للنبي والمؤمنين، وليس من شأنهم أن يستغفروا أو يدعوا الله بالمغفرة للمشركين، أو معناه ليس لهم ذلك على معنى النهي[1]؛ لأن النبوة والإيمان مانعان من الاستغفار للمشركين، ولا تستغفروا، والمعنيان متقاربان، وسبب المنع قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ٩/١١٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤/١١٦] .

والمنع حتى ولو كانوا من أقرب المقربين، قياماً بحق البر والصلة والشفقة عليهم.

من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار، بأن ماتوا على الكفر، أي أن العلة المانعة من هذا الاستغفار هو تبين كونهم من أصحاب النار، وهذه العلة لا تفرِّق بين الأقارب والأباعد. قال البيضاوي: وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان، وبه دفع النقض باستغفار إبراهيم لأبيه الكافر، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ﴾.

أما استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر بقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٦] أي وفقه للإيمان، فكان بسبب صدور وعد

(١) قال أهل المعاني: ﴿مَا كَانَ﴾ في القرآن يأتي على وجهين: على النفي نحو قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٠] والآخر بمعنى النهي كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣] وكهذه الآية.

سابق على المنع، إذ قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧/١٩] أي لا أملك إلا الدعاء لك. وكان من خلق إبراهيم الوفاء: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧/٥٣] .

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه فيه بأنه لن يؤمن، تبرأ منه، وقطع استغفاره له، إن إبراهيم لأوَّاه أي لكثير التأوه والتحسر، أو لكثير التضرع والدعاء، كما قال ﷺ: «الأواه: الخاشع المتضرع» وهو كناية عن فرط رحمته، ورقة قلبه، حليم: صبور على الأذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له، مع معاداته له وسوء خلقه معه، بدليل أنه أي آزر قال لإبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦/١٩] .

ثم رفع الله تعالى المؤاخذة عن الذين استغفروا للمشركين قبل نزول آية المنع هذه، وبيَّن أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم أنه يجب عليهم أن يتقوه ويحترزوا عنه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ﴾ أي وما كان من سنة الله في خلقه ولا في رحمته وحكمته أن يصف قوماً بالضلال أو يؤاخذهم مؤاخذة الضالين، بعد إذ هداهم للإسلام حتى يبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من الأقوال والأفعال. وهذا يدل على أنه تعالى لا يعاقب إلا بعد التبيين، وإزالة العذر.

إن الله تعالى عليم بكل شيء، وبأحوال الناس وحاجتهم إلى البيان، وكأن هذا بيان عذر للرسول في قوله لعمه أو لمن استغفر له قبل المنع. وفي هذا دلالة على أن الغافل الذي لم تبلغه رسالة نبي غير مكلف. وبناء عليه، يستبعد أن يكون سبب نزول الآية الاستغفار لأم الرسول ﷺ؛ لأنها ماتت قبل البعثة في عهد الفترة الجاهلية، التي انقطعت فيها النبوة بعد عيسى عليه السلام، ولم يعد هناك مجال للتعرف على الدين الحق، لاختلاط الأمور.

وبعد أن أمر الله تعالى بالبراءة من الكفار، بَيَّنَ أن النصر لا يكون إلا من عنده؛ لأن له ملك السماوات والأرض، فإذا كان هو الناصر لكم، فهم لا يقدرون على إضراركم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ﴾ أي إنه تعالى مالك كل موجود، ومتولي أمره، والغالب المهيمن عليه بيده الأمر كله، يحيي ويميت، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتبرؤوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه، ولا تهمنكم القرابة والصلة الذين هم أولياء مناصرون لكم عادة، فما لكم ولي ولا نصير غير الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ً - تحريم الدعاء لمن مات كافراً، بالمغفرة والرحمة، أو بوصفه بذلك، كقولهم: المغفور له، والمرحوم فلان، كما يفعل بعض الجهلة.

٢ً - قطع الموالاة مع الكفار حيِّهم وميِّتهم؛ فإن الله لم يسمح للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز. وأما دعاء النبي ﷺ يوم أحد حين كسروا رَباعيته وشجّوا وجهه: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» فإنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء، كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم، أو أن هذا الدعاء كان قبل نزول سورة التوبة التي هي من آخر ما نزل من القرآن. وحديث مسلم عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

٣ً - لا حجة للمؤمنين في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَة (وعد). والواعد: إما أبو إبراهيم، فإنه وعده أن يؤمن، قال ابن عباس: كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله،

ويخلع الأنداد، فلما مات على الكفر، علم أنه عدو الله، فترك الدعاء له. وقوله: ﴿إِيَّاهُ﴾ ترجع إلى إبراهيم، والواعد أبوه. أو أن يكون الواعد هو إبراهيم، أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له، رجاء إسلامه، فلما مات مشركاً تبرأ منه. ودل عليه قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧/١٩] . أي أن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار قبل أن يتبين الكفر منه، وأملاً في إسلامه، فلما تبين له الكفر منه، تبرأ منه.

٤ً - يحكم على الإنسان بظاهر حاله عند الموت، فإن مات على الإيمان حكم له به، وإن مات على الكفر حكم له به، وربك أعلم بباطن حاله.

٥ً - لا عقوبة إلا بنص، ولا مؤاخذة إلا بعد بيان، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾.

٦ً - تدل هذه الآية أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ على أن المعاصي سبب للضلالة والهلاك، وطريق إلى ترك الرشاد والهدى.

٧ً - الله مالك الملك، وبيده مقاليد السماوات والأرض، فالنصر منه وحده، لا من الأقارب أو الأباعد.

التوبة على أهل تبوك وعلى الثلاثة المخلفين والصدق

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

القراءات:

﴿كَادَ يَزِيغُ﴾ : قرئ:

١- (كاد يزيغ) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٢- (كاد تزيغ) وهي قراءة الباقين.

﴿رَءُوفٌ﴾ : قرئ:

١- (رؤف) وهي قراءة أبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (رؤوف) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿كَادَ يَزِيغُ﴾ اسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿يَزِيغُ﴾ خبرها، وهي تفسير لضمير الشأن، وجاز إضمار الشأن في ﴿كَادَ﴾ دون (عسى) لأنها أشبهت (كان) الناقصة، فإنها لا تستغني عن الخبر، بخلاف (عسى) فإنها قد تستغني عن الخبر إذا وقعت (أن) بعدها. ويجوز أن يكون اسمها ضمير القوم أصحاب النبي، وتقديره: كاد قَبيلٌ يزيغ، وضمير ﴿مِّنْهُمْ﴾ عائد على هذا الاسم.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ معطوف على ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ في الآية السابقة، وتقديره: لقد تاب الله على النبي وعلى الثلاثة.

البلاغة:

﴿ضَاقَتْ﴾ و﴿رَحُبَتْ﴾ بينهما طِباق.

﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أدام توبته. ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾ الشدة والضيق، و﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عسرة من الركائب والزاد، حتى قيل: إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة، والعشرة تعتقب على بعير واحد، واشتد الحر حتى شربوا الفرث. ﴿يَزِيغُ﴾ يميل عن اتباع النبي إلى التخلف، لما هم فيه من الشدة. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالثبات.

وكرر للتأكيد والتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: الرفق بالضعيف، والرحمة: السعي في إيصال المنفعة. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع. ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خلّف وأخر أمرهم مدة، فإنهم المرجون لأمر الله، ثم تاب عليهم بعدئذ. ﴿رَحُبَتْ﴾ أي مع رحبها أو برحبها، أي سعتها، فلا يجدون مكاناً يطمئنون إليه، وأعرض الناس عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بتأخير توبتها، فلا يسعها سرور ولا أُنس. ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أيقنوا أو علموا. ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أن: مخففة، أي ألا ملجأ من سخطه أي لا ملاذ ولا معتصم. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وفقهم للتوبة. ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك معاصيه. ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الإيمان والعهود بأن تَلْزمُوا الصدق.

سبب النزول:

روى البخاري وغيره عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة غزاها إلا بدراً، حتى كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزوة، وآذن الناس بالرحيل... فأنزل الله توبتنا: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: وفينا نزل أيضاً: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

المناسبة:

بعد أن استقصى الله تعالى في شرح أحوال غزوة تبوك، وأحوال المتخلفين عنها، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها، وهذا أسلوب القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد، للتأثير على النفس، وتجديد الذكرى، ومنع اليأس في التلاوة.

والآية مناسبة لما قبلها في النهي عن الاستغفار للمشركين، وكان ذلك من النبي ﷺ خلاف الأولى، كما كان من بعض الصحابة زلات، فذكر تعالى أنه تفضل عليهم وتاب عليهم في تلك الزلات.

التفسير والبيان:

لقد تفضل الله ورضي عن نبيه، وتاب على أصحابه المؤمنين الذين صاحبوه واتبعوه في غزوة تبوك وقت الشدة والضيق، التي تسمى غزوة العسرة، وجيشها جيش العسرة الذي جهزه عثمان وغيره من الصحابة رضي الله عنهم. فكانوا في نقص شديد من وسائط الركوب والزاد والماء، حتى إن العشرة يعتقبون البعير الواحد، ويقتسم الاثنان التمرة الواحدة، وينحرون البعير ويعتصرون الفرث الذي في كَرِشِه، ليبلّوا به ألسنتهم، بالإضافة إلى شدة الحر أو حرارة القيظ التي صادفت خروجهم لتلك الغزوة. قال جابر بن عبد الله في ساعة العسرة: عسرة الظهر (الإبل) وعسرة الزاد، وعسرة الماء.

والتوبة على النبي؛ لأنه كان قد صدر عنه ما هو خلاف الأفضل والأولى، مثل إذن المنافقين في التخلف بناء على اجتهاد منه لم يقره الله عليه؛ لأن غيره خير منه، فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، بقوله: كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود؛ دليله قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٤٣] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه.

والتوبة على الصحابة من المهاجرين والأنصار كانت بسبب تثاقل بعضهم في الخروج، أو لسماعهم للمنافقين ما يثيرونه من فتنة.

والتوبة هنا ذات معنيين: بالنسبة للنبي ﷺ تعني الرضا والعطف، وبالنسبة للصحابة تعني قبول التوبة منهم وتوفيقهم إليها.

حدثت هذه التوبة على المؤمنين من بعد ما كاد يزيغ أو يميل بعضهم عن الحق والإيمان، وهم الذين تخلفوا لغير سبب النفاق، وهم الذين عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، فقبل الله توبتهم. ومن بعد ما ارتاب بعضهم بما نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم.

ثم أكد الله تعالى التوبة عليهم، فقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه، إن ربهم رؤوف رحيم بهم، فلا يتركهم بعدما صبروا على الجهاد في سبيله، وإنما يزيل ضررهم ويوصل المنفعة إليهم. وهذا معنى الرأفة أي السعي في إزالة الضر، والرحمة أي السعي في إيصال النفع.

وفائدة تأكيد ذكر التوبة مرة أخرى تعظيم شأنهم، وإزالة الشك من نفوسهم، والتجاوز عن وساوسهم التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة.

وتاب الله أيضاً على الثلاثة الذين خُلِّفوا أي تخلفوا عن الغزو لا بسبب النفاق، وإنما كسلاً وإيثاراً للراحة والقعود. وخلفوا الغازين بالمدينة أي صاروا خلفاء للذين ذهبوا إلى الغزو وأُرجئوا وأُخِّروا عن المنافقين فلم يُقْضِ فيهم شيء، وهم المرجون لأمر الله، وهم كعب بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية الواقفي الذي نزلت فيه آية اللعان، ومُرارة بن الربيع العامري، وكلهم من الأنصار.

ووصف الله هؤلاء الثلاثة بصفات ثلاث هي:

الصفة الأولى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رُحبها وسعتها بالخلق جميعاً، خوفاً من العاقبة، وجزعاً من إعراض النبي ﷺ عنهم، ومنع المؤمنين من مكالمتهم، وأمر أزواجهم باعتزالهم، حتى بقوا على هذه الحالة خمسين يوماً أو أكثر.

والصفة الثانية:

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي ضاقت صدورهم بسبب الهم والغم، ومجانبة الأحباء، ونظر الناس لهم بعين الإهانة.

والصفة الثالثة:

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي علموا واعتقدوا ألا ملجأ ولا ملاذ من غضب الله إلا بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أنزل قبول توبتهم.

﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي ليرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته واتباع رسوله ﷺ. وهذه الأوصاف السابقة كانت دليلاً على توبتهم وصدقهم في ندمهم. إن الله كثير القبول لتوبة التائبين، وواسع الرحمة للمحسنين. وقصة قبول توبتهم تظهر فيما يأتي:

قال أكثر المفسرين: إنهم ما ذهبوا خلف الرسول عليه الصلاة والسلام، قال كعب: كان رسول الله ﷺ يحب حديثي، فلما أبطأت عنه في الخروج، قال عليه الصلاة والسلام: «ما الذي حبس كعباً؟» فلما قدم المدينة، اعتذر المنافقون، فعذرهم، وأتيته وقلت: إن كُراعي (خيلي) وزادي كان حاضراً، واحتبست بذنبي، فاستغفر لي، فأبى الرسول ﷺ ذلك.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام نهى عن مجالسة هؤلاء الثلاثة، وأمر بمباينتهم حتى أمر بذلك نساءهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وجاءت امرأة هلال بن أمية، وقالت: يا رسول الله، لقد بكى هلال، حتى خفت على بصره، حتى إذا مضى خمسون يوماً أنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وأنزل قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ فعند ذلك خرج رسول الله ﷺ إلى حجرته، وهو عند أم سلمة فقال: «الله أكبر، قد أنزل الله عذر أصحابنا» فلما صلى الفجر ذكر ذلك لأصحابه، وبشرهم بأن الله تاب عليهم، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ، وتلا عليهم ما نزل فيهم.

فقال كعب: توبتي إلى الله أن أُخرج مالي صدقة، فقال: لا، قلت: فنصفه قال: لا، قلت: فثلثه؟ قال: نعم[١].

وبعد أن نزل قوله تعالى بقبول توبة هؤلاء الثلاثة، زجر عن فعل ما مضى، وهو التخلف عن رسول الله ﷺ في الجهاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

أي اتقوا وتجنبوا ما لا يرضاه الله من مخالفة الرسول ﷺ، وكونوا مع الرسول ﷺ وأصحابه في الغزوات، ولا تكونوا متخلفين عنها، وجالسين مع المنافقين في البيوت، وكونوا في الدنيا مع الصادقين في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً، تكونوا في الآخرين مع الصادقين في الجنة.

والصدق: الثبات على دين الله وشرعه، وتنفيذ أوامره، وطاعة رسوله ﷺ، وقد استتبع صدق هؤلاء الثلاثة في ندمهم على ما فعلوا قبول الله تعالى توبتهم. وذلك مؤذن بأن الصدق في المواقف طريق النجاة والفلاح، قال النبي ﷺ فيما أخرجه البيهقي مرفوعاً: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي

(١) تفسير الرازي: ١٦/٢١٨

إلى الجنة، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، إنه يقال للصادق: صدق وبَرَّ، ويقال للكاذب: كَذَب وفجَر، وإن الرجل ليصدُق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وترك الكذب كما أوصى النبي ﷺ سبيل لترك جميع المعاصي من خمر وزنى وسرقة ونحوها.

ولا يرخص في الكذب إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته ليرضيها، كأن يقول لها: أنت أجمل الناس، وأحب الناس إلي، لا في غير ذلك كمصالح البيت والنفقة ونحوها. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ قال: «كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل يكذب في خديعة حرب، أو صلاح بين اثنين، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها». وجاء في حديث آخر أخرجه ابن عدي والبيهقي عن عمران بن حصين، وهو ضعيف: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب».

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات: التوبة والصدق.

أما التوبة فكانت شاملة عامة لكل من شارك في غزوة العسرة أو غزوة تبوك. وذلك تفضل من الله ورحمة، بعدما تعرضوا للشدائد في جميع أوقات تلك الغزوة، قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء.

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هو كقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/٢] وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٤٠/٥٥] وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن

إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأولين صفة الأنبياء(١).

وشملت هذه التوبة أيضاً الثلاثة الذين خلِّفوا عن هذه الغزوة، أي أرجئوا وأخِّروا عن المنافقين، فلم يقض فيهم بشيء، وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخّر النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن. وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما. قال كعب فيما رواه مسلم: كنا خلفنا أيها الثلاثة الذين خُلِّفْنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه؛ فبذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا تخلُفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه(٢).

والأوصاف الثلاثة التي وصفهم بها القرآن دليل على صدقهم في التوبة. لذا أمر تعالى بالصدق بعد هذه الأوصاف، وهو خطاب لجميع المؤمنين يأمر فيه تعالى التزام مذهب الصادقين وسبيلهم.

والآية هذه توجب الصدق، وهو أمر حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق، وأبعدهم عن منازل المنافقين، وهي دالة على فضل الصدق، وكمال درجته.

ولا شك بأن التوبة النصوح من أخص أحوال الصدق، فما على العاقل المتقي إلا ملازمة الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأفعال، والصفاء في الأحوال، ومن اتصف بذلك صار مع الأبرار، وحظي برضا الإله الغفار.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٦١

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٩٩

موقفا صدق وإيمان للمقارنة مع المتخلفين:

الأول - عن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأ به، فحمل متاعه على ظهره، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده: كن أبا ذر! فقال الناس: هو ذاك، فقال: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

والثاني - أن أبا خيثمة الأنصاري بلغ بستانه، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورُطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح، ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب، فقال: كن أبا خيثمة! فكان، ففرح به رسول الله ﷺ، واستغفر له[1].

فرضية الجهاد على أهل المدينة والأعراب وثوابه

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

الإعراب:

﴿وَادِيًا﴾ مفعول به، وهو اسم منقوص كقاضٍ، ودخلته الفتحة في النصب لخفتها، وجمعه أودية، وليس في كلام العرب فاعل جمعه أفعلة غيره.

(١) الكشاف: ٢/ ٦١ - ٦٢

البلاغة:

﴿يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ بينهما جناس اشتقاقٍ، وكذلك ﴿يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ .﴿صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا غزا ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد، والرغبة الأولى: المحبة والإيثار، والثانية: الكراهة، وهو نهي بلفظ الخبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي النهي عن التخلف ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿ظَمَأٞ﴾ عطش ﴿نَصَبٞ﴾ تعب ﴿مَخۡمَصَةٞ﴾ جوع ﴿يَغِيظُ﴾ يغضب ﴿نَّيۡلًا﴾ أسراً أو قتلاً أو أخذ مال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ إلا استوجبوا به الثواب والجزاء عليه ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أجرهم على إحسانهم، بل يثيبهم، وهو تنبيه على أن الجهاد إحسان، أما في حق الكفار فلأنه سعي في تكميلهم بأقصى ما يمكن كشرب المريض الدواء المرّ، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ﴾ أي في الجهاد ولو مثل التمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ مثل إنفاق عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة ﴿وَادِيًا﴾ في مسيرهم، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل، والمراد أي أرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ أثبت لهم ذلك ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أو أحسن جزاء أعمالهم.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالصدق في متابعة الرسول في جميع الغزوات، أكد هنا ذلك، فنهى عن التخلف عنه، وأبان حسن الجزاء على الجهاد.

التفسير والبيان:

يعاتب الله تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، ورغبتهم بأنفسهم عن مشاركته في المشاق التي تعرض لها، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي ما كان ينبغي لأهل المدينة المؤمنين، ومن حولهم من قبائل العرب المجاورة لها؛ كمزَينة وجُهَيْنة وأشجع وغِفار وأسْلم، التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، بل عليهم أن يصحبوه، فإن النفير كان فيهم، وخص هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم، وأنهم أحق بذلك من غيرهم، بل إن المراد من النص النهي عن التخلف، والتوبيخ عليه؛ لأن المتخلف يؤثر نفسه على نفس رسول الله ﷺ التي لابد من إيثارها وحبها أكثر من حب النفس.

وظاهر هذه الألفاظ وجوب الجهاد على كل هؤلاء إلا أصحاب الأعذار بدليل العقل، وبقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦] وقوله أيضاً: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٢٤/٦١] ولا يقصد بهذا وجوب الجهاد عيناً على كل واحد، فقد دل الإجماع على أن الجهاد فرض كفاية، فيكون مخصوصاً من هذا العموم، ويكون المنصوص عليهم هم المقصودين بالنص العام.

ولا يصح لهؤلاء إيثار أنفسهم على نفس الرسول ﷺ، فلا يرضوا لأنفسهم بالدعة والراحة، ورسول الله ﷺ في المشقة.

لم يكن لهم حق التخلف، بل يجب عليهم الاتباع والجهاد، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم - من معاناة ومكابدة ومشاق كالعطش والتعب والجوع والألم في سبيل الله، ووطء جزء من أرض الكفر يغيظ الكفار، والنيل من الأعداء بالأسر أو القتل أو الهزيمة أو الغنيمة - يستوجب الثواب الجزيل المكافئ لما قدموه وزيادة، وذلك مما يوجب المشاركة في الجهاد، إن الله لا

يضيع أجر المحسنين، أي لا يدع له شيئاً من الثواب على إحسانه إلا كافأه به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠] .

وكذلك لا ينفق هؤلاء المجاهدون (الغزاة)[١] في سبيل الله نفقة صغيرة ولا كبيرة، أي قليلاً ولا كثيراً، ولا يقطعون وادياً، أي في السير إلى الأعداء، إلا أثبت لهم الجزء الأوفى، ليجزيهم الله أحسن الجزاء على عملهم؛ لأن الجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمة الإسلام، وصون الإيمان، وحفظ الأوطان، وما ترك قوم الجهاد إلا ذُلوا واستُعبدوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - فرضية الجهاد ووجوبه على أهل المدينة وقبائل العرب المجاورة لها، بسبب كون المدينة عاصمة الإسلام، وكونهم سكانها، وجيران الرسول ﷺ، ويصيبهم مباشرة ما أصابه من مجد أو خير أو نصر أو غير ذلك.

٢ - لا يصح لمؤمن إيثار نفسه على نفس الرسول ﷺ؛ لأن الإيمان لا يكمل إلا بأن يحب الرسول ﷺ أكثر مما يحب نفسه.

٣ - إن كل ما يتعرض له المجاهد من مكابدة ومتاعب في السفر للجهاد يثاب عليه ثواباً جزيلاً.

٤ - إن في الجهاد إحساناً، سواء في حق الأعداء؛ لأنه قد ينقلهم من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام، وفي حق المسلمين؛ لأنهم يصونون به الحرمات: حرمة الدين والإيمان، وحرمة البلاد والأوطان والأموال والأعراض، ويحققون به العزة والمجد والكرامة.

---

(١) الغزو والجهاد والحرب كلها بمعنى واحد في اللغة.

٥ً - تستحق الغنيمة بمجرد الاستيلاء، كما قال الشافعي؛ لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بمثابة النَّيْل من أموالهم، وإخراجهم من ديارهم، وهو الذي يغيظهم، ويدخل الذلّ عليهم، فهو بمثابة نيل الغنيمة والقتل والأسر.

٦ً - إن هذه الآية منسوخة بالآية التالية بعدها: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ وإن حكمها كان في حال قلة المسلمين، فلما كثروا نُسخت، وأباح الله التخلف عن الجهاد مع الحكام لمن شاء. قال قتادة: كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر؛ فأما غيره من الأئمة والولاة، فلمن شاء أن يتخلف خَلْفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. قال القرطبي: قول قتادة حسن، بدليل غزاة تبوك.

أما المعذورون الباقون في المدينة فلهم مثل أجر العاملين المجاهدين؛ لما روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً، ماسِرْتم مَسِيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر» وأخرجه مسلم من حديث جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فقال: إن بالمدينة لرجالاً ماسِرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض» فأعطى ﷺ للمعذور من الأجر مثل ما أعطى للقوي العامل. ويؤكد ذلك أن النية الصادقة هي أصل الأعمال، فإذا صحت في فعل طاعة، فعجز عنها صاحبها لمانع منها، فله الثواب على عمله؛ لقوله ﷺ فيما رواه البيهقي عن أنس وهو ضعيف: «نية المؤمن خير من عمله».

الجهاد فرض كفاية وطلب العلم فريضة

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

الإعراب:

لولا: للتحضيض، وهي داخلة هنا على الماضي، فتفيد التوبيخ واللوم على ترك الفعل فيما مضى، والأمر به في المستقبل.

المفردات اللغوية:

﴿لِيَنفِرُوا۟﴾ إلى الجهاد ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا وهي تفيد الحض والحث على ما تدخل عليه ﴿نَفَرَ﴾ خرج للقتال ﴿فِرْقَةٍ﴾ قبيلة أو جماعة عظيمة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ جماعة قليلة أقلها اثنان أو واحد، ومكث الباقون ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ ليتعلم الباقون الفقه والأحكام الشرعية، والتفقه: تكلف الفقاهة والفهم، وتجشم مشاق التحصيل ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ يخوفوا ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ من الجهاد، بتعليمهم ما تعلموه من الأحكام ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ليحذروا عقاب الله بامتثال أمره ونهيه، والحذر من الشيء: التحرز منه.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن عِكْرمة قال: لما نزلت: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد تخلف عنه ناس في البدو يُفَقِّهُون قومهم، فقال المنافقون: قد بقي ناس في البوادي، هلك أصحاب البوادي، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال: كان المؤمنون، لحرصهم على الجهاد، إذا بعث رسول الله ﷺ سرية، خرجوا فيها، وتركوا النبي ﷺ بالمدينة في رقة من الناس، فنزلت.

قال ابن عباس: لما شدّد الله على المتخلفين قالوا: لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً، ففعلوا ذلك، وبقي رسول الله ﷺ وحده، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وقال ابن عباس أيضاً: فهذه مخصوصة بالسرايا، والتي قبلها بالنهي عن تخلف واحد، فيما إذا خرج النبي ﷺ.

المناسبة:

هذه الآية من بقية أحكام الجهاد، فهي لا توجب على جميع المؤمنين الجهاد إذا لم يخرج النبي ﷺ إليه، وإنما أرسل سرية. وحينئذ يجب على المؤمنين طلب العلم والتفقه في الدين؛ لأن الجهاد يعتمد على العلم، ولأن نشر الإسلام في الأصل يتوقف على البيان بالحجة والبرهان.

التفسير والبيان:

هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلهم، فتكون فئة منهم للتفقه وفئة أخرى للجهاد، فإنه فرض كفاية على الناس، كما أن طلب العلم فرض كفاية أيضاً.

فما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا النبي ﷺ وحده، فإن الجهاد فرض كفاية، متى قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، لا فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل، وإنما يصبح فرض عين إذا خرج الرسول للجهاد واستنفر الناس إليه.

فهلا نفر في أثناء النهوض للقتال من كل جماعة كالقبيلة أو البلد طائفة قليلة منهم للتفقه في الدين، ومعرفة أحكام الشريعة وأسرارها، حتى إذا ما رجع المجاهدون من المعركة أنذروهم من الأعداء وحذروهم من غضب الله وعرفوهم أحكام الدين، لكي يخافوا الله، ويحذروا عاقبة عصيانه، ومخالفة أمره.

والضمير في ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ و﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للمقيمين مع النبي ﷺ. وضمير ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي المجاهدون من الجهاد.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على الأحكام التالية:

١ - الجهاد فرض كفاية، وليس فرض عين، إذ لو نفر الكل لتعطلت مصالح الأمة، وتضررت الأسر والأولاد، فليخرج فريق من المسلمين للجهاد، وليُقِمْ فريق يتفقهون في الدين، ويحفظون الحريم، ويصونون مصلحة البلاد.

حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع. وهذه الآية مبينة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ وللآية التي قبلها: ﴿ٱنفِرُواْ﴾. وقال مجاهد وابن زيد: ناسخة، والأصح القول بأنها مبينة لا ناسخة. وكل من ﴿مِن﴾ المفيدة للتبعيض، والفرقة (الجماعة الكثيرة) والطائفة (الجماعة الأقل) يفيد كون الجهاد وطلب العلم موجهاً للبعض.

٢ - وجوب طلب العلم، والتفقه في القرآن والسنة، وهو فرض على الكفاية لا على الأعيان؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/٤٣] . وآية ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ وإن اقتضت فقط الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام، فقد لزم طلب

العلم بأدلة أخرى، مثل حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه ابن عدي والبيهقي عن أنس، ورواه آخرون.

والطائفة وإن أطلقت على الاثنين والواحد في اللغة، فلا شك أن المراد بها هنا جماعة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ فجاء بضمير الجماعة، ولأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب.

ومما يدل على أن الواحد يقال له طائفة قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩/٤٩] يعني نَفْسين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فجاء بلفظ التثنية. وأما ضمير ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ وإن كان ضمير جماعة، فأقل الجماعة اثنان، في أحد القولين للعلماء.

٣ - يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم؛ لأن الآية أمرت بإنذارهم إلى الدين الحق، وعليهم أن يحذروا الجهل والمعصية، ويرغبوا في قبول الدين. فغرض المعلم الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم اكتساب الخشية. هذا.. وطلب العلم ينقسم قسمين: فرض على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام، وفرض على الكفاية؛ كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه.

وطلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل، لما رواه مسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وروى الترمذي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر».

٤ - خبر الواحد حجة؛ لأن الطائفة مأمورة بالإنذار أو الإخبار، وهو يقتضي فعل المأمور به، ولأنه سبحانه أمر القوم بالحذر عند الإنذار، والمراد: ليحذروا.

السياسة الحربية في قتال الكفار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿يَلُونَكُم﴾ يجاورونكم الأقرب فالأقرب ﴿غِلْظَةً﴾ شدة وخشونة، أي اغلظوا عليهم ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر.

المناسبة:

لما أمر الله سبحانه المؤمنين بقتال المشركين كافة، كما يقاتلونهم كافة، أرشدهم في هذه الآية إلى الطريق الأصوب الأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد. وقد فعل النبي ﷺ وصحابته بهذه الخطة، فقد قاتل قومه في مكة، ثم قاتل سائر العرب، ثم انتقل إلى قتال الروم في الشام، ثم دخل صحابته العراق.

وهكذا سار خط الدعوة الإسلامية على هذا الترتيب، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] ثم اتسع نطاقها إلى الجزيرة العربية، فقال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٢] وقال عز وجل: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٦] ثم انتشرت خارج الجزيرة بين أهل الكتاب فقال سبحانه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا

﴿ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩] أي لأنذر العرب ومن يبلغه القرآن في كل زمان ومكان.

فالسياسة الإسلامية تسير على منهج دعوة الأقرب فالأقرب سلماً، وقتال الأقرب فالأقرب إذا توافرت دواعي القتال.

التفسير والبيان:

يأيها المؤمنون قاتلوا الأقرب منهم فالأقرب إلى ديار الإسلام، فإن الأقرب أحق بالشفقة والإصلاح، ولأن تكوين الأتباع المؤمنين من الجوار بالدعوة الإسلامية أفيد وأحصن وأجدى، وفيه حماية الديار والوطن، ولأن هذا الترتيب يحقق قلة النفقات، والاقتصاد في نقل الآلات وانتقال المجاهدين بأمان، حتى لا يطعنوا من الخلف.

وهذا بالطبع يشمل أولاً اليهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر، ثم المشركين في جزيرة العرب، ثم أهل الكتاب وهم الروم في الشام شمال المدينة.

وسياسة القتال أن يجدوا في المؤمنين المقاتلين غلظة أي شدة وخشونة، وقوة وحميَّة، وصبراً على القتال، وجرأة على خوض المعارك والفتك والأسر ونحو ذلك، وهذه طبيعة الحرب ومصلحة القتال، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٣].

واعلموا أن الله مع المتقين أي بالنصر والحراسة والإعانة، والمتقون: هم المتبعون أوامر الله، المجتنبون نواهيه. فهذه المعية ملازمة للتقوى، فالله معكم إذا التزمتم أحكام شرعه ومن أهمها إقامة الفرائض والسنن، والثبات والصبر والطاعة والنظام، وابتعدتم عن اختراق حدوده والتقصير في إعداد العدة المناسبة لكل عصر وزمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

وإذا أريد بالمتقين المخاطبون، ففيه إظهار بدل الإضمار للدلالة على أن الإيمان والقتال من باب التقوى، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين. وإذا أريد بالمتقين الجنس دخل المخاطبون دخولاً أولياً، والكلام تعليل وتوكيد لما قبله، أي قاتلوهم واغلظوا عليهم ولا تخافوهم؛ لأن الله معكم أو لأنكم متقون.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى ما يلي:

١ً - التعريف بكيفية الجهاد، وكون الابتداء به بالأقرب فالأقرب من العدو، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب، ثم قصد الروم بالشام. وروي عن الحسن البصري أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٥] . والأصح أنها غير منسوخة؛ لأنها للإرشاد ورسم خطة الحرب في قتال الكفار. قال قتادة: الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى[١].

٢ً - أمر المؤمنين بالاتصاف بالغلظة على الكفار، حتى يجدهم الكفار متصفين بذلك. وهذا لا شك في أثناء القتال، أما قبل بدء المعركة فشأن المسلمين هو الرفق واللين والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن وجدوا تنمراً وتجهماً من الأعداء، عوملوا بما يناسب من العنف والشدة؛ فالفائدة في الشدة في هذه المواطن أقوى تأثيراً في الزجر والمنع عن القبيح والشر، وقد يحتاج الأمر إلى الرفق واللطف. فالأمر بالعنف ليس مطرداً، وإنما يعمل بما هو الأوفق ولو في أثناء المعركة.

٣ً - إن الله نصير المتقين في السلم والحرب، والواجب أن يكون الهدف من القتال تقوى الله، لا طلب المال والجاه.

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/٢٩٧، تفسير الرازي: ١٦/٢٨٨

موقف المنافقين من سور القرآن

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾:

وقرأ حمزة (أولا ترون).

الإعراب:

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ جملة حالية.

البلاغة:

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي كفراً مضموماً إلى الكفر بغيرها. ولما ازداد المنافقون عند نزول السورة عمىً، أضيف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ هذه ألف استفهام، دخلت على واو العطف، وهو خطاب على سبيل التنبيه.

المفردات اللغوية:

﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لأصحابه

استهزاء ﴿إِيمَٰنًا﴾ تصديقاً ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يفرحون بها وبنزولها ﴿مَّرَضٌ﴾ شك وضعف اعتقاد وكفر ونفاق ﴿رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ كفراً ونفاقاً إلى كفرهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا على الكفر.

﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾ أي المنافقون يا أيها المؤمنون ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البلاء، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ﴿فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ أي أنهم يتعرضون للعذاب في الدنيا في كل عام مرة أو مرتين، وقال مقاتل: يفضحون بإظهار نفاقهم كل سنة مرة أو مرتين ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ فيها ذكرهم وقرأها النبي ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً، لما فيها من عيوبهم ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ أي أنهم يريدون الهرب، ويقولون: هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن رآهم أحد أقاموا وتثبتوا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ على كفرهم ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الهدى والإيمان، وهو يحتمل الإخبار، والدعاء ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ الحق، لسوء فهمهم وعدم تدبرهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أنواعاً من مخازي المنافقين وأعمالهم القبيحة، كتخلفهم عن غزوة تبوك، وتعللهم بالأيمان الفاجرة، ذكر هنا أنواعاً أخرى أخطر مما سبق، وهي استهزاؤهم بالقرآن وتهربهم حين سماعه؛ لأنه كلما نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائحهم وعيوبهم تأذوا من سماعها، وكذلك كلما سمعوا سورة وإن لم يذكر فيها شيء عنهم، استهزؤوا بها وطعنوا فيها، وأخذوا في التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء.

التفسير والبيان:

إذا ما أنزلت سورة من سور القرآن وبلغت المنافقين، فمنهم من يقول

لإخوانه أي يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ أي تصديقاً بأن القرآن من عند الله، وأن محمداً صادق في نبوته.

ومن المعروف أن الإيمان الصحيح: وهو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس، يزيد بنزول القرآن، ويتضاعف بسماعه سماع تدبر وإمعان، مما يدفع إلى العمل بما نزل فيه. وفي هذا دلالة واضحة على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب الأكثرين.

فأجابهم الله تعالى عن حقيقة أثر القرآن: فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن يقيناً وتصديقاً وقوة دافعة إلى العمل به، وهم أي وحالهم أنهم يفرحون بنزول السورة؛ لأنها تزكي أنفسهم، وترشدهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة. قال الزمخشري في ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: لأنها أزيد لليقين والثبات وأثلج للصدر، أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

والذين في نفوسهم شك وكفر ونفاق، فتزيدهم السورة كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق، ويستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا وهم كافرون بالقرآن وبالنبي ﷺ. وهذا مناقض للهدف من إنزال السورة، فهي في الحقيقة هدى ونور، وشفاء لما في الصدور، وجلاء لما في القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٨٢] وقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤] فهذا من جملة شقائهم أن مايهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيّئ المزاج لا يفيده الغذاء إلا تأخراً ونقصاً.

وبعد أن بيّن الله تعالى أن المنافقين يموتون كفاراً، أوضح أنهم يتعرضون

أيضاً لعذاب الدنيا كل عام مرة أو مرتين، فقال: أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون كل عام مرة أو مرتين بأنواع الاختبار العديدة من جهاد وقحط ومرض وهي التي تذكِّر الإنسان بالله، وتجعله ميالاً إلى الإيمان وترك الكفر والتمييز بين الحق والباطل.

ثم إنهم مع توالي الاختبارات لا يتوبون من ذنوبهم السابقة، ولا يتعظون فيما يستقبل من أحوالهم، مما يجعلهم غير مستعدين لقبول الإيمان.

وإذا أنزلت سورة قرآنية على النبي ﷺ، وهم جلوس عنده، تلفتوا وتغامزوا بالعيون وتهكموا لفساد قلوبهم، وعزموا على الهروب، قائلين: هل يراكم الرسول ﷺ أو المؤمنون إذا خرجتم؟

ثم انصرفوا جميعاً عن مجلس النبي ﷺ أي تولوا عن الحق، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤٩-٥١] وقوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٣٦-٣٧] أي ماهؤلاء القوم يخرجون مسرعين، هروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل.

صرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان وعن الخير والنور. وهذا إما دعاء عليهم به أو إخبار عن أحوالهم.

ذلك الصرف بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦١/ ٥] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايلي:

١ً - الإيمان يزيد وينقص، وهو مذهب أكثر السلف والخلف، فالمؤمنون يزدادون إيماناً بما يتجدد نزوله من القرآن، ويفرحون به، لتزكية نفوسهم، وتحقيق سعادتهم.

٢ً - الكفر يتراكم بعضه فوق بعض، وينضم بعضه إلى بعض؛ لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً، ازداد كفرهم واستحكم، وتضاعف عقابهم.

٣ً - المنافقون المستهزئون بالقرآن يموتون على كفرهم إن لم يتوبوا، مما يدل على مداومة الكفر.

٤ً - وسائل تذكير المنافقين بالإيمان والحق كثيرة متكررة، فتتوالى عليهم اختبارات عديدة كالأمراض والأوجاع، والشدّة والقحط، والجهاد مع النبي ﷺ كل عام مرة أو مرتين، ويرون ما وعد الله من النصر والتأييد.

٥ً - ومن الوسائل الداعية لإيمان المنافقين أيضاً ما ينزل به القرآن كاشفاً أسرارهم، معلماً بمغيبات أمورهم، ومع ذلك ينصرفون عن تلك الحال التي هي مظِنّة النظر الصحيح والاهتداء، ولا يسمعون القرآن سماع تدبر وتعقل ونظر في آياته: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٢] .﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤] .

وقوله: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ قول صادر على سبيل الاستهزاء، وقوله ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ اكتفاء بنظر بعضهم إلى بعض على سبيل الهزء، وطلب الفرار.

٦ً - إن الله تعالى صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه في مذهب أهل السنة، لصرف نفوسهم عنه؛ لقوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وهو إما دعاء عليهم أي

قولوا لهم هذا، وإما خبر عن صرفها عن الخير والرشد والهدى، مجازاةً على فعلهم.

وهذا رد على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم، وجوارحهم بحكمهم، يتصرفون بمشيئتهم، ويحكمون بإرادتهم واختيارهم.

صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأمته

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿رَءُوفٌ﴾: قرئ:

١- (رَؤُف) وهي قراءة أبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (رؤوف) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿مَا﴾: مصدرية، وهي مع ﴿عَنِتُّمْ﴾ في تأويل المصدر، وتقديره: عزيز عليه عنتكم. وهو إما مرفوع بعزيز؛ لأنه وقع صفة لرسول، وإما مبتدأ، و﴿عَزِيزٌ﴾ خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع؛ لأنها صفة ﴿رَسُولٌ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منكم ومن جنسكم، وهو محمد ﷺ ﴿عَزِيزٌ﴾ شديد

أو شاق ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي عنتكم أي مشقتكم ولقاؤكم المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أن تهتدوا والحرص: شدة الرغبة في الحصول على الشيء ﴿رَءُوفٌ﴾ شفوق، والرأفة أخص من الرحمة، وتكون مع الضعف والشفقة والرقة ﴿رَّحِيمٌ﴾ يريد لكم الخير، والرحمة عامة شاملة حال الضعف وغيره ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ كافي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وثقت به لا بغيره ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ الكرسي ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ خص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات.

المناسبة:

لما أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ في هذه السورة تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها إلا من خصه الله بالتوفيق، ختمها بما يوجب سهولة تحملهم تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول ﷺ منكم، فكل ما يحققه من عز وشرف فهو عائد إليكم، وهو بحال يشق عليه ضرركم، وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب الحاذق إذا أقدم على علاجات صعبة، فإنما يريد الخير، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير.

وكذلك لما بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وقص فيها أحوال المنافقين شيئاً فشيئاً، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسول من جنسهم أو من نسبهم عربي قرشي يبلغهم عن الله، متصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم بالوقوع في العذاب الأخروي، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم[١].

روى الحاكم في المستدرك عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة. وروى الشيخان عن البراء بن عازب

---

(١) البحر المحيط: ١١٧/٥

قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ وآخر سورة نزلت: ﴿بَرَآءَةٌ﴾. وعن ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكان بين نزولها وموته ﷺ ثمانون يوماً. وهذا قول سعيد بن جبير أيضاً.

التفسير والبيان:

امتن الله تعالى على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي من جنسهم وعلى لغتهم. لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم وبلغتكم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢] وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤].

وصف الله هذا الرسول بخمس صفات:

الأولى - قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من العرب، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته. قال ابن عباس: إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضريّها وربيعيها ويمانيها، أي أن نسبه تشعب في جميع قبائل العرب.

الثانية - ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي شديد عليه عنتكم أي مشقتكم ولقاؤكم المكروه في الدنيا والآخرة؛ إذ هو منكم، يتألم لألمكم ويفرح لفرحكم.

الثالثة - ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على هدايتكم وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة.

الرابعة والخامسة - ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه.

فإن تولوا أي أعرض المشركون والمنافقون عنك وعن الإيمان برسالتك والاهتداء بشرعك، فقل: حسبي الله، أي الله كافي في النصر على الأعداء.

لا إله إلا هو، أي لا معبود سواه أدعوه وأخضع له، عليه توكلت أي فوضت أمري إليه وحده، فلا أتوكل إلا عليه.

وهو رب العرش العظيم، والعرش: سقف المخلوقات كلها في السماوات والأرض وما بينهما، وخص العرش؛ لأنه أعظم المخلوقات، فيدخل فيه ما دونه إذا ذكر، إذ عليه تدبير أمور الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ١٠/٣] .

روى أبو داود عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: «حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله ما أهمه، صادقاً كان بها أو كاذباً».

وحكى النقاش عن أبي بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة.

وقد اتفق الصحابة حين جمع القرآن على وضع هاتين الآيتين في آخر سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ روى أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن زيد بن ثابت في جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر أنه قال: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خُزَيمة الأنصاري، لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها. أي لم يجدهما مكتوبتين عند غيره، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره، كما ذكر ابن حجر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلاً من الأنصار جاء بهما عمر، فقال: لا أسألك عليها بيِّنة أبداً، كذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أمرين:

١ - اتصاف النبي ﷺ بصفات خمس تستدعي من العرب الاستجابة لدعوته، وتحمّل أعباء رسالته، والقيام بالتكاليف التي أمر بها؛ لأنه منهم وفيهم، وحريص على اهتدائهم، ورؤوف رحيم بهم.

٢ - إن أعرض الناس عن دعوة النبي فهو يستنصر بالله المعين الكافي ويكتفي باللجوء إليه في الدعاء والعبادة والإعانة، والخضوع والتذلل؛ لأن الله رب العرش العظيم، والناس مقهورون تحت العرش بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس

مكية وهي مئة وتسع آيات

تسميتها:

سميت «سورة يونس» لذكر قصة نبي الله يونس فيها، وهي قصة مثيرة، سواء بالنسبة لشخصه الذي تعرض لالتقام الحوت له، أو بالنسبة لما اختص به قومه من بين سائر الأمم، برفع الله العذاب عنهم حين آمنوا وتابوا بصدق.

موضوعها:

تتميز بالكلام عن الأهداف الكبرى لرسالة القرآن وهي إثبات التوحيد لله وهدم الشرك، وإثبات النبوة والبعث والمعاد، والدعوة للإيمان بالرسالات السماوية وخاتمتها القرآن العظيم، وهي موضوعات السور المكية عادة.

مناسبتها لما قبلها:

ختمت سورة التوبة السابقة بذكر صفات الرسول ﷺ، وبدئت هذه السورة بتبديد الشكوك والأوهام نحو إنزال الوحي على الرسول ﷺ، للتبشير والإنذار، وكانت أغلبية آيات السورة المتقدمة في أحوال المنافقين وموقفهم من القرآن، وهذه في أحوال الكفار والمشركين وقولهم في القرآن. فالاتصال بالسورة المتقدمة واضح، فقد ذكرت أوصاف الرسول ﷺ التي تستدعي

الإيمان به، ثم ذكر هنا الكتاب الذي أنزل، والنبي الذي أرسل، وأن شأن الضالين التكذيب بالكتب الإلهية.

ويلاحظ أنه لا يشترط وجود تناسب واضح بين السور ولا بين الآيات في ضمن السورة الواحدة، فقد تتعدد الأغراض والانتقال من العقيدة إلى العبادة إلى الأخلاق والأمثال والقصص وأحكام السلوك والمعاملات، وذلك أسلوب خاص بالقرآن لاجتذاب الأنفس حين التلاوة والبعد عن السأم والملل، وقد أصبح هذا الأسلوب هو المرغوب فيه شعبياً كما يظهر في الإقبال على الروايات وأساليب العرض القصصي والتمثيليات، لشد انتباه المشاهدين والقارئين والسامعين، من خلال المفاجآت والاستطرادات وتحليل بعض القضايا الجانبية.

فقد يكون هناك تناسب بين السور، كسور الطواسين وحواميم وسورتي المرسلات والنبأ، وقد يوجد فاصل بينهما كسورتي الهمزة واللهب مع أن موضوعهما واحد.

مااشتملت عليه السورة:

سورة يونس تتحدث عن الرسالات الإلهية، والألوهية وصفات الإله، والنبوة وقصص بعض الأنبياء، وموقف المشركين من القرآن، والبعث والمعاد.

أ - بدأت السورة بتقرير سنة الله في خلقه بإرسال رسول لكل أمة، وختم الرسل بالنبي ﷺ، مما لا يستدعي عجب المشركين من بعثته: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢/١٠] .

٢ - ثم تحدثت عن إثبات وجود الإله من طريق آثاره في الكون: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآيات. ثم التذكير بمصير الخلائق إليه بالبعث والجزاء: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وانقسام البشر إلى

مؤمنين وكفار وجزاء كل منهم. وإنذار الجاحدين بإهلاك الأمم الظالمة: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾.

٣- ثم أوضحت عقائد المشركين وذكرت شبهات خمساً لمنكري النبوة والرسالة وناقشتهم نقاشاً منطقياً مقنعاً، وأثبتت أن القرآن كلام الله ومعجزة النبي الخالدة على مر الزمان: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأقامت الدليل على كونه من عند الله بتحدي المشركين وهم أمراء البيان وأساطين الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وذكرت موقف المشركين من القرآن: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾.

٤- ثم ذكرت آثار القدرة الإلهية الباهرة التي تدل على عظمة الله وضرورة الإيمان به؛ لأنه مصدر الحياة والرزق والنعم: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

٥ - ثم تناولت بإيجاز للعبرة والعظة وتقرير صدق القرآن قصص بعض الأنبياء؛ كقصة نوح عليه السلام في تذكير قومه؛ وقصة موسى عليه السلام مع فرعون، واستعانة فرعون بالسحرة لإبطال دعوة موسى، وشأن موسى مع قومه، ودعائه على فرعون، ونجاة بني إسرائيل، وغرق فرعون في البحر؛ وقصة يونس عليه السلام مع قومه، فصار المذكور في هذه السورة ثلاث قصص.

٦ - ختمت السورة بما أشارت إليه في الآية [٥٧]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو اتباع رسالة القرآن وشريعة الله، لما فيها من خير وصلاح للإنسان: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ

خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾. ذكر البيضاوي حديثاً عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة يونس أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بيونس ومن كذب به، وبعدد من غرق مع فرعون»، والظاهر أنه غير صحيح.

قضية إنزال الوحي إلى النبي ﷺ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

القراءات:

﴿لَسَٰحِرٌ﴾: قرئ:

١- (لسحرٌ) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (لساحرٌ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ مبتدأ وخبر، أي تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم. والمراد من ﴿تِلْكَ﴾: هذه أي هذه آيات الكتاب.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ أن وما بعدها في تأويل المصدر في موضع رفع اسم (كان)، و﴿عَجَبًا﴾ خبره، واللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقة بمحذوف؛ لأنه صفة لعجب، فلما تقدم صار حالاً؛ لأن صفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصبت على الحال. ولا يجوز أن تتعلق اللام بكان؛ لأنها لمجرد الزمان، ولا تدل على الحدث الذي هو المصدر، فضعُفت.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنْ﴾: هي المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ الباء معه محذوف.

البلاغة:

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ بمعنى مفعول، أي المحكم الذي لا فساد فيه ولا نقص.

﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ﴾ بينهما طباق .﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ.

﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة. وإضافة (قدم) إلى (صدق) دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة، ففي ذلك غاية البلاغة؛ لأن بالقدم يكون السبق والتقدم، كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تُعطى بها. وجاء في القرآن: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٤/٥٥] ، و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ١٧/٨٠] ، و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ١٧/٨٠] ، و﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ١٠/٢] .

المفردات اللغوية:

﴿الٓر﴾ تقرأ هكذا: أَلِفْ، لامْ، رَا. والحروف المقطعة في أوائل السور وتعديدها يقصد به التحدي، والإشارة إلى أن هذا القرآن كلام مكون من الحروف العربية المألوفة غير الغريبة على العرب، فما لهم عجزوا عن محاكاته؟ مما يدل على كونه كلام الله. أو هي أداة استفتاح وتنبيه لما سيلقى بعدها.

﴿تِلْكَ﴾ أي هذه الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن العظيم، والإضافة بمعنى من ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ المحكم، أي هذه آيات القرآن المحكم المبين.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي أهل مكة، استفهام إنكار ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ أي إيحاؤنا،

والوحي: إعلام خفي ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ محمد ﷺ ﴿أَنذِرِ﴾ خوّف، والإنذار: الإخبار بما فيه تخويف ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكافرين بالعذاب ﴿وَبَشِّرِ﴾ التبشير: إعلام مقترن بالبشارة بحسن الجزاء أو الثواب ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموه من الأعمال، سميت قدماً؛ لأن السعي إلى هذه الفضائل بالقدم، كما سميت النعمة يداً، وإضافتها للصدق للتحقق. والصدق يكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال وسائر الفضائل .﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الكتاب وما جاء به محمد ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن واضح ظاهر، والسحر: شيء مؤثر في النفوس بدون أن يكون له حقيقة.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. وأنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٢/١٠٩] ، ومواضع أخرى، فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣١] يكون أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٢] .

التفسير والبيان:

﴿الٓر﴾: تقرأ هذه الحروف الثلاثة هكذا: ألف، لام، را، والقصد منها التنبيه إلى ما يتلى بعدها ليعتني المرء بفهم ما يسمع أو يقرأ، وتعديد الحروف على طريق التحدي، كما مر في أول سورة البقرة.

تلك آيات القرآن المحكم، أو ذات الحكمة لا شتماله عليها، أو تلك آيات

السورة الحكيمة، التي أحكمها الله وبينها لعباده، كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [فصلت: ١/٤١] أي أحكمت معانيه ومبانيه. والأولى بالصواب كما ذكر القرطبي أن المراد القرآن؛ لأن الحكيم من نعت القرآن، كما دل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾. والحكيم: المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ ينكر الله تعالى على من تعجب من الكفار على إرسال المرسلين من البشر، أي عجيب أمر بعض الناس الذي ينكرون إيحاءنا إلى رجل من جنسهم من البشر، كأن الاشتراك في البشرية تحول دون الإرسال، وكأنهم يريدون رسولاً من غير جنسهم، كما قال تعالى في آيات أخرى حكاية عنهم: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦/٦٤] ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤/١٧] ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصلت: ١٤/٤١] وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الأعراف: ٦٣/٧] .

قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾.

هذا التعجب في غير محله، إذ أن كل الرسل كانوا بشراً: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩/٦] وردد الله هذا المعنى في آيات كثيرة منها: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ۝٩٥﴾ [الإسراء: ٩٥/١٧] .
فإرسال الرسول من جنس المرسل إليهم أدعى إلى قبول دعوته، والتفاهم معه. وأما اختيار أحد هؤلاء البشر فالله أعلم من هو أولى للرسالة وأحق بالاصطفاء والاختيار: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥/٢٢] ، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤/٦] .

أما معايير البشر فهي خطأ، مثل كون محمد ﷺ يتيم أبي طالب، إذ قال القرشيون: العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً إلا يتيم أبي طالب، أو أنه فقير، وهم يريدون كونه غنياً مترفاً وزعيماً مرموقاً: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١] وهم يعنون إما الوليد بن المغيرة من مكة، أو مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف.

ومهمة هذا النبي الموحى إليه هي الإنذار من النار: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس وخوفهم من عذاب النار يوم البعث، إذا ظلوا كافرين ضالين عاصين، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦] .

وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم قدم صدق عند ربهم، أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند الله في جنات النعيم، وأجراً حسناً بما قدموا. والأعمال الصالحة: هي صلاتهم وصومهم وصدقهم في القول والفعل وتسبيحهم.

والإنذار والتبشير هما من أخص صفات النبي ﷺ، وقد صرح القرآن بهما في آيات كثيرة مثل: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥] .

وفي الكلام حذف يدل الظاهر عليه تقديره: ومع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قال المنكرون المكذبون رسالته: إن محمداً ساحر ظاهر. وعلى قراءة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ معناه إن هذا القرآن سحر ظاهر بيِّن. وعلى أي حال فإنهم وصفوا القرآن وصاحبه المنزل عليه بالسحر وكونه الساحر، وهم الكاذبون في ذلك. ووصفوه بالسحر لما رأوا من تأثيره القوي في القلوب،

والسحر عندهم يطلق على كل فعل غريب خارق للعادة، لا يعرف له سبب، مؤثر في النفوس، جذاب يلفت الأنظار.

ثم تبيَّن لعقلاء العرب وحكمائهم أن القرآن ليس سحراً؛ لأنهم جربوا السحر وعرفوه، فلم يجدوه مطابقاً له؛ لأن السحر علم يعتمد إما على الحيل والشعوذة، أو على خواص بعض الأشياء الطبيعية، أو على علم النجوم، أو على دراسات نفسانية، والقرآن ليس من هذه الأشياء إطلاقاً بالتجربة والحس والمشاهدة والموازنة، وإنما هو مغاير لها، وفوقها؛ لأنه وحي من عند الله على قلب نبيه، مشتمل على أحكام سامية عالية في التشريع والقضاء، والسياسة والاجتماع، والعلوم والأخلاق والآداب، معجز في أسلوبه ونظمه ومعانيه، يفوق قدرة البشر على محاكاته أو الإتيان بشيء من مثله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤١-٤٢] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٢٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

١ً - القرآن الكريم كتاب محكم واضح بيِّن فيما اشتمل عليه من حلال وحرام وحدود وأحكام.

٢ً - الإيحاء إلى رجل من البشر ليؤدي رسالة الله إلى الناس أمر طبيعي منطقي، ليس محل تعجب واستغراب، وإنما هو موافق للحكمة والعقل والواقع.

٣ً - ليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة، وإنما المعيار هو ما في علم الله جل وعز من

كون النبي المصطفى هو الأهل الأكفأ الأجدر بتحمل أعباء الرسالة، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس.

٤ً - مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير، إنذار من عصاه بالنار، وتبشير من أطاعه بالجنة. وله خصائص أخرى مثل ما أخبر النبي ﷺ في الصحاح عن نفسه أنه قال: «لي خمسة أسماء. أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب: أي آخر الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠] .

٥ً - لا يملك الضعيف أو الخاسر المفلس سوى الاتهام الرخيص الكاذب الذي لا فائدة منه، لذا قال الكافرون: إن هذا أي الرسول ﷺ لساحر مبين، أو إن هذا القرآن لسحر مبين، بحسب القراءتين، فوصف الكفار القرآن بكونه سحراً يدل كما قال الرازي على عظم محل القرآن عندهم، وكونه معجزاً، وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة، فاحتاجوا إلى هذا الكلام الذي ذكروه في معرض الذم، على ما يظهر، وأرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر، ولكنه باطل في الحقيقة، ولا حاصل له، أو ذكروه في معرض المدح، وأرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله، جار مجرى السحر.

اللّه خالق السماوات والأرض وعلى الخلْق عبادته

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

القراءات:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

المفردات اللغوية:

﴿خَلَقَ﴾ الخلق: التقدير والإيجاد ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في قدر أيام الدنيا؛ لأنه لم يكن ثَمَّ شمس ولا قمر، ولو شاء لخلقهن في لحظة، ولكنه عدل عن ذلك لتعليم خلقه التثبت. واليوم لغة: الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه. ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ مركز تدبير المخلوقات، ولا نعلم حقيقته، والاستواء على العرش شيء يليق به تعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ بين الخلائق، والتدبير: النظر في عواقب الأمر لإيقاعها على النحو المناسب محمودة العاقبة ﴿شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ رد لقولهم إن الأصنام تشفع لهم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الخالق المدبر ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ورد عليهم تعجبهم بأنه من الممكن الإيحاء إلى رجل يبشر على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الفاسدة بالعقاب، ذكر تعالى أمرين:

الأول هنا: إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي.

والثاني في الآية التالية: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، ليحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر بهما الأنبياء.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة

أزمنة أو أيام، قيل: كأيام الدنيا، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون، والأصح أنه تعالى خلق الكون سماءه وأرضه في زمن لا يعلم مقداره إلا هو. واليوم في اللغة هو الجزء من الزمن.

ثم استوى على العرش استواء يليق بعظمته وجلاله، ولا يعلمه إلا هو، والعرش هو كرسيه أو مركز تدبير الخلائق، وهو أعظم المخلوقات وسقفها، ولا يعلم أحد حقيقة العرش إلا هو سبحانه وتعالى.

والله تعالى في استوائه على العرش يدبر أمر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته.

وإذا كان الله الرب خالق الأكوان وفاطر السماوات والأرض على هذا النظام البديع المحكم، فيمكنه ولا يستبعد عنه أن يوحي بشيء من علمه على بشر من خلقه، ليهدي الناس إلى سواء السبيل، فذلك مظهر من مظاهر قدرته وإرادته، فيجب على منكري النبوة الإيمان بهذا الوحي وتصديق صاحبه وتأييده بكل ماجاء به.

ولله تعالى أيضاً السلطان المطلق يوم القيامة في حساب الخلائق، فلا يستطيع شفيع أن يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه أي إرادته ومشيئته، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٣] وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٦] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٩].

وفي هذا رد واضح على عبدة الأصنام أو الملائكة أو البشر الذين يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، كما قال تعالى عن عبدة الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣].

وفيه أيضاً إثبات الشفاعة لمن أذن له الله الرحمن.

ذلكم الله، أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية من الخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في الشفاعة، هو ربكم المتولي شؤونكم، لاغيره؛ إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك.

فاعبدوه، أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، أفلا تذكرون، أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر في أمركم أيها المشركون، فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة، لا ماتعبدونه من الآلهة، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨٧] وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٨٦-٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٨] .

فلقد كان العرب يؤمنون بوحدة الربوبية، كما فهم من الآيات المذكورة، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، لذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾. ثم دعاهم تعالى إلى التفكير بقوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أتجهلون فلا تتذكرون أن الله هو خالق السماوات والأرض، فتستدلوا بها.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل هذه الآية على مايأتي:

١- إثبات الألوهية أو وجود الله بإثبات صفة الخلق لله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٢- كون خلق السماوات والأرض في ستة أيام، لتعليم الخلق التثبت في الأمور، مع أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر.

٣- اتفق المسلمون على أن فوق السماوات عظيماً هو العرش، الله أعلم به، وبكيفية استوائه عليه.

٤- إن الله وحده هو الذي يدبر الخلائق بمقتضى حكمته، لايشركه في تدبيرها أحد، وتدبيره للأشياء وصنعه لها، لايكون بشفاعة شفيع وتدبير مدبر.

٥- لاشفاعة لأحد -نبي ولا غيره- يوم القيامة إلا بإذن الله تعالى؛ لأنه تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب. وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠/١٨] فأعلمهم الله أن أحداً لايشفع لأحد إلا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنام لاتعقل؟!

٦- إن الله الذي فعل هذه الأشياء من خلق السماوات والأرض هو ربكم لارب لكم غيره، فهو وحده الذي يستحق العبادة بإخلاص له.

٧- قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دال على وجوب التفكر في تلك الدلائل القاهرة الباهرة، وأن التفكر في مخلوقات الله تعالى والاستدلال بها على عظمته أعلى مراتب التفكير وأكملها.

إثبات البعث والجزاء

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

الإعراب:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ﴿جَمِيعًاۖ﴾ حال منصوب.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المقدر، أي وعد الله ذلك وعداً وحققه.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي بدأه بالإنشاء ﴿حَقًّا﴾ صدقاً لا خلف فيه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بالبعث ﴿لِيَجْزِىَ﴾ يثيب ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿حَمِيمٍ﴾ ماء شديد الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم.

التفسير والبيان:

أثبت الله تعالى في الآية السابقة وجوده ووحدانيته المقتضية توحيده الخالص في العبادة، وهنا يثبت أمراً آخر مهماً في الإسلام وهو البعث والجزاء.

يخبر الله تعالى أن إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، بعد الموت، لا يترك أحداً منكم أبداً، ووعد الله ذلك وعداً حقاً ثابتاً لا خُلْفَ فيه.

ثم ذكر أنه تعالى كما بدأ الخلق وأنشأه حين التكوين، كذلك يعيده في النشأة الأخرى، والإعادة أهون من البدء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧].

أما البدء فمشاهد بلا نزاع، ولكن البشر لم يستطيعوا إلى الآن معرفة النشأة الأولى والقوة الموجدة للحركة في المادة.

وأما الإعادة فيتوقع العلماء خراب العالم، لكن بعضهم ينكر البعث والجزاء، ولكن القرآن أقام الدليل عليه بأن القادر على البدء والتكوين، قادر على إعادة الحياة مرة أخرى بعد الموت والفناء.

والهدف من الإعادة حساب الخلق بالعدل: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ليجازي المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله وما أنزل إليهم، وعملوا الأعمال

الطيبة الصالحة، بالعدل والجزاء الأوفى، فيعطي كل عامل مايستحقه من الثواب: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧] .

والجزاء بالعدل لا يمنع التفضل بمضاعفة أجر المحسنين، كما قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٠] وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦] فالحسنى جزاء، والزيادة فضل من الله وإحسان.

وأما الذين كفروا بالله ورسله وأنكروا البعث، وتعجبوا من الإيحاء إلى بشر ينذرهم ويبشرهم، فلهم من الجزاء شراب ساخن شديد الحرارة يقطع الأمعاء ويشوي البطون، بئس الشراب شرابهم، ولهم أيضاً يوم القيامة عذاب موجع مؤلم أشد الألم بسبب كفرهم، من سموم وحميم وظل من يحموم: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٧-٥٨] ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤٣-٤٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى ما يأتي:

١- إثبات المعاد (البعث) والحشر والنشر، بدليل أنه تعالى قادر على كل شيء، فهو الذي بدأ الخلق، وهو الذي يعيده: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٩] فالله قادر على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق، فلأن يكون قادراً على إيجادنا مرة أخرى، مع سبق الإيجاد الأول، كان أولى وأهون.

٢- الجزاء ثابت على الأعمال، أما جزاء المؤمنين الصالحين فهو مقصود

بالذات، بدليل تعليل الرجوع إليه تعالى بأنه الجزاء: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأن العدل يقضي بتقديم المقابل على العمل الصالح، وهو جزاء حسن لا يعادل بالعمل المبذول، بل هو أفضل وأرقى وأكمل منه بكثير، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧/٣٢] وروى البخاري حديثاً قدسياً: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وأما جزاء الكافرين على كفرهم فليس من مقاصد خلق الإنسان، وإنما اقتضاه العدل والعقل، للتميز بين المحسنين والمسيئين، وبين الأبرار والفجار، وبين المؤمنين والكفار؛ لأننا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات أحياناً، ونرى العلماء والصالحين ضد ذلك، فهل يعقل أن يتساوى العامل مع العاطل، والمحسن مع المسيء؟! قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨/٣٨] فثبت أنه لابد بعد هذه الدار من دار أخرى، لإقامة العدل بين الخلائق.

ودلت الآية أيضاً على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمناً، وبين أن يكون كافراً؛ لأنه تعالى اقتصر في هذه الآية على ذكر هذين القسمين.

والخلاصة: أثبت تعالى البعث والحشر والنشر بناء على أنه لابد من إثابة أهل الطاعة، وعقوبة أهل الكفر والمعصية، وأن الحكمة تقتضي تميز المحسن عن المسيء.

إثبات القدرة الإلهية في الكون بالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿ضِيَآءً﴾:

وقرأ قنبل: (ضئاء).

﴿يُفَصِّلُ﴾: قرئ:

١- (يُفصِّل)، وهي قراءة: ابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (نُفَصِّل)، وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ ضياء: مفعول به ثانٍ لجعل. ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ الضمير إما راجع للشمس والقمر، ووحّد لكنه في معنى التثنية، اكتفاء بالمعلوم؛ لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٢] . وإما أن يكون الضمير راجعاً إلى القمر وحده؛ لأن بسير القمر تعرف الشهور، والشهور المعتبرة في الشريعة هي الشهور القمرية، المبنية على رؤية الأهلة، وكذلك السنة

المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/٣٦] .

المفردات اللغوية:

﴿ضِيَآءً﴾ ذات ضياء أي نور ﴿نُورًا﴾ أي ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة، وهو أعم من الضوء. وقيل: ما بالذات ضوء، وما بالاكتساب من غيره نور، وقد نبه تعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها، والقمر نيراً بالاكتساب من الشمس ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكل واحد من الشمس والقمر، أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدر القمر ذا منازل، والتقدير: جعل الأشياء على مقادير مخصوصة، والمنازل: مكان النزول ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي لتعلموا بذلك حساب الأوقات من السنين والأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكور إلا خلقاً ملتبساً بالحق، مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة، لا عبثاً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبرون، فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها.

﴿فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي الأرض من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلالات على قدرته تعالى ووجوده ووحدته وكمال علمه وقدرته .﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ يتقون عواقب الأمور، فيؤمنون، لأن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر، وخصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بها.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة على إثبات الألوهية والتوحيد، والبعث، من خلق السماوات والأرض، خصص بالذكر للتأكيد أحوال الشمس والقمر

الدالة على التوحيد من جهة الخلق والإيجاد، وعلى إثبات المعاد من جهة كونهما أداة لمعرفة السنين والحساب، وذلك رصد للزمن الذي لابد له من نهاية، وموت أهله، ثم ذكر المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السماوات والأرض.

فصارت الأدلة على الألوهية والتوحيد أربعة: خلق السماوات والأرض، وأحوال الشمس والقمر، والمنافع المترتبة على اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السماوات والأرض من حوادث وأحوال، كالأمطار والرعد والبرق، والزلازل والبراكين، والمد والجزر في البحار، وأحوال النبات والحيوان والمعادن.

التفسير والبيان:

الله ربكم هو الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الشمس في النهار ضياء للكون، ومصدراً للحياة وإشعاع الحرارة الضرورية للحياة، في النبات والحيوان، وجعل القمر نوراً في الليل يبدد الظلمات، وقدر مسيره في فلكه منازل أو ذا منازل، ينزل كل ليلة في واحد منها، وهي ثمانية وعشرون منزلاً معروفة لدى العرب، يرى القمر فيها بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٦/ ٣٩] .

وتخصيص القمر بذكر منازله، إذا جعل الضمير عائداً إليه وحده، لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علله بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي يعرف به حساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي، والفصول الأربعة، والحساب مطلوب لضبط أوقات العبادة من صلاة وصيام وحج وزكاة ومعاملات وعقود.

وإذا كان تقدير المنازل لكل من الشمس والقمر، فيعرف بهما حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبمسيرة القمر تعرف الشهور والأعوام.

وقد حث الشرع على الانتفاع بالحساب الشمسي في نحو قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥٥/٥] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٧/١٢] وفي كل من الحساب الشمسي والقمري فوائد، فالحساب الشمسي ثابت، والحساب القمري أسهل على البدوي والحضري، فأنيطت به الأحكام الشرعية.

ما خلق الله ذلك المذكور من الشمس والقمر إلا خلقاً متلبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً، بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٣٨/ ٢٧] وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥] .

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يبين الله الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته، والآيات القرآنية، لقوم يعلمون طرق الدلالة على الخالق ومنافع الحياة، ويميزون بين الحق والباطل.

إن في اختلاف الليل والنهار أي في تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس، ومالهما من نظام دقيق، وما فيهما من برودة وحرارة، وكون الليل لباساً وسكناً والنهار معاشاً.

وإن ما خلق الله في السماوات والأرض من أحوال الجماد والنبات والحيوان، وأحوال الرعود والبروق والسحب والأمطار، وأحوال البحار من مد وجزر، وأحوال المعادن من خواص وتركيب ونحو ذلك.

إن في ذلك كله لآيات ودلائل دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته، وعظمته، وكمال علمه، لقوم يتقون مخالفة سنن الله في التكوين،

وسننه في التشريع، فسنة الكون الحفاظ على الصحة، من خالفها مرض، وسنة الحياة الاستقامة، من أفسدها وخالفها، أساء لنفسه، وكل من لم يتق عقاب الله وسخطه وعذابه بارتكاب المعاصي ومخالفة السنن، عوقب على ذلك في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ً - إن أحوال الشمس والقمر وما فيهما من فوائد، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وكل ما خلق الله في السماوات والأرض آيات دالة على وجود الله وتوحيده، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، ولم يخلق الله ذلك إلا لحكمة وصواب، ومصلحة للإنسان.

٢ً - وإن تقدير الشمس والقمر في منازل مفيد في التوقيت لمعرفة عدد السنين والحساب. قال السيوطي: هذه الآية أصل في علم المواقيت، والحساب، والتاريخ، ومنازل القمر.

٣ً - أودع سبحانه في أجرام الكواكب والأفلاك خواص معينة وقوى مخصوصة وفوائد وآثاراً في هذا العالم، وإلا كان خلقها عبثاً وباطلاً وغير مفيد.

٤ً - المستفيد من آيات الكون هم العلماء العقلاء، والمتقون الذين يخافون الله ويحذرون عقابه، والحذر يدعوهم إلى التدبر والنظر.

المؤمنون والكافرون وجزاء كلٍّ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (ماواهم).

﴿تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ : قرئ:

١- (تحتهِم الأنهار) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (تحتهُمُ الأنهار) وهي قراءة حمزة، والكسائي وخلف.

٣- (تحتهِمُ الأنهار) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئناف، أو خبر ثانٍ، أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر أو حال آخر منه أو من الأنهار، أو متعلق بتجري أو بيهدي.

البلاغة:

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فيه التفات، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم للبعث، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها، واللقاء: الاستقبال والمواجهة. ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدل الآخرة بإنكارهم لها وغفلتهم عنها. ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ سكنوا إليها، وقصروا هممهم على لذائذها وزخارفها. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي تاركون النظر في دلائل وحدانيتنا، لا يتفكرون فيها، لانهماكهم فيما يضادها.

﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ ملجأهم الذي يأوون إليه وقد أطلق المأوى على الجنة في ثلاث آيات، وعلى النار في بضع عشرة آية. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الشرك والمعاصي. ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم. ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم، إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه أبو نعيم عن أنس، والظاهر أنه ضعيف: «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم» أو لما يريدونه في الجنة، بأن يجعل لهم نوراً يهتدون به يوم القيامة.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ طلبهم لما يشتهونه في الجنة، والدعوى: الدعاء، والدعاء للناس: النداء والطلب المعتاد بينهم، والدعاء لله: سؤاله الخير والرغبة فيما عنده، مع الشعور بالحاجة إليه، ودعاؤهم هنا أن يقولوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي تنزيهاً لك وتقديساً يا الله، فإذا ما طلبوه وجدوه عندهم. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فيما بينهم، والتحية: التكرمة، بقولهم: حياك الله، أي أطال عمرك. ﴿سَلَٰمٌ﴾ السلامة من كل مكروه. ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ﴾ أن مفسرة.

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الدلائل على إثبات الإله ووجوده، وعلى إثبات البعث والجزاء على الأعمال يوم الحساب، ذكر حال من كفر به وأعرض عن أدلة وجوده ووحدانيته، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات، ثم أوضح جزاء كل من الفريقين.

التفسير والبيان:

إن الذين لا يتوقعون لقاء الله في الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال؛ لإنكارهم البعث، ورضوا بالحياة الدنيا بدل الآخرة؛ لغفلتهم عنها، واطمأنوا بها وسكنوا إليها وإلى شهواتها ولذائذها وزخارفها، وكانوا غافلين عن آيات الله الكونية والشرعية، فلا يتفكرون في الأولى، ولا يأتمرون بالثانية، أولئك المذكورون من الفريقين مثواهم ومقامهم النار وملجؤهم الذي يلجؤون إليه، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا مع كفرهم بالله ورسوله واليوم الآخر. وهذا الجزاء توضيح للجزاء السابق المذكور في الآية [٤].

وعطف ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ الذي يقتضي المغايرة إما لتغاير الوصفين، وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالفريق الأول: من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وهم الماديون الملحدون، والمراد بالفريق الثاني: من ألهته الدنيا عن التأمل في الآخرة والإعداد لها.

هذا جزاء الفريق الكافر وهم الأشقياء، أما جزاء الفريق المؤمن وهم السعداء فأخبرت الآية التالية عنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أي إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله، وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، ولم يغفلوا عن آيات الله في الكون والشريعة، يرشدهم ربهم

بسبب إيمانهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي بهم إلى الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ومن تحت غرفهم في جنات النعيم والخلد، وهذا مثل للتنعم والراحة والسعادة والانسجام في تلك المناظر الخلابة، التي تأخذ بمجامع القلوب، وتُسرُّ النفوس.

ومفهوم الترتيب بين الإيمان والعمل الصالح، وإن دلَّ على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح، لكن دلَّ منطوق قوله: ﴿بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية، وأن العمل الصالح كالتابع له والتتمة.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي يبدؤون دعاءهم وثناءهم على الله تعالى بهذه الكلمة: ﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي تنزيهاً وتقديساً لك يا الله، أو اللهم إنا نسبحك، وتحيتهم فيما بينهم ﴿سَلَـٰمٌ﴾ الدالة على السلامة من كل مكروه مثل قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٥-٢٦] ، وهي أيضاً تحية المؤمنين في الدنيا، وهي كذلك تحية الله تعالى حين لقائه لأهل الجنة ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٤] وتحية الملائكة لهم عند دخول الجنة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٣] .

وآخر دعائهم الذي هو التسبيح: الحمد لله رب العالمين، وهو أيضاً أول ثناء على الله حين دخول الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤] وهو كذلك آخر كلام الملائكة: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٥] .

قال ابن كثير: وفي هذا دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وعند ابتداء تنزيل

كتابه، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٦/١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١٨/١] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - للكافرين الجاحدين عذاب النار بسبب ما اكتسبوا أو اقترفوا من الكفر والتكذيب والمعاصي. وقد وصفهم الله تعالى بصفات أربع هي:

الأولى - إن الذين لا يرجون لقاءنا، أي لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً.

الثانية - ورضوا بالحياة الدنيا، أي رضوا بها عوضاً من الآخرة، فعملوا لها.

الثالثة - واطمأنوا بها، أي فرحوا بها وسكنوا إليها.

الرابعة - والذين هم عن آياتنا غافلون، أي لا يعتبرون ولا يتفكرون بأدلتنا.

٢ - للمؤمنين المحقين العاملين الأعمال الصالحة جنات النعيم، تجري من تحتهم أي من تحت بساتينهم أو أسرّتهم الأنهار، يمجدون فيها الله تعالى بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ ويحمدون ربهم بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والفرحة تغمرهم، والبهجة تملأ قلوبهم، والسعادة ترفرف بأجنحتها عليهم، تحية الله لهم، أو تحية الملَك أو تحيتهم لبعضهم: سلام.

٣ - التسبيح والحمد والتهليل قد يُسمّى دعاء، روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات

وربُّ الأرض ورب العرش الكريم» قال الطبري: كان السلف يدعون بهذا الدعاء، ويسمّونه دعاء الكرب. وهذا الدعاء الصادر من أهل الجنة ليس بعبادة إذ لا تكليف في الجنة، إنما يلهمون به، فينطقون به تلذذاً بلا كلفة.

٤ً - من السنة لمن بدأ بالأكل أو الشرب أن يسمّي الله عند أكله وشربه، ويحمده عند فراغه، اقتداء بأهل الجنة. ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمدَه عليها، أو يشرب الشَّرْبة، فيحمدَه عليها».

٥ً - يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه، كما قال أهل الجنة: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦ً - الإيمان والعمل الصالح طريق الإنسان إلى الجنة. والله يهدي أي يسدد ويرشد بسبب الإيمان إلى طريق الاستقامة المؤدي إلى الثواب على الأعمال.

ويجوز أن يريد الله تعالى بقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ أي في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ٥٧/١٢] ومنه الحديث: «إن المؤمن إذا خرج من قبره، صُوِّر له عمله في صورة حسنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره، صُوِّر له عمله في صورة سيئة، فيقول: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار».

وما على المؤمن إلا أن يستزيد من الأعمال الصالحة ليتبوأ مكانه في الجنة، إذ ليست الجنة بمجرد الاتصاف بالإسلام، أو بالتمنيات المعسولة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ٤/١٢٣-١٢٤] والنقير: قدر النُّقرة في ظهر النواة.

والإيمان: هو المعرفة والهداية المترتبة عليها. والمقصود: معرفة صفات الله تعالى، لا معرفة ذاته فذلك مستحيل.

والأعمال الصالحة: عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة. والأعمال المذمومة ضدّ ذلك.

استعجال الإنسان الخير دائماً والشرّ حال الغضب

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ منصوب على المصدر، تقديره: استعجالاً مثل استعجالهم. فحذف المصدر وصفته، وأقام ما أضيفت إليه الصفة مقامه.

﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع نصب على الحال، وعامله ﴿دَعَانَا﴾ وقيل: العامل: مسَّ، أي مسّ الإنسان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً، والأول أرجح.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنه، وحذف ضمير الشأن.

البلاغة:

﴿ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم، ففيه تشبيه مؤكد مجمل. وبين الشرّ والخير طباق. ووضع الاستعجال موضع التعجيل لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير.

المفردات اللغوية:

﴿يُعَجِّلُ﴾ يقدمه على وقته، والتعجيل: تقديم الشيء على وقته المقدر له. ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ طلب التعجيل، قال العلماء: التعجيل من الله، والاستعجال من العبد. ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ بأن يهلكهم ولكن يمهلهم، وقضاء الأجل: انتهاؤه. ﴿فَنَذَرُ﴾ نترك. ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين. ﴿ٱلضُّرُّ﴾ الشدة كالمرض والفقر والخطر. ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي مضطجعاً. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ في كل حال. ﴿مَرَّ﴾ مضى في طريقته على كفره. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما زين له الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين، والإسراف: تجاوز الحد.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى تعجب القوم من تخصيص محمد بالنبوة، ثم ذكر أدلة التوحيد والبعث، أبان هنا الجواب عن قول كانوا يقولونه: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في ادعاء الرسالة، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، ومضمون الجواب: أنه لا مصلحة لهم في استعجالهم الشر وإلا ماتوا وهلكوا.

وأما مضمون الجواب عن تعجبهم: فهو أني ما جئتكم إلا بالتوحيد والإقرار بالمعاد، وقد أقمت الأدلة على صحتها، فلا معنى للتعجب من نبوتي.

التفسير والبيان:

العجلة من طبائع الإنسان، فهو دائماً يتعجل الخير؛ لأنه يحبه، ويتعجل الشرّ حين الغضب والحماقة والضجر، فلو يعجل أو يسرع الله للناس إجابة دعائهم في حال الشر، كاستعجالهم تحقيق الخير، لأميتوا وأهلكوا، وذلك

مثل استعجال مشركي مكة إنزال العذاب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٦] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢].

وسمى الله تعالى العذاب شرّاً في هذه الآية؛ لأنه أذى في حق المعاقب، ومكروه عنده، كما أنه سماه سيئة في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وفي قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠].

ولكنه تعالى بحلمه ولطفه بعباده لا يستجيب لهم ويذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً، فإنه لو أجابهم لانتهى أمرهم وهلكوا، كما هلك الذين كذبوا الرسل، وربما آمن به بعضهم، أما من عاند فيعاقبه الله بالقتل، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٤].

وأما عذاب سائر الكفار فنتركه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فنترك غير المتوقعين لقاءنا فيما هم فيه من طغيان الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين، ولا نعجل لهم في الدنيا عذاب الاستئصال تكريماً للنبي ﷺ، ونمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم، إلزاماً للحجة عليهم.

وكذلك اقتضت رحمته تعالى بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر، في حال الضجر والغضب؛ لأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك. روى أبو داود والحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة، فيستجيب لكم» وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «إني سألت الله عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه».

ومن عجلة الإنسان أيضاً وضجره وقلقه أنه إذا أصابه الضرّ أي الشدة والألم من مرض أو فقر أو خطر: يدعو ربه بإلحاح في كشف ضره وإزالته، حالة كونه مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً أو قائماً وفي جميع أحواله؛ لأن فائدة الترديد في القعود وغيره تعميم الدعاء لجميع الأحوال، فإذا فرَّج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، ومضى في طريقه من الغفلة عن ربه والكفر به، كأنه لم يدع إلى شيء ولم يكشف الله عنه ضره. فقوله: ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي إلى كشف ضر.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٥١] ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي مثل ذلك العمل القبيح المنكر أو التزيين وهو الذي حدث من اللجوء إلى الله تعالى وقت الشدة وتركه في الرخاء، زُيِّن للمشركين طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك والإعراض عن القرآن والعبادات، واتباع الشهوات.

والمراد بالإنسان في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ هو الكافر؛ لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم ألبتة.

وقوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ يراد به أحوال الدعاء.

والمراد بالمزيِّن في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ هو الشيطان أو النفس، أو الله تعالى. وسمي الكافر مسرفاً في نفسه وماله ومضيعاً لهما؛ لأنه في النفس جعلها عبداً للوثن، وفي المال فلأنه أضاعه فيما لا يفيد. والأصح كما قال القرطبي أن الآية تعم الكافر وغيره، وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين، إذا أصابته العافية، استمر على ما كان عليه من المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الآتي:

١ً - الله لطيف بعباده حليم رحيم بهم لا يستجيب دعاءهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال الضجر والغضب، فلو عجل الله للناس العقوبة، كما يستعجلون الثواب والخير، لماتوا؛ لأنهم خلقوا في الدنيا خلقاً ضعيفاً، وذلك على عكس خلقهم يوم القيامة؛ لأنهم حينئذ يخلقون للبقاء.

فالآية ذامّة خُلُقاً ذميماً في بعض الناس، يَدْعون في الخير، فيريدون تعجيل الإجابة، ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشرّ، فلو عُجِّل لهم لهلكوا. ومن حكمة الله تعالى أن آمن بالنبي ﷺ قومه العرب وآخرون من الأمم، ومن يكفر يعاقبه الله بالقتل أو يؤخره إلى يوم القيامة، وهذا معنى قوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾.

٢ً - لا يعجل الله للناس الشر، فربما يتوب منهم تائب، أو يخرج من أصلابهم مؤمن. وقد رحم الله تعالى العالم كله بالنبي ﷺ، فرفع عن الأمم عذاب الاستئصال؛ لأنه رحمة للعالمين.

٣ً - الإنسان في جميع حالاته الاضطرارية لا يجد ملجأ أمامه سوى الله تعالى فيدعوه لكشف ما تعرض له من ضرّ، ولكنه سرعان ما ينسى ربه، ولا يكون وفياً لفضل الله عليه، فإذا نجا وكشف الله عنه الضر، استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ.

٤ً - وكما زيِّن للإنسان الدعاء عند البلاء، والإعراض عند الرخاء، زُيِّن للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي، وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله بخذلانه وتخليته، ويجوز أن يكون من الشيطان بوسوسته. وإضلال الشيطان: دعاؤه إلى الكفر.

سنة الله في إهلاك الأمم الظالمة الكافرة واستخلاف خلائف بعدهم

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

الإعراب:

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ ﴿لَمَّا﴾: ظرف لأهلكنا. ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ اللام لتأكيد النفي.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ عطف على ﴿ظَلَمُوا﴾، أو حال من واو ﴿ظَلَمُوا﴾ بإضمار: قد.

﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ كيف: معمول ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ومنصوب به.

البلاغة:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في النظر استعارة تمثيلية، حيث شبه حال العباد مع الله، بحال رعية مع حاكمها، في إمهالهم للنظر في أعمالهم، واستعير المشبّه

به للمشبه للتقريب والتمثيل، لكن ليس كمثل الله شيء. واستعير لفظ النظر للعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡقُرُونَ﴾ الأمم، جمع قرن: وهم القوم المقترنون في زمان واحد. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بالشرك والتكذيب. ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدلالات الواضحات الدالة على صدقهم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء: وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم. ﴿نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ يا أهل مكة. ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر. ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ فيها، أتعملون خيراً أو شراً، فنعاملكم على مقتضى أعمالكم، وهل تعتبرون بالأمم السابقة، فتصدقوا رسلنا. وننظر: نشاهد ونرى.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أنهم كانوا يتعجلون العذاب، وأوضح أنه لا فائدة في إجابة دعائهم، ثم ذكر أنهم كاذبون في هذا الطلب؛ إذ لو نزل بهم ضر، تضرعوا إلى الله تعالى في إزالته وكشفه، بيَّن هنا ما يجري مجرى التهديد: وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال، كما أنزله في الأمم السابقة، ليكون ذلك رادعاً لهم عن مطلبهم تعجيل العذاب.

التفسير والبيان:

يخاطب الله تعالى أهل مكة ويخبرهم بأنه أهلك كثيراً من الأمم قبلهم بسبب

ظلمهم وتكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات، كما قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٩] وهلاك تلك القرى والأمم بالظلم: إما بعذاب الاستئصال لأقوام الرسل الذين كذبوا بهم مثل قوم نوح وعاد وثمود، وإما بإضعافهم واستيلاء الأمم القوية عليهم بسبب ظلم الأفراد بالفسق والفجور أو ظلم الحكام.

لقد أهلكناهم لما كذبوا بالبينات الدالة على صدق رسلهم، وما كانوا ليؤمنوا، أي وما كانوا يؤمنون حقاً، وهو تأكيد لنفي إيمانهم، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل.

كذلك.. أي مثل ذلك الجزاء أي الإهلاك، نجزي كل مجرم. وهذا وعيد شديد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ.

ثم خاطب الله الذين بعث إليهم محمد ﷺ بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أي جعلناكم خلفاء في الأرض بعد تلك القرون التي أهلكنا، لننظر أتعملون خيراً أم شراً، وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له.

وفي هذا بيان بأن أمة الإسلام ستكون لها الخلافة في الأرض إذا لازمت الطاعة واتبعت هدي القرآن: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥] وقد تمت هذه فملكوا ملك كسرى وقيصر وفرعون وكثير من الأمم. وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفُكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء».

والخلافة منوطة بالأعمال الصالحة، لا بمجرد الوراثة للصفة الإسلامية.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى المبادئ التالية:

١ً - إن إهلاك الأمم الظالمة قديماً وحديثاً إنما يكون بسبب الظلم، والظلم: إما الكفر والشرك، وإما طغيان الأفراد أو الحكام.

٢ً - هذه الآية تخويف ووعيد لأهل مكة الكفار ولأمثالهم على تكذيبهم رسول الله ﷺ، فالله قادر على إهلاك الأمة التي تكذب محمداً ﷺ، ولكن حكمته اقتضت إمهالهم لعلمه بأن فيهم من يؤمن، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن. وهكذا حال الأمم الحالية، نرى في كل أمة اتجاهاً إلى إيمان الآلاف منهم بعقيدة الإسلام ونظامه.

٣ً - هذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان.

٤ً - الاستخلاف في الأرض منوط بالعمل الصالح، فالله يستخلف قوماً بعد آخرين لينظر كيف يعملون، خيراً أو شراً، فيعاملهم على حسب عملهم. وبما أن الله يعلم ما سيكون في المستقبل في كل أنحاء الكون ومن المخلوقات، فيكون المقصود إقامة الدليل الحسي والمادي المشاهد على الناس من خلال أعمالهم الواقعية، لذا قال المفسرون كالرازي:

ليس معنى الآية بأن الله تعالى ما كان عالماً بأحوال الخلق قبل وجودهم، وإنما المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه، كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢] .

مطالبة المشركين بقرآن آخر أو بتبديل بعض آياته

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿بِقُرْءَانٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (بقران).

﴿لِىٓ أَنْ﴾ .. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: (لِيَ أن... إنيَ أخاف).

﴿نَفْسِىٓ إِنْ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (نفسيَ إن).

الإعراب:

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال. ﴿مِن تِلْقَآئِ﴾ مصدر استعمل ظرفاً.

البلاغة:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ.

المفردات اللغوية:

﴿ءَايَاتُنَا﴾ القرآن. ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ ظاهرات. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وهم المشركون الذين لا يخافون البعث. ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه عيب آلهتنا، ولا ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت. ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ بنفسك بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما ينبغي وما يصح لي. ﴿إِنۡ﴾ ما. ﴿عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بتبديله. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة. وهذا يعني أنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلمكم به على لساني، ﴿وَلَآ﴾: نافية عطف على ما قبله والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى، لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تشتهونه. ﴿لَبِثۡتُ﴾ مكثت. ﴿فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ أربعين سنة. ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ لا أحدثكم بشيء. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنه ليس من قبلي، أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه، لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي لا أحد. ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه. ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ القرآن فكفر بها. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن. ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾ لا يسعد. ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المشركون.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى شبهتين للمشركين، وهما التعجب من إنزال الوحي على بشر وتخصيص محمد بالنبوة، والمطالبة بتعجيل العذاب إن كان ما يقول محمد حقاً، ثم أثبت لهم الألوهية والتوحيد والقدرة على الوحي والبعث بخلق العالم وبطبيعة الإنسان وتار يخه وغرائزه، ذكر هنا النوع الثالث من شبهاتهم في الطعن في نبوة النبي ﷺ، وهو التشكك في القرآن، لذا طالبوه بأحد أمرين: أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن، أو أن يبدل هذا القرآن. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول

عليه الصلاة والسلام وبالقرآن: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة، فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر، كما قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٥] فذكر تعالى أنهم كلما تليت عليهم آيات: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

التفسير والبيان:

إذا قرأ الرسول ﷺ على المشركين كتاب الله وحججه الواضحة، قالوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي رُدَّ هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، ليس فيه ما يعيب آلهتنا ولا ما لا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال، أو بدّله إلى وضع آخر، بأن تجعل مكان آية الوعيد آية أخرى.

ومقصدهم من هذه المساومة إذا نفَّذ اقتراحهم إبطال دعواه أن القرآن كلام الله. وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب، أي أنهم مكذبون بالحشر والنشر.

فأمره الله أن يقول رداً عليهم: ما يصح لي وليس من شأني أن أبدل هذا القرآن من قبل نفسي، فإني ما أتبع فيه إلا ما يوحى إلي، وهو ما أبلّغكم به، وما علي إلا البلاغ، فهو كلام الله تعالى، والمتبع لغيره في أمر ليس له التصرف فيه.

وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل، لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر.

فقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ تعليل لما يكون، ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ أي إني أخشى إن ارتكبت أي مخالفة أو عصيان لما أمر ربي عذاب يوم عظيم هو عذاب النار يوم القيامة.

وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

ثم احتج لهم في مجال صحة ما جاءهم به، وهو جواب عن طلبهم الأول تغيير القرآن، بقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: لو شاء الله ألَّا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم، فإنما أتلوه بأمره، وجئتكم به بإذنه، وأفعل ذلك بمشيئته وإرادته. ولو شاء الله ألَّا يُعلمكم به بإرسالي إليكم، لما أرسلني، ولما أعلمكم الله به ولا أخبركم به، ولكنه شاء أن يرفدكم بهذا الكتاب المشتمل على الهدى والسعادة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٢] .

والدليل على ما أقول أني لبثت فيكم مقدار عمر أربعين سنة من قبل نزول القرآن، لا أتلو شيئاً منه ولا أعلمه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر في أن من عاش أمياً أربعين سنة، لم يقرأ كتاباً، ولا تعلم من أحد، ولا خطّ بيمينه شيئاً من الكلام، لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولكل العلماء، فأنتم وغيركم من الإنس والجن لم تستطيعوا معارضته.

وهذه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة؛ لأنه كلام الله، وليس كلام بشر، بدليل أنكم فرسان البلاغة والفصاحة وأساطين البيان، ولم تأتوا بسورة من مثله؛ لأن فصاحته بذّت فصاحة كل منطيق، وعلا عن كل منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد الأصول والفروع، وأعرب عن قصص الأولين، وأخبر عن مغيبات المستقبل، وجاء مطابقاً للعلوم الصحيحة والنظريات العلمية الثابتة: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٨] .

فلا أحد أظلم من رجلين: أحدهما - من افترى على الله الكذب بنسبة

الشريك أو الولد إليه، أو بتبديل كلامه على النحو الذي اقترحتموه، أو بالتقول على الله والزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك. والثاني - من كذّب بآيات الله البينة، فكفر بها، ثم علل تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ أي إنه لا يفوز ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، أي الكافرون في الآخرة، فالمقصود من قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ نفي الكذب عن نفسه. والمقصود بقوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث كذبوا بآيات الله.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - التسجيل الواضح الفاضح لكلام المشركين المطالبين إما الإتيان بغير القرآن وإما تبديله، والفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه غيره، وأما التبديل فلا يجوز أن يكون معه غيره. وسبب هذا الطلب إما السخرية والاستهزاء، وإما التجربة والامتحان.

ومضمون الأمرين: إما إسقاط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وإما تحويل الوعد وعيداً، والوعيد وعداً، والحلال حراماً والحرام حلالاً، وإما إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. ويصح إرادة كل هذه الأشياء.

٢ - رفض مطالب المشركين، وإعلان كون القرآن كلام الله، وأن مهمة الرسول ﷺ مقصورة على تبليغ ما يوحى إليه، واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعيد، وتحريم وتحليل، وأمر ونهي.

٣ - الموقف الثابت من عدم التبديل والتغيير لشريعة القرآن، والإصرار على العمل بالقرآن إنما هو بسبب التعرض لعذاب عظيم يوم القيامة.

٤ - المقصود من إنزال القرآن تبليغه إلى جميع الناس، ولا سيما المشركون،

ولولا أن تكون مشيئة الله ذلك لما أنزله، ولما أمر بتلاوته عليهم، ولما أخبرهم بمضمونه.

٥ - القرآن كلام الله بدليل إعجازه من حيث النظم والأسلوب والمبنى، ومن حيث المعاني التي اشتمل عليها، وبدليل كون المبلِّغ له أمّياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم من أحد، وبدليل التحدي لمعارضته والإتيان بمثله أو بأقصر سورة من مثله.

٦ - لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افترى على الله الكذب، وبدَّل كلامه وأضاف شيئاً إليه مما لم ينزله، وكذلك لا أحد أظلم منكم أيها المشركون والكفار إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب، وقلتم: ليس هذا كلامه.

٧ - لا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين، والإجرام مصيره الخيبة حتماً.

عبادة الأصنام وادعاء شفاعتها

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عما تشركون).

الإعراب:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

﴿يَضُرُّهُمْ﴾ حملاً على معنى ﴿مَا﴾ لأنها ههنا في معنى الجمع، وإن كان لفظها مفرداً، كما أن ﴿مِن﴾ تقع على الجمع، وإن كان لفظها مفرداً.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف في ﴿يَعْلَمُ﴾ مؤكدة للنفي، منبهة على أن ما تعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما: موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء أو عن إشراكهم.

البلاغة:

﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ استفهام تقريع وتهكم بهم.

المفردات اللغوية:

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه وهو الأصنام؛ لأنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عنها ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا وفي الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه. ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ أتخبرون ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً، إذ لو كان له شريك لعلمه، إذ لا يخفى عليه شيء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله؛ لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي اتخذوها آلهة لأنفسهم، ندد بعبادتهم تلك الأصنام وجَعْلِها شفعاء، مع أنها جماد لا تضر ولا تنفع، ولا برهان لهم على ما يدّعون، فكيف يليق بالعقلاء عبادتها من دون الله؟!

التفسير والبيان:

ينكر الله تعالى على المشركين أمرين: عبادة الأصنام وجعلها شفعاء لهم عند الله، ظانين أنها تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً.

إن أكثر العرب كانوا يعترفون بالخالق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٩] وينكرون البعث، ويعبدون الأصنام، وهي لا تنفع ولا تضر؛ لأنها حجارة أو أجسام مصنوعة، فهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٦] .

فهم يزعمون وجود قدرة للأصنام على النفع والضرر، وأنها وسطاء تملك الشفاعة لهم عند الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣٩/٣] فهذان هما السببان في عبادتهم الأصنام. روي أن النضر بن الحارث قال: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ أي قل أيها الرسول لهم: لا دليل لكم على ما تدعون، أتخبرون الله بما لا وجود له في السماوات ولا في الأرض، وما لا يعلمه من هؤلاء الشفعاء؟ نظيره قوله: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٣/٣٣] ونفي العلم دليل على عدم وجود تلك الشفعاء والشركاء لله، فلاشيء من الموجودات السماوية والأرضية إلا وهو حادث مقهور مثلهم، لا يليق أن يشرك به.

ثم نزّه الله تعالى نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتعاظم وتعالى علواً كبيراً عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء، فهو منزه عن إشراكهم وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

١ - عبد المشركون الأصنام مع اعترافهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى لأمرين: اعتقادهم فيها القدرة على الضرر والنفع، وأنها تملك الشفاعة لهم عند الله في أمور الدنيا والآخرة. وهذا غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال، وتركوا عبادة الموجد الضار النافع.

٢ - عبادة المشركين الأوثان واتخاذها شركاء لله افتراء على الله بوجودها، فلا وجود أصلاً لتلك الشركاء في السماوات والأرض؛ لأن الله لا يعلم لنفسه شريكاً في السماوات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريك له، فلذلك لا يعلمه، فلو كان موجوداً لكان معلوماً لله تعالى، وحيث لم يكن معلوماً لله تعالى وجب ألا يكون موجوداً.

٣ - دل قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ على أنه أعظم من أن يكون له شريك.

قال الزمخشري عن ﴿عَمَّا﴾ ما: موصولة أو مصدرية. أي عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

٤ - أثبتت الآية بطلان الشرك في الألوهية: وهو عبادة غير الله مطلقاً، وبطلان الشرك في الربوبية: بادعاء وساطة المعبود في الخلق والتدبير، أو الشفاعة عند الله.

الأصل في الناس جميعاً كونهم على الدين الحق

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي على دين واحد وهو دين الإسلام من لدن آدم إلى نوح، أو من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لُحَيّ الذي سنّ للعرب عبادة الأصنام ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بأن ثبت بعض وكفر بعض ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو تأخير الجزاء والعذاب الفاصل إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الناس عاجلاً في الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بإهلاك المبطلين وهم الكافرون، وإبقاء المحقين وهم المؤمنون.

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة على بطلان عبادة الأصنام، بيَّن سبب حدوث هذا المذهب الفاسد، وأن هذا الشرك حادث في الناس بسبب الاختلاف أي اتباع الهوى والباطل، بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد هو الدين الحق وهو دين الإسلام.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٢].

التفسير والبيان:

ما كان الناس في كل زمن إلا أمة واحدة على الفطرة النقية المؤمنة بالله تعالى

وحده لا شريك له، أي فطرة الإسلام والتوحيد. ثم اختلفوا بعدئذٍ في الأديان باتباع الأهواء والأباطيل، أو عند بعثة الرسل فتبعتهم طائفة وأصرّت أخرى على الضلال. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣] ويؤيده قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه»(١).

فكل الناس كانوا جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام، ثم اختلفوا فبعث الله الأنبياء والمرسلين لهدايتهم وإزالة الاختلاف بكتاب الله، فمنهم من آمن واهتدى، ومنهم من ضل واعتدى، ثم اختلفوا في كتاب الله اتباعاً لأهوائهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، أي ولولا ما تقدم من الله تعالى من كلمة حق في جعل الجزاء الفاصل بين الناس يوم القيامة؛ فإنه يوم الفصل والجزاء، لعجّل لهم العذاب في الدنيا بإهلاك المبطلين، وتعذيب العصاة بسبب اختلافهم، ولقضي بينهم فيما اختلفوا فيه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٣].

وفي هذا وعيد على الاختلاف في أصول الاعتقاد وفي الكتاب الذي أنزل لإعادة الناس إلى الوحدة الأولى وإزالة الشقاق بينهم. كما أن فيه تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به، وبياناً لطبع الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآية أحكاماً ثلاثة:

(١) رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع، وهو حديث صحيح.

١ - الأصل في الإنسان كونه على دين الفطرة والتوحيد، وهذا دليل على عدل الخالق ورحمته، فإنه تعالى خلق كل إنسان موحداً، وحكم ببقائه على التوحيد إلى البلوغ، ثم تركه للعقل والتفكر في الوحي الإلهي.

٢ - الاختلاف على الأنبياء والكتب الإلهية بسبب اتباع الهوى والباطل هو سبب تفرق الناس وانقسامهم إلى مؤمنين وكفار.

٣ - سبق القضاء والقدر وتم حكم الله بأنه لا يقضي بين العباد فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة، ولولا ذلك الحكم السابق والتأجيل المتقدم، لقضى الله بين الناس في الدنيا، فأدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار بكفرهم، وهو موعدهم يوم القيامة الذي جعله الله لحكمة بالغة هي إعطاء الفرصة الكافية للإنسان في تصحيح عقيدته، وتعديل وضعه، والتوبة من عصيانه وكفره وضلاله، حتى لا يؤخذ على حين غرّة.

طلب المشركين إنزال آية كونية

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي أهل مكة ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي آية حسية كونية مادية من الآيات التي اقترحوها، كما كان للأنبياء من ناقة صالح، والعصا واليد لموسى، والمائدة لعيسى عليهم السلام ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فقل لهم: إنما الغيب (وهو ما غاب عن العباد) لأمر الله، فهو المختص بعلمه، ولا يأتي بها إلا هو، وإنما علي التبليغ، ولعله لا ينزلها، لعدم الفائدة في إنزالها، فقد نزلت آيات كثيرة ولم يؤمن بها المعاندون

الجاحدون، والمانع من إنزالها أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه، أو العذاب إن لم تؤمنوا ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل عليه من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى ثلاث شبهات للمشركين للطعن في نبوة محمد ﷺ (وهي عجبهم من نزول الوحي على محمد، وتعجلهم العذاب إن كان صادقاً، وتشككهم في القرآن) ذكر هنا شبهة رابعة لإنكار نبوته، وهي أن الكتاب لا يكون معجزاً، بدليل أن كتاب موسى وعيسى ماكان معجزة لهما، بل كان لهما معجزات أخرى دلت على نبوتهما، وكان في مشركي العرب من يدعي إمكان معارضة القرآن، لقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣١] وإنما لابد لإثبات نبوته من نزول آية كونية حسية مادية غير هذا القرآن، ليكون معجزة له.

هذا مع العلم بأن القرآن الكريم اشتمل على آيات علمية وعقلية دالة على النبوة والرسالة.

التفسير والبيان:

ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون قولاً متكرراً: هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية حسية مشاهدة كالتي نزلت على نوح وشعيب وهود وصالح وموسى وعيسى، أو أن يحول الصفا لهم ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر.

وقد حكى القرآن عنهم في مواضع كثيرة هذا الطلب بإنزال معجزات مادية، وأجاب عنه إما مجملاً كما هنا، وإما مفصلاً، كما في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧-٨] ثم في آيات بعدها: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/١٠].

وفي سورة الإسراء طالبوا بواحدة من بضع آيات: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠-٩٣].

وكان الرد الحاسم على مثل هذه الاقتراحات قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٩] أي كذب بها قوم عاد وثمود وغيرهم. وقضينا ألا نعاملهم بمثل معاملة الأقوام الغابرة، فنستأصلهم؛ لأن محمداً خاتم النبيين، ورحمة عامة شاملة للعالمين، وقد يلد منهم من يؤمن ويوحد الله تعالى.

ومع كل هذا آتى الله نبيه آيات علمية وكونية، ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته، ولا طالبهم بالإيمان بموجبها، بل كانت لضرورة كاستجابة بعض أدعيته ﷺ، كشفاء المرضى، وإشباع العدد الكثير في غزوتي بدر وتبوك من الطعام القليل، وانشقاق القمر نصفين، وحنين الجذع، وتكليم الضب، ونحو ذلك مما هو معروف مستقصى في كتب السنة والسيرة مثل أعلام النبوة للماوردي.

وبالرغم من تلك الآيات، ظل القرآن الكريم هو معجزة النبي ﷺ الخالدة، ولعل عصرنا بما اكتشف فيه من اختراعات عجيبة، وظهرت فيه نظريات

كونية وعلمية تتفق مع الأخبار الواردة في القرآن، يؤيد الاكتفاء بهذه المعجزة. روى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «مامن نبي إلا وقد أُعطي من الآيات مامِثْلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وكان الجواب الإجمالي في هذه الآية: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي إن تلبية مقترحاتكم ونزول الآية من الأمور الغيبية، والله وحده هو المختص بعلم الغيب، فلا يعلم به إلا هو، والأمر كله لله، وهو يعلم عواقب الأمور، وليس لي ولا لأحد علم بالغيب المستأثر به سبحانه وتعالى، فإن قدَّر إنزال آية علي، فهو يعلم وقتها.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون بي حتى تشاهدوا ما سألتم من نزول الآيات المقترحة، فانتظروا حكم الله في وفيكم، وهو ما سيحلُّ بكم من العذاب لعنادكم وجحودكم بالآيات.

وقد فسَّر الله تعالى ما ينتظر في القسم الأخير من هذه السورة: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [١٠٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآية أمرين:

١ً - علم الغيب ومنه الوحي وإنزال المعجزات والآيات الكونية مختص بالله تعالى، وما النبي إلا رسول موحى إليه، يبلّغ ما أنزل إليه من ربه.

٢ً - تهديد كفار مكة وأمثالهم بحلول العذاب إن لم يؤمنوا برسالة النبي ﷺ، وإنذارهم بفصل القضاء بينه وبينهم بنصره عليهم، وإظهار المحق على المبطل.

عادة الكفار المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلَنَا﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ :

وقرأ ابن عامر (يَنْشُرُكم) - من النشر -

﴿مَّتَٰعَ﴾ : قرئ:

١- (متاعَ) وهي قراءة حفص.

٢- (متاعُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ : مبتدأ، و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ : خبره.

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ منصوب إما بفعل مقدر، تقديره: تبتغون متاع الحياة الدنيا، أو على المصدر المؤكد بفعل مقدر تقديره: تمتعوا متاع الحياة الدنيا. ويقرأ بالرفع خبراً بعد خبر لبغيكم، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو متاع الحياة الدنيا. ويقرأ بالجر على غير المشهور على البدل من الكاف والميم في ﴿أَنفُسِكُمۖ﴾ وتقديره: إنما بغيكم على متاع الحياة الدنيا.

﴿جَآءَتۡهَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدل من: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ بدل اشتمال؛ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ على إرادة القول، أو مفعول: دعوا؛ لأنه من جملة القول. ولام ﴿لَئِنۡ﴾: لام القسم.

البلاغة:

﴿أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ المكر: إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر، وتسمية عقوبة الله مكراً من باب «المشاكلة».

﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة، لزيادة التقبيح والتشنيع على الكفار، لعدم شكرهم النعمة، وللتعجب من حالهم والإنكار عليهم.

المفردات اللغوية:

﴿أَذَقۡنَا﴾ أصل الذوق: إدراك الطعم بالفم، ويستعمل مجازاً في إدراك غيره من الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة، والعذاب والنقمة .﴿ٱلنَّاسَ﴾ أي كفار مكة ﴿رَحۡمَةً﴾ مطراً وخصباً وصحة وسعة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾ بؤس، وجدب أو قحط، ومرض ﴿مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها بالاستهزاء والتكذيب ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ المكر: التدبير

الخفي الذي يفضي بالغير إلى مالا يتوقعه، والمراد هنا: مجازاة أو جزاء على المكر، أو المراد الاستدراج ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة.

﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ يسخّر لكم، أو يعطيكم أداة السير من سفينة أو دابة أو سيارة أو طائرة ونحوها، أو يحملكم على السير ويمكنكم منه، والتسيير بإيجاز: التمكين من الانتقال بالنفس أو بالواسطة ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفن أو السفينة، جمعاً أو واحداً ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة، والطيب من كل شيء: ما يوافق الغرض والمنفعة، يقال: رزق طيب، ونفس طيبة، وشجرة طيبة ﴿جَآءَتْهَا﴾ الضمير للفلك أو الريح الطيبة أي تلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، تكسر كل شيء، وذات عصف ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أهلكوا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الدعاء ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الموحدين.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي فاجؤوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه، والبغي: الزيادة على القصد والاعتدال حتى الوقوع في الفساد والظلم، كالشرك، وبغير الحق أي مبطلين فيه. وأما الفساد بحق كتخريب الديار وإحراق الزروع وقطع الأشجار في حالة الحرب فهو إفساد بحق ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي ظلمكم أي وباله وإثمه عليكم ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تمتعون فيها قليلاً ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي بعد الموت ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنجازيكم.

المناسبة:

بعد أن ردَّ الله تعالى على المشركين الطالبين إنزال آية كونية غير القرآن، بأن هذا من الغيب المستأثر به الله تعالى، ذكر جواباً آخر، وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم؛ لأن عادتهم المكر والجحود والعناد وعدم الإنصاف، فكثيراً ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله ثم يمكرون فيها، فهم إن أصابتهم الشدة تضرعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا.

التفسير والبيان:

موضوع هذه الآيات الرد على الكفار الذين يطلبون الآيات الكونية، فإذا تحققت لم يعتبروا ولم يتعظوا، مما يدل على سوء طبع الإنسان وتأصل خلق السوء فيه، وتنكره للأدلة العقلية والحسية، والقواعد الخلقية أيضاً التي تقتضي الوفاء بالمعروف وشكر النعمة الإلهية. وهذا المذكور في الآيات مثال لسوء الطبع والانقلاب على الفطرة.

إذا أذاق الله الناس رحمة، ورزقهم فضلاً، من بعد ضرَّاء مستهم[١]، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك، إذا هم يسرعون بالمفاجأة الغريبة وهي المكر في مقام الحمد والشكر، والمراد بالمكر: الاستهزاء والتكذيب لها، أو الطعن فيها والاحتيال في دفعها، والتنكر لها.

وهكذا إذا رزق الله المطر، قال الإنسان: مطرنا لأنا في فصل الأمطار، أو لأن الكوكب الفلاني طلع، وإذا نجا من مكروه أو شدة، قال: نجوت صدفة، وإذا نجح في مشروع ما، نسب النجاح إلى تفوقه ومهارته وذكائه، ولم يذكر توفيق الله له، كما قال قارون: إنما أوتيته أي المال على علم عندي، وإذا رفع الكرب بدعاء نبي، لم يقروا له بالفضل، كما حدث لمشركي مكة، روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم نسبوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء[٢]، وكل ذلك لمقابلة النعمة بالكفران.

---

(١) ذكر هذا القيد لأن الشعور بالنعمة بعد زوال البؤس والشدة أكمل وأتم وأفرح.

(٢) النوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً، ما خلا الجَبْهة فإن لها أربعة عشر يوماً. وكانت العرب تُضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقيل: إلى الطالع منها؛ لأنه في سلطانه، والجمع أنواء.

والقصة هي كما روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«أن قريشاً لما استعصَوْا على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسِني سيدنا يوسف، فأصابهم قحط وجَهْد، حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٠-١١] فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قوماً ربما هلكوا، فادع الله لهم، فدعا لهم، فكشف الله عنهم العذاب، ومُطِروا، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون في آيات الله، ويعادون رسوله ﷺ، ويكذّبونه».

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الله أسرع جزاءً لكم على أفعالكم قبل أن تدبروا مكائدكم لإطفاء نور الإسلام، أو أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي إن الحفظة أو الكتبة من الملائكة الكرام يكتبون جميع ما تفعلونه وتدبرونه أو تخططون له، ويحصونه عليكم، ثم يعرضونه على الله عالم الغيب والشهادة، فيجازي كلاً منكم على الجليل والحقير. وفي هذا دلالة على تمام الحفظ والعناية وعدم خفاء تدبيرهم على الله تعالى، وعلى أن عقابه واقع بهم لا محالة.

ثم ضرب الله مثلاً للمشركين المعاندين على مقابلتهم النعمة بالجحود، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي إن الله تعالى هو الذي يمكنكم من السير والانتقال بالنفس أو بالوسائط المعروفة في البر بالدواب والسيارات والقطارات وفي البحر بالسفن والمراكب، وفي الجو فوق البر والبحر بالطائرات فوق الهواء.

حتى إذا كنتم راكبين في الفلْك (السفينة أو السفن) وجرت بكم في البحر بسبب ريح طيبة مواتية للاتجاه في جهة السير، وفرحتم بما تحقق لكم من راحة وقطع مسافة، ثم جاءت تلك السفن ريح عاصفة شديدة قوية، فاضطرب البحر، وتلاطمت بالأمواج العالية من مختلف الجهات، وظننتم أي اعتقدتم أنكم هالكون لا محالة بسبب إحاطة الموج، فلم تجدوا ملجأ إلا الله، فدعوتموه مخلصين له الدعاء والعبادة والتضرع، ولم تتجهوا إلى آلهتكم من الأوثان، وقلتم: لئن أنجانا الله من هذه المخاطر الجسيمة، لنكونن من جماعة الشاكرين النعمة، الموحدين الله، ثم بعد النجاة عدتم إلى الكفر، كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٠/١٢] .

وقال هنا: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أي فلما نجاهم من تلك الورطة، عادوا فجأة إلى سيرتهم الأولى من البغي وإلحاق الظلم بالنفس وبالآخرين، وكأن شيئاً لم يكن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٦٧] .

ثم خاطب الله الناس البغاة الذين لم يعتبروا ونكثوا العهد مع الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي إنما وبال هذا البغي وجزاؤه وإثمه على أنفسكم في الدنيا والآخرة ولا تضرون به أحداً غيركم، أما في الدنيا فأنتم تتمتعون به متاعاً زائلاً لا قرار له، وأقله توبيخ الضمير والوِجدان، أو المعاملة بالمثل، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والبخاري: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يُدَّخر له في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم» وفي حديث آخر رواه الترمذي عن عائشة: «أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقاباً البغي وقطيعة الرحم» «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين».

وأما في الآخرة فالجزاء المحقق على البغي في النار، وهذا ما أفاده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي إن مصيركم ومآلكم إلينا يوم القيامة، يوم الفصل والجزاء، فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، ونجازيكم عليها الجزاء الأوفى المناسب، بسبب ما كنتم تعملون، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. وفي هذا تهديد كاف ووعيد شافٍ.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ً - إن مقابلة النعمة الإلهية بالجحود والإنكار، والتكذيب بآيات الله، مرصود رصداً تاماً عند الله، والملائكة الحفظة تدون كل شيء، ثم يحاسب الله تعالى كل إنسان على ما قدم وأخر.

٢ً - إن الفضل في إنقاذ الإنسان ونجاته من ألوان المخاطر والشدائد والأهوال هو لله تعالى وحده.

٣ً - دلت هذه الآية على ركوب البحر مطلقاً، وأكدت السنة ذلك، مثل حديث أنس في قصة أم حِرام، الذي يدل على جواز ركوبه في الجهاد. ودلت هذه الآية أيضاً على أن سير العباد في البحر من الله تعالى وتوفيقه.

٤ً - الكفار شأنهم نكث العهد وعدم الوفاء بالوعد، فبالرغم مما قد يتعرضون له من مخاطر الغرق، تراهم ينسون ذلك، ويعودون إلى الفساد في الأرض بالمعاصي، والبغي: الفساد والشرك، وهو أشنع أنواع الظلم.

٥ً - البغي من منكرات المعاصي، قال ابن عباس: لو بغى جبل على جبل، لاندك الباغي. والبغي يغلب استعماله في غير الحق، ولا يكون بحق غالباً، ولكن قد يكون بحق كحال تنفيذ القصاص، وحالة الضرورات الحربية وما يتطلبه الجهاد لتحقيق الغلبة والنصر.

٦ - عاقبة البغي يتحمل وزرها الباغي نفسه، سواء في الدنيا بالعقاب العاجل أو الآجل، أو في الآخرة.

مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ فعل ماض، أصله: تزينت، فأدغمت التاء في الزاي بعد قلبها زاياً، وقلبت التاء زاياً ولم تقلب الزاي تاء؛ لأن فيها زيادة صوت وهي من حروف الصفير .﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ مفعول به أول وثانٍ.

﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، أي كأنها.

البلاغة:

﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ استعارة، شبه الأرض حينما تتزين بالنبات والأعشاب والأزهار، بالعروس المزينة بالحلي والثياب، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو الزخرف على سبيل الاستعارة المكنية.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ كناية عن العذاب والدمار.

المفردات اللغوية:

﴿مَثَلُ﴾ صفة عجيبة تشبه المثل في الغرابة، و﴿مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي

حالها العجيبة في سرعة انقضائها وذهاب نعيمها، بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿كَمَآءٍ﴾ مطر ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الزروع والبقول وغيرها ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الحشيش ﴿زُخْرُفَهَا﴾ بهجتها من النبات، والزخرف: كمال حسن الشيء ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بالزهر وغيره من النباتات، أي صارت ذات زينة ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من حصدها وتحصيل ثمارها وجني غلتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا أو عذابنا، فاجتاح زرعها ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ جعلنا زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ كالمحصود أو المقطوع بالمناجل لاشيء فيها ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي كأن لم يغن زرعها، أي لم يلبث فلم تكن عامرة، يقال: غني بالمكان: أقام به وعَمَره. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ فيما قبله، وهو مثل في الوقت القريب، والمراد هنا زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً بعدما كان غضاً ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

المناسبة:

ذكر الله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ولما كان سبب بغي الناس هو حرصهم على الدنيا وإفراطهم في التمتع بنعيمها، أتبعه بهذا المثل العجيب لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا، ويعرض عن الآخرة، فكأن الدنيا أرض سقيت ماء، فأنبتت وأزهرت وأثمرت، وحان وقت الحصاد، ثم لم تلبث أن أصابتها فجأة جائحة، فاستأصلتها.

وقد تكرر هذا التشبيه والمَثَل في القرآن كثيراً، كقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠].

التفسير والبيان:

هذا مثل ضربه الله تعالى للحياة الدنيا في سرعة انقضائها وزوال بهجتها

ونعيمها، وهو أن صفة الحياة الدنيا العجيبة كالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء المطر المنزل من السماء، فإذا هطل على الأرض أنبت نباتات شتى تشابكت واختلط بعضها ببعض، منها ما يأكله الناس من زروع وحبوب وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، ومنها ما تأكله الأنعام من أقوات ومراعٍ وغير ذلك. وقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي اختلط بالماء نبات الأرض.

حتى إذا اكتمل نمو النبات وازدهر، و﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي حسنها وزينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بِأبهى أنواع الزينة، أي تزينت وحسنت بما خرج في رباها ووهادها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان وحبوب وثمار، ﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن أهلها الذين زرعوها وغرسوها، أنهم متمكنون قادرون من جذاذها وحصادها والانتفاع بها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها. ويلاحظ أنه أخبر عن الأرض وأراد النبات إذ كان مفهوماً، وهو منها.

وهو معنى قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي نزل بها قضاؤنا المقدر لهلاكها ليلاً أو نهاراً، فجعلناها كالأرض المحصودة، يابسة بعد الخضرة والنضارة، كأن لم تنبت، وكأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٧-٩٨] وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ١١/ ٦٧-٦٨] وجاء في الحديث الذي أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أنس: «يؤتى بأَنْعَم أهل الدنيا، فيُغمسُ في النار غَمْسة، فيقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا، فيغمس في النعيم غَمْسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا».

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي كهذا المثل المبين الذي يوضح حال الدنيا وسرعة زوالها، نبين الحجج والأدلة الدالة على إثبات التوحيد والجزاء وكل مافيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم، لقوم يتفكرون في آيات الله أي يستعملون تفكيرهم وعقولهم في الاتعاظ والاعتبار بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها زوالاً سريعاً، مع اغترارهم بها، وتمكنهم من خيراتها، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها.

وتشبيه الدنيا بنبات الأرض كثير في كتاب الله، مثل الآية السابقة في سورة الحديد، ومثل آية الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [٤٥] وآية الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [٢١].

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادت الآية أن الحياة الدنيا سريعة الزوال والانقضاء، وأن معيشة الناس والأنعام تعتمد على خيرات الأرض، وأن الإنسان عاجز ضعيف أمام قدرة الله وسلطانه، وأن مراد الله وأمره بشيء كالعذاب والهلاك هو النافذ، وأنه تعالى يبين الآيات والأمثال لمن يستخدم تفكيره وعقله فيها، فإن عاقبة هذه الحياة الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي تعلقت الآمال بالانتفاع به، فحين عظم الرجاء بالمنفعة وقع اليأس منها.

والمقصود من الآية ألا يعتمد المرء على نعيم الدنيا بنحو دائم، وألا يغتر بزخارفها، وينسى مايجب عليه نحو الآخرة، فيكون هو الخاسر خسارة كبرى لا تعوض، إذ إنه يكون من الذين خسروا الدنيا والآخرة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤] .

الترغيب في الجنة ووصف حال المحسنين والمسيئين في الآخرة

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿يَشَآءُ إِلَىٰ﴾:

بتسهيل الهمزة الثانية، وبإبدالها واواً خالصة وصلاً قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وقرأ الباقون بإثباتها.

﴿صِرَٰطٖ﴾:

وقرأ قنبل: (سراط).

﴿قِطَعٗا﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي (قِطْعاً).

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ (الذين) مبتدأ، وخبره: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ﴾، على تقدير: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة.

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿كَسَبُوا۟﴾ وجاز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأنها جملة مبينة للأول، وليست أجنبية عنه.

﴿بِمِثۡلِهَا﴾ الباء زائدة، وتقديره: وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها، كما في آية أخرى: ﴿وَجَزَ ٰۤؤُا۟ سَیِّئَةࣲ سَیِّئَةࣱ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] .

﴿قِطَعࣰا مِّنَ ٱلَّیۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ جمع قطعة، ومظلماً حال من الليل، وليس وصفاً لقطع لأنه كان يقال: مظلمة. ومن قرأ بإسكان الطاء، جاز أن يكون ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ وصفاً لقوله: قِطْعاً، وجاز أن يكون حالاً من ﴿ٱلَّیۡلِ﴾.

البلاغة:

﴿أَحۡسَنُوا۟ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿كَأَنَّمَاۤ أُغۡشِیَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعࣰا مِّنَ ٱلَّیۡلِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱللَّهُ یَدۡعُوۤا۟﴾ إلى الإيمان الموصِّل إلى الجنة ﴿دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ أي السلامة وهي الجنة، وتخصيص الجنة بهذا الاسم للتنبيه على ذلك ﴿وَیَهۡدِی مَن یَشَاۤءُ﴾ هدايته بالتوفيق ﴿إِلَىٰ صِرَ ٰطࣲ مُّسۡتَقِیمࣲ﴾ دين الإسلام. وفي تعميم الدعوة بقوله: ﴿یَدۡعُوۤا۟﴾ وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصر على الضلالة لم يرد الله رشده.

﴿لِّلَّذِینَ أَحۡسَنُوا۟﴾ بالإيمان ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿وَزِیَادَةࣱۖ﴾ مايزيد على المثوبة تفضلاً، وهي النظر إلى الله تعالى، كما في حديث مسلم وقيل: الزيادة: الفضل أو تضعيف الحسنات إلى عشر أمثالها. ودليل التفضل قوله تعالى: ﴿وَیَزِیدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٣] ، وغيرها .﴿وَلَا یَرۡهَقُ﴾ يغشى ﴿قَتَرࣱ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ كآبة وهوان، والمعنى لا يرهقهم ما

يرهق أهل النار، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال ﴿خَٰلِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها، بخلاف الدنيا وزخارفها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ عطف على الذين أحسنوا، أي وللذين كسبوا السيئات أي عملوا الشرك ﴿بِمِثۡلِهَا﴾ أي أن يجازى سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها ﴿مِّنۡ عَاصِمٖۖ﴾ ﴿مِنۡ﴾ زائدة، و﴿عَاصِمٖۖ﴾: مانع يعصمهم من سخط الله ومن جهة الله ومن عنده، بخلاف المؤمنين الذين لهم مانع يعصمهم ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾ ألبست ﴿قِطَعٗا﴾ جزءاً ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ لفرط سوادها وظلمتها .﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي أولئك الكفار، فالآية في الكفار، لاشتمال السيئات على الكفر أو الشرك، ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة، فلا يتناولهم قسيمه.

المناسبة:

بعد أن نفّر الله تعالى الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق، رغبهم في الآخرة، ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها. ووجه الترغيب في الآخرة: ماروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلكم شبه سيد، بنى داراً، ووضع مائدة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي، دخل الدار، وأكل من المائدة، ورضي عنه السيد. ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد، فالله السيد، والدار: دار الإسلام، والمائدة: الجنة، والداعي محمد ﷺ»(١). وعن النبي ﷺ أنه قال: «مامن يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها مَلَكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق، إلا الثقلين، أيها الناس، هلموا إلى ربكم، والله يدعو إلى دار السلام»(٢).

---

(١) حديث مرسل عن أبي قلابة عن النبي ﷺ، وجاء متصلاً رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله.
(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

التفسير والبيان:

بعد أن ذكر الله تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي والله يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح المؤديين إلى الجنة، وسماها دار السلام لسلامتها عن الآفات والشوائب والنقائص والأكدار.

ودعاؤه إلى دار السلام وأمره بالإيمان عام لكل الناس. ويهدي من يشاء أي يوفقهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة، وهو دين الإسلام: عقائده وأخلاقه وأحكامه؛ لأنه الطريق الذي لا عوج فيه ولا التواء. والهداية خاصة بالمشيئة، على عكس الأمر بالإيمان.

ومن المعلوم أن الهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، وهي عامة لجميع الناس، وهي الدعوة إلى الإيمان والإسلام، وهداية توفيق وهي خاصة بمن يشاء الله من عباده إلى طريق الاستقامة، ومعناها التوفيق والعون.

والسبب في تلك الدعوة إلى الإسلام مصلحة المدعوين؛ لأن للذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح المثوبة الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠] ولهم أيضاً زيادة: وهي تضعيف ثواب الأعمال الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، والزيادة التي هي أعظم من جميع ما أعطوه هي النظر إلى وجه الله الكريم، بدليل ماروى أحمد ومسلم وجماعة من الأئمة عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ، ياأهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً، يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقّل موازيننا؟ ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم».

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي، ياأهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٥٣/٣١] .

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم شيء مما يغشى وجوه الكفرة من الغبرة التي فيها سواد، والهوان والصغار، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/١١] أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم. والصفة الأولى (القتر) هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٤٠-٤١] والصفة الثانية (الذلة) هي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢-٣] .

أولئك المتصفون بهذه الصفات هم أهل الجنة لا غيرهم، وهم المقيمون الماكثون فيها أبداً، لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها.

ولما أخبر تعالى عن حال السعداء، عطف بذكر حال الاشقياء، كما هو الشأن الغالب في الموازنة والمقارنة في الأسلوب القرآني، وشأنه تعالى مع الفريق الأول الفضل والإحسان، ومع الفريق الثاني المعاملة بالعدل.

فللذين اقترفوا السيئات والمعاصي في الدنيا ومنها الكفر والشرك والظلم الجزاء العادل وهو المجازاة على السيئة بمثلها، لا زيادة عليها كقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠] ، وتغشاهم أي تعتريهم وتعلوهم ذلّة من فضيحة معاصيهم

وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٥] وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢-٤٣].

ثم قال: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لهم مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب، أي لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٩] وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٠-١٢].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي ألبست وجوههم أجزاء أو أغشية من سواد الليل المظلم؛ لفرط سوادها وظلمتها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٦-١٠٧] وقوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٨-٤٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات هم لا غيرهم أصحاب النار، هم فيها خالدون، دائمون فيها، لا يزحزحون عنها.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات صريحة في الدعوة إلى السعادة الأبدية، والخلود في الجنان، من طريق الإيمان والعمل الصالح.

وهي موضحة معالم الطريق، معلنة أن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا، بل

يدعوكم إلى الطاعة: طاعة أحكامه، لتصيروا إلى دار السلام، أي إلى الجنة. قال قتادة والحسن: السلام: هو الله، وداره الجنة. وسميت الجنة دار السلام؛ لأن من دخلها سلم من الآفات.

وقد عم بقوله ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ جميع الناس بالدعوة إلى دائرة الإيمان، إظهاراً لحجّته، وخص بالهداية من شاء من عباده استغناء عن خلقه، وتمييزاً بين الأمر والإرادة، فهناك دعوة عامة دعا فيها جميع الخلق إلى دار السلام، وهداية خاصة مغايرة لتلك الدعوة العامة، مشتملة على التوفيق الإلهي.

والصراط المستقيم واحد سواء قلنا: إنه كتاب الله، أو الإسلام.

وللذين أحسنوا العمل في الدنيا المثوبة الحسنى وهي الجنة، والزيادة فضلاً من الله وهي تضعيف الحسنات، والنظر إلى وجه الله الكريم، والشعور بالسعادة الظاهرية والباطنية، فلا غشاوة لغبار مع سواد في محشرهم إلى الله، ولا مذلة ولا إهانة.

وللمسيئين الذين أشركوا بالله شريكاً آخر، وكفروا بنعمته، فلم يقابلوها بالإيمان والإحسان عقاب مماثل لسيئاتهم دون زيادة، أخذاً بالعدل، ويغشاهم الهوان والخزي والذل والعار، ولا عاصم لهم، ولا مانع يمنعهم من عذاب الله، وجوههم مسودّة ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ في حال ظلمته.

جعلنا الله من أهل جنته بفضله ورحمته، وحمانا من عذاب أهل النار، تكرماً وإحساناً وإنعاماً، وهدانا إلى سواء السبيل.

وقد أثبت أهل السنة بهذه الآية وما وضحها من السنة جواز رؤية الله تعالى في الآخرة، وأكد ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/٢٢-٢٣] فأثبت لأهل الجنة أمرين: أحدهما - نضرة الوجوه، والثاني - النظر إلى الله تعالى.

حشر الخلائق وتبرؤ الشركاء من المشركين ومن عبادتهم

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

القراءات:

﴿تَبْلُوا﴾: قرئ:

١- (تتلو) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف. أي تتبع وتُطلب بما أسلفت من أعمالها.

٢- (تبلو) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال، أي نحشر الكل حال اجتماعهم.

﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ﴿مَكَانَكُمْ﴾: اسم فعل لالزموا، كما أن «مَهْ» اسم لاكفف، و «صه» اسم لاسكت. وفتحة النون فتحة بناء لقيامه مقام فعل الأمر. وقال الرازي والسيوطي: منصوب بإضمار: الزموا.

و﴿أَنتُمْ﴾: توكيد لضمير ﴿مَكَانَكُمْ﴾ المستتر، و﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾: معطوف عليه لوجود التوكيد، كقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥] [والأعراف: ٧/ ١٩].

﴿فَزَيَّلْنَا﴾ من زيّلت الشيء من الشيء: إذا نحيته. ولا يجوز أن يكون من زال يزول؛ لأنه يلزم فيه الواو، فيقال: زوّلنا.

﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا﴾ ﴿مَّا﴾: نافية، و﴿إِيَّانَا﴾ مفعول به مقدم لتعبدون، وقدم مراعاة لفواصل الآيات.

﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، أي إنا كنا، واللام في ﴿لَغَـٰفِلِينَ﴾ هي الفارقة بينها وبين النافية.

المفردات اللغوية:

﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي الخلق وهم فريقا المحسنين والمسيئين المذكورين في الآية السابقة، والحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ﴿مَكَانَكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم، وقد سد مسد قوله: «الزموا» ويراد بذلك التهديد والوعيد .﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي الأصنام ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرقنا وميزنا وقطعنا ما بينهم من صلات ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ مجاز عن براءة ما عبدوه من عبادتهم، فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الآمرة بالإشراك ﴿إِن كُنَّا﴾ أي تقول الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دونه من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عز وجل، فتشافههم بذلك، مكان الشفاعة التي زعموها لهم، وعلقوا بها أطماعهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠/ ١٨] .

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك اليوم أو في ذلك المقام ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما قدمت من عمل، فتعاين نفعه وضرره، و﴿أَسْلَفَتْ﴾: قدمت ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مولى، والحق: الثابت الدائم ﴿وَضَلَّ﴾ غاب أو ذهب وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عليه من الشركاء.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى مصير المحسنين والمسيئين يوم القيامة، أعقبه بذكر يوم الجزاء الذي يتم فيه حشرهم، فيحشر العابد والمعبود، ثم يتبرأ المعبود من العابد، ويتبين له أنه ما فُعِل ذلك بعلمه وإرادته. والمقصود نفي الشفاعة، فإن القوم كانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠/١٨] فبين الله تعالى أنهم لا يشفعون لهؤلاء الكفار، بل يتبرؤون منهم، وهو يدل على نهاية الخزي والنكال في حق الكفار.

التفسير والبيان:

هذا مشهد فاصل من مشاهد يوم القيامة، تصفَّى فيه علاقة الشرك بين المشركين وآلهتهم المزعومة، فيقول الله لنبيه: واذكر أيها الرسول يوم نحشرهم أي نجمع أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبَرّ وفاجر، وفيهم الفريقان المذكوران سابقاً وهم المحسنون والمسيئون كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ١٨/٤٧] .

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي الذين اتخذوا مع الله شريكاً: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم، كقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٤] . وفي هذا وعيد وتوبيخ أمام الخلائق.

﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي فرقنا بين الشركاء والمشركين، وقطعنا ما كان بينهم في الدنيا من صلات وروابط.

وتبرأ الشركاء من عابديهم: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي وقال الشركاء لعابديهم: ما كنتم تخصوننا بالعبادة، إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً، فأطعتموهم. وفي هذا أيضاً تهديد ووعيد، وأنه تتبدد حينئذ آمال المشركين في شفاعة الشركاء.

والشركاء: إما الملائكة وعيسى المسيح ونحوهم ممن عبدوا من دون الله، أو الأصنام التي ينطقها الله عز وجل، فتكلمهم بذلك، والأولى أن المراد بالشركاء: كل من عُبِدَ من دون الله تعالى، من صنم وشمس وقمر وملَك وإنسي وجني.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى بالله شاهداً وحَكَماً بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين، وتهديد في حق العابدين.

﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ أي إننا كنا في غفلة تامة عن عبادتكم، لا نعلم بها، ولا ننظر إليها، ولا نرضى عنها، وقال القرطبي. ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل؛ لأنا كنا جماداً لا رُوح فينا؛ أي أنه جعل ﴿إِن﴾ هنا نافية، والحق أنها مخففة من الثقيلة بدليل دخول اللام على: غافلين.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي هنالك في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتذوق وتعلم ما قدمت من العمل من خير وشر، فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه، ليتبين حاله؟ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٨٦/٩] .

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي وأرجعوا إلى الله، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكَم العدل، الحق الثابت الدائم، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، دون تلك الشركاء والأنداد.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وذهب عن المشركين افتراؤهم وما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه، ويتخذون تلك الأنداد آلهة مزعومة، ولم يبق لهم نصير ولا شفيع، والأمر كله يومئذ لله تعالى. فهذا تنبيه على زوال ما يدعون أن أولئك الشركاء شفعاء، وأن عبادتهم تقرّب إلى الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الحشر (أي جمع الخلائق من كل جانب في موقف واحد) أمر ثابت يوم القيامة.

٢ - انقطاع الصلة تماماً بين الشركاء والمشركين يوم القيامة.

٣ - وعيد الكفار المشركين المتكرر في قوله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

٤ - إظهار الخيبة والخزي والإفلاس من عبادة الشرك والمشركين؛ للآية ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٥ - وصف الله تعالى نفسه بالحق؛ لأن الحق منه، كما وصف نفسه بالعدل؛ لأن العدل منه؛ أي كل عدل وحق فمن قِبَله.

٦ - خيبة الآمال التي تعلق بها المشركون في شفاعة الشركاء وتقريبهم إياهم إلى الله تعالى.

والسبب في قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ مع أنه تعالى أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم: هو أن المولى هنا يراد به أنه مولاهم في الرزق وإدرار النعم، وليس بمولاهم في النصرة والمعونة.

إثبات التوحيد بثبوت الربوبية لدى المشركين

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمَيِّتِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (الميْت).

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرئ:

١- (كلمات ربك)، وهي قراءة نافع، وابن عامر.

٢- (كلمة ربك) وهي قراءة الباقين.

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

رسمت بالتاء فمن قرأ بالجمع، وقف بالتاء.

وأما من قرأ بالإفراد، فمنهم من يقف بالهاء، وهم: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

والباقون وقفوا بالتاء.

الإعراب:

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أن وصلتها: يجوز كونها في موضع نصب وجر ورفع،

فالنصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: بأنهم أو لأنهم، فلما حذف حرف الجر اتصل الفعل به فنصبه، والجر: بأن يجعل حرف الجر في نية الإثبات، وإنما حذف للتخفيف، والرفع على أن يكون بدلاً من ﴿كَلِمَتُ﴾.

البلاغة:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهام إنكاري، أي ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى، وقع في الضلال.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم، وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الفعال لهذه الأشياء ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته؛ لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي ليس بعد عبادة الله التي هي الحق إلا الضلال والانحراف ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كيف تصرفون عن الحق أي الإيمان إلى غيره مع قيام البرهان؟

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي كما صرف هؤلاء عن الإيمان ثبتت كلمة ربك أي حكمه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كفروا، وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أو هي ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى جناية المشركين على أنفسهم باتخاذهم الأنداد والشركاء، ذكر أدلة فساد مذهبهم وهو عبادة الأوثان، وإذا فسد مذهبهم ثبت التوحيد، بدليل إقرارهم بأن الرازق ومالك الحواس، والمحيي والمميت هو الله تعالى، فهو سبحانه يحتج على المشركين باعترافهم بوحدانية الله وربوبيته على وحدانية الألوهية.

التفسير والبيان:

قل أيها النبي لمشركي مكة وأمثالهم: من ذا الذي ينزل من السماء المطر، فيكون سبباً في إنبات الأرض بالزرع والزهر والشجر، فيخرج منها حباً وعنباً وقضباً (البرسيم) وزيتوناً ونخلاً وحدائق غُلْباً متشابكة وفاكهة كثيرة ونحو ذلك؟ كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢١] فهي مصدر رزقكم، بسبب بركات السماء والأرض، فيرزقكم منهما جميعاً، دون اقتصار على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته.

ومن الذي أوجد لكم السمع والأبصار، وغيرهما من الحواس، فيملك خلقها وتسويتها على نحو بديع وتحصينها من الآفات، ومن الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها؟ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٣] فهي وسائل العلم والمعرفة وإدراك مافي هذا العالم.

وخص السمع والبصر؛ لأنهما أهم الحواس، وأداة تحصيل العلوم.

ومن الذي بقدرته العظيمة أمر الحياة والموت؟ فيحيي ويميت، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، مثل إخراج النخلة من النواة والطائر أو الحيوان من البيضة أو النطفة، وعكس ذلك كإخراج الحب والنوى وبيض الحيوان ومنيِّه من الشجر والحيوان، وفي هذا دلالة عامة على إيجاد أمارات الحياة والموت، وعلامة الحياة في النبات: النمو، وفي الحيوان: النمو والحركة الإرادية. وفسر بعضهم الحياة والموت بالشيء المعنوي وهو إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والأكثرون من المفسرين يفسرون الآية بالمعنى الأول، وهو إلى الحقيقة أقرب، كما قال الرازي.

وإذا كان المفسرون قد مثلوا للحي بالنطفة وللميت بالبيضة، فهم يلاحظون الوضع الظاهر المشاهد للناس عادة وهي حياة الحركة والنمو،

وهذا لا ينفي ما يقوله الآن علماء الأحياء بأن في البذور والبيض والمني والنطفة حياةأي حياة الخلية، لكن هذه حياة خاصة لا حركة فيها ولا نمو.

ويمكن التمثيل في العلم الحديث لإخراج الميت من الحي بما يطرحه البدن من الخلايا الميتة في الدم والجلد فيخرج مع البخار والعرق، ومثال إخراج الحي من الميت الغذاء الذي يحرق بالنار، ثم يتناوله الإنسان فيتولد منه الدم.

وإذا قال هؤلاء العلماء الجدد: الحي لا يخرج إلا من حي، فإنهم يقررون أن الحياة الأولى هي من خلق الله بدون أي شك.

وعلى أي حال فإن المقصود من الآية إثبات القدرة الكاملة لله تعالى وأنه خالق الموت والحياة، أياً كان المثال؛ لأن إطلاق النص القرآني وعمومه يمكن تطبيقه على ما يقره العلم.

ومن الذي يدبر أمور العالم وبيده ملكوت كل شيء، وهو المتصرف الحاكم الذي لا مُعَقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون؟.

هذه الأسئلة الخمسة لا يملك المشركون إلا أن يقولوا: إن الفاعل هو الله، وأن يجيبوا بأن الموجد والمعدم هو الله تعالى، بلا تردد ولا شك، ومن غير مكابرة وعناد في ذلك، لفرط وضوح الأمر، ولأنه لا جواب في الواقع غيره.

وإذا اعترفوا بالحقيقة، فقل لهم أيها الرسول عندئذٍ: أفلا تقونَ أنفسكم عقاب الله بإشراككم إياه وعبادتكم غيره، مما لا يشاركه في شيء من ذلك، ولا يملك ضراً ولا نفعاً.

فذلكم الذي يتصف بما ذكر من القدرة الخلاقة والإرادة المبدعة هو الله خالقكم ومربّيكم على فضله ومدبر أموركم، وهو المستحق للعبادة، وهو ربكم الثابت ربوبيته بذاته، لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم، فلا إله غيره، ولا معبود سواه.

وإذا كان الله هو ربكم الحق الثابت بذاته، فليس بعد القول الحق والفعل الحق إلا الضلال والباطل، ولا واسطة بين الحق والباطل، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال.

فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال، وكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال؟ ذلك مالا يقبله عقل ولا منطق.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي كما حقت الربوبية لله والألوهية لله، حقت أي ثبتت كلمة الله وحكمه أو وعيده على الذين فسقوا أي تمردوا في كفرهم وأصروا على ضلالهم، وخرجوا عن دائرة الحق والصلاح وتوحيد الربوبية والألوهية، أنهم لا يؤمنون، أي حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وأن إيمانهم غير كائن. ويجوز أن يراد بالكلمة الوعيد بالعذاب، ويكون قوله ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تعليلاً للحقية، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون[1]. ويلاحظ أن الآية صرحت باليأس من إيمان الذين فسقوا وأصروا على كفرهم، ولم تذكر غيرهم؛ لأن من لم يصرّ يرجى إيمانه وتخلصه من العذاب إذا آمن وأطاع، فلا مانع أمامه، كما أنه ليس هناك أي مانع قهري يمنع من إيمان أي كافر، وإنما هو الذي يمتنع باختياره من الإيمان، ويصرّ على الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٩٦-٩٧].

وجعل ابن كثير الآية الأخيرة ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ في المشركين أنفسهم، فقال: أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده، الذي

(١) الكشاف: ٢/ ٧٤

بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١][1].

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا نقاش منطقي هادئ مع المشركين، فإنهم إن سئلوا عن الرازق والخالق والمحيي والمميت والمدبر، فلا يسعهم إلا الاعتراف بأنه هو الله رب الخلائق قاطبة، وهذا اعتراف صريح منهم بوحدة الربوبية، فلِمَ لا يعترفون بوحدة الألوهية، وإنما يشركون مع الله إلهاً آخر؟!.

والمنطق يقضي بالتسوية بين الأمرين والإقرار بوحدة الربوبية والألوهية، فتكون الآية دالة على إثبات التوحيد.

ودلت الآية على ما يأتي:

١ - الله تعالى هو الرزاق، المتصرف في الملك والخلْق والإيجاد وحده، المحيي، المميت، المدبر أمر الكون والعالم.

٢ - من كانت هذه قدرته ورحمته ويفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه، لا ما أشركتم معه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾. وبما أن الله تعالى هو الحق المبين، وجب أن يكون ما سواه ضلالاً؛ لأن النقيضين لا يجتمعان، فإذا كان أحدهما حقاً، وجب أن يكون ما سواه باطلاً: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي ما بعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال؟

وبناء عليه، قال العلماء: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤١٦

منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى. ويقاس عليها مسائل الأصول، الحق فيها واحد لا يتعدد، بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨/٥] وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبِهات».

وثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى صلاة التهجد قال: «اللهم لك الحمد» وفي الحديث: «أنت الحق ووعدُك الحق..» فقوله: «أنت الحق» أي الواجب الوجود، وهذا وصف لله تعالى بالذات والحقيقة؛ إذ وجوده لنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، بخلاف غيره، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨/٨٨].

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً، كما في هذه الآية، وكذلك أيضاً مقابلة الحق بالباطل عرف لغة وشرعاً، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٢٢/٦٢]. وحقيقة الضلال: الذهاب عن الحق.

٣ً - احتج الإمام مالك على تحريم اللعب بالشَّطْرنج والنَّرد بقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فقال: اللعب بالشطرنج والنّرد من الضلال.

وقد اختلف العلماء في حكم اللعب بالشطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القمار، فقال جمهور الفقهاء: إن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستتراً به، مرة في الشهر أو العام، لا يُطَّلعُ عليه ولا يُعلم به: أنه معفُوٌّ عنه، غير محرم عليه ولا مكروه له، وأنه إن اشتهر به سقطت مروءته وعدالته، ورُدَّت شهادته.

وذهب الشافعي إلى أنه لا تسقط شهادة اللاعب بالنرد والشطرنج إذا كان عدلاً في غير ذلك، ولم يظهر منه سفه ولا ريبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قماراً، فإن لعب بها قماراً، سقطت عدالته، وسفَّه نفسه لأكله المال بالباطل.

وقال أبو حنيفة: يكره اللعب بالشطرنج والنرد وكل اللّهو، فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة، وكانت محاسنه أكثر من مساويه، قبلت شهادته.

٤ً - العاقل يلتزم المعقول، لذا استنكرالله تعالى على المشركين الخروج عن دائرة المعقول بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي كيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر، وكيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت؟!

٥ً - علم الله قديم واسع الإحاطة، والعذاب حق وعدل ومعلوم سابقاً في علم الله تعالى على الذين أصروا على الكفر وماتوا وهم كفار؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي ثبت حكمه وقضاؤه وعلمه السابق على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا أنهم لا يصدِّقون، أو ثبت عليهم استحقاق العذاب والوعيد به؛ لأنهم لا يؤمنون.

إثبات البعث

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

القراءات:

﴿لَّا يَهِدِّي﴾: قرئ:

١- (لا يَهَدِّي) قرأ أبو عمرو بفتح الياء، واختلاس فتحه الهاء مع تشديد الدال.

٢- (لا يَهَدِّي) وهي قراءة ورش، وابن كثير، وابن عامر.

٣- (لا يَهِدِّي) وهي قراءة حفص.

٤- (لا تَهْدِي) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَفَمَن يَهِدِّيٓ﴾ ﴿مَّن﴾: مبتدأ مرفوع، و﴿أَحَقُّ﴾: خبره، وفي الكلام محذوف تقديره: أحق ممن لا يهدي. و﴿أَن يُتَّبَعَ﴾: إما موضعه النصب على تقدير حذف حرف الجر، وإما الرفع على البدل من ﴿مَّن﴾ بدل اشتمال. و﴿أَحَقُّ﴾: الخبر. ويحتمل أن يجعل ﴿أَن﴾ مبتدأ ثانياً، و﴿أَحَقُّ﴾ خبره مقدم عليه، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول وهو ﴿مِن﴾.

و ﴿يَهِدِّيٓ﴾ أصله يهتدي، فأبدل من التاء دالاً، وأدغم الدال في الدال، وكسرت الهاء لاتباع ما بعدها ولالتقاء الساكنين؛ لأنه الأصل في التقاء الساكنين. وقرئ بفتح الهاء (يهَدّي)؛ لأنه نقلت فتحة التاء إلى الهاء.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ما: مبتدأ مرفوع، و﴿لَكُمْ﴾: خبره، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بتحكمون.

﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب؛ لأنه في موضع المصدر، أي غَنَاء، مثل: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي إشراكاً ويجوز أن يكون مفعولاً به، و﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: حالاً منه.

البلاغة:

﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بينهما طباق .﴿أَفَمَن يَهِدِّيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ استفهام توبيخ وتقرير أي الأول أحق.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ و﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ.

المفردات اللغوية:

﴿مَن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ جعل الإعادة كالابتداء في الإلزام بها، لظهور برهانها .﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل وعن عبادته مع قيام الدليل.

﴿مَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بإقامة الحجج، وإرسال الرسل، وخلق الاهتداء أو التوفيق للنظر والتدبر .﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ أم الذي لا يهتدي، والاستفهام للتقرير والتوبيخ، أي الأول أحق .﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد من اتباع ما لا يحق اتباعه، وما يقتضي صريح العقل بطلانه.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في عبادة الأصنام، والمراد بالأكثر الجميع، أو الذي عنده تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد .﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وهو تقليد الآباء بالاعتماد على خيالات فارغة وقياسات فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة .﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي لا يفيد الظن فيما يطلب فيه العلم والاعتقاد الحق .﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء .﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

المناسبة:

انتقل الله تعالى فوراً في بيانه من إثبات التوحيد إلى إثبات البعث، من طريق معرفة القادر ابتداء على خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض، وأن الإعادة كالابتداء، ثم عرض الأمر على العقلاء في بيان الأحق بالاتباع أهو الله الذي يخلق الاهتداء والتوفيق إليه، أم المحتاج إلى هداية غيره؟

وصيغ البيان أو الحجة بطريق السؤال والاستفهام؛ لأنه أوقع في النفس، وأبلغ تأثيراً على القلب.

التفسير والبيان:

قل للمشركين أيها الرسول: من الذي بدأ خلق السماوات والأرض، ثم

أنشأ ما فيهما من الخلائق؟ هل يستطيع أحد غير الله ذلك؟ سواء كان صنماً أو وثناً أو كوكباً أو ملَكاً أو جِنّاً أو رسولاً أو غيرهم؟ ومن يقدر أن يعيد الخلق خلقاً جديداً؟

وبما أنهم بسبب اللجاج والمكابرة لا يؤمنون بالبعث والمعاد، فلم يجيبوا كما أجابوا عن الأسئلة الخمسة المتقدمة، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي قل أيها الرسول: الله هو القادر على بدء الخلق وإعادته؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، فهو سبحانه وتعالى الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له. علماً بأنهم يعترفون بأن المبدئ والمعيد في النباتات هو الله، لما يشاهدونه من تكرار بدء ظهور النبات بالمطر في فصل الشتاء، ثم موته في الصيف، ثم عودته إلى الظهور في الشتاء القادم مرة أخرى. ولكنهم ينكرون إعادة الحياة في الأحياء الحيوانية من إنسان وغيره.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل وعن الحق وهو التوحيد إلى الضلال وهو الإشراك وعبادة الأصنام؟

أي إذا كانت فطرتكم وعقولكم أو أنظاركم وملاحظاتكم تؤدي إلى أن الله تعالى هو الذي يعيد الحياة إلى النبات، فلِمَ لا تعترفون بقدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان؟ وذلك يؤدي بكم إلى الإيمان بالبعث والجزاء يوم القيامة؟!

ثم سألهم الله تعالى عن شأن من شؤون الربوبية، بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي قل لهم أيها الرسول: هل يستطيع أحد من شركائكم هداية الضال والحيران: إما بالفطرة والغريزة، وإما بالحواس من سمع وبصر ونحوهما، وإما بالعقل والتفكير، وإما بهداية الكتب السماوية والرسل، أو هم عاجزون عن ذلك كله؟!

وهذه الهداية هي تماماً كالقدرة على الخلق والتكوين، كقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٥٠] .

وبما أنهم يدركون تماماً أن شركاءهم لا يستطيعون شيئاً من الخلق والهداية التشريعية، فلم يجدوا جواباً، فأجابهم الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ أي قل أيها الرسول: هو الله الذي يهدي إلى الحق بما أوجد من الأدلة والحجج، وأرسل من الرسل، وأنزل من الكتب، ومنح الإنسان مفاتيح العلم والمعرفة والإيمان بالعقل والحواس.

ومن هو أحق باتباع قوله وطاعة أمره؟ أهو الذي يقدر على الهداية إلى الحق والرشد والإيمان، أم الذي لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره، وهو الله تعالى؟

وهذا يشمل جميع الشركاء من ملائكة وغيرهم كالمسيح وعزير ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ أي فما بالكم وأي شيء دهاكم، كيف سوّيتم بين الله وبين خَلْقه، وحكمتم بجواز عبادة غير الله وشفاعتهم؟ وهذا تعجب شديد من حكمهم الجائر بالمساواة بين عبادة الله تعالى وعبادة شركائهم العاجزة عن كل شيء.

ثم بين الله تعالى أنهم لا يتبعون في اعتقادهم هذا وشركهم وعبادتهم غير الله دليلاً ولا برهاناً، وإنما يتبع جميعهم نوعاً من الظن الضعيف وهو التوهم والتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، لأن الظن الخائب لا يغني شيئاً من الإغناء فيما يطلب فيه الحق الثابت، أي العلم والاعتقاد الصواب.

إن الله عليم بأفعالهم، فيجازيهم على كل فعل منها، كتكذيب الرسول ﷺ، مع قيام الأدلة القطعية على صدقه، وتقليد الآباء والأجداد بدون حجة أو دليل. وهذا تهديد لهم ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

والخلاصة: أن مجموعات الآيات السابقة اشتملت على حجج ثلاث للاستدلال على وجود الله تعالى: الأولى - أنه الرازق الموجد السمع والبصر خالق الموت والحياة، والثانية - أنه خالق الإنسان والسماوات والأرض وما

بينهما، والثالثة - أنه القادر على الهداية. والاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ثم بالهداية ثانياً: عادة مطردة في القرآن.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت هذه الآيات من أجل إثبات البعث على توبيخين للمشركين وتهديد.

أما التوبيخ الأول: فهو على عبادتهم شركاء عاجزين عن الخلق بدءاً وإعادة، فكيف تصح تلك العبادة؟ وكيف تنقلبون أيها المشركون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل؟

وبما أن الحق تعالى هو القادر على الخلق، فخلَق السماوات والأرض وما بينهما، وخلَق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة دم، وهو قدير على إعادته، فيجب الإيمان بالبعث إيماناً لا يخالجه أي شك أو ريبة.

وأما التوبيخ الثاني: فهو أيضاً على اتخاذ الشركاء آلهة معبودة مع أنهم لا يستطيعون هداية أنفسهم ولا غيرهم، فيكون الأحق بالعبادة والتوحيد هو الله تعالى القادر على الإرشاد إلى الطريق المستقيم الذي هو القرآن ودين الإسلام..

فما لكم كيف تحكمون، أي فأي شيء لكم في عبادة الأوثان، وكيف ترضون لأنفسكم وعقولكم وتقضون بهذا الباطل الصراح، تعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئاً إلا أن يُفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته؟

وأما التهديد: فهو على الكفر والتكذيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ وسيجازيكم عليه.

ودلت آية ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ على أنه لا يكتفى بالظن في العقائد، وعلى أن تحصيل العلم واليقين في الأصول واجب، وأما الاكتفاء

بالتقليد والظن فيها فهو غير جائز؛ لأن أصول الإيمان أساسية، فتبنى على اليقين، ولا يجدي فيها الظن، وإنما يكفي هذا في فروع الأعمال.

القرآن كلام الله وتحدي العرب به

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

﴿تَصْدِيقَ﴾:

بإشمام الصاد صوت الزاي قرأ حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾ ﴿تَصْدِيقَ﴾: خبر كان مقدرة، تقديره: ولكن كان هو تصديق، أي القرآن. وأجاز الكسائي الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: ولكن هو.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر ثان.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر آخر تقديره: كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: اعتراض، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو الضمير في ﴿فِيهِ﴾.

البلاغة:

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة لما سبقه من التوراة والإنجيل اللذين بشرا به.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الهمزة فيه للإنكار، والمعنى: بل أيقولون افتراه محمد؟

المفردات اللغوية:

﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أن يفترى افتراء من غير الله تعالى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي كان أو أنزل مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها وليس كذباً. ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تبيين ما كتبه الله من الأحكام وغيره، وتوضيح ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل أيقولون: اختلقه محمد، والهمزة للإنكار. ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وقوة المعنى، على وجه الافتراء؛ فإنكم عرب فصحاء، مثلي في العربية والفصاحة، وأشدّ تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سوى الله أو غيره، فإنه وحده قادر على ذلك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه افتراء وأنه اختلقه، فلم يقدروا على ذلك.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي القرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾

لم يطلعوا على تأويله، ولم تبلغ أذهانهم معانيه، ولم تتحقق عاقبة ما فيه من الوعيد، أو تقع أخباره عن المغيبات، حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب. والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجؤوا بتكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه، ويتفحصوا معناه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب .﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ رسلهم .﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بتكذيب الرسل، أي آخر أمرهم من الهلاك، فكذلك نهلك هؤلاء.

المناسبة:

ذكر الله تعالى مطلب المشركين من النبي ﷺ بإنزال آية من ربه (الآية ٢٠) لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز، وأن محمداً إنما يأتي به من عند نفسه اختلاقاً، وأجابهم بأن محمداً عاجز كغيره عن إنزال آية والإتيان بمثله، ثم أبطل شركهم بأدلة كثيرة، ثم عاد هنا إلى ترسيخ حقيقة أصيلة وهي أن القرآن وحي من عند الله تعالى، وليس إتيان محمد عليه الصلاة والسلام به على سبيل الافتراء على الله تعالى، مما يدل على أنه معجز نازل من عند الله، وأنه مبرأ من الافتراء.

التفسير والبيان:

هذه الآيات في بيان إعجاز القرآن، وكونه كلام الله، وهذا من أصول الدين، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن لإثبات أنه من عند الله تعالى، وليس من عند النبي ﷺ، وإنما هو معجزة خالدة تشهد بصدق النبي ﷺ، وهو معنى قول الله في الحديث القدسي: «صدق عبدي في كل ما يبلغه عني».

ومعنى الآية: ما شأن القرآن وما ينبغي أن يختلق من غير الله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته، ووجازته وحلاوته، وإخباره عن المغيبات، وأصالة

تشريعه، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى، فهو كلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين، ولا يقدر أحد إلا الله أن يجاريه أو يعارضه.

وقد ثبت أن أبا جهل قال: إن محمداً لم يكذب على بشر قط، أفيكذب على الله؟

وإنه مطابق ومصدِّق لما تقدمه من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل، كإبراهيم وموسى وعيسى، وموافق لها في الدعوة إلى أصول الدين من التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر، وصالح الأعمال، وفضائل الأخلاق، وهو أيضاً مهيمن عليها، ومبيِّن كاشف لما وقع فيها من تحريف وتبديل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/٤٨] .

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وبيان الأحكام والشرائع، والحلال والحرام، والعبر والمواعظ، والآداب والأخلاق الشخصية والاجتماعية، بياناً شافياً كافياً.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه أبداً، ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه، لوضوحه، وبيانه الحق والهدى والصواب.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي منزل وموحى به من الله لا من غيره، بدليل سلامته عن الاضطراب والاختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/٨٢] .

وبه يتبين أن الله سبحانه وصف القرآن بصفات خمس هي:

أ - لا يصح أن يفترى من دون الله؛ لأن القرآن معجز لا يقدر عليه البشر.

٢ً - وهو مصدِّق مؤيد لما قبله في أصول الدين والفضائل، ومهيمن عليه، فهو معجز لاشتماله على الإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة، وهو المراد بقوله: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ومن إخباره عن مغيبات المستقبل التي وقعت مطابقة للخبر: قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ وقوله تعالى في فتح مكة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٧] وقوله في ظهور الدولة الإسلامية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٥٥] مما يدل على أن الإخبار إنما حصل بالوحي من الله تعالى.

٣ً - وهو مفصّل ما يحتاج إليه الإنسان من الأحكام الشرعية والعلوم الكثيرة الدينية والدنيوية، ففيه علم العقائد والأديان: وهو معرفة الله تعالى (ذاتاً وصفاتٍ) وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفيه علم الأعمال وهو علم الفقه، وعلم الأخلاق مثل قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ٧/١٩٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ١٦/٩٠] وهو المراد بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١٢/١١١].

٤ً - لا ريب ولا شك فيه، لبيانه العلوم الكثيرة، وعدم وجود التناقض فيه.

٥ً - كونه من عند الله تعالى، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين.

ثم أنكر الله تعالى على المشركين الجاهلين القائلين بأن محمداً ﷺ قد افتراه، وتحداهم أن يأتوا بمثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل أيقولون: اختلقه محمد؟! فمحمد بشر مثلكم، وقد زعمتم أنه جاء بهذا القرآن، فأتوا بسورة

مثله، أي من جنس هذا القرآن، ولو بما يشابه أقصر سورة فيه في النظم والأسلوب، والقوة والإحكام، والبلاغة والدقة، واستعينوا على ذلك بمن قدرتم عليه من إنس وجان، ولن تستطيعوا فعل شيء؛ فإن جميع الخلق عاجزون عن معارضته أو الإتيان بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨] .

فإن كنتم صادقين في ادعائكم أن القرآن من عند محمد، فلتأتوا بنظير ما جاء به وحده، ولتستعينوا بمن شئتم.

ولقد كان التحدي للإتيان بمثل القرآن على مراحل: أولها - ما ذكر في هذه الآية: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾ وهي أعلى المراتب. وثانيها - التنازل معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [١٣]. وثالثها - التنازل إلى سورة، فقال هنا في هذه السورة المكية: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وكذا في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [٢٣].

ثم أثبت القرآن موقف هؤلاء المشركين منه فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ أي بل سارع هؤلاء إلى تكذيب القرآن من قبل أن يتدبروا ما فيه، أو يفهموه، وهذا شأن المعاند الجاهل.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي وكما أنهم كذبوا به بداهة قبل التدبر والمعرفة تقليداً للآباء، كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علو شأنه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة، تمرداً وعناداً، وبغياً وحسداً. ويجوز أن يكون معنى ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ : لم يأتهم بَعْدُ تأويل ما فيه من الإخبار بالمغيبات، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق؟

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ذلك التكذيب كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن تقليداً للآباء وعناداً.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة أولئك الظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسلهم وطلبهم الدنيا وترك الآخرة، وهي أننا أهلكناهم بسبب تكذيبهم رسلنا، ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

الآيات إثبات قاطع لكون القرآن كلام الله تعالى ووحيه إلى محمد ﷺ، وليس افتراء من محمد ﷺ، وذلك بدليل وصفه بالأوصاف الخمس التي ذكرت في الآية، وأوضحتها في التفسير السابق.

وبدليل التحدي للعرب بأن يأتوا بمثل سورة من هذا القرآن، إذا كان في زعمهم من كلام محمد ﷺ وهو بشر مثلهم، وهم عرب فصحاء بلغاء مثله.

فالآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله تعالى؛ لأنه مصدّق الذي بين يديه من الكتب، وموافق لها، من غير أن يتعلم محمد عليه الصلاة والسلام عن أحد.

والآية الثانية إلزام بسورة مثله إن كان مفترى. وهذا مناسب لما اشتهر به العرب من فصاحة وبلاغة وبيان، فالقرآن معجزة الرسول ﷺ الخالدة في بيانه ونظمه وتشريعه وعلومه. كما أن كل معجزة لنبي تناسب العصر الذي عاش

فيه، مثل معجزة العصا واليد لموسى عليه السلام في زمن برع فيه السحرة بفنون السحر، ومعجزة عيسى عليه السلام الذي بعث في زمان اشتهار علم الطب، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وهذا من غير علاج ولا دواء. لهذا جاء في الحديث الصحيح المتقدم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

ودلت الآية الثالثة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ على انهيار موقف العرب من القرآن، فهم قبل أن يتأملوا بما فيه كذبوا به تقليداً للآباء وإبقاء على عبادة الأوثان، وبعد أن تأملوا وتدبروا فيه كذبوا به أيضاً تمرداً وعناداً، وبغياً وحسداً، وعجزاً وضعفاً من معارضته والإتيان بمثل أقصر سورة فيه في سلامة النظم والأسلوب والمعنى والحكم. لذا أنذرهم القرآن بالدمار والهلاك على ظلمهم كما أهلك الأمم الخالية بسبب تكذيب الرسل.

انقسام المشركين إلى فريقين حول الإيمان بالقرآن والنبي

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي وخلف (ولكنِ الناسُ).

الإعراب:

﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ حملاً على معنى ﴿مَّن﴾ لأن معناها الجمع.

﴿مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ينظر حملاً على لفظ ﴿مَّن﴾ لأن لفظها مفرد.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ ذهب جماعة من النحويين إلى أن الاختيار في (لكن) إذا جاءت معها الواو أن تكون مشدّدة، وإذا جاءت بغير واو أن تكون مخففة، قال الفراء: لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت «بل» فخففت لتكون مثلها في الاستدراك، وإذا جاءت بالواو خالفت فشُدِّدت، فمن شددها، كان ما بعدها منصوباً لأنه اسمها، ومن خففها رفع ما بعدها على الابتداء، وما بعده الخبر ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به مقدم.

البلاغة:

﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿ٱلصُّمَّ﴾ ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ مجاز عن الكافرين، شبههم بالصم والعمي لإعراضهم عن الحق والهدى.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المكذبين أهل مكة ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من سيؤمن به ويتوب عن كفره. وضمير ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى القرآن ﴿مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين على الكفر، وهو تهديد لهم.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أصروا على تكذيبك ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي لكلٍ جزاء عمله، وأنا بريء من عملكم، وبما أني تبرأت منه فقد أعذرت ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذوني بعملي ولا أؤاخذ بعملكم.

﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلَّمت الشرائع، ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ شبههم بهم في عدم الانتفاع بالقرآن ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم وتدبرهم. وهذا يدل على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه.

﴿مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ شبههم بهم في عدم الاهتداء ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة، فإن المقصود من الإبصار: هو الاعتبار والاستبصار. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم.

﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها. وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية، كما زعمت المجبرة.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى طعن الكافرين في النبوة والوحي، وبعد أن أنذرهم بالدمار والعذاب في الدنيا بقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذكر أنهم في الواقع فريقان: فريق يصدق بأن القرآن كلام الله، ولكنه يكابر ويعاند، وفريق لا يصدق به أصلاً لفرط غباوته وجهله، فيصر على تكذيب النبي؛ لفقده الاستعداد للإيمان به، فلا أمل في إصلاحه وهدايته، فتكون المصلحة في إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيمان دون الاستئصال.

التفسير والبيان:

المشركون في الحال والاستقبال فريقان: فريق يصدق بالقرآن في نفسه ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب، وفريق يشك فيه لا يصدق به. هذا في الحال. ويجوز أن يراد بفعل ﴿يُؤْمِنُ﴾ الاستقبال، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من سيؤمن بهذا القرآن، ويتبعك، وينتفع بما أرسلت به؛ ومنهم من سيصرّ على كفره، ويموت على ذلك ويبعث عليه.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهؤلاء هم المعاندون أو المصرّون، والله العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلاً ما يستحقه، فمعنى الآية: وربك أعلم بمن يفسد في الأرض بالشرك والظلم والطغيان، فلا أمل في صلاحهم، لفقدهم الاستعداد للإيمان، وسيعذبهم في الدنيا والآخرة.

وإن كذّبك هؤلاء المشركون وأصروا على ذلك، فتبرأ منهم ومن عملهم، وقل لهم: ﴿لِّي عَمَلِي﴾: وهو تبليغ الرسالة والإنذار والتبشير والطاعة والإيمان، وسيجازيني الله عليه، ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾: وهو الظلم والشرك والفساد، وسيجازيكم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٢] .

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يراد بذلك الزجر والردع، وإعلان مبدأ المسؤولية الفردية: وهي انحصار مسؤولية كل إنسان بنفسه، وعدم سؤاله عن ذنب غيره. والمعنى: فلا تؤاخذوني بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم فقد أعذرت وأنا بريء من عملكم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ١١/٣٥] وقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٤] وقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٢١٦] .

وأما موقف المشركين المكذبين منك يا محمد، فلا تعجب منه، فمنهم من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلَّمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وإنما يسمعون دون تدبر ولا فهم، ويهتمون بسماع نظم القرآن وجَرْس صوته، فهم لاهون لاعبون غير جادّين: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢-٣] ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا تستطيع الإسماع النافع لقوم صموا آذانهم عن سماعك، وضموا إلى ذلك أنهم لا يعقلون ما يسمعون ولا يفهمون معناه، فينتفعوا به، فإن السماع النافع للمستمع: هو ما عقل به ما يسمعه، وعمل بمقتضاه وإلا كان في الواقع كالأصم حقيقة. وهذا حال بعض المسلمين مع الأسف اليوم. وفيه دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم بالقسر والإلجاء إلا الله عز وجل.

ومنهم من ينظر إليك عند قراءتك القرآن نظرة إعجاب، ولكنه لا يبصر نور الإيمان والقرآن وهداية الدين والخلق القويم .﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي لا تقدر على هداية هؤلاء، لأنهم وإن كانوا مبصرين بأعينهم في الظاهر، فهم غير مبصرين بقلوبهم في الحقيقة، فلا تستطيع هدايتهم لفقدهم نعمة البصيرة المدركة والعقل المدرك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦] .

والخلاصة: إنك يا محمد لا تستطيع هداية هؤلاء، لفقدهم الاستعداد للفهم والهداية، وكأنهم مثل من فقد حاسة السمع في الحقيقة، وفقد حاسة البصر أيضاً؛ لأن فائدة السمع والبصر هي الانتفاع، فإذا لم ينتفعوا فكأنهم عطلوا حواسهم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٥٠/٣٧] والمراد بذلك تسلية النبي ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ أي إن الله تعالى لا يجور أبداً، بسلب

حواسهم وعقولهم التي بها يدركون الأشياء ويهتدون إلى الحق والصواب، ولكن الناس هم الظالمون أنفسهم وحدها دون غيرها؛ لأنهم يعرِّضونها لعقاب الكفر والتكذيب والمعاصي، بتعطيلهم نعمة العقل، وتنكرهم لهداية الدين. وهذا وعيد للمكذبين، فإن عذابهم يوم القيامة عدل وحق لا ظلم فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - جميع الكفار ومنهم أهل مكة في الماضي: منهم من يؤمن بالقرآن باطناً، لكنه يتعمد إظهار التكذيب، ومنهم من لا يؤمن به أصلاً. ومنهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويؤمن، ومنهم من يصر على الجحود ويستمر على الكفر، والله تعالى عليم بالجميع.

٢ً - كل إنسان مسؤول عن نفسه وسيلقى جزاءه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا يؤاخذ أحد بذنب الآخر.

٣ً - إن الحواس من سمع وبصر لها هدفان: هدف ظاهري وهو سماع المسموعات ورؤية المبصرات، لتكون الحياة بوجه سليم وهدف حقيقي: وهو استخدامها في تدبر المسموع وفهمه وتعقله، وإنعام النظر وإدراك البصيرة في أمور الدين والأخلاق، للتوصل إلى نعمة الإيمان والهداية والحق، والتخلص من ظلمة الكفر والضلال والباطل.

٤ً - الرسول ﷺ مجرد مبلِّغ ومنذر ومبشر، فلا يقدر على غرس الإيمان في القلوب، وزرع الهداية في النفوس، وما على العقلاء إلا الاستجابة لبلاغاته، والاستماع لمواعظه؛ ولأنه كما لا يقدر على إسماع من سُلب السمع، وإبصار من حرم البصر، فلا يقدر أن يوفق هؤلاء للإيمان إذا أصروا على الكفر.

٥ً - إن السمع أفضل من البصر، بدليل أنه كلما ذكر الله السمع والبصر، فإنه في الأغلب وكما في هذه الآية يقدم السمع على البصر.

٦ - احتج أهل السنة بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى؛ لأن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الإيمان كالأصم بالنسبة إلى استماع الكلام، وكالأعمى بالنسبة إلى إبصار الأشياء، والله هو الذي يخلق القدرة على الهداية فيها.

٧ - إن الله لم يظلم أهل الشقاء، فهو في جميع أفعاله عادل، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم.

زوال الدنيا سريع

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾:

قرأ حفص (ويوم يحشرهم).

وقرأ الباقون (ويوم نحشرهم).

الإعراب:

﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب بتقدير: اذكر، أو على الظرف، وعامله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾.

﴿كَأَن﴾ الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ أي يحشرهم متشابهين أو صفة مصدر محذوف، تقديره: يحشرهم حشراً مشابهاً لحشر يوم لم يلبثوا قبله، أو صفة (ليوم) على تقدير محذوف أيضاً، أي كأن لم يلبثوا قبله، فحذف المضاف فاتصلت الهاء بيلبثوا، فحذفت للطول.

و﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، تقديره: كأنهم لم يلبثوا، وواو ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾ عائدة إلى ضمير ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾.

﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ جملة فعلية حال من ضمير ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾. ويجوز جعلها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هم يتعارفون.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾ إما استئناف فيه معنى التعجب أي ما أخسرهم، وإما حال من ضمير يتعارفون.

المفردات اللغوية:

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد. ﴿كَأَن﴾ أي كأنهم، فخففت. ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، أو في القبور، لهول ما يرون. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا، ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال. ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ بالبعث. ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ طريق الرشاد، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ هو استئناف، فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم، وهي شهادة من الله تعالى على خسرانهم، أو حال من ضمير: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، على إرادة القول، أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك.

المناسبة:

لما وصف الله تعالى هؤلاء الكفار بقلة الإصغاء وترك التدبر، وتكذيبهم القرآن الكريم والنبي ﷺ، أتبعه بالوعيد بالجزاء في الآخرة على ما كان منهم في الدنيا.

التفسير والبيان:

يذكّر الله تعالى الناس بقيام الساعة والحشر من قبورهم إلى أرض المحشر يوم

القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم أيها الرسول وأنذرهم يوم يجمعهم الله بالبعث بعد الموت في موقف الحساب والجزاء، فيلاحظون كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة يسيرة، والساعة مَثَلٌ في القلة، ثم انقضت، حالة كونهم يتعارفون أي يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا، ثم ينقطع التعارف؛ لشدة الأهوال، أو فهم يتعارفون.

وتقديرهم قصر الدنيا في ذلك الموقف الرهيب معنى متكرر في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٥] وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٥] وقوله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٤] .

ثم أعلن الله تعالى خسارتهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ أي إن هؤلاء الكفار المكذّبين بالبعث قد خسروا ثواب الجنة خسارة كبرى، إذ بدلوا الإيمان بالكفر، وما كانوا مهتدين لأوجه الربح والنفع بعمل الصالحات، فما أخسرهم! وهذا تعجب شديد من الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على أن عمر الدنيا قصير، إذا قوبل بحياة الآخرة الطويلة الأمد بل الخالدة، وعلى أن الكافرين المكذبين بالبعث خسروا ثواب الجنة خسارة كبرى لا تعوض؛ لأن الخسران إنما هو في يوم لا يرجى فيه القيام بالبديل، ولا تنفع فيه التوبة، وذلك بعد قيام الأدلة الكثيرة في القرآن المجيد على البعث والنشور. ويفهم من الآية أيضاً أن لذات الدنيا بالنسبة إلى جميع العالم لا تعادل شيئاً أمام العذاب الشديد والآفات الحاصلة للكافر يوم القيامة، فمن باع

آخرته بالدنيا فقد خسر؛ لأنه أعطى الكثير وأخذ القليل، وأن الكافر اهتدى إلى رعاية مصالح تجارته هذه.

كذلك أشارت الآية إلى أن الناس في الآخرة يعرف بعضهم بعضاً، ولكن التعارف يمكث وقتاً يسيراً، ويقولون: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي بالبعث والنشور.

ومع أنني اتجهت في تفسير الآية إلى مقابلة الدنيا بالآخرة فإن ما ذكر في الآية من لبث قدر ساعة من النهار يحتمل أن يكون ذلك هو عمرهم في الدنيا، أو مدة بقائهم في قبورهم، لهول مايرون من البعث.

تعذيب المشركين في الدنيا والآخرة

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾:

بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر، قرأ قالون، والبزي، وأبو عمرو.

وبتسهيل الهمزة الثانية قرأ ورش، وقنبل.

وقرأ الباقون بتحقيقها.

﴿وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (وربيَ إنه).

الإعراب:

﴿بَيَٰتًا﴾ منصوب على الظرف بمعنى وقت بيات.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ يجوز جعله جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ويجوز جعل جواب الشرط محذوفاً وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ إما بمعنى: يستخبرونك، فيتعدى إلى مفعولين، الأول هو الكاف والثاني جملة ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ جملة اسمية في موضع المفعول الثاني. وإما بمعنى يستعملونك فيتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، فتكون الجملة الاسمية قد سدت مسدّ المفعولين.

﴿إِى وَرَبِّيٓ﴾ إي: حرف يكون مع القسم بمعنى نعم، وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تستعمل «أرأيت» بمعنى أخبرني، والرؤية إما بصرية أو علمية، ولا تستعمل في غير الأمر العجيب مثل: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

البلاغة:

﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بينهما طباق، ومثله بين ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ وبين ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل والتشنيع على الجرْم، كما أن هذا الاستفهام للتهويل والتعظيم.

﴿أَثُمَّ﴾ دخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير لإيمانهم، فلا يقبل منهم.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِمَّا﴾ أدغمت فيه نون إن الشرطية في ما المزيدة .﴿نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرنك. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر، وجواب الشرط محذوف أي فذاك .﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم .﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة، وهو جواب: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ .﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلع أو مجاز عليه، فإنه ذكر الشهادة وأراد نتيجتها .﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من تكذيبهم وكفرهم، فيعذبهم أشد العذاب.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية .﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم بالبينات فكذبوه .﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، أي بين الرسول ومكذبيه، فيعذبون وينجّى الرسول ومن آمن به .﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتعذيبهم بغير جرم، فكذلك نفعل بهؤلاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعذاب، يراد استبعاد له واستهزاء به، وقولهم خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين .﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه أو يقدرني عليه، فكيف أملك لكم حلول العذاب .﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة معلومة لهلاكهم .﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يتأخرون عنه .﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يتقدمون عليه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ عذاب الله الذي تستعجلون به. ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾: أي شيء من العذاب يستعجلونه، وكله شديد مؤلم لا يلائم الاستعجال. ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون. وجواب الشرط: هي جملة الاستفهام، كقولك: إذا أتيتك ماذا تعطيني؟ والمراد به التهويل، أي ما أعظم ما استعجلوه. ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمنون؟ على إرادة القول، أي يقال لهم إن آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به؟ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استهزاء وتكذيباً.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على (قيل أو: يقال) المقدر قبل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾.

﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الذي تخلدون فيه، أي المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي ما تجزون إلا جزاء على ما كسبتموه من الكفر والمعاصي.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يستخبرونك. ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي أحق ما تقول من الوعد الذي وعدتنا به من العذاب والبعث. ﴿قُلْ إِى﴾ نعم. ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب.

﴿ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو الكفر أو التعدي على الغير. ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما فيها جميعاً من خزائن وأموال. ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة. ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ترك الإيمان. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا من الهول فلم يقدروا على النطق. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الخلائق. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً. وليس هذا تكراراً مع ما سبق من القضاء بالقسط؛ لأن الله يقضي بين الأنبياء ومكذبيهم، والثاني فيه مجازاة المشركين على الشرك، أو الحكم بين الظالمين والمظلومين.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء من ثواب وعقاب كائن ثابت لا خلف فيه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى خسارة المشركين المكذبين بالبعث الذين لم يهتدوا إلى وجوه الخير والصلاح، وأنهم سيعذبون، أوضح أن بعض هذا العذاب سيكون في الدنيا، وبعضه في الآخرة، وهو تنبيه على أن عاقبة المذنبين مذمومة قبيحة جداً.

وليس هذا حال محمد ﷺ مع قومه، بل هو حال كل الأنبياء مع أقوامهم. ثم بيَّن الله تعالى **الشبهة الخامسة**[1] **من شبهات منكري النبوة**، فإنه ﷺ كلما هددهم بنزول العذاب، ومَرَّ زمان ولم يظهر ذلك العذاب، قالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ واحتجوا بعدم وجوده على القدح في نبوته ﷺ. ثم أجابهم تعالى بأنه لو نزل هذا العذاب، ما الفائدة لكم فيه؟ فإن قلتم: نؤمن عنده، فالإيمان وقت الإلجاء والعسر باطل، فيكون هذا العذاب في الدنيا، ثم يعقبه عذاب آخر أشد منه يوم القيامة؟

وبالرغم من سؤالهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وإجابتهم، عادوا مرة أخرى إلى الرسول ﷺ يسألونه: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي المعاد والقيامة من القبور ثم العذاب؟ هو حق وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به، فإن كل الأشياء ملك الله تعالى، وأن ثبوت النبوة وصحة المعاد متفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم، وكل ما سواه ملكه.

التفسير والبيان:

كان المشركون يكذبون النبي ﷺ في توعده لهم بالعذاب، وكانوا يستعجلون نزوله تكذيباً له واستهزاء به، ويتمنون موته لتموت دعوته، فرد الله تعالى عليهم مخاطباً رسوله ﷺ: إن ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينك كما حدث يوم

---

(١) قد مضى بيان الشبهات الأربعة في هذه السورة.

بدر وحنين وغيرهما، فذاك؛ وإن توفيناك قبل ذلك فمصيرهم ومنقلبهم إلينا بكل حال، فنريك عذابهم في الآخرة، والله مطلع على أفعالهم بعدك، فيجازيهم به، على علم وشهادة حق. وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠].

وهذا يدل على أنه تعالى يُري رسوله أنواعاً من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا، وسيزيد عليه بعد وفاته.

وهذا ليس حال النبي ﷺ مع قومه، بل هو حال الأنبياء كلهم مع أقوامهم، فإنه تعالى أرسل لكل أمة من الأمم الخالية رسولاً، يدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وإلى العمل الصالح مناط النجاة في الآخرة. وهذا يدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولاً: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤].

فإذا جاء رسولهم إليهم بالبينات فكذبوه، قضى الله بينه وبينهم بالعدل، فيعذبون، وينجي الله رسوله ومن صدقه، وهم لا يظلمون في قضائه شيئاً، مما ينزل بهم من عذاب، فلن يكون عذاب بغير ذنب ارتكبوه.

ويقول كفار قريش للرسول ﷺ وللمؤمنين تكذيباً واستهزاء، كلما هددهم بنزول العذاب على شركهم ولم ينزل: متى يقع هذا الوعيد، إن كنتم صادقين في تهديدكم وقولكم؟

فأجابهم الله تعالى بجواب يحسم هذه الشبهة: قل أيها الرسول لمن يستعجل العذاب: إني بشر لا أملك لنفسي ضراً أمنعه، ولا نفعاً أجلبه، إلا ما شاء الله أن يقدرني. والمراد أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار نصر المؤمنين لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، وأنه تعالى ما عيَّن لذلك الوعيد وقتاً معيناً، فهذا من شأن الإله، وأما الرسول فمهمته مقصورة على التبليغ لما جاء من عند الله.

والاستثناء هنا في رأي أهل السنة منقطع، أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن.

ولكل أمة من الأمم مدة من الزمن أو العمر مقدرة، فإذا جاء أجلهم، لا يملك رسولهم ولا غيره أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة من الزمان المقدر له.

وهذا يدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط، لا متأخراً عنه، وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي، وإنما يدل على كونه جزاء.

ثم أجابهم الله تعالى بجواب آخر: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه، إن أتاكم عذابه ليلاً وقت مبيتكم، أو نهاراً وقت شغلكم.

وأي نوع من العذاب تستعجلون، أعذاب الدنيا أم عذاب الآخرة؟ وكل من العذابين واقع شديد، وأي عذاب تطلبون تعجيله فهو جهل وحماقة؟ فأي فائدة لكم فيه؟ إن قلتم: نؤمن عنده، فالإيمان وقت الشدة واليأس باطل، فالعذاب القريب هو عذاب الدنيا، ويعقبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه.

وهذا معنى قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي أتنتظرون مجيء هذا العذاب للإيمان؟ فإذا وقع بالفعل آمنتم به، في وقت لا ينفع الإيمان، ويقال لكم توبيخاً: آلآن آمنتم بالله والرسول اضطراراً وقسراً، مع أنكم كنتم قبل ذلك تستعجلون العذاب على سبيل السخرية والاستهزاء والتكذيب والاستكبار؟! ودخلت ألف الاستفهام على (ثم) للتقرير والتوبيخ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى.

ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، وتكذيب الرسول ووعيده: تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، هل تجزون أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون وتعملون باختياركم من الكفر والمعاصي.

وذِكْر هذه العلة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كلما ذكر العقاب والعذاب دليل على أن جانب الرحمة راجح غالباً، وجانب العذاب مرجوح مغلوب.

وظاهر الآية يدل على أن الجزاء من جنس العمل، ويوجب العمل؛ لأن ذلك الجزاء عند أهل السنة واجب بحكم الوعد المحض، وعند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على الله تعالى.

والآية تدل أيضاً على كون العبد مكتسباً للخير والشر، خلافاً للجبرية.

وبالرغم من جواب الله تعالى بما ذكر عن سؤال الكفار: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ فإنه أخبر سبحانه أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى، وسألوه مرة أخرى، عن ذلك السؤال، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾.

أي ويستخبرونك أيها الرسول أن تخبرهم عن عذاب الدنيا والآخرة أحق أنه سيقع على ما نكسبه من المعاصي في الدنيا، أم هو مجرد إرهاب وتخويف؟.

وتكرار السؤال دليل على أن القوم تملَّكهم إحساس شديد بالقلق والخوف من العذاب، كأنهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم.

فقل لهم أيها الرسول: نعم وربي، إنه لحق ثابت واقع ما له من دافع، وما أنتم بمعجزين أي بفائتين العذاب، وليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢] .

وليس لهذه الآية نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد، وهما في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣] . وفي التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ٧] .

ثم أخبر الله تعالى عن بعض مضايقات وأهوال القيامة فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ أي أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً.

وأسروا الندم: وهو ما يجد الإنسان في نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل ضارّ، لما رأوا العذاب الشديد، فصاروا مبهوتين متحيرين. وقد يجهرون بالندم كما قال: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٦] ثم بين تعالى أنه لا ظلم حينئذ فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي وحكم الله بين الظالمين والمظلومين بالعدل. لأن الكفار وإن اشتركوا في العذاب، فإنه لا بد وأن يقضي الله تعالى بينهم بالحق، رفعاً لما ظلم به بعضهم بعضاً في الدنيا، فيكون في القضاء تخفيف عذاب بعضهم، وتثقيل عذاب الباقين.

ثم أتبع ذلك الإعلام وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به، بأن الملك كله لله وأنه المعاقب فإن الله مالك السماوات والأرض، وكل الأشياء ملكه وفي سلطانه، وأن وعده حق كائن لا محالة، ولكن أكثر الكفار منكري البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة والمعاد، لغفلتهم عنها، وعدم إيمانهم بالإله القادر الحكيم، فأبان تعالى لهم الحقيقة، وأن كل ما سواه مملوك له.

والدليل على قدرته تعالى على البعث والجزاء والثواب والعقاب أنه تعالى هو المحيي والمميت، وإليه مرجع الخلائق حين يحييهم بعد موتهم، فيحشرهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

أ - عذاب الكفار شديد مضاعف في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يعذبون بالهزيمة والذل والخزي ونحوها من القلق والخوف، وفي الآخرة بعذاب النار.

والله تعالى يري رسوله في الدنيا نماذج من عذابهم، وسيريه يوم القيامة ما هو أشد وأكثر، مما يدل على أن عاقبة المؤمنين محمودة، وعاقبة المذنبين مذمومة.

٢ - لكل أمة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم، وكذلك لا يعذب الناس في الدنيا حتى يرسل الله إليهم رسولاً، فمن آمن فاز ونجا، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] .

٣ - القضاء بين العباد حق قائم على العدل المطلق، وهم لا يعذبون بغير ذنب، ولا يؤاخذون بغير حجة.

٤ - النقاش حول نزول العقاب الإلهي ومجيء القيامة قديم بين الأمم مع الرسل عليهم السلام، وبين الأمة العربية مع النبي ﷺ، وهو مستمر دائم بين الكفار ودعاة الإسلام المصلحين.

٥ - إنزال العذاب مقدر بأجل معين في علم الله تعالى، ولا يملك إنزاله إلا الله تعالى، ومتى حان وقت هلاك أمة من الأمم، فلا يتأخر ولا يتقدم لحظة. وليس لرسول أو نبي أو غيرهما الحيلولة دون وقوع العذاب المقرر.

٦ - استعجال العذاب لا نفع فيه، وإنما النافع هو الإيمان قبل نزول العذاب، فإذا نزل فلا فائدة ولا نفع فيه؛ لأن إيمان اليأس غير مفيد ولا صحيح.

والقائل في قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ إما الملائكة استهزاء بهم، وإما من قول الله تعالى.

٧ - تبكيت الظالمين بما يقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الذي لا ينقطع، والجزاء لا يكون إلا جزاء الكفر والعصيان.

٨ً - قيام الساعة والبعث والمعاد حق ثابت أقسم الله ورسوله على أنه حق كائن لا شك في وقوعه، وجميع الناس غير فائتين عن عذابه ومجازاته.

٩ً - لا يقبل من أحد الفداء عن ذنبه؛ لأن الله هو مالك السماوات والأرض وكل شيء في ملكه وسلطانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩١] .

١٠ً - يندم الكفار والظلمة والعصاة على أعمالهم في الدنيا، وهم إما أن يخفوا الندامة أحياناً، وإما أن يظهروها أحياناً أخرى. ورؤساء الضلالة يخفون ندامتهم عن أتباعهم قبل الإحراق بالنار، فإذا وقعوا في النار ألهتهم النار عن التصنع، بدليل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٦] فبيَّن أنهم لا يكتمون ما بهم.

١١ً - القضاء بالعدل بين الكفار أنفسهم لدفع الظلم الذي كان بينهم واقع أيضاً في الآخرة، فيخفف العذاب حينئذ عن المظلوم، ويزاد على الظالم.

١٢ً - تنبيه الناس قاطبة على أمور هي: أن الله مالك السماوات والأرض، وأن وعد الله حق كائن لا محالة فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده، وأنه يحيي ويميت، وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ما يريد، العليم بأماكن وجودهم قبل البعث والحشر في البر والبحر، وأن أكثر الكفار منكري البعث غافلون عن أمر الآخرة، مقصّرون في الاستعداد لها.

والله تعالى في الآخرة كما في الدنيا قادر لذاته على الإحياء والإماتة، لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً.

مقاصد القرآن الكريم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

القراءات:

﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ ..﴿يَجْمَعُونَ﴾ :

وقرأ ابن عامر (فلتفرحوا.. تجمعون).

الإعراب:

﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ التنكير للتعظيم.

﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الباء متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، أي فليعتنوا أو فليفرحوا ثم قال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ وفائدة هذا التكرار: التأكيد والبيان بعد الإجمال. والفاء بمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء، فبهما فليفرحوا. وإعادة الباء ﴿بِفَضْلِ﴾ ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ دليل على أن كلاً منهما سبب في الفرح. وقوله (بذلك) للواحد والاثنين والجمع.

البلاغة:

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحالّ، أي شفاء للقلوب التي في الصدور.

المفردات اللغوية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي أهل مكة وغيرهم .﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ أو عظة: هي الوصية بالحق والخير واجتناب الشر والباطل، بأسلوب جمع بين الترغيب والترهيب.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ودواء من العقائد الفاسدة والشكوك. ﴿وَهُدًى﴾ بيان الحق من الضلال، والبيان في العقيدة بالبرهان، وفي التشريع العملي ببيان المصالح. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ رقة تقتضي الإحسان والعطف.

﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ التوفيق لتزكية النفوس، أو هو الإسلام. ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي ثمرة الفضل أو هي إنزال القرآن. ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الفضل والرحمة. ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ الفرح والسرور: انفعال في النفس بنعمة حسية أو معنوية ترتاح له وتستمتع به.

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة على أسس الدين الثلاثة: وهي التوحيد، والنبوة، والبعث، ذكر التشريع العملي وهو القرآن، وأبان صفاته ومقاصده الأربعة.

التفسير والبيان:

يا أيها الناس، قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ أو الوصايا الحسنة التي تصلح الأخلاق والأعمال وتزجر عن الفواحش، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وترحم المؤمنين رحمة خاصة.

وهذه هي صفات القرآن المجيد أو خصائصه.

١ - كونه موعظة حسنة من عند الله، يجمع بين الترغيب والترهيب، فيبعث على فعل الحسن وترك القبيح، مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٣٨].

٢ - شفاء لما في القلوب من الشبهات والشكوك والنفاق والكفر وسوء

الاعتقاد والخلق، كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢] .

٣ - هادٍ إلى الحق واليقين والصراط المستقيم المحقق لسعادتي الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤] .

٤ - رحمة للمؤمنين خاصة، ينجيهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، ويحجبهم من النيران، ويرفعهم إلى درجات الجنان. وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بالإيمان.

قل أيها الرسول للمؤمنين: ليفرحوا بفضل الله وبرحمته بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق، فإنه أولى ما يفرحون به. وقوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ يفيد الحصر، يعني يجب ألا يفرح الإنسان إلا بذلك. روى ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن أنس مرفوعاً: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله» وقال الحسن البصري والضحاك وقتادة ومجاهد: «فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن».

إن الفرح بما تفضل به الله وبما رحم به المؤمنين هو أجدى وأنفع من كل ما يجمعونه من الأموال وسائر خيرات الدنيا، لا محالة؛ لأنه يؤدي إلى سعادة الدارين، وتلك الأموال سبب السعادة في الدنيا فقط.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الصفات الأربع هي صفات القرآن، ففي القرآن المواعظ والحكَم، وهو الشفاء النافع من الشك والنفاق والخلاف والشقاق، وهو الهدى أي الرشد لمن اتبعه، عصمة لمن تبعه، ونجاة لمن تمسك به. ورحمة أي نعمة كبرى خاصة بالمؤمنين.

وإن فضل الله ورحمته من أعظم دواعي الفرح والسرور، بل لا فرح ولا

سرور بغير فضل الله ورحمته، وفضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن. وهذا قول الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة. وعن أبي سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما العكس تماماً، فقالوا: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام.

وعلى كل فإن مصدر الفرح الصحيح للمسلمين شيئان: الإيمان أو الإسلام، والقرآن. وإن فضل الله ورحمته خير للمؤمنين مما يجمعون من حطام الدنيا؛ لأن الآخرة خير وأبقى، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل. روى أبان عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من هداه الله للإسلام، وعلمه القرآن، ثم شكا الفاقة، كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه، ثم تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الإنكار على المشركين بالتحليل والتحريم للأنعام

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

الإعراب:

﴿مَّآ أَنزَلَ﴾ ﴿مَّآ﴾: منصوب بـ ﴿أَنزَلَ﴾ أو بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾، فإنه بمعنى أخبروني.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: منصوب بالظن، وهو ظن واقع فيه؛ أو منصوب على الظرف.

البلاغة:

﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ بينهما طباق.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ﴾ كرر الفعل للتأكيد.

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار.

و ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل، ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على الله، بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريراً للافتراء. ويجوز أن تكون متصلة بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ما خلق. ﴿لَكُم﴾ أي ما حل لكم، ولذلك وبخ على التبعيض فقال: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ كالبحيرة والسائبة والوصيلة. ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في ذلك بالتحليل والتحريم؟ لا. ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون بنسبة ذلك إليه.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ﴾ أي، أيُّ شيء ظنهم به. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أنه لا يعاقبهم عليه؟ وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأنعم عليهم بنعم كثيرة، وأمهلهم في العقاب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة.

المناسبة:

بعد أن أثبت الله تعالى في أوائل السورة الوحي والنبوة، ذكر طريقاً آخر في إثبات النبوة: وهو أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق الله تعالى، وأن الأصل في الأرزاق والأشياء الإباحة، فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعض، مع تساويها في الصفات والمنافع، دليل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة؛ لأنه لم يقم لكم دليل عقلي ولا نقلي على هذا التميز، فهو منهج فاسد باطل، وأن ما عليه الأنبياء هو الحق والصواب.

التفسير والبيان:

ينكر الله تعالى على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٦] وقوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٨] وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٩] وقوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٣] .

ورد الله تعالى عليهم كل ماشرعوه من تحليل وتحريم بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٣] .

ومعنى الآية: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين كفار مكة: أخبروني عما أنزل الله من رزق حلال لكم للانتفاع به، فجزأتموه أو بَعَّضْتُمُوه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام بزعمكم، أخبروني: الله أذن لكم في التحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله، في نسبة ذلك إليه.

والآية توبيخ على التبعيض، وزجر بليغ على التهاون في الفتوى، وباعثة على وجوب الاحتياط فيما يسأل عنه العالم من الأحكام، وألا يقول أحد في شيء: جائز أو غير جائز، إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت. وإلا فهو مفتر على الله[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١٦/ ١١٦] .

---

(١) الكشاف: ٢/ ٧٨

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ﴾ المعنى: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه؟ وهو يوم الجزاء، والإحسان والإساءة، أيظنون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله أو أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به؟ وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره، أم أن لهم شفعاء يشفعون لهم؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٤٢/٢١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام، وتشريع الدين، وفضَّل عليهم بالرزق وجعل الأصل فيما رزقهم من المنافع الإباحة، ولكنه جعل حق التحليل والتحريم إليه وحده، كيلا يُعبَث به، كما عَبَث به الأحبار والرهبان، ولم يحرِّم عليهم إلا ما فيه ضرر بهم في دنياهم أو دينهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة وذلك الفضل كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ٣٤/١٣] ولا يتبعون ما هدوا إليه، بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيِّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً، وقد وقع في هذا المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم. وربما وقع فيه بعض المسلمين، فتغالوا في الزهد وتركوا طيبات الرزق، أو أسرفوا في الأكل والشرب والزينة، مخالفين نهج الإسلام في التوسط والاعتدال في الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٢٩] وقال سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطلاق: ٦٥/٧].

وأيدت السنة ذلك الاتجاه، روى البخاري والطبراني عن زهير بن أبي عَلْقمة مرفوعاً: «إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك، فإن الله يحب أن يُرى أثرُه على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس».

وأخرج أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ، وأنا رَثُّ الهيئة فقال: هل لك مال؟ قلت: نعم، قال: من أيّ المال؟ قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: إذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمته عليك وكرامته».

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ما يأتي:

١ - الشيء الذي جعله أهل الجاهلية المشركون حراماً: هو ما حكموا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كما ذكر في سورة المائدة، وهو أيضاً المذكور في سورة الأنعام من جعل نصيب من الزروع والثمار والمواشي لله تعالى يصرفونه إلى الضيفان والمساكين، ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ٦/١٣٦] .

٢ - مصدر التشريع هو الله عز وجل، وحق التحليل والتحريم لله، لا لأحد سواه من الخلْق ولو كان نبياً أو رسولاً، فإن كانت الأحكام من الله تعالى فهو المراد بقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وإن كانت ليست من الله، فهي افتراء، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

٣ - توبيخ من تجرأ على تبعيض الأحكام الشرعية، فجعل بعضها حلالاً، وبعضها حراماً. وهذا أيضاً تنديد بمن يتهاون في الفتوى، ولا يحتاط في وصف الأحكام، فيحلل أو يحرم برأيه دون تثبت ولا تيقن.

٤ - وعيد من يفتري على الله الكذب، فينسب الحكم إليه، وهو منه براء.

٥ - معاقبة المفترين يوم القيامة على جريمة افتراء الكذب على الله.

٦ً - الله تعالى صاحب الفضل العظيم على الناس بإعطاء العقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل التحليل والتحريم إليه دون سواه، وجعل الأصل في المنافع والأرزاق والأشياء والأعيان الإباحة.

٧ً - أكثر الكفار لا يشكرون الله على نعمه، ولا على تأخير العذاب عنهم.

إحاطة علم الله تعالى بجميع شؤون العباد وأعمالهم وبكل الكائنات

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

القراءات:

﴿شَأْنٍ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شان).

﴿قُرْءَانٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قران).

﴿يَعْزُبُ﴾:

وقرأ الكسائي (يَعْزِب).

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾:

وقرأ حمزة وخلف (ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ).

الإعراب:

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ الهاء تعود على (الشأن) على تقدير حذف المضاف، وتقديره: وما تتلو من أجل الشأن من قرآن، أي: يحدث لك شأن فتتلو القرآن من أجله. ومن: تبعيضية، أو مزيدة لتأكيد النفي. وإضمار القرآن قبل التصريح به تفخيم له أو لله عز وجل.

﴿وَلَآ أَصْغَرَ﴾ ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ النصب فيهما على أن (لا) نافية، و﴿أَصْغَرَ﴾ اسمها، و﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: خبرها وهذا كلام مستقل بنفسه، مقرر لما قبله. ويجوز الرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه، أو على العطف على محل: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وتقديره: وما يعزب عن ربك مثقالُ ذرة ولا أصغرُ ولا أكبر. ويجوز الجر، مراعاة للفظ ﴿مِّثْقَالِ﴾ لأن ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في اللفظ مجرور. و﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ موضع الرفع لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو في كتاب مبين.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يامحمد، و(ما): نافية، أي لست في شأن من عبادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك .﴿شَأْنٍ﴾ أمر مهم عظيم ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ من الشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ، بل هو معظم شأنه، أو ما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له. أو من الله عز وجل ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً أيها المؤمنون (الأمة والنبي) وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ﴿شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تندفعون فيه وتخوضون أو تأخذون في العمل ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ وما يبعد عنه وما يغيب عن علمه ﴿مِّثْقَالِ﴾ وزن ﴿ذَرَّةٍ﴾ أصغر نملة أو هباء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الوجود والإمكان ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيّن وهو اللوح المحفوظ.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أن القليل من الناس شاكرون نعم الله بدوام طاعته

وترك معصيته، ذكّرهم بأن علمه محيط بجميع شؤونهم وأعمالهم صغيرها وكبيرها. وبكل الموجودات والكائنات كلها في السماوات والأرض، حتى يحملهم ذلك على الطاعة والشكر والعبادة وتجنب المعصية؛ لأنه إذا كان الحق تعالى عالماً بكل شيء، سرّ الطائعون، وهدِّد المذنبون.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل لحظة.

وما تكون أيها الرسول في أي أمر من أمورك الخاصة أو العامة، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك، لنشر الدعوة بين الناس إلا ونحن شهود عليكم.

وفي التعبير بالشأن دليل على أن جميع أموره ﷺ كانت عظيمة، حتى العادات؛ لأنه قدوة حسنة للمؤمنين. وبعد أن خصه الله بأمرين وهما ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ و﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ خاطب جميع الأمة التي هو رأسها.

وضمير ﴿مِنْهُ﴾ إما عائد إلى الشأن، وإما إلى القرآن أي وما تتلو من القرآن من قرآن؛ لأن القرآن اسم للمجموع واسم لكل جزء من أجزاء القرآن، والإضمار قبل الذكر يدل على التعظيم، وإما إلى الله أي وما تتلو من قرآن نازل من عند الله.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولا تعملون أيتها الأمة أي عمل صغير أو كبير، خير أو شر، وأي عمل كان، إلا كنا عليكم شاهدين رقباء مطلعين، نحصي عليكم، وسنجازيكم عليه.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تندفعون وتأخذون فيه، أي في ذلك الشيء.

وما يبعد عن الله ولا يغيب عن علمه أي شيء، ولو كان مثقال ذرة أي وزن أصغر نملة أو هباء، وبه يضرب المثل في الصغر والخفة، ولا أصغر من الذرة أي أجزاء الذرة، وهذا يشير إلى نظرية أو مبدأ تحطيم الذرة واكتشاف جزيئاتها، ولا شيء أكبر من ذلك، كالعرش الذي هو أعظم المخلوقات، إلا وهو معلوم له، ومحصىً معروف في كتاب عظيم الشأن وهو اللوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها.

وفي هذا دلالة إلى سبق القرآن إلى الإشارة إلى أصغر الموجودات في الكون مما لا يدرك بالعين المجردة، وإنما بالمكبّرات، كأجزاء الذرة والجراثيم، ويحتاج تكبيره إلى مئات أو آلاف المرات. كما أن هناك أشياء كبيرة جداً، أكبر من السماوات والأرض، وما فيهما، فإن بعض النجوم أكبر من الشمس والأرض والقمر بملايين المرات، والعرش أعظم المخلوقات.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩] أي أنه تعالى يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، وكل ماهو موجود في طبقات الأرض، وأجواء السماء.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن كل من يتأمل في مدلول هذه الآية - ولا يتأمل فيها بحق إلا عالم مؤمن، واسع العلم والأفق والنظر - فيجد سعة علم الله الشامل، ورصده لكل شيء في الوجود، وأعمال جميع الكائنات الحية، والناس قاطبة في البر والبحر والجو، يسيطر عليه الخوف والرهبة، ويمتلئ قلبه اليقين بعظمة الله تعالى، ويدرك أن جميع أعماله محصية عليه، سواء أكانت صغيرة حقيرة أم كبيرة جليلة.

ولو قيل: إن شاشة كبيرة من التلفاز (الرائي) تصوِّر جميع حركات الإنسان

على أشرطة مسجلة في منزله وغيره، وفي تنقلاته كلها، وإن ما يرتسم على هذه الشاشة وما يسجل فيها من أصوات، سيعرض على حاكم الدولة، وسيحاسبه على أموره كلها، هل أدى واجبه أو قصر، وهل أدى الأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقه أو خانها، وهل أحسن أو أساء إلى نفسه أو غيرها من الأهل والجيران والمجتمع، لو قيل ذلك، وقدَّر كل إنسان ما يرصد عليه في هذه الشاشة في يوم أو شهر أو سنة أو في العمر كله، لفكَّر تفكيراً دقيقاً جداً، والتزم درب الاستقامة، حتى لا يعرّض نفسه إلى الإهانة.

وهكذا - ولله المثل الأعلى - رَصْد الله لحركاتنا، وعلمه بجميع أعمالنا، بل اطلاعه على ما تكنه نفوسنا، يملأ النفس رهبة وخوفاً، فسبحانك يارب لا يسعنا إلا سترك وعفوك ورحمتك، وكفى بهذه الآية باعثاً على الطاعة والإيمان، ورادعاً عن المعصية والكفر، وكفى بالله حسيباً، وهو أسرع الحاسبين.

أولياء الله: أوصافهم وجزاؤهم

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ثلاثة أوجه: النصب على أنه صفة للأولياء أو بدل منهم، أو النصب على المدح أي أخص أو أعني، أو الرفع على الابتداء، وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

ويجوز أن تكون ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُمُ﴾ خبره، والجملة في موضع رفع: خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي أحبابه وأصفياؤه والمقرّبون إليه، الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، هم المؤمنون المتقون كما فسرتهم الآية، فكل من كان تقياً كان لله ولياً. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات مأمول.

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله بامتثال أمره ونهيه ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الخبر السارّ، وهي ما بشّر الله به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وما يريهم في الرؤيا الصالحة، كما في حديث صححه الحاكم: يراها الرجل أو تُرى له، وما يسنح لهم من المكاشفات، وبشرى الملائكة عند النزع ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ الجنة والثواب وتلقي الملائكة إياهم مُسَلِّمين مبشرين بالفوز والكرامة. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا خلف لمواعيده ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى إحاطة علمه بأعمال العباد وبجميع الكائنات ليكون ذلك باعثاً لهم على الشكر والعبادة، ذكر حال الشاكرين المتقين الذين حسن جزاؤهم في الآخرة.

التفسير والبيان:

إن أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة والعبادة، ويتولاهم بالكرامة هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكانوا يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فكل من كان تقياً كان لله ولياً. وأولياء الله هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والتقوى. فلا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٥] أي لا تخافوا أولياء الشيطان وأنصاره.

ولا خوف عليهم في الآخرة مما يخاف منه الكفار والعصاة من أهوال الموقف وعذاب القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٣] .

ولاهم يحزنون في الدنيا من فوات مأمول، ولحوق مكروه، وذهاب محبوب؛ لأنهم يؤمنون بالقضاء والقدر، ويبتغون رضوان الله، كما لا يحزنون في الآخرة من مخاوف القيامة.

روى البزار عن ابن عباس قال: قال رجل: يارسول الله، من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله».

ولهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر والاستخلاف في الأرض ما داموا على شرع الله ودينه، يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٠-٤١] وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٥٥] .

ومن بشائر الدنيا لهم الرؤيا الصالحة، روى أحمد والحاكم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له».

ومن البشائر بشرى الملائكة لهم بحسن الحال وبالدرجة الرفيعة عند النزع: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ١٦/٣٢] .

ولهم البشرى في الحياة الآخرة بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٩/٢١] .

وتلقي الملائكة لهم يبشرونهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

﴿ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢] .

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده، كقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٥٠/ ٢٩] ومنها تبشير المؤمنين بالجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك المذكور وهو البشارة لهم في الدارين بالسعادة هو الفوز العظيم الساحق الذي لا فوز غيره؛ لأنه ثمرة الإيمان والعمل الصالح.

فقه الحياة أو الأحكام:

وضعت هذه الآية الحد الفاصل أمام الأدعياء، فأبانت أن أولياء الله هم المؤمنون الأتقياء، روى سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل: من أولياء الله؟ فقال: «الذين يُذكر الله برؤيتهم». وقال عمر بن الخطاب - فيما رواه أبو داود - سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء، تغبِطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، لمكانهم من الله تعالى. قيل: يارسول الله، خبّرنا من هم وما أعمالهم، فلعلنا نحبّهم؟ قال: هم قوم تحابّوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطَون بها، فوالله، إن وجوههم لنور، وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾»[1].

وما أعظم وأجدى هذه الحوافز للعمل الصالح والاتصاف بصفة أولياء الله، التي ذكرتها هذه الآية، وهي المجموعة في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى

(١) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، لكن رواه أحمد عن أبي مالك الأشعري، ورواه ابن جرير عن أبي هريرة.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وفي تلك البشرى إيماء إلى الوعد بنصرهم على الأعداء.

والبشرى: هي الخبر السارُّ أو البشارة السارّة بالخير والفضل والمكافأة، وقد جمعت هذه البشرى بين سعادتي الدنيا والآخرة، ففي الدنيا: النصر والعز والثناء الحسن، وفي الآخرة: الفوز والنجاة والظفر بالجنة ونعيمها الأبدي الخالد. ولا خلف لوعد الله، ولا تبديل لأخباره، فلا ينسخها شيء، ولا تكون إلا كما قال، فما أجلَّ ذلك، وما أكرم الله المبشِّر وأحبّه إلى عباده، وما أسعد المبشَّرين! جعلنا الله منهم.

العزة والملك لله تعالى وفائدة جعله الليل والنهار

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾:

وقرأ نافع (ولا يُحْزِنك).

﴿شُرَكَآءَ إِن﴾:

قرأ بتسهيل الهمزة الثانية وصلاً: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وبتحقيقها قرأ الباقون.

الإعراب:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ﴾ (ما): إما بمعنى الذي، وإما بمعنى النفي، وإما بمعنى الاستفهام. فإن كانت بمعنى الذي فهي معطوفة بالنصب على ﴿مَن﴾ أي، ألا إن لله تعالى الأصنام الذين تدعونهم من دون الله شركاء، فحذف العائد من الصلة. و﴿شُرَكَآءَ﴾: حال من ذلك المحذوف.

وإن كانت نفياً وهو الظاهر كانت حرفاً، والتقدير: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن. وانتصب شركاء بـ ﴿يَدْعُونَ﴾، والعائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الواو في ﴿يَدْعُونَ﴾ ومفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾ قام مقامه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ولا ينتصب الشركاء بـ ﴿يَتَّبِعُ﴾؛ لأنك تنفي عنهم ذلك، والله تعالى قد أخبر به عنهم.

وإن كانت (ما) بمعنى الاستفهام، والمراد به الإنكار والتوبيخ، كانت اسماً في موضع نصب بـ ﴿يَتَّبِعُ﴾، وتقديره: وأي شيء يتبع الذين يدعون.

البلاغة:

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ استعارة، شبه النهار بالإنسان؛ لأن الناس يبصرون فيه، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له أي للإبصار على طريق المبالغة، كما قالوا: ليل أعمى وليلة عمياء، إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتهديدهم وتكذيبهم وقولهم لك: لست مرسلاً ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ استئناف بمعنى التعليل، و﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: الغلبة والقوة

والمنعة ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعزماتهم وأفعالهم، فيجازيهم عليها وينصرك عليهم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ من الملائكة والثقلين: الإنس والجن، ملكاً وخلقاً وعبيداً. قال البيضاوي: وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً، لا يصلح أحد منهم للربوبية، فما لا يعقل منها - وهي الأصنام - أحق ألا يكون له نداً وشريكاً، فهو كالدليل على قوله .﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره أصناماً ﴿شُرَكَآءَۚ﴾ له على الحقيقة، تعالى الله عن ذلك ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في ذلك يقيناً، وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء، أو أنها آلهة تشفع لهم ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ماهم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون فيما ينسبون إلى الله، فيستعمل الخرص بمعنى الكذب؛ لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين، والأصل في الخرص: الحزْر والتقدير، ويجوز أن يراد: يحزرون ويقدرون أنها شركاء تقديراً باطلاً.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ أي ذا إبصار، وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز؛ لأنه يبصر الناس فيه، وإنما قال مبصراً، ولم يقل: لتبصروا فيه، تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب ﴿لَآيَٰتٍ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار أو اتعاظ.

المناسبة:

بعد أن أورد الله تعالى أنواع شبهات المشركين في هذه السورة، وأجاب عنها، ذكر أنهم عدلوا إلى طريق آخر، وهو التهديد والتخويف بأنهم أصحاب السلطة والمال، فأجابهم الله عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تبشيراً له بالنصر عليهم، كما أنه تعالى مهد لذلك في بيان صفة الأولياء وبشارتهم في الآيات المتقدمة، إيماء إلى الوعد بالنصر على الأعداء في مكة المغترين بقوتهم، المكذبين بوعد الله.

التفسير والبيان:

ولا يحزنك أيها الرسول قول هؤلاء المشركين: لست مرسلاً، وغيره من إشراك وتكذيب وتهديد بأنهم أصحاب القوة والمال، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإن العزة أي الغلبة والقوة والقهر لله تعالى جميعاً، أي جميعها له، وأما إثبات العزة لرسوله وللمؤمنين ففي آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] فالعزة كلها بالله، وإلى الله.

هو السميع لأقوال عباده، ومنها أقوالهم المتضمنة تكذيب الحق وادعاء الشرك، العليم بأحوالهم وبما يفعلون من إيذاء وكيد، وسيجازيهم عليه، فلا تأبه لقولهم ومكيدتهم. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه، وتبشير له بالنصر عليهم.

ثم أقام الدليل على انفراده بالعزة كلها بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ أي انتبهوا أيها الناس، إن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما، لا ملك لأحد فيهما سواه، فكيف تصلح الأصنام آلهة؟ وهي مملوكة، والعبادة لا تكون إلا للمالك، بل إنها لا تعقل ولا تملك شيئاً، لا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وأوهامهم.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي لا يتبع هؤلاء المشركون شركاء لله في الحقيقة، فليس لله شريك أبداً، وليس للشركاء المزعومين قدرة على شيء من تدبير أمور العباد ودفع الضر عنهم، بل إنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم، ولا يملكون جلب أي نفع لهم.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبع المشركون في الحقيقة فيما يزعمون إلا الظن الفاسد والخطأ الفادح، وما هم في هذا الظن إلا متخرصون كاذبون فيما ينسبون إلى الله، أو حازرون مقدّرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً.

فهذه الجمل الثلاث بعد بيان استقلال الله بملكية مافي السماوات ومافي الأرض مؤكدات متوالية، تؤكد سلب صلاحية الملائكة والأصنام والمسيح وغيرهم عن اتخاذها آلهة، ولا اتخاذها وسطاء أو شفعاء أو وسائل لله، كما هو شأن حكام الدنيا والملوك الظالمين الذين لا يصل إليهم إلا الوسطاء، فجميع من في السماوات والأرض مملوك لله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ١٩/٩٣] والمملوك لا شأن له أمام المالك.

ثم استدل تعالى على كون العزة لله جميعاً وانعدام أي دور للشركاء مع الله في الخلق والتقدير والتصرف والتدبير بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ أي إنه تعالى قسم الزمان قسمين وهما الليل والنهار، وجعل الليل للاستراحة والسكن والاطمئنان فيه بعد عناء النهار والاشتغال فيه، وجعل النهار مضيئاً للمعاش والسعي والأسفار وقضاء المصالح، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ٧٨/٩-١١] وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٧/١٢].

ففي هذا تنبيه على كمال قدرته تعالى، وعظيم نعمته المتوحد هو بهما، ليدلّهم على تفرده باستحقاق العبادة، وأن يوحدوه بها، بأنه أظلم الليل للسكن فيه من متاعب المعاش في النهار، وأضاء النهار لإبصار مطالب الأرزاق والمكاسب. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي إن في تخليق الليل والنهار وتعاقبهما واختلافهما لدلائل واضحة دالة على أن الإله المعبود بحق هو خالق الليل والنهار، لقوم يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها ويتدبرون ما يسمعون، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدّرها ومسيّرها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن العزة لله جميعاً، أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده، فهو ناصر رسوله ومعينه ومانعه من أذى الأعداء.

ولا يعارض هذا قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن كل عزة بالله، فهي كلها لله، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٠].

٢ً - إن الله هو السميع لأقوال العباد وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

٣ً - إن الله مالك من في السماوات ومن في الأرض، أي يحكم فيهم بما يريد ويفعل فيهم ما يشاء، فليس للمحكوم والمملوك نفاذ أو تدخل في أي حكم، أو قدرة على التصرف في الأملاك، وهذا دليل سلب الألوهية عما سوى الله.

٤ً - إن المشركين لا يتبعون في عبادتهم شركاء على الحقيقة، بل يظنون ظناً باطلاً أنها تشفع أو تنفع، وما هم في ظنهم إلا يَحْدِسون يخمنون ويكذبون فيما ينسبونه إلى الله.

٥ً - إن الواجب عبادة من يقدر على خلق الليل والنهار، وإحكام تعاقبهما بنظام دقيق، لا عبادة من لا يقدر على شيء.

٦ً - إن لله الحكمة البالغة في إيجاد الليل والنهار، فالله جعل الليل لمنافع عديدة منها السكون (أي الهدوء عن الاضطراب) مع الأزواج والأولاد، وزوال التعب والكَلال الناجم عن الانهماك في الأعمال. وجعل النهار لفوائد جليلة منها إبصار موارد العيش، والاهتداء به إلى الحوائج، والأنس مع الناس.

٧ - إن في خلق السماوات والأرض وفي خلق الليل والنهار لعلامات ودلالات قاطعات واضحات على استحقاق الخالق للعبادة والتفرد بها وحده، ولكن لا يتعظ بهذا إلا القوم الذين يسمعون سماع تدبر واعتبار واتعاظ، وذلك هو جوهر فائدة خَلْق السمع والبصر.

الإشراك بنسبة الولد للّه تعالى

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

الإعراب:

﴿بِهَٰذَآۚ﴾ متعلق بـ ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾ أو نعت له، أو بـ ﴿عِندَكُم﴾، كأنه قيل: إن عندكم في هذا سلطان.

﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي افتراؤهم أو تقلبهم متاع في الدنيا، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم متاع أو تمتع في الدنيا.

البلاغة:

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والتقريع على اختلافهم وجهلهم.

المفردات اللغوية:

﴿قَالُواْ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون الذين زعموا أن الملائكة بنات

الله ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي تبناه، والولد يستعمل مفرداً وجمعاً ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ رد الله عليهم بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً وتقديساً له عن التبني، فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد، والمراد التعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن كل أحد، وإنما يطلب الولد من يحتاج إليه، وهو علة لتنزيهه، فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، وهو تقرير لغناه ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾ أي ما عندكم من حجة وبرهان على هذا الذي تقولونه ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ توبيخ وتقريع على قولهم.

﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بنسبة الولد وإضافة الشريك إليه ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا يسعدون، فلا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنة ﴿مَتَٰعٞ﴾ أي لهم متاع قليل ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ يتمتعون به طوال حياتهم ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ﴾ بعد الموت ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى أفعال المشركين باتخاذ الأوثان والأصنام شفعاء، وردّ عليهم رداً مقنعاً، ذكر هنا نوعاً آخر من أباطيلهم وهو نسبة الولد إلى الله تعالى، وهذا يشمل المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله، واليهود القائلين بأن عزيراً ابن الله، والنصارى القائلين بأن المسيح عيسى ابن الله.

التفسير والبيان:

موضوع الآيات: الإنكار على المشركين واليهود والنصارى الذي ادعوا أن لله تعالى ولداً.

والمعنى: وقال المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزه وتقدس الله عن التبني، والمراد التعجب من كلامهم الباطل، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصور له الولد، والله لا والد له ولا ولد.

﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ علة لتنزيهه، أي أن الله هو الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ولا حاجة له للولد، وإن اتخاذ الولد ناشئ عن الحاجة.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فكيف يكون له ولد مما خلق؟ وكل شيء مملوك له وعبد له، وهو خالق السماوات والأرضين وكل ما فيهما، لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه، بل الكل محتاج إليه، وكل مافي السماوات وما في الأرض له ملكاً وخلقاً وعبيداً، وتصريفاً، لا يشاركه في ذلك أحد، فكيف بالموجد الخالق واهب الحياة وحوائجها يتخذ ولداً موجوداً مخلوقاً موهوباً له، محتاجاً إليه في كل شيء مادي كالرزق ومعنوي كالإعانة والنصرة والإعزاز؟!.

﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ أي ليس عندكم دليل على ادعائكم وما تقولونه من الكذب والبهتان.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أتقولون على الله قولاً لا حقيقة له، وتنسبون إليه تعالى مالا يصح عقلاً وواقعاً نسبته إليه. وهذا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع، أو الإنكار والوعيد الأكيد، والتهديد الشديد. قال البيضاوي: وفي هذا دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لابد لها من دليل قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ١٩/٨٨-٩٥] .

ثم توعد الله تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون، مما يدل على أن هذا المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به إليه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: إن الذين يختلقون على الله الكذب بنسبة الشريك إليه، أو باتخاذ الولد، لا يفلحون ولا يفوزون أبداً، في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فيستدرجهم ويمتعهم قليلاً، وأما في الآخرة فيضطرهم إلى عذاب غليظ شديد، كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي لهم تمتع في الدنيا قليل لمدة قصيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم بعد الموت يرجعون إلى ربهم بالبعث يوم القيامة، وما فيه من أهوال الحشر والحساب ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي ثم يلقون الشقاء المؤبد ويعذبون في نار جهنم العذاب الموجع المؤلم الغليظ أي الشديد، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

وفي هذا دلالة واضحة على الخسارة المحققة للكافرين، فإن ما يتوهمون أنه نجاح في الدنيا بالحصول على المنافع المادية والمعنوية، لا قيمة له أصلاً في مقابلة ما فاتهم في الآخرة من ثواب عظيم ونعيم مقيم في جنان الخلد، فإن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات أمرين: الأول - بطلان القول بنسبة الولد لله تعالى بالأدلة القاهرة، وبانعدام الدليل على صحة هذا القول. والثاني - ظهور أن هذا المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به إليه.

أما أدلة بطلان القول بنسبة الولد لله تعالى فهي كما ذكرت الآية الأولى خمسة:

أ - سبحانه: وهو تنزيه وتقديس الله تعالى عن الصاحبة والأولاد وعن

الشركاء والأنداد، وتعجب شديد من هذه الكلمة الحمقاء؛ لأنه تعالى ليس محتاجاً إلى غيره، وإنما هو مصدر قضاء الحوائج.

٢ - هو الغني: الله هو الغني غنى مطلقاً عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه.

وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له أب وأم، ومن تقدس عن الوالدين تقدس عن الأولاد. وامتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، والولد عبارة عن انفصال جزء من أجزاء الإنسان. وامتنع أن يكون موصوفاً بالشهوة واللذة، فلا صاحبة له ولا ولد. وامتنع من اتخاذ الولد، لعدم احتياجه إلى إعانته على المصالح الحاصلة والمتوقعة.

وكل من كان غنياً كان قديماً أزلياً باقياً سرمدياً، فلا يطرأ عليه الانقراض والانقضاء، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي وينقرض.

وكل من كان غنياً مطلقاً كان واجب الوجود لذاته، فلو كان له ولد، لكان ولده مساوياً له، أي يصبح واجب الوجود أيضاً، وإذا اتصف بهذه الصفة امتنع تولده من غيره، وإذا لم يكن متولداً من غيره لم يكن ولداً.

فثبت أن كونه تعالى غنياً من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له[١].

٣ - له ما في السماوات والأرض ملكاً وخَلْقاً وعبيداً، فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له؟!.

٤ - إن عندكم من سلطان بهذا، أي ليس عندكم من حجة ولا دليل على صحة قولكم، والدعوى العارية من الدليل باطلة بطلاناً مطلقاً.

---

(١) تفسير الرازي: ١٧/ ١٣٢ وما بعدها.

٥ - أتقولون على الله مالا تعلمون؟ من إثبات الولد له، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة، والله تعالى لا يجانس شيئاً، ولا يشابه شيئاً. وهذا بالإضافة إلى كونه تأكيداً لما سبق إنكار شديد ووعيد أكيد وتقريع وتوبيخ على من تجرأ بنسبة الولد إلى الله تعالى.

وأما ظهور كون هذا المذهب افتراء وكذباً على الله، فواضح مترتب على بطلان الادعاء بثبوت الولد لله تعالى.

وقد دل قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ على أن إثبات العقيدة لا سيما فيما يتعلق بإثبات الله الصانع يتطلب دليلاً قطعياً يقيناً، ولا يقبل فيه التقليد والوراثة ومحاكاة عقائد المسلمين المؤمنين بحق. ودل قوله ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ على إفلاس الكافر وخسارته المحققة يوم القيامة وعدم نجاته من العذاب.

كذلك دل قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ الآية على أن التمتع في الدنيا قليل وحقير جداً بالنسبة لنعيم الآخرة، وأن مرجع جميع الخلائق إلى الله تعالى، وأن الكفار والمشركين معذبون عذاباً شديداً بسبب كفرهم.

قصة نوح عليه السلام مع قومه

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

القراءات:

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا﴾ : قرئ:

١- (إن أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (إن أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل مما قبله.

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ منصوب لوجهين: أحدهما - لأنه مفعول معه، أي، فأجمعوا أمركم مع شركائكم. والثاني - بتقدير فعل، أي فأجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم. وقيل: التقدير: وادعوا شركاءكم. والنصب على تقدير الفعل مثل قول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزجّجن الحواجب والعيونا

وتقديره: وكحلن العيون؛ لأن العيون لا تزجج.

وقرئ: (وشركاؤكم) بالرفع عطفاً على ضمير ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ المرفوع، لوجود الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وهو ﴿أَمْرَكُمْ﴾ لأن الفصل يتنزل منزلة التوكيد، كقوله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: ١٠/٢٨].

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ اسم يكن وخبرها.

البلاغة:

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تقديم متعلّق ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ لإفادة الحصر، أي توكلت على الله لا على غيره.

﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ استعارة، عبر عن الالتباس والستر بالغُمة، أي لا يكن أمركم مبهماً، فيكون كالغمة.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱتْلُ﴾ يامحمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على كفار مكة ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ عظم وشق عليكم ﴿مَّقَامِى﴾ قيامي أو إقامتي ومكثي فيكم. ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ وعظي إياكم بآيات الله ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وثقت به ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ فاعزموا عليه عزماً لا تردد فيه أي اعزموا على أمر تفعلونه بي ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي مع شركائكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ في قصدي ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً خفياً، بل أظهروه وجاهروني به، والغمة: الستر واللبس ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ أدّوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون بي، ونفذوه بي ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ تمهلوني ولا تؤخروني، فإني لست مبالياً بكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن تذكيري ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي فما طلبت منكم ثواباً عليه يوجب تولّيكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي ما ثوابي على الدعوة والتذكير ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فهو يثيبني به، سواء آمنتم أو توليتم ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره، ولا أرجو غيره.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجة، وبيّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم، فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، وكانوا ثمانين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي وجعلنا من معه يخلفون غيرهم في عمارة الأرض وسكناها، وهي جمع خليفة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالطوفان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ من إهلاكهم، فكذلك نفعل بمن كذّب. وهذا تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذّب الرسول ﷺ وتسلية له.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة الدالة على الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء يوم القيامة، وفنّد شبهات المشركين وكشف عنادهم لرسوله ﷺ وتكذيبهم له، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم، فيهون عليه ما يتعرض له من الشدائد والمكائد، وتذكيراً للمشركين بمن سبقهم في مثل فعلهم، وكيف كانت عاقبة المكذبين للرسل عليهم السلام.

وذكر تعالى هنا ثلاث قصص: قصة نوح مع قومه، وقصة موسى وهارون مع فرعون، وقصة يونس مع قومه، وفي كل قصة عبرة وعظة. ولقد ذكرت أضواء من التاريخ على القصتين الأوليين، وسأذكر مايناسب قصة يونس عليه السلام.

التفسير والبيان:

وأخبر أيها الرسول واقصص على كفار مكة الذين يخالفونك ويكذبونك خبر نوح مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله، ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك.

اذكر لهم حين قال نوح لقومه: ياقوم إن كان قد شق عليكم وعظم قيامي

معكم للدعوة إلى عبادة ربكم، وتذكيري ووعظي إياكم بآيات الله أي بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعبادته، فإني توكلت على الله وحده ووثقت به، فلا أبالي ولا أكف عن دعوتي ورسالتي، سواء عظم عليكم أو لا.

فأجمعوا أمركم، أي اعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله من صنم ووثن.

ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمونه خفياً ملتبساً عليكم، بل أظهروه لي، وتبصروا فيه، وافصلوا حالكم معي.

فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ذلك الأمر ونفِّذوه بالفعل، ولا تؤخروني ساعة واحدة عن تنفيذ هذا القضاء، فمهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء. وهذا الموقف الواثق بالله وبنصره لنوح أبي البشر الثاني مشابه لموقف هود عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ، مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [هود: ١١/ ٥٤-٥٦] .

وهكذا يتبين الفرق الجلي بين موقف المؤمن الراسخ الإيمان الذي لا يعرف التردد، المعتصم بالله وبوعده وثقته به، وبين موقف الكافر الضعيف المتردد الذي لا ملاذ له، إلا بالقوة الوهمية الخائرة بل المنعدمة للشركاء والآلهة المزعومة.

فإن توليتم أي أعرضتم عن تذكيري وكذبتم ولم تؤمنوا برسالتي ولم تطيعوني فيما أدعوكم إليه من الدين الحق، فإني لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً: أجراً أو جزاءً، إن ثواب عملي وجزائي على الله ربي الذي أرسلني إليكم، وأمرني أن أكون من المسلمين، أي المنقادين الممتثلين لما أُمِرتُ به من

الاستسلام لكل ما يصل إلي من أجل هذه الدعوة، والإسلام والخضوع لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم[(١)]، وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨] فأصولهم واحدة، ومصدرهم واحد، قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد: «الأنبياء أولاد عَلّات» أي أننا أولاد من أمهات شتى والأب واحد، وديننا وإيماننا واحد: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا.

فكذبوه، أي فأصروا على تكذيبه، فنجيناه هو ومن آمن معه في الفُلْك أي السفينة التي صنعها بأمرنا.

وجعلناهم خلائف، أي وجعلنا الناجين مع نوح في السفينة خلائف أولئك الهالكين، في عمارة الأرض وسكناها من بعدهم، وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا نوحاً، فانظر أيها الرسول كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين

---

(١) فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣١-١٣٢]. وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠١]. وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٤] وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٦] وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٤]. وقال تعالى واصفاً رسالة الأنبياء: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤] وقال تعالى عن الحواريين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١١] وقال الرسول وسيد البشر ﷺ امتثالاً لقول الله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٢-١٦٣] أي من هذه الأمة.

المنذَرين، الذين أنذرهم رسولهم بالعذاب قبل وقوعه، فلم يرتدعوا، وأصروا على تكذيبه، وهذه عاقبة كل المصرّين على تكذيب الأنبياء، وعاقبة المؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - العبرة من قصة نوح: ذكر الله تعالى في هذه السورة قصة نوح عليه السلام لفائدتين: الأولى - أن تصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار، وهجر الجحود بالتوحيد والإيمان بالنبوة؛ لأن الله عجل هلاك قوم نوح بالغرق لما أصروا على الكفر والجحود.

والثانية - أن الإنذار بالعذاب لابد أن يتحقق، فقد كان كفار مكة يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول ﷺ لهم، ويقولون له: كذبت، فإنه ما جاءنا هذا العذاب، فذكر الله تعالى قصة نوح ليبين لهم أن ما أنذر به نوح قومه وقع في نهاية الأمر، كما أخبر، فكذلك يقع كل عذاب أنذركم به.

٢ - النظر في المواقف والمقارنة بينها: موقف نوح وموقف قومه، فموقف نوح عليه السلام كان موقف المؤمن الجريء الجسور الذي لا يخشى الصعاب، ولا يعرف التردد، ولا يهاب الموت في سبيل دعوته، ويتحدى الجمع الغفير فيما يريدون أن يعملوه معه. وموقف قومه كان موقف الهيَّاب الضعيف المتخاذل المتردد الذي لم يستطع اتخاذ قرار حاسم في شأن نوح، الذي كانت هيبة الإيمان تحميه وتعصمه من مكائدهم وشرورهم.

٣ - كلمات نوح مع أولئك الكفار: كانت كلمات نوح مكونة من جملة شرط وجزاء. أما الشرط ففيه أمران: الأول - ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ أي ثقل وشق بسبب مكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبسبب ما ألفه الكفار من مذاهب فاسدة وعقائد ومناهج باطلة، والغالب أن من ألف طريقة في الدين يثقل عليه تغييرها.

والأمر الثاني - ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأن من شغف بلذات الدنيا كان شديد النفرة من الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات.

وأما الجزاء على الشرط ففيه أمور خمسة:

الأول - ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي إن شدة بغضكم لي التي تحملكم على إيذائي تجعلني لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله، وهذا منه توكل على الله في دفع شر هذه الساعة، إن كان متوكلاً أبداً على الله تعالى.

الثاني - ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي اعزموا على الأمر الذي تريدون إيقاعه بي، وابذلوا جهودكم في الكيد لي والمكر بي، مع شركائكم الأوثان التي تسمونها آلهة، وفي هذا تحدٍ شديد لمخططاتهم ومكائدهم.

الثالث - ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم، وفي هذا استعداد لمواجهة قراراتهم بصراحة وجرأة، وصرامة وصبر.

الرابع - ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أي امضوا إلي بمكروهكم وما توعدونني به، وهذا دليل الإباء وعدم المبالاة بما ينفذون من قرار.

الخامس - ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه، وهذا غاية الشجاعة والبأس، فإنه لا يحتاج إلى إنذار وإمهال. وهو أيضاً من دلائل النبوات، فإنه أعلمهم أنهم لا يصلون إليه بسوء؛ لأن الله عاصم أنبياءه.

٤ً - النبي في دعوته لا يطلب أجراً من أحد على نصحه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ قال المفسرون: هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالاً على دعوتهم إلى دين الله تعالى. ومتى كان الإنسان خالياً من الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب. وهكذا كانت سيرة جميع الأنبياء.

٥ - الثبات على المبدأ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه قولان:

الأول - أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

والثاني - أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة. قال الرازي: وهذا الوجه أليق بهذا الموضع، لانسجامه مع قوله السابق: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾.

٦ - عاقبة القصة بين نوح وقومه: ترتب على هذا النقاش الحاد بين نوح وقومه الكفار نتائج حاسمة ومهمة جداً.

أما بالنسبة لنوح وأصحابه فأمران: أنه تعالى نجاهم من الكفار، وأنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق.

وأما بالنسبة للكفار: فهو أنه تعالى أغرقهم بالطوفان وأهلكهم. وهذه القصة زجر للمخالفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، ودعوة المؤمنين للثبات على الإيمان.

وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا عرضت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ. وتفاصيل هذه القصة ذكرت في سور أخرى.

عادة الأمم في تكذيب الأنبياء

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

الإعراب:

﴿كَذَّبُوا۟ بِهِۦ﴾ الضمير يعود على قوم نوح، أي فما كان قوم الأنبياء الذين أرسلوا بعد نوح ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، بل كذبوا كتكذيب قوم نوح.

المفردات اللغوية:

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد نوح .﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كإبراهيم وهود وصالح ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات المثبتة لدعواهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل بعث الرسل إليهم، أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل.

ويجوز أن يكون ذلك حكاية لما حدث في عهد نوح عليه السلام .﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ نختم والمراد أن القلوب تصبح غير قابلة لغير ما رسخ فيها ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي كما طبعنا على قلوب أولئك نطبع على قلوب المعتدين، أي المتجاوزين حدود الحق والعدل فلا تقبل الإيمان، بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. قال البيضاوي: وهذا دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى قصة نوح مع قومه والعبرة منها، ذكر عبرة أخرى من تاريخ الأقوام مع أنبيائهم، فإنهم لما كذبوا عوقبوا، وكما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، كذلك يطبع الله على قلوب أمثالهم. فما على أهل مكة وغيرهم إلا الاتعاظ بذلك، وتجنب أسباب تلك العاقبة، من الكفر والتكذيب، وإلا أدى بهم الكفر إلى الحيلولة عن الإيمان وما يتبعه من السعادة.

التفسير والبيان:

ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم؛ مثل هود، وصالح، وإبراهيم،

ولوط، وشعيب عليهم السلام، بالبينات، أي بالمعجزات القاهرة والأدلة والبراهين العقلية والحسية على صدق ما جاؤوهم به.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي فما كانت تلك الأقوام لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، وكما كذب به المتقدمون عنهم من قبل ممن كانوا أمثالهم في سبب الكفر.

والمراد بقوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لتصميمهم على الكفر قبل بعثة الرسل، وتكذيبهم كتكذيب قوم نوح، وكأنه لم يبعث إليهم أحد. وعبارة المفسرين في تفسير القبلية متقاربة، فقال بعضهم: قبل بعثة الرسل، وقال آخرون: بما كذب به قوم نوح من قبل.

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي كما نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا نختم على قلوب من أشبههم في العناد ممن بعدهم من المعتدين كقومك، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

قال الزمخشري: والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأن الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

وبعبارة أخرى: المراد بالطبع عدم قبول القلوب شيئاً من نور الهداية والمعرفة؛ لأنهم تجاوزوا كل حد في الكفر والتكذيب، فلا يؤمنوا.

وهذا إنذار شديد لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإنه إذا كان قد أصاب المكذبين السابقين العذاب والنكال، فما ظن هؤلاء وقد فعلوا مثلهم وأكبر مما فعله من تقدمهم؟!.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى ما يأتي:

١ً - تكذيب الأنبياء عادة شائعة بين الناس، لتأثرهم بما كانوا عليه قبل بعثة الرسل من تصميم على الكفر ورسوخ فيه.

٢ً - الطبع أو الختم على القلوب معناه التعبير عن العناد واللجاج والخذلان.

٣ً - لقد أهلك الله الأمم المكذبة للرسل وأنجى من آمن منهم.

٤ً - احتج أهل السنة بالآية على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان، بسبب عناده وتصميمه على الكفر وتكذيبه الرسل.

٥ً - في الآية دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد، أي أن الله يخلق للإنسان القدرة، والعبد يستخدمها فيما يختاره من خير أو شر.

قصة موسى عليه السّلام مع فرعون

- ١ -

الحوار بين موسى وفرعون

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

القراءات:

﴿أَجِئْتَنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أجيتنا).

المفردات اللغوية:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرّسل .﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قومه أو أشراف القوم .﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآيات التّسع .﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بها .﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن ظاهر .﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ إنه لسّحر، فحذف المحكي بالقول لدلالة ما قبله عليه.

﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ هو استئناف بإنكار ما قالوه .﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى، للدّلالة على أنه ليس بسحر، فإنه لو كان سحراً لاضمحلّ، ولم يبطل سحر السّحرة، فهذا دليل من موسى عليه السّلام على أنه ليس بسحر، وإنما السّحر تخييل وتمويه.

﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لتردّنا وتصرفنا عنه، واللفت والفتل مترادفان .﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الملك فيها، سمي بها لاتّصاف الملوك بالكبر والتّكبر على الناس باستتباعهم .﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتنا به.

المناسبة:

هذه هي القصّة الثانية المذكورة في سورة يونس، وهي قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه، وقد تكرر ذكرها في القرآن للدّلالة على أنّ قوة الحقّ وصوت النّبوة يعلوان الملك والحكم والسّلطان، ويقوضان العروش، ويزيلان دعائم الباطل. وهذا هو الفصل الأول من القصة وهو الحوار بين موسى وفرعون.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الأول** من قصة موسى عليه السّلام.

والمعنى: ثم بعثنا من بعد تلك الرّسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه، أما بقية الناس فهم تبع لهم في الكفر والإيمان، ولذا لم يذكروا.

بعثناهما بآياتنا المذكورة في سورة الأعراف[1] وغيرها، فاستكبروا عن اتّباع الحقّ والانقياد له، وعن الإيمان بموسى وهارون، وكانوا قوماً مجرمين أي معتادي الإجرام كفاراً ذوي آثام عظام، راسخين في الجريمة والظّلم والإفساد في الأرض. وأعظم الكبر: أن يتهاون الناس برسالة ربّهم بعد قيام الأدلّة على صحّتها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالأدلّة الدّالة على الربوبية والألوهية الحقّة، قالوا عناداً وعتواً وحبّاً للشّهوات: إن هذا لسحر واضح، قالوا مقسمين على قولهم مؤكدين له بإنّ، واسم الإشارة، واللام في الخبر، والجملة الاسمية. وهم يعلمون أن ماقالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤] .

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ قال لهم موسى منكراً عليهم وموبّخاً لهم: أتقولون للحقّ الواضح البعيد كل البعد عن السّحر الباطل: إنه سحر، عجباً لكم أسحر هذا؟! والحال أنكم تعرفون أن السحر تخييل وتمويه، ولو كان هذا سحراً لاضمحلّ، ولم يبطل سحر السَّحرة، ولا يفوز السّاحرون في ساحات الحقائق، وقضايا الدِّين، وأصول الحياة، وإقامة الممالك؛ لأن السّحر شعوذة وخفّة يد لا تغير من الحقيقة شيئاً. وقوله: هذا سحر محذوف، والاستفهام بقوله: أتقولون؟ إنكار، ثم استأنف إنكاراً آخر من قِبَله، فقال: ﴿أَسِحْرٌ

(١) وهي السّنون (أعوام الجدب والقحط) ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثّمرات، والطّوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدّم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٣] .

﴿هَٰذَا﴾؟! وحذف قولهم الأول اكتفاء بالثاني من قولهم، منكراً على فرعون وملئه.

فأجابوه إجابة الضعيف المفلس الحجة الذي لا يجد متمسكاً له إلا التقليد للآباء والأجداد ووراثة العادات والطقوس الدِّينية، فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ أي أجئتنا يا موسى لتصرفنا عن دين آبائنا وأجدادنا، ولتكون لكما أي لك ولهارون أخيك الكبرياء في الأرض، أي الرِّياسة الدِّينية والدّنيوية أو العظمة والملك والسّلطان، وما نحن لكما بمصدقين لكما فيما تدعيانه من دين جديد يغاير دين الأسلاف والآباء. وهذا سبب تكذيب الرّسل دائماً.

وقد خاطبوا موسى أولاً؛ لأنه كان هو الدّاعي لهم للإيمان بما جاء به، والإقرار بتوحيد الإله، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان. ثم أشركوا معه أخاه في الإفادة من ثمرات الدّعوة وهي النّفوذ والسّلطة والعظمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

لم يختلف شأن فرعون وقومه عمن قبله من الأُمم، في تكذيب الأنبياء، وعناد الدّعاة إلى الإيمان بالله، والتّخلص من عبادة الأصنام.

وتمثل هذه القصة شدّة العناد بسبب عظمة السلطان والملك والجاه، أمام شخصين ضعيفين موسى وهارون، وكان موسى قد تربى في بيت فرعون.

ولكن الضعف الشّخصي يزول أمام قوة الاعتزاز بالنّبوة والإيمان، فبالرغم من هذا الضعف بادر موسى وهارون إلى دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالله تعالى، والتّرفع عن التّأله وتعظيم ما دون الله.

وأيد الله موسى بآيات تسع سلّطها على أهل مصر، كالقحط المتوالي، ونقص الأنفس والأموال والثّمرات بسبب الأمراض والجوع، والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وقومه، ووصفوا الآيات والمعجزات بالسِّحر.

فعجب موسى منهم ووبّخهم منكراً عليهم وصف المعجزة بالسّحر، وناقشهم ببيان الفرق الواضح بين المعجزة والسّحر، فلم يجدوا جواباً مقنعاً إلا الارتماء في أحضان التّقليد واتّباع دين الآباء والأجداد، والتّرفع عن الإيمان، واتّهموا موسى وأخاه بأنهما يستهدفان من وراء دعوتهما الوصول إلى السلطة والملك في أرض مصر، ولم يدروا بأن الإيمان بالله وبالأنبياء أسمى وأجل وأقدس من النزعات الشخصية الشهوانية، وحبّ السّلطة والتّسلط، فهذه مظاهر فانية، وأثر الإيمان خالد باقٍ.

والخلاصة:

إن قوم فرعون عللوا عدم قبول دعوة موسى بأمرين:

الأول - التّمسك بالتّقليد: وهو معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ فإنهم تمسكوا بالتّقليد، ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار.

والثاني - الاتّهام بالحرص على طلب الدّنيا والوصول إلى الرّياسة: وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يكون لكما الملك والعزّ في أرض مصر، والخطاب هنا لموسى وهارون، ولما ذكروا هذين السّببين صرحوا بالحكم وقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

- ٢ -

إحضار فرعون السّحرة لمقاومة دعوة موسى

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

﴿فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى﴾:

قرأ ورش، والسوسي بإبدال الهمزة الساكنة واواً مدية حالة الوصل.

وقرأ الباقون بالتحقيق.

﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (بكل سحّار).

﴿جِئْتُم﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتم).

﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾:

وقرأ أبو عمرو بزيادة همزة استفهام قبل همزة الوصل.

الإعراب:

﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ﴿مَا﴾: إما اسم موصول بمعنى الذي، وإما

استفهامية، فإذا كانت اسماً موصولاً كانت مع الصّلة في موضع رفع بالابتداء، و﴿ٱلسِّحۡرُ﴾: خبره. وإذا كانت استفهاماً كانت أيضاً مبتدأ، و﴿جِئۡتُم بِهِ﴾ الخبر، و﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ خبر مبتدأ مقدر، تقديره: هو السحر.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب على تقدير فعل بعد ﴿مَا﴾ وتقديره: أي شيء أتيتم أو جئتم به، و﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ خبر مبتدأ مقدر أي هو السحر.

ولا يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب إذا كانت بمعنى الذي؛ لأن ما بعدها صلتها، والصّلة لا تعمل في الاسم الموصول، ولا تكون تفسيراً للعامل الذي تعمل فيه.

البلاغة:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ حاذق في السحر، فائق فيه. ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ حبالهم وعصيهم. ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ﴾ أي الذي جئتم به هو السّحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً وهو المعجزات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لا يثبته ولا يقويه. وفيه دليل على أن السّحر إفساد وتمويه لا حقيقة له. ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي يثبته ويظهره. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ذلك.

المناسبة:

هذا هو الفصل الثاني من قصة موسى مع فرعون، فإن فرعون أراد الاستعانة بالسّحرة لمعارضة معجزة موسى ومقاومة دعوته، فأمر بإحضار

حذاق السّحرة ليظهر للناس أن ما أتى به موسى نوع من السّحر، فيصدّ الناس عن اتّباعه، باعتبار أنه ساحر.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الثاني** من قصة موسى عليه السّلام حيث استعان فرعون عليه بالسحرة.

ويلاحظ أنه ذكرت قصة السّحرة مع موسى في سورة الأعراف، كما تقدّم، وفي هذه السّورة، وفي سورة طه وفي الشُّعراء؛ لأن فرعون أراد التمويه على الناس وصدّهم عن اتّباع موسى ومعارضة ما جاء به عليه السّلام من الحقّ المبين، من طريق زخارف السّحرة والمشعوذين، فانعكس عليه الأمر، وصدم مرامه، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٠-١٢٢].

ومعنى الآيات هنا: قال فرعون لحاشيته أو ملئه لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر فائق حاذق في علم السحر، لظنّهم ألا فرق بين المعجزة الإلهية والسّحر. فأتوا بهم، فلما جاء السّحرة وتجمّعوا، قال لهم موسى بعد أن خيّروه بين أن يلقي ما عنده أولاً، أو يلقوا هم ما عندهم، كما ذكر في سورة الأعراف: بل ألقوا ما أنتم ملقون من فنون السّحر، ليظهر الحقّ ويبطل الباطل. فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ويستنفدوا ما لديهم من طاقات وخبرات، ثم يأتي بالحق بعده، فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجاؤوا بسحر عظيم: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٦٧-٦٩].

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ أي فلما ألقوا ما عندهم من الحبال والعصي قال موسى واثقاً غير مبالٍ بهم: ما أتيتم به هو السّحر بعينه، لا ما سماه فرعون سحراً مما جئت به من الآيات والمعجزات من عند الله. وهذا السّحر الذي أظهرتموه إن الله سيمحقه وسيظهر بطلانه قطعاً أمام الناس، بما يفوقه من المعجزة التي هي آية خارقة للعادة تفوق السّحر وأشكاله المختلفة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي لا يثبّته ولا يقويه، ولا يجعله صالحاً للبقاء، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي ويريد الله أن يؤيِّد الحقّ ويظهره، ويثبته ويقويه، وينصره على الباطل بأوامره ووعده موسى، وقيل: بما سبق من قضائه وقدره. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي ولو كره المجرمون الظالمون كفرعون وملئه ذلك، أي نصر الحقّ على الباطل. وفي آية أخرى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١٨/٧] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩/٢٠] .

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه مبارزة بين الحقّ والباطل، بين المعجزة والسّحر، فالمعجزة آية إلهية خارقة للعادة يؤيِّد الله بها صدق الأنبياء لإقناع الناس وتصديق دعوتهم. وأمّا السّحر فهو إفساد وتمويه وتزييف لا حقيقة له، فلم يستطع الصمود أمام الشيء الحقيقي الثابت الذي لا تمويه فيه.

وهذا المعنى هو ما تضمنته آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي لا يضرّ أحداً كيد ساحر. لذا قال العلماء: لا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر.

وكان في خطة موسى عليه السّلام بأن يبدأ السّحرة أولاً بالإلقاء براعة وثقة بما لديه من المعجزة وعدم اكتراث بالسّحرة، فإنّ كل ما فعلوه من لفت أنظار الناس وإخافتهم حينما ألقوا حبالهم وعصيهم، مُحِق وأُبطل بإلقاء العصا التي

انقلبت ثعباناً عظيماً التهم جميع الحبال والعصي، وصدق فيما أعلنه قبل المبارزة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾.

وحينئذٍ أدرك السّحرة خسارتهم، وعرفوا أنّ فعل موسى ليس من قبيل السّحر، فهم أعرف الناس بفنونه، فلم يعاندوا، وشرح الله صدورهم للإيمان، واستيقظ فيهم عنصر العقل والتّفكير، ولم يرهبهم تهديد فرعون، فأعلنوا إيمانهم بربِّ موسى وهارون، فأسقط في أيدي فرعون وملئه، وخابوا وخسروا، واستوجبوا نار جهنم بإصرارهم على الكفر.

والخلاصة المستنبطة من هذه الآية: أن السّحر تمويه وزيف باطل، والله تعالى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون، أي الفجرة الكافرون.

- ٣ -

إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ﴾ قرئ:

١ - (بُيُوتاً.. بُيُوتكم) وهي قراءة: ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتاً.. بِيُوتكم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ جمع الضَّمير في ملئهم لخمسة أوجه:

الأول - جمع الضمير على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، فيقول الواحد منهم: نحن فعلنا، ومنه قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، وكان فرعون جباراً فأخبر عنه بفعل الجميع.

الثاني - جمع الضمير على أن المراد بفرعون آله، كما يقال: ربيعة ومضر، ويكون في الكلام حذف مضاف، تقديره: على خوف من آل فرعون.

الثالث - جمع لأنه ذو أصحاب يأتمرون به.

الرابع - أن جمع الضمير يعود على الذّرية التي تقدم ذكرها.

الخامس - أنه يعود على القوم الذين تقدم ذكرهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بدل مجرور من ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بدل اشتمال.

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ اللام مقحمة، وجعل ﴿تَبَوَّءَا﴾ متعدياً مثل بوّأ، يقال: بوّأته وتبوّأته، كقولهم: علقته وتعلقته.

المفردات اللغوية:

﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ طائفة من شبّانهم، والذّرية في أصل اللغة: صغار الأولاد، وتستعمل عرفاً في الصّغار والكبار. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي مع خوف منهم، والضَّمير لفرعون ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ الفتنة في اللغة: الاختبار والابتلاء بالشّدائد، والمراد هنا التّعذيب، أي أن يعذّبهم فرعون ويصرفهم بالتّعذيب عن دينهم. وإفراده بالضّمير للدّلالة على أن الخوف من الملأ كان

بسببه. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ متكبّر قوي فتّاك. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحدّ بادّعاء الرّبوبية واسترقاق أسباط الأنبياء.

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله، مخلصين له، مذعنين لأمره. ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة. ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تظهرهم علينا، فيظنّوا أنهم على الحقّ فيفتتنوا بنا، أو لا تسلّطهم علينا فيفتنونا. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي من كيدهم وشؤم مشاهدتهم. وفي تقديم التّوكل على الدُّعاء تنبيه على أن الدّاعي ينبغي أن يتوكّل أولاً لتجاب دعوته.

﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ اتّخذا مباءةً ومسكناً يسكنون فيها أو يرجعون إليها للعبادة. ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومكما. ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ مصلّىً أو مساجد تصلّون فيها لتأمنوا من الخوف، وكان فرعون منعهم من الصّلاة. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أتموها فيها حتى لا يؤذيهم الكفرة ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنّصر في الدُّنيا والجنّة في الآخرة.

وإنما ثنّى ضمير ﴿تَبَوَّءَا﴾ أولاً؛ لأن التبوء للقوم واتّخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جمع في قوله: ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ لأن جعل البيوت مساجد والصّلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم أفرد بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشَّريعة.

المناسبة:

أبان الله تعالى أنه بالرّغم من مشاهدة المعجزات الباهرة على يد موسى عليه السّلام، فإنه لم يؤمن به من بني إسرائيل إلا طائفة من شبّان قومه، توطئة لإخراجهم من أرض مصر. وفي ذلك تسلية للنّبي محمد ﷺ؛ لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، فله بسائر الأنبياء أسوة.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الثالث** من قصة موسى عليه السلام.

يخبر الله تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السّلام في أول أمره، مع ما جاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات، إلا قليل من قومه بني إسرائيل، وهم طائفة من الشباب، على وجل وخوف من فرعون وملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التّمرد والعتوّ متجاوزاً الحدّ في الظلم والفساد، شديد البطش والفتك، حتى إنه ادَّعى الرّبوبية واسترقَّ أسباط الأنبياء، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً. فالضمير في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ عائد إلى بني إسرائيل قوم موسى، لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورين. وهذا قول مجاهد.

وقيل: الضمير في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ لفرعون، والذّرّية: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته. وهذا قول ابن عباس.

وضمير ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يعود إلى فرعون بمعنى آل فرعون، أو على ما هو المعتاد في ضمير العظماء.

والذّرّية: أولاد الذين أرسل إليهم موسى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ أي وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الاضطهاد والتّعذيب: إن كنتم آمنتم أي صدّقتم بالله وبآياته حقّ الإيمان، فعليه توكّلوا واعتمدوا، وبه ثقوا، واطمئنوا لوعده، إن كنتم مسلمين أي إن كنتم مستسلمين لقضاء الله، مذعنين مخلصين له؛ إذ لا يكون الإيمان كاملاً إلا إذا صدّقه العمل وهو الإسلام، فالمعلّق بالإيمان وجوب التّوكل، فإنه المقتضي له، ثم شرط في التّوكل الإسلام: وهو أن يسلموا نفوسهم لله بأن يجعلوها له سالمة خالصة، لا حظّ للشيطان فيها، وذلك بأن يعملوا بالأحكام؛ لأن التوكل الصحيح لا يكون مع خلطه بغيره.

والخلاصة: أن الإيمان: عبارة عن صيرورة القلب عارفاً بأن واجب الوجود لذاته واحد، وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه. والإسلام: هو الانقياد للتّكاليف الصادرة عن الله تعالى، وإظهار الخضوع وترك التّمرد.

فقالوا على الفور ممتثلين أمره لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وبه وحده استعنا على أعدائنا، ثم دعوا ربّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بأن تنصرهم علينا وتسلطهم علينا فيفتتن الناس، ويقولون: لو كان هؤلاء على حقّ لما هزموا أمام فرعون وظلمه، أو موضع فتنة لهم أي عذاب بأن يفتنونا عن ديننا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي خلِّصنا برحمتك وإحسانك وعفوك من تسلُّط الكافرين بك، الظالمين الطُّغاة، الذين كفروا الحقّ وستروه، ونحن قد آمنّا بك وتوكّلنا عليك.

وقد دعوا بهذا الدُّعاء؛ لأن التّوكل على الله هو أعظم علامات الإيمان لا يكمل إلا بالصَّبر على الشَّدائد، والدُّعاء لا يستجاب إلا مع الطاعة واتِّخاذ الأسباب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/٣] ، وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتّوكل كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١١/١٢٣] ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩/٦٧] ، وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩/٧٣] . وأمر الله تعالى المؤمنين أن يكرروا في صلواتهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥/١] .

ثم ذكرالله تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أي أمرنا موسى وأخاه هارون عليهما السّلام أن يتبوأا أي يتّخذا لقومهما بمصر بيوتاً تكون مساكن للاعتِصام فيها، والأصح أن تكون مساجد وليست منازل مسكونة في رأي أكثرالمفسّرين.

وأمرهما مع قومهما أن يجعلوا البيوت مساجد متّجهة نحو القبلة، بأن يصلّوا في بيوتهم؛ لأنهم كانوا خائفين. وقال قتادة والضَّحَّاك وسعيد بن جبير: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي يقابل بعضها بعضاً. قال القرطبي: والقول الأول أصح؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة باتّجاه بيت المقدس، وهو قبلة اليهود إلى اليوم.

وأن يقيموا الصّلاة في تلك البيوت أي يتموها. وقد أُمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة، فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم.

وبشّر يا موسى المؤمنين بالحفظ والنّصر على عدوّهم في الدُّنيا، والجنة في العقبى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أ - بالرّغم من المعجزات العظيمة لموسى عليه السّلام وانتصاره على السَّحرة بتلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السّحر، فإنه لم يؤمن به من قومه إلا طائفة قليلة من أولاد بني إسرائيل، فإنه لطول الزّمان هلك الآباء وبقي الأبناء، فآمنوا. وقيل: كانت الطائفة من قوم فرعون، منهم مؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأته، وماشطة ابنته، وامرأة خازنه.

وكان إيمانهم على خوف من فرعون؛ لأنه كان مسلَّطاً عليهم، عاتياً متكبّراً، مجاوزاً الحدّ في الكفر؛ لأنه كان عبداً فادَّعى الرّبوبية.

٢ - أراد موسى عليه السّلام الاستيثاق من إيمان تلك الطائفة، فقال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ أي صدَّقتم بالله وبرسالتي، فتوكَّلوا على الله وحده، أي اعتمدوا عليه، إن كنتم مسلمين، كرر الشّرط تأكيداً، أو أن الإسلام هو العمل، وبيَّن موسى أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله.

فأجابوا بأنّا توكّلنا على الله، أي أسلمنا أمورنا إليه، ورضينا بقضائه وقدره، وانتهينا إلى أمره.

ودعوا الله بألا ينصر الظالمين عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم في الدِّين، أو لا يمتحنهم بأن يعذَّبوا على أيديهم، وأن ينجيهم ويخلِّصهم من الكافرين، أي من فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة.

٣ - اتِّخاذ البيوت في فترة ما مساجد، حتى لا يؤذي فرعون المصلِّين؛ لأن بني إسرائيل كانوا لا يصلّون إلا في مساجدهم وكنائسهم، فخرَّبها فرعون ومنعهم من الصّلاة، فأوحى الله إلى موسى وهارون: أن اتَّخذا وتخيَّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، أي مساجد متّجهة نحو القبلة، ولم يرد في رأي أكثر المفسّرين المنازل المسكونة، وإنما أراد الاتِّجاه إلى بيت المقدس.

وهذا يدلّ على أن القبلة في الصّلاة كانت شرعاً لموسى عليه السّلام.

واستنبط العلماء من جواز أداء الصّلاة في البيوت: أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة، والعذر الذي يبيح له ذلك كالمرض المانع من التّنقل، أو خوف زيادته، أو خوف جور السُّلطان في مال أو بدن، دون القضاء عليه بحقّ، والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع، ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه عذر أيضاً، وقد فعل ذلك ابن عمر.

وأثير بهذه المناسبة خلاف في أداء صلاة التراويح (قيام رمضان) هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد؟ فذهب مالك وأبو يوسف وبعض الشَّافعية إلى أنه في البيت أفضل لمن قوي عليه، لما أخرجه البخاري: «فعليكم بالصّلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة».

وقال أكثر الأئمة: إن حضورها في الجماعة أفضل؛ لأن النَّبي ﷺ قد

صلاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدّوام على ذلك، وهو خشية أن تفرض عليهم، فلذلك قال: «فعليكم بالصّلاة في بيوتكم». ثم إن الصحابة كانوا يصلّونها في المسجد فرادى متفرّقين، إلى أن جمعهم عمر على قارئ واحد، فاستقرّ الأمر على ذلك، وثبت سنَّة.

٤ - إن أداء الصّلاة في البيوت التي أمر الله بني إسرائيل فيها خوفاً من أذى الأعداء أمر مشروع لا شكّ فيه. وكذلك تكتل الفئات القليلة في مواجهة طغيان الظالمين كفرعون أمر مطلوب سياسة، إذا جرينا على القول بأن البيوت هي مساكن للاعتصام فيها، لأن ذلك أدى إلى نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون.

٥ - دلّ إيمان الطائفة القليلة برسالة موسى عليه السّلام وتقديمهم في دعائهم عدم الفتنة على النّجاة على أن اهتمامهم بأمر دينهم كان فوق اهتمامهم بأمر دنياهم، فإنهم قالوا أولاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ثم قالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾. فهذا الترتيب يدلّ على تفضيلهم أمر الدِّين على أمر الدُّنيا.

- ٤ -

دعاء موسى على فرعون وملئه

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

القراءات:

﴿لِيُضِلُّوا۟﴾: قرئ:

١- (لِيُضِلُّوا) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (لِيَضِلُّوا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿لِيُضِلُّوا﴾ اللام للعاقبة وهي متعلِّقة بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾، ويحتمل أن تكون للعلة؛ لأن إيتاء النّعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضّلال.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ إما منصوب أو مجزوم، الجزم: على أنه دعاء عليهم. والنّصب: إما لأنه معطوف على ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾، أو على جواب الدُّعاء أو جواب الأمر بالفاء بتقدير أن.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ﴾ بالتّشديد، أي أنه نهي بعد أمر. ومن قرأ بتخفيف النون، كان في موضع نصب على الحال، أي استقيما غير متبعين، فتكون لا نافية، لا ناهية.

البلاغة:

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾ أمر أريد به الدُّعاء بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره، كقولك: لعن الله إبليس، وتكرار ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا﴾ للتّأكيد والتّنبيه على أن المقصود عرض ضلالاتهم وكفرانهم، تقدمة لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ استعارة لتغليظ العقاب ومضاعفته.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب للدُّعاء، أو دعاء بلفظ النّهي، أو عطف على: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ وما بينهما دعاء معترض.

المفردات اللغوية:

﴿زِينَةً﴾ ما يتزيَّن به من الملابس والمراكب ونحوهما، وأصل الزينة في

اللغة: ما يتزين به من الحلي واللباس والأثاث والأموال والصحة ونحوها. ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ في عاقبته، واللام لام العاقبة أي الصيرورة. ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾ دينك. ﴿ٱطْمِسْ﴾ أي أهلكها وأزلها، والطَّمس: المحق وإزالة الأثر. ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي وأقسها واطبع عليها واستوثق حتى لا يدخلها الإيمان. فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ﴾ دعاء بلفظ الأمر. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب للدُّعاء أو دعاء بلفظ النّهي، أو عطف على ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ وما بينهما دعاء معترض. ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ المؤلم.

﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي موسى وهارون، روي أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمّن. ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدّعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا، فإن ما طلبتما كائن، ولكن في وقته، روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال، أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى.

المناسبة:

لما بالغ موسى في إظهار المعجزات القاهرة الدّالة على نبوّته، ورأى القوم: فرعون وملأه مصرِّين على الجحود والعناد والإنكار، دعا عليهم بعد أن ذكر سبب إقدامهم على تلك الجرائم وهو حبّهم الدُّنيا وبسطة النّعيم التي أبطرتهم فتركوا الدِّين، لهذا قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾.

قال ابن كثير: هذه الدَّعوة كانت من موسى عليه السّلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبيَّن له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السّلام، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٧١/٢٦-٢٧]

ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السّلام فيهم هذه الدَّعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية: دعا موسى وأمَّن هارون؛ فسمِّي هارون وقد أمَّن على الدُّعاء داعياً.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الرابع** من قصة موسى مع فرعون، بعد وجود فاصل استطرادي للإخبار بإيمان طائفة بموسى عليه السّلام، فبعد أن أبى فرعون وملؤه قبول دعوة الحقّ من موسى عليه السّلام، واستمرّوا على ضلالهم وكفرهم معاندين عتاة متكبِّرين، وبعد أن أعدّ موسى قومه بني إسرائيل للخروج من مصر، وغرس في قلوبهم الإيمان وإيثار العزّة والكرامة، بعد ذلك دعا ربَّه مبيِّناً سبب الدُّعاء فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي أعطيتهم من الدُّنيا والنّعمة ما أبطرهم، وهو الزِّينة الشَّاملة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ومتاع الدُّنيا ونحوها من الزّروع والأنعام، وأدّى النعيم بهم أن تكون عاقبة أمرهم إضلال عبادك عن الدِّين، والطُّغيان في الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ، أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] ، ويشهد لما ذكر ما يوجد في قبور الفراعنة والآثار المصرية من الذهب والفضة والحلي والتّحف، وما بنوه من القصور والقبور والتّماثيل الدّالّة على رقي المدنية والحضارة.

فقوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ اللام لام العاقبة أو الصَّيرورة، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨] ، فكانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال. ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل، لكن بحسب ظاهر الأمر لا في الحقيقة نفسها، بمعنى أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال، وصارت تلك الأموال سبباً لمزيد البغي والكفر، أشبهت هذه الحالة

حالة من أعطي المال لأجل الإضلال، فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي ربَّنا امحق وأزل آثارها وأهلكها، واختم على قلوبهم وأقسها حتى لا تنشرح للإيمان، فيستحقوا شديد العقاب، ولا يؤمنوا حتى يشاهدوا العذاب المؤلم الموجع.

ولما دعا موسى بهذا الدُّعاء وكان هارون أخوه يؤمِّن على دعائه، قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي استجبنا دعاءكما وقبلناه كما سألتما من تدمير آل فرعون، فاستقيما، أي فاثبتا على ما أنتما عليه من الدّعوة إلى الحقّ، وإلزام الحجة، ولا تستعجلا الأمر قبل ميقاته، فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون، أي طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى. ولا يعني هذا النّهي أن مقتضاه صدر من موسى وهارون عليهما السّلام، كما أنّ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٥] لا يدلّ على صدور الشّرك منه.

قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدّعوة أربعين سنة. وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين: أربعين يوماً.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أ - إن دعاء موسى وهارون كدعاء نوح عليهم السّلام لم يكن إلا بعد اليأس من إيمان القوم، بعد طول العهد من النّبي موسى بالدّعوة إلى الدِّين الحقّ، وملازمة قومه حال الكفر وإصرارهم عليه، وبعد نفاد الصَّبر منه.

وكل ذلك لم يتم إلا بعد إذن من الله؛ لأن مهمة الرُّسل استدعاء إيمان قومهم، ولا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس

فيهم من يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن؛ بدليل قوله تعالى لنوح عليه السّلام: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦/١١] ، وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦/٧١] .

٢ - احتجّ بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا، وهارون أمَّن.

والتأمين على الدُّعاء: أن يقول: آمين، فقولك: آمين دعاء، أي يا ربّ استجب لي.

٣ - إن إجابة الدَّعوات لها أوقات مخصوصة في علم الله وتقديره، وليس ذلك بحسب مراد العبد الدّاعي، وإنما بحسب مراد الله تعالى، وإن تعجّل الإجابة جهل لا يليق مع الأدب مع الله تعالى، وهو أيضاً شكّ في الثّقة بوعد الله تعالى بإجابة دعاء الداعي إذا دعاه، لهذا قال تعالى لموسى وهارون عليهما السّلام: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي.

- ٥ -

إغراق فرعون وجنوده وإنجاء بني إسرائيل

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠) ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١) فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢) وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (٩٣) ﴾

القراءات:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (آمنت إنه).

﴿بَوَّأۡنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (بوّانا).

الإعراب:

﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ مفعول لأجله.

﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي ببدنك عارياً عن الروح.

البلاغة:

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ استفهام توبيخ وإنكار.

﴿بَوَّأْنَا﴾ ﴿مُبَوَّأَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ أي جوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم. يقال: جاز المكان وجاوزه وتجاوزه: إذا قطعه حتى تركه وراءه. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لحقهم. ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي المنقادين لأمره، كرر ذلك ليقبل منه فلم يقبل، وقال جبريل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمن، أي أتؤمن الآن، وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار. ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدة عمرك. ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك على نَجْوة (مكان مرتفع) من الأرض ليراك بنو إسرائيل، أو لا نغرقك في قعر البحر ونجعلك طافياً. ﴿بِبَدَنِكَ﴾ جسدك الذي لا روح فيه. ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ بعدك وهم بنو إسرائيل. ﴿ءَايَةً﴾ عبرة وعظة، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك. روي عن ابن عباس: أن بعض بني إسرائيل شكّوا في موته، فأُخرج لهم ليروه. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أهل مكة وغيرهم. ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل كرامة أو منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمر دينهم، بأن آمن بعض وكفر بعض، إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، أو اختلفوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين، فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

المناسبة:

هذا هو الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون التي ابتدأها الله تعالى

بالحوار بينهما، ثم أتبعها بقصة السحرة، ثم استطرد في أثنائها لبيان إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى، استعداداً للخروج من مصر، ثم ذكر دعاء موسى على فرعون وملئه.

ولما أجاب الله تعالى دعاء موسى وهارون، أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسّر لهم أسبابه، وفرعون كان غافلاً عن ذلك، فذكر هنا خاتمة القصة الدالة على تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما، وقوة فرعون وقومه.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الخامس** من قصة موسى عليه السلام.

وموضوع الآيات كيفية إغراق فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام، وهم فيما قيل: ست مئة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فركب وراءهم مع جنوده وجيوشه الهائلة، فلحقوهم وقت شروق الشمس عند ساحل البحر (البحر الأحمر - بحر السويس) فخاف أصحاب موسى عليه السلام، وإذا ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، ثم صمم على المتابعة وقال لأمرائه: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، ولما أصبحوا في وسط البحر، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون،

وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٤-٨٥] .

ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ أي أهذا الوقت تؤمن، وقد عصيت الله قبل هذا؟ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي في الأرض الذين أضلوا الناس.

هذه القصة من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ.

معنى الآيات:

وتجاوزنا ببني إسرائيل البحر بقدرتنا وحفظنا، فلحقهم فرعون وجنوده ظلماً وعَدْواً، أي باغين وعادين عليهم، أو للبغي والعدوان، والفتك بهم، أو إعادتهم إلى مصر ليعذبوهم سوء العذاب ويستعبدوهم كما كانوا يفعلون.

فلما أشرف على الغرق، قال: آمنت بأنه لا إله بحق إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين أي المنقادين المذعنين لأمره.

وكرر فرعون بهذه العبارة المعنى الواحد ثلاث مرات، في ثلاث عبارات، حرصاً منه على القبول، ومع ذلك لم يقبل منه إيمانه حيث أخطأ وقته، وقاله عند الإكراه والاضطرار، وحين لم يبق له اختيار قط. ويلاحظ أن المرة الواحدة كانت كافية في حال الاختيار.

فردَّ الله تعالى عليه على لسان جبريل، أو بإلهام من الله تعالى نفسه بقوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك، وقد عصيت الله

قبل هذا، وكنت من الضالين المضلين عن الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٨٨].

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي فاليوم نرفعك على مكان مرتفع من الأرض، وننقذك بجسدك الذي لا روح فيه، أو ببدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير من الارتماء في قعر البحر؛ لتكون لبني إسرائيل دليلاً أو علامة على موتك وهلاكك وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق، ولتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك، فينزجرون عن الكفر والفساد في الأرض وادعاء الربوبية.

وفي هذا دليل على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وإرادته.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي وإن أكثر الناس لغافلون عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة لله وحده، فلا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، لعدم تفكرهم في أسبابها ونتائجها. وفي الآية دلالة على ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها.

وقد كان هلاكهم يوم عاشوراء من شهر المحرم، كما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه».

ثم أخبر الله تعالى بالمناسبة عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ولقد أنزلنا بني إسرائيل منزلاً صالحاً مرضياً، وهو منزلهم سابقاً في مصر، ولاحقاً في فلسطين، ورزقناهم من الطيبات أي اللذائذ المستطابة المباحة فيها، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال والأنعام وصيود البر والبحر.

لقد وعدهم الله على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب أرض فلسطين في الماضي، ولكن لما كفروا بالأنبياء، وعلى التخصيص عيسى ومحمد عليهما السلام، نزعها الله منهم. فليس لهم أي حق ديني بعدئذ في الاستيطان بأرض فلسطين بعد بغيهم وعدوانهم وكفرهم برسالات الله تعالى.

وللعلماء في تحديد المراد ببني إسرائيل قولان: الأول - أنهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وعلى هذا يكون مبوأ الصدق مصر والشام، والطيبات منافع تلك البلاد ووراثة بني إسرائيل ما كان تحت أيدي قوم فرعون، وأن التوراة هي العلم الذي أدى إلى الاختلاف بينهم. والقول الثاني - هم اليهود المعاصرون للنبي عليه الصلاة والسلام، وبه قال جمع عظيم من المفسرين وهم قبائل اليهود في المدينة (قريظة والنضير وبنو قينقاع) ومنزل الصدق: ما بين المدينة والشام، والطيبات: ما في تلك البلاد من التمور، والمراد بالعلم: القرآن، وسماه علماً لأنه سبب للعلم على سبيل المجاز، وكونه سبب الاختلاف: أن اليهود اختلفوا فآمن قوم وبقي آخرون على كفرهم، فصار نزول القرآن سبباً لحدوث انقسام بينهم.

﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ أي فما اختلف بنو إسرائيل في أمر دينهم إلا من بعد ما علموا وقرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، أو ما اختلفوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته، وذلك أنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ مقرين بنبوته، مجمعين على صحة رسالته، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوباً عندهم، فلما بعث وجاءهم ما عرفوا، كفروا به، فكفر به بعضهم حسداً وحباً للرياسة ولجمع المال، وآمن آخرون.

والخلاصة: إنهم ما اختلفوا في شيء من المسائل جهلاً، وإنما من بعد ما جاءهم العلم، ولم يكن لهم أن يختلفوا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ أي إن ربك يفصل ويحكم بينهم يوم القيامة في شأن ما اختلفوا فيه، فيميز المحق من المبطل بالإنجاء للمحقين من النار وإدخالهم الجنة، والإهلاك للمبطلين في عذاب جهنم.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على الأحكام التالية:

١ - قد ينصر الله تعالى الضعفاء أو المستضعفين على الأشداء الأقوياء، كما نصر الله موسى وأخاه هارون على ضعفهما، على فرعون الجبار وجنوده الأشداء، إذ كانت دولتهم أقوى دول العالم القديم.

٢ - إيمان اليأس لا ينفع؛ لأنه في وقت الإلجاء والاضطرار والإكراه وفقد عنصر الاختيار وزوال وقت التكليف، فلم يقبل الله إعلان فرعون الإيمان حينما أشرف على الغرق بمعان ثلاثة يؤكد بعضها بعضاً.

قال الرازي: آمن فرعون ثلاث مرات، أولها قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ وثانيها قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وثالثها قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم القبول، والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد، حتى يقال: إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار؟ والجواب أنه إنما آمن عند نزول العذاب. والإيمان في هذا الوقت غير مقبول؛ لأنه عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء، وفي هذه الحال لا تكون التوبة مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[1].

٣ - كان فرعون عاصياً كافراً عاتياً متكبراً مفسداً في الأرض بالضلال والإضلال، فاستحق التوبيخ والإنكار والتهكم عليه.

(١) تفسير الرازي: ١٧/ ١٥٤

٤ً - تم إنقاذ جثة فرعون من الغرق، واسمه منبتاح بن رمسيس ١٢٢٥ ق. م، وهي التي ما تزال موجودة في متحف الآثار المصرية بالقاهرة وشاهدتها بنفسي، وشاهدت فيها آثار ملوحة ماء البحر البيضاء على عظم الجبهة. ويعدّ هذا الإنقاذ عبرة وعظة لكل من يدعي الربوبية ويكفر بالله، فهو أحقر من أن يكون رباً؛ لأن الرب لا يموت. قال المفسرون: إنما نجى الله بدن فرعون بعد الغرق؛ لأن قوماً اعتقدوا فيه الألوهية، وزعموا أن مثله لا يموت، فأراد الله أن يشاهده الناس على ذلك الذل والمهانة، ليتحققوا موته، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان، فيكون عبرة للخلق، وزجراً لأهل الطغيان.

٥ً - ذم الغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث الجسام وعواقبها المؤثرة في التاريخ.

٦ً - إن في قصة إغراق فرعون الطاغية عبرة لمكذبي النبي محمد ﷺ الذين يغترون بقوتهم وكثرتهم وثروتهم، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأوفر ثروة، وقد جعل الله تعالى سنته في المكذبين واحدة وهي التدمير والإهلاك، إما في الدنيا وإما في الآخرة، فالعاقل من المكذبين من يتدبر في الأمر، ويبادر إلى ساحة الرضا والإيمان، ليكون من أهل النجاة في الآخرة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١٢/ ١١١] .

٧ً - لقد أنعم الله على بني إسرائيل بالنعم الكثيرة الدينية والدنيوية، ومن أهمها إنقاذهم من طغيان فرعون، وأمانهم واستقرارهم في فلسطين في الماضي، ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا بها.

بل إنهم كفروا بهذه النعم، وكفروا برسالة عيسى ومحمد عليهما السلام، فأصبحوا مثل غيرهم ممن يستحق العذاب والطرد والإجلاء من ديار الإسلام. والمقصود بذلك أحوال بني إسرائيل القدامى والمعاصرين للنبي ﷺ؛

لأن المتأخرين راضون بفعل المتقدمين، وسائرون على نهجهم، وهذا جمع بين القولين السابقين.

ولم يختلفوا في شأن رسالة محمد ﷺ وصدقه قبل بعثته، بل كانوا مجمعين على نبوته والإيمان به على وفق الأوصاف المذكورة في كتبهم، وإنما اختلفوا بعد بعثته حسداً وبغياً وحباً في بقاء المراكز الدينية، والزعامة السياسية، فكان اختلافهم بإيمان بعضهم وكفر الآخرين لا عن جهل بحقيقة ووصف محمد ﷺ، وإنما عن علم ومعرفة حقيقية به، فإنهم يعرفونه بأوصافه المذكورة لديهم كما يعرفون أبناءهم.

٨ً - كان فلق البحر بعصا موسى عليه السلام اثني عشر فرقاً، كل فرق منها كالجبل الأشم معجزة عظمى لسيدنا موسى عليه السلام، تم على أثرها إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين، لذا سن صوم يوم عاشوراء الذي تم فيه هذا الحدث شكراً لله على ما أنعم.

٩ً - القضاء المبرم والحكم القاطع يتبين يوم القيامة في شأن المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم في أمر قبول دعوة محمد ﷺ، حيث ينجي الله المحقين، ويدمر المبطلين.

تأكيد صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

القراءات:

﴿فَسۡـَٔلِ﴾ :

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف (فَسَل).

﴿كَلِمَتُ﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (كلمات).

البلاغة:

﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ كناية عن القضاء الأزلي بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِن كُنتَ﴾ أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبيك إليك أو أن الخطاب للرسول ﷺ والمراد به قومه، على نحو قول العرب: إياكِ أعني واسمعي يا جارة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥/٣٩] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ [الأحزاب: ١/٣٣].

﴿فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد من القصص على سبيل الافتراض. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هنا التوراة. ﴿مِن قَبۡلِكَۚ﴾ فإنه ثابت عندهم يخبروك بصدقه، قال النبي ﷺ: «لا أشك ولا أسأل». ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحاً لا مرية فيه، بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكين فيه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦/٢٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ وجبت وثبتت. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ باستحقاق

العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا واقع؛ لأن الله لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه. ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ لأنهم أصروا على الكفر. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذ لا ينفعهم، كما لا ينفع فرعون.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى عن قصص الأنبياء السابقين كنوح وموسى وهارون عليهم السلام بإنجاز النصر لهم على أقوامهم، وحكى اختلاف بني إسرائيل عندما جاءهم العلم حسداً وبغياً وإيثاراً لبقاء الرياسة، أورد ما يقوي صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد، وخاطب به النبي ﷺ وأراد قومه.

التفسير والبيان:

أراد الله تعالى أن يؤكد صحة القرآن وصدق النبوة على سبيل الافتراض والمبالغة، فقال: فإن وقع منك شك على سبيل الافتراض والتقدير في صحة ما أنزلنا إليك من القرآن المتضمن قصص الأنبياء المتقدمين مثل هود ونوح وموسى وغيرهم، فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب أي التوراة من قبلك، فهم على علم تام بصحة ما أنزل إليك.

والمراد الإحالة على علماء أهل الكتاب الصادقين ووصفهم بالعلم، لا وصف النبي ﷺ بالشك، قال ابن عباس: لا والله ما شك طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقال: «لا أشك ولا أسأل، بل أشهد أنه الحق» كما ذكر قتادة وسعيد بن جبير والحسن البصري.

والرأي الأولى كما ذكرتُ في بيان المفردات: أن الخطاب للسامع أو للنبي ﷺ والمراد به أمته، وهذا تعبير مألوف بين العرب. كما أن افتراض الشك في الشيء لنفي احتمال وقوعه مألوف أيضاً لدى العرب، فيقول أحدهم: إن كنت ابني حقاً فكن شجاعاً. وذلك مثل قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ

﴿قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ٥/١١٦] فهو يعلم أنه لم يقله، ولكنه يفرضه ليستدل على أنه لو قاله لعلمه الله منه.

قال البيضاوي: وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي تالله لقد جاءك الحق واضحاً لا مرية فيه ولا ريب، بما أخبرناك في القرآن، وبأنك رسول الله، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، لما يجدون في كتبهم من نعتك وأوصافك، فلا تكونن من الشاكين في صدق ما نقول.

وفي هذا تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧].

وهذا النهي: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ تعريض بالشاكين والمكذبين للنبي ﷺ من قومه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ أي ولا تكونن أيها النبي ممن كذب بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر، فتكون ممن خسروا الدنيا والآخرة.

وهذا أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٨٦] وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة الله أي قضاؤه وحكمه بالعذاب لا يؤمنون أبداً، لفقدهم الاستعداد للإيمان، وتصميمهم

على الكفر، وليس المعنى أن الله يمنعهم الإيمان، وإنما هم الذين اختاروا الكفر وكسبوه. والمراد من الآية: أن من علم الله منهم الإيمان أو الكفر، لا بد من حصوله؛ لأن علم الله واسع شامل، لا يتخلف.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أي إن هؤلاء الذين علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، سيبقون على كفرهم وجحودهم، ولو جاءتهم كل آية كونية حسية، أو علمية، أو قرآنية، مثل آيات موسى التي اقترحوا مثلها على النبي ﷺ، ومثل تفجير الأنهار والصعود في السماء، وامتلاك الجنات أي البساتين، ومثل آيات القرآن الدالة بإعجازها على أنها من عند الله تعالى، وربما لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم الموجع الذي يحدق بهم ويطبق عليهم، وحينئذ لا ينفعهم إيمانهم، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أشرف على الغرق، وكما قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١] فالأدلة لا تنفعهم مهما كثرت؛ لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله وتوفيقه، وتوافر الاستعداد لقبوله.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - القرآن حق، ونبوة محمد ﷺ حق، وأدلة إثبات أحقيتهما: صدقُهما فيما أخبرا به من قصص الأنبياء، ومغيبات المستقبل، وما أشار إليه من الآيات الدالة على الصدق في كل ما اشتمل عليه القرآن والسنة.

٢ - افتراض الشك أحياناً يفيد في إثبات عكسه وهو اليقين، وهذه نظرية أخذ بها الفلاسفة مثل (ديكارت).

٣ - على كل من شك في شيء أن يبادر إلى سؤال العلماء لإزالته وتثبيت يقينه، وترسيخ عقيدته.

٤ - الخطاب في الآيتين الأوليين: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ و﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ للنبي ﷺ، والمراد غيره. قال الحسين بن الفضل: الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته، والدليل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية: «والله لا أشك».

٥ - الإحالة في تبين صدق القرآن وصحة النبوة كانت على من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سَلام وأمثاله.

٦ - إن الذين ثبت عليهم غضب الله وسُخْطه بمعصيتهم لا يؤمنون، حتى ولو جاءتهم الآيات تترى بما يطلبون. فإن آمنوا حين نزول العذاب بهم لا ينفعهم إيمانهم؛ لأنه إيمان يأس وإلجاء وقسر، وتوبة يائس.

٧ - احتج أهل السنة بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب. وقال في الكشاف في هذه الآية: ثبت عليهم قول الله تعالى الذي كتبه في اللوح، وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً، فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم، لا كتابة مقدَّر.

قصة يونس عليه السلام مع قومه

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الإعراب:

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ منصوب إما لأنه استثناء منقطع ليس من جنس الأول

وإما على الاستثناء المتصل غير المنقطع، بأن يقدر في الكلام حذف مضاف، تقديره: فلولا كان أهل قرية آمنوا إلا قوم يونس. ويونس: ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة. وقرئ برفع يونس على البدل، كقول الشاعر:

وبـــلـــدةٍ ليس بهـــا أنـــيس إلا اليعـــافـــير وإلا الـــعـــيـــسُ

والبدل من غير الجنس لغة بني تميم.

﴿كُلُّهُمْ﴾ تأكيد لقوله ﴿مَن﴾، و﴿جَمِيعًا﴾ عند سيبويه: نصب على الحال. وقال الأخفش: جاء بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ بعد (كل) تأكيداً؛ كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

البلاغة:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ الاستفهام للإنكار، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه عليه.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَوْلَا﴾، فهلا وكل منهما للتحضيض والتوبيخ .﴿قَرْيَةٌ﴾ أهل قرية أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إليها، كما أخر فرعون .﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل نزول العذاب بها .﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها .﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ عند رؤية أمارة العذاب، ولم يؤخروه إلى حلوله .﴿ٱلْخِزْىِ﴾ الذل والهوان .﴿وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالهم، الحين: مدة من الزمن، والمراد بها هنا العمر الطبيعي الذي يعيشه الإنسان.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ قال المعتزلة: المراد مشيئة القسر والإلجاء، أي لو شاء الله تعالى أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه، ولصح ذلك منه، ولكنه ما فعل ذلك؛ لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل

الإلجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة، فالمشيئة المرادة في الآية لم تقع في رأيهم. وقال أهل السنة: المراد تخليق الإيمان أو خلق الإيمان، أي لو شاء ربك لخلق الإيمان فيهم، ولكنه لم يفعل، فدلَّ على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم؛ لأن الإيمان لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته، فإذا لم يحصل ذلك المعنى لم يحصل الإيمان. والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر، فكل إيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣٠]. وهذا المذهب موافق للمعتزلة في أن الله تعالى ما قسر الخلق، ولكنه أيضاً ما سلب اختيارهم، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً وقصداً، فإبقاء الآية على إطلاقها أولى، وربط كل شيء من إيمان وغيره بمشيئة الله تعالى هو الواجب.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بما لم يشأه الله منهم، والاستفهام للإنكار، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه عليه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادته وتوفيقه، فلا تجهد نفسك في هداها، فإنه إلى الله تعالى. والإذن بالشيء لغة: الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه .﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ هنا العذاب أو الخذلان. وأصله في اللغة: الشيء القبيح المستقذر .﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يتدبرون آيات الله، ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات.

المناسبة:

هذه هي **القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة**، وهي قصة يونس عليه السلام. فبعد أن بيّن الله تعالى أن ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ أتبعه بهذه الآية للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم، وانتفعوا بذلك

الإيمان. وهذا يدل على أن الكفار فريقان: منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الإيمان، وكل ما قضى الله به فهو واقع.

وذكر في هذه الآيات ما يكمل قبلها في أن الله تعالى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر، وأن مشيئة الله وحكمته متعلقتان بأفعال عباده، ووقوعها على وفقهما.

وكانت العبرة من إيراد هذه القصص الثلاث (قصة نوح، وقصة موسى، وقصة يونس) الردّ على شبهات الكفار التي منها أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب عليهم، ولم ينزل، فأبان الله تعالى أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد، بدليل أن الله أخّر العذاب عن قوم نوح، وفرعون، وقوم يونس، ثم أوقعه في الأولين ولم يوقعه في قوم يونس بسبب إيمانهم.

أضواء من التاريخ:

ذكر يونس عليه السلام في القرآن الكريم باسمه أربع مرات: في سورة النساء [١٦٣] والأنعام [٨٦] ويونس [٩٨] والصافات [١٣٩] وذكر بوصفه في سورتين: في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [٨٧] وفي سورة القلم: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾ [٤٨].

وهو يونس بن متى، ويقول أهل الكتاب: يونس بن أمتاي. وقد أرسله الله تعالى إلى نينوى من أرض الموصل، فكذبوه، فوعدهم بالعذاب بعد مدة، قيل: إلى أربعين يوماً، وذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب، ولما دنا الموعد غامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد، فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين كل والدة وولدها، فحنَّ بعضها إلى بعض، وعلَت الأصوات والعجيج،

وأخلصوا التوبة، وأظهروا الإيمان، وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة[١]. قال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تِيب عليهم بعد معاينة العذاب، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

أما يونس فقد ذهب مغاضباً لقومه الذين أرسل إليهم؛ لإبطائهم عن تلبية دعوته، والدخول فيما دعاهم إليه من الإيمان، فهرب إلى الفلك المشحون، من غير إذن الله تعالى.

ثم امتحنه الله تعالى بالإلقاء في اليم والتقام الحوت، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٧-٨٨].

فنبذه الله بالعراء وهو سقيم بعد أن مكث في بطنه ثلاثاً أو سبعاً أو أكثر أو أقل، وحماه من هضم الحوت له، وأنبت عليه شجرة من يقطين. ثم أرسله الله تعالى إلى مئة ألف أو يزيدون، فآمنوا، وقبل الله منهم إيمانهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ فمعناه المناسب للأنبياء المعصومين عن الخطأ: فظن أن لن نضيق عليه، أي ظن أننا لن نلزمه بالذهاب إلى القوم الذين أرسل إليهم، ولا نلجئه إلى تبليغ رسالة الله تعالى إليهم، والمراد أنه تأول الأمر وهو أمر الذهاب إلى قومه على أنه أمر إرشاد لا أمر وجوب، ولا إثم في مخالفته، كما تأول الفقهاء كتابة الدين المأمور به في قوله

---

(١) تفسير الرازي: ١٧/١٦٥، تفسير القرطبي: ٨/ ٣٨٤

تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ على أنه أمر ندب وإرشاد، ففهم الأمر على هذا الوجه[١].

التفسير والبيان:

فهلا كان أهل قرية من قرى الرسل الذين أرسلوا إليهم، آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم، وقبل نزول العذاب واستحالة الإيمان، فنفعهم إيمانهم.

ولكن قوم يونس عليه السلام الذي بُعث في أهل نينَوى بأرض الموصل شمال العراق، كانوا قد كفروا، ثم لما رأوا أمارات العذاب، تضرعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا التوبة، وأظهروا الإيمان فرحمهم الله، وكشف عنهم العذاب - أي العذاب الذي وعدهم يونس بنزوله -، وقَبِل إيمانهم، ومتّعهم إلى أجلهم.

أي لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم من القرى الغابرة إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعدما عاينوا أسبابه. وكان قبول إيمانهم مغايراً لقبول إيمان فرعون، فإنه آمن عند الإشراف على الغرق واقتراب الموت. أما قوم يونس فآمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل، وإن كان إيمانهم عند ظهور أماراته.

وفي القصة تعريض بأهل مكة، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس، قبل أن يصلوا إلى درجة اليأس، فإن العذاب قابل للتحقق كما حدث في قوم نوح، وفرعون وجنوده. وعلى هذا التأويل لا تعارض ولا إشكال ولا خصوص لقوم يونس. قال علي رضي الله عنه: إن الحذر لا يردّ القدر، وإن الدعاء ليردّ القدر.

---

(١) قصص القرآن للأستاذ عبد الوهاب النجار: ص ٣٥٧، ٣٥٩

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي ولو شاء ربك يا محمد أن يأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، وأن يخلق فيهم الإيمان، لفعل ولآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩] .

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ١٣/٣١] . و﴿كُلُّهُمْ﴾ في الآية أي على وجه الإحاطة والشمول، و﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين على الإيمان، مطبقين عليه، لا يختلفون فيه.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي أفأنت يا محمد تلزم الناس وتلجئهم إلى الإيمان، ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله وعليه. فالإيمان لا يتم بالإكراه والإلجاء والقسر، وإنما يتم بالطواعية والاختيار، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٥٠/٤٥] وإنما مهمتك فقط التبليغ بالإنذار والتبشير، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٨] وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/٢١-٢٢] . ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦] .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليس لنفس أن تؤمن إلا بإرادة الله ومشيئته وتوفيقه أو ما ينبغي لنفس أن تؤمن إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته، والنفس مختارة في الإيمان اختياراً غير مطلق، وليست مستقلة في اختيارها استقلالاً تاماً، بل مقيدة بسنة الله في الخلق، يهدي الله من يشاء بحكمته وعلمه وعدله.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويجعل الله العذاب على الذين لا يتدبرون حجج الله وأدلته، ولا يستعملون عقولهم في النظر بما يرشدهم إلى الحق من آيات الله وحججه الكونية والعقلية والقرآنية، فهم لتعطيلهم منافذ المعرفة وحواسهم الهادية إلى الصواب، ولاتباع الهوى، يؤثرون الكفر على الإيمان.

فقه الحياة أو الأحكام:

استنبط العلماء من الآيات ما يأتي:

١ً - الحض على الإيمان وقت الرخاء والسعة قبل الإحاطة بالعذاب، فهو الوقت الذي يقبل فيه الإيمان.

٢ً - خص الله قوم يونس من بين سائر الأمم بقبول توبتهم بعد معاينة العذاب، كما ذكر الطبري عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قال القرطبي معلقاً: قول الزجاج حسن؛ فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون؛ لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك. ويُعضد هذا قوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» والغرغرة: الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا[١].

فعلى قول الزجاج والقرطبي: لا تخصيص لقوم يونس.

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٣٨٤

٣ - احتج أهل السنة بآية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ على قولهم بأن جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى؛ لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة، وما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية، فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل[1].

ولقد أوردت في بيان المفردات مذهبي أهل السنة والمعتزلة في تفسير ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ هل المشيئة مشيئة القسر والإلجاء، أم مشيئة الخلْق والإرشاد والهداية؟ وفسر القرطبي الآية بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ لاضطرهم إليه، أي إلى الإيمان.

٤ - الإكراه في الدين ممنوع، لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذِّكْر الأول، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول.

٥ - احتج أهل السنة على قولهم: «أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع». بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وجه الاستدلال به: أن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحرج، وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الإيمان.

٦ - احتج أهل السنة أيضاً على قولهم: بأن خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وتقريره أن الرجس هو العمل القبيح، سواء كان كفراً أو معصية، فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى وتخليقه، ذكر بعده أن

---

(١) انظر تفسير الرازي: ١٧/١٦٦، وكذا ص ١٦٧ للحكم رقم (٥)، وص ١٦٨ للحكم رقم (٦).

الرجس لا يحصل إلا بتخليقه وتكوينه، والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر. هذا ما ذكره الرازي.

ويلاحظ أننا فسرنا الرجس بالعذاب، كما ذهب إليه كثير من المفسرين، وهو ما قرره أبو علي الفارسي النحوي في أن الرجس يحتمل كون المراد منه العذاب.

فرضية النظر والتفكير وإنذار المهملين

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

القراءات:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾: قرئ:

١- (قلِ انظروا) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (قلُ انظروا) وهي قراءة الباقين.

﴿رُسُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قرئ:

١- (نُنْجِ المؤمنين) وهي قراءة حفص، والكسائي.

٢- (نُنَجِّ المؤمنين) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَاذَا﴾ إما استفهام مبتدأ، وخبره: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أو أن الخبر: ذا بمعنى الذي، والجملة الابتدائية في موضع نصب.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف: صفة مصدر محذوف، تقديره: ننجي رسلنا، والذين آمنوا ننجيهم مثل ذلك، وتصير الجملة: كذلك ننج المؤمنين، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين.

﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ اعتراض، وهو منصوب بفعله المقدر، أي حق ذلك علينا حقاً، ويجوز أن يكون ﴿حَقًّا﴾ بدلاً من ﴿كَذَٰلِكَ﴾. ولا يجوز أن ينصب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ و﴿حَقًّا﴾ بـ ﴿نُنَجِّي﴾؛ لأن الفعل الواحد لا يعمل في مصدرين، ولا في حالين، ولا في استثناءين، ولا في مفعولين معهما.

البلاغة:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عبَّر بصيغة المضارع عن الماضي، لتهويل الأمر، باستحضار صورة ذلك الماضي.

المفردات اللغوية:

﴿قُلِ﴾ يا محمد لكفار مكة وغيرهم. ﴿ٱنظُرُواْ﴾ تفكروا. ﴿مَاذَا﴾ أي الذي. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته. وإن جعلتَ ﴿مَاذَا﴾ استفهامية علقتَ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ عن العمل. ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمته. وما: نافية أو استفهامية في موضع النصب. ﴿مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم أي مثل وقائعهم من نزول العذاب بهم؛ إذ لا يستحقون غيرها. مأخوذ من قولهم: أيام العرب أي وقائعها. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ذلك.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ المضارع لحكاية الحال الماضي. ﴿رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإنجاء. ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ اعتراض. ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي كذلك الإنجاء ننج النبي ﷺ وأصحابه حين تعذيب المشركين.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته، أمر بالنظر والاستدلال في الأدلة، حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض، فقال: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فعلى كل عاقل التمييز بين الخير والشر، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى عباده بالتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما من الآيات الباهرة ذات النظام البديع، كالكواكب النيرة من ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما، وتعاقبهما طولاً وقصراً، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر، فأخرج به أنواع الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ في الأرض من دواب برية وبحرية مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وثروات معدنية، وما في البحر من العجائب، وهو مع ذلك مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير العلي القدير العليم الذي لاإله غيره، ولا رب سواه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٠-٢١] .

فالنظر في ذلك يرشد إلى وجود الخالق، ويدعو إلى التصديق بالرسل، والإيمان بالقرآن والوحي المخبر عن هذه الآيات العظام.

ولكن ما تغني وما تفيد وما تنفع أي لن تغني هذه الآيات أي الدلالات الكونية والقرآنية والرسل المنذرون أو الإنذارات قوماً لا يتوقع إيمانهم كما ذكر في (الكشاف) وهم الذين لا يعقلون، أي لا ينظرون في تلك الآيات. وقال القرطبي: عمن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن. وقيل: ما استفهامية والتقدير: أي شيء تغني.

والمعنى على الاستفهام: أي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها لقوم لا يؤمنون بالله ورسله، ولم يستخدموا عقولهم فيما خلقت من أجله؟ وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ أي لا تفيدهم شيئاً، أو أي شيء تغني الآيات وهي الدلائل، والظاهر أن (ما) للنفي، ويجوز أن تكون استفهاماً[(١)].

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ يحذِّر الله المشركين قائلاً: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل وقائع الأمم الماضية المكذبة لرسلهم، من نزول العذاب بهم؟ وهي وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. والأيام هنا بمعنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم، والعرب تسمي العذاب أياماً والنعم أياماً؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٤/٥] وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ قل أيها الرسول لهم منذراً مهدداً موعداً: انتظروا عذاب الله وعقابه، إني من المنتظرين هلاككم، أو فانتظروا هلاكي، إني معكم من المنتظرين هلاككم، أو من المنتظرين موعد ربي.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ أي إن حكمنا المتَّبع وسنتنا السائدة أنه إذا وقع العذاب إنجاء رسلنا والمؤمنين معهم، وإهلاك المكذبين.

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ١٩٤

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي مثل هذا الإنجاء للرسل السابقين ومن آمن معهم، ننجي المؤمنين معك أيها الرسول، ونهلك المكذبين بالرسل. وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤] وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - وجوب النظر في الدلائل السماوية والأرضية للاهتداء بها إلى معرفة الخالق، فلا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «تَفَكَّروا في الخلْق، ولا تَفكَّروا في الخالق، فإنكم لا تقدِرون قدره»[(١)].

فعلى الناس الاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال.

٢ - وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم عبرة وعظة للمكذبين الرسل.

٣ - سنة الله تعالى عند إيقاع العذاب الشامل إنجاء الرسل والمؤمنين معهم، وإهلاك الكافرين الضالين المكذبين. وهذا الاصطفاء والتمييز عدل من الله ورحمة.

(١) رواه أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن عباس، وهو حديث صحيح.

إخلاص العبادة للَّه تعالى ونبذ الشرك

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

الإعراب:

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ حذف حرف الجر من ﴿أَنْ﴾ أمر مطرد، مثل «أنَّ» وقد يكون الحذف غير مطرد، فيقال: أمرتك الخير، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤].

﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾ عطف على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ لكن المعطوف محكي بصيغة الأمر، ولا ضير في ذلك لأن المقصود هو الوصل بما يتضمن معنى المصدر، ولا فرق في الأفعال كلها، سواء الخبر منها والطلب، والمعنى: وأمرت بالاستقامة في الدين بأداء الفرائض، والانتهاء عن القبائح، وقد سوغ سيبويه أن توصل ﴿أَنْ﴾ بالأمر والنهي، لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر.

﴿حَنِيفًا﴾ حال من (الدِّين) أو من الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء.

البلاغة:

﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ بين الجملتين مقابلة.

﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ إظهار الفضل في موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد لهم من الخير، لا استحقاق لهم عليه.

المفردات اللغوية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة وغيرهم. ﴿فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي في صحته وأنه حق. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره وهو الأصنام، لشكّكم فيه. ﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يقبض أرواحكم، والمعنى كما ذكر البيضاوي: هذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً، فاعرضوها على العقل الصرف، وانظروا إليها بعين الإنصاف، لتعلموا صحتها: وهو أني لا أعبد ما تختلقونه وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأمرت بأن أكون من المصدقين بما دل عليه العقل ونطق به الوحي.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي وبأن أستقيم في الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الشرك وتوابعه إلى الدين الحق. ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته، فلا ينفعك إن دعوته، ولا يضرك إن لم تعبده. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوته وفعلت ذلك افتراضاً.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ يصبك. ﴿بِضُرٍّ﴾ أي سوء من مرض أو ألم أو فقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ رافع. ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ فلا دافع لفضله الذي أرادك به. قال البيضاوي: ولعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر، مع تلازم الأمرين، للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لابالقصد الأول. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بالخير. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي فتعرضوا لرحمته بالطاعة، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الأدلة على صحة الدين ووحدانية الخالق وصدق النبوة، أمر رسوله بإظهار دينه، وبإظهار المفارقة بينه وبين الشرك وما عليه المشركون من عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأن النافع الضار هو الله الذي خلقهم، فتخرج عبادة الله من حالة السر إلى الإعلان.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يقول لأهل مكة وغيرهم من الناس إلى يوم القيامة: إن كنتم لا تعرفون ديني، فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل، وإن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي، فاعلموا وصفه وأنه لا مجال للشك فيه، وهو أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، من حجارة وغيرها؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، بل أعبد الله وحده لاشريك له، الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، وأن أكون من المؤمنين إيماناً حقاً بالله، العارفين به تمام المعرفة.

وفي هذا تعريض بأن الدين الحق لا يُشك فيه، ويستحسنه ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة، وأما عبادة الأصنام فمقطوع ببطلانها؛ لأنها لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، ويستنكرها كل عاقل، فإنها أحجار!!.

ويلاحظ أنه تدرج من نفي عبادة غير الله؛ لأن الإزالة في كل شيء بقصد إصلاحه مقدمة على الإثبات، والتخلي مقدم على التحلي، ثم انتقل إلى إثبات عبادة الله، ليبين أنه يجب ترك عبادة غير الله أولاً، ثم يجب الاشتغال بعبادة الله، ثم انتقل إلى ذكر الإيمان والمعرفة بعد العبادة التي هي عمل جسدي، ليدل على وجوب تطابق العمل مع الاعتقاد، فإنه لا جدوى لعمل ما لم ينبع من اعتقاد صحيح يتجلى فيه نور الإيمان والمعرفة. وفي هذا التدرج من نفي عبادة

الأصنام إلى إثبات من يعبده وهو الذي يتوفاكم، وفي ذكر هذا الوصف الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق وعلى الإعادة(١).

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقيم وجهي للدين القيم، أي بالاستقامة في أمر الدين بالتزام الأوامر واجتناب النواهي، وبأن أخلص العبادة لله وحده، حنيفاً أي مائلاً عن الشرك والباطل إلى الدين الحق، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ممن يشرك في عبادة الله إلهاً آخر، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قيل لي: كن من المؤمنين وأقم وجهك ولا تشرك.

فقوله ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ معناه استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٩].

وهذا يدل على وجوب التوجه في العبادة والدعاء إلى الله وحده، دون التفات إلى شيء سواه، فمن توجه بقلبه إلى غير الله في عبادة أو دعاء فهو عابد غير الله.

لذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي لا تدع ولا تعبد أيها الرسول متجاوزاً الله تعالى ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة إن دعوته، ولا يضرك أصلاً إن تركت دعاءه.

فإن فعلت هذا وعبدت ودعوت غير الله، كنت حينئذ من الظالمين نفسك؛ لأنه لا ظلم أكبر من الشرك بالله تعالى، ومن الظلم وضع العبادة في غير موضعها.

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ١٩٥

ثم أكد الله تعالى سلب صلاحية النفع والضر عن غير الله، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي وإن تتعرض لضرر يمسّ جسمك أو مالك من مرض أو فقر أو ألم، فلا كاشف أو لا رافع له إلا الله، وإن يردك أو يخصك الله بخير منه في دينك أو دنياك من نصر ورخاء ونعمة وعافية، فلا دافع لفضله إلا الله؛ إذ لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه ولا مانع لفضله أحد، وهو القادر على كل شيء، يمنح ويمنع، ويعطي ويحرِم، يفعل كل ذلك بحكمة وعلم.

والفضل الإلهي يكون عادة عاماً بعموم الرحمة، أما الضرر فإنه لا يقع إلا بسبب، فإن البلاء لا يقع إلا بذنب، ولا يرتفع إلا بتوبة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠].

وهو سبحانه الغفور الرحيم لمن تاب إليه، ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه، فتعرضوا لرحمته بالطاعة، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أمرين: تخصيص العبادة بالله تعالى ونبذ الشرك، وبيان أن الضار والنافع هو الله تعالى، مما يوجب استحقاقه العبادة.

أما تخصيص العبادة وإخلاصها بنحو كامل نقي لله عز وجل فيتطلب ضوابط أو قيوداً ستة مفهومة من الآيات الثلاث الأولى وهي ما يأتي:

١ً - الامتناع النهائي البات المطلق عن عبادة غير الله بمختلف الأشكال.

٢ً - عبادة الله تعالى وحده دون سواه؛ لأنه المحيي المميت وإليه المرجع والمآب.

٣ً - التصديق أو الإيمان الكامل الذي لا يخالجه أي شك بآيات الله.

٤ً - الاستقامة على أمر الدين بأداء الفرائض واجتناب القبائح، والميل التام عما سوى الدين والشرع القويم، فقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ كما قال الرازي: إشارة للاستغراق في نور الإيمان والإعراض بالكلية عما سواه.

٥ً - تجنب كل مظاهر الشرك الحقيقي الظاهر من عبادة الأوثان ونحوها، وهذا صار مفهوماً من آية ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وتجنب ما يسمى بالشرك الخفي وهو الرياء، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٦ً - الامتناع من عبادة أي شيء سوى الله، مما لا يضر ولا ينفع، ولا يغني من الحق شيئاً، ولا يفيد شيئاً عند الله، ولا ينفع عابده أو داعيه، فمثل تلك العبادة والتعظيم لغير صاحب العظمة والجلال ظلم بحت بوضع العبادة في غير موضعها، وضياع وإهدار للجهود، وعدم إثمارها شيئاً ما.

وأما النفع والإضرار وجلب الخير ودفع الشر: فلا يؤمل الخير من غير الله تعالى، ولا يدفع الشر بغير الله تعالى، ولا يمنح الفضل سوى الله، ولا يكشف السوء غير الله عز وجل، وهو سبحانه في كل الأحوال غفور لمن استغفره، رحيم بمن تاب إليه وأناب، ولو من أعظم المعاصي والجرائم وهو الشرك.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية بيان أن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لاشريك له، وتكون هذه الآية مؤكدة للآيات السابقة، ومكملة لها، ومبرهنة لكل ذي عقل أن المعبود بحق هو الله الذي يكشف الضر والسوء، ويمنح الفضل والخير. روى الحافظ ابن عساكر عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهرَكم كله، وتعرضوا لنفَحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوا أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم».

٧ - المغفرة والرحمة تشملان كل من تاب وأناب، ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به، فإن الله يتوب عليه.

الإسلام دين الحق ووجوب اتباعه

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

الإعراب:

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بينهما طباق.

﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ و ﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي أهل مكة وغيرهم. ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي رسوله والقرآن، ولم يبق لكم عذر. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه وثواب اهتدائه له. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر بالقرآن والرسول ﷺ. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلي أمركم، وإنما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك بالامتثال والتبليغ. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على دعوتهم وأذاهم. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ فيهم بأمره بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ

﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أعدلهم؛ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر.

المناسبة:

هذه خاتمة عظيمة موجزة أجملت ما في السورة من مبدأ اتباع شريعة الله ووحيه إلى نبيه، فبعد أن قرر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وزيّن آخر هذه السورة بالبيان الدال على استقلاله تعالى بالخلق والابداع، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية، وهي إكمال الشريعة أو دين الحق، وأزال علة التنكر لها، وأوجب اتباعها، وأوضح للناس كافة طريق الرؤية الصحيحة: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

التفسير والبيان:

قل أيها الرسول للناس قاطبة، من حضر ومن ستبلغه هذه الدعوة: قد جاء الحق المبين من ربكم، يبين حقيقة هذا الدين، وكمال هذه الشريعة، على لسان رجل منكم.

فالله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله تعالى هو الحق الذي لا شك فيه.

فمن اهتدى به، وصدق القرآن ورسول الله، واتبعه، فإنما يهتدي لنفسه، أي يعود نفعه وثواب اهتدائه واتباعه على نفسه، ومن ضل عنه وحاد عن منهجه، فإنما يضل على نفسه، أي يرجع وبال ذلك عليه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا بموكَّل بكم من عند الله بأموركم حتى أجعلَكُم مؤمنين وأُكْرِهَكُمْ على الإيمان، وإنما أنا نذير منذر لكم عذاب الله لمن أعرض وكذب، وبشير مبشر من اهتدى، والهداية على الله تعالى.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي اتبع يا محمد ما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، وتمسك به أشد التمسك، واصبر على دعوتك وأذى قومك ومخالفة من خالفك من الناس، حتى يحكم الله، أي يقضي بالفصل بينك وبينهم، أي المكذبين فينصرك عليهم ويحقق لك الغلبة، وهو خير الحاكمين أي أعدل الحكام وأحكمهم، يقضي بالعدل التام والحكمة الصحيحة والواقع الحقيقي. وقد أنجز الله وعده لنبيه ﷺ فنصره مع الجند المؤمنين، على فئات المشركين، واستخلفهم في الأرض، وجعلهم الأئمة الوارثين.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عما لقيه من أذى قومه، ووعد للمؤمنين أنصاره، ووعيد للكافرين أعدائه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي من الأحكام:

١ - الإسلام دين الحق وشريعة الله الكاملة، والقرآن مصدر هذا الحق والشرع، والرسول ﷺ هو المعبّر عن الدين الحق المبلغ له.

٢ - الإسلام منهج الهداية الربانية ومعقد الأمل والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، فمن أبصر الحق واتبع سبيل الهداية الإلهية بما فيها من اعتقاد حق صحيح، وتشريع عادل، ونظام سديد، فاز ونجا وأسعد نفسه، ومن تنكب طريق الحق، وترك الرسول ﷺ والقرآن، واتّبع الأصنام والأوثان، وسار مع الأهواء وتقليد الآباء والأجداد، هلك ووبال ذلك على نفسه.

٣ - ما الرسول إلا مبلغ وحي الله، مبشر من أطاعه بالجنة، منذر من عصاه بالنار، لا يملك إكراه أحد على الإيمان بدعوته، واتباع رسالته.

٤ - الرسول كغيره من الرسل والمؤمنين يجب عليه اتباع ما أوحى الله له، والصبر على الطاعة وعن المعصية، فإن أصابه مكروه بسبب نشر دعوته،

فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وله بالنصر على أعدائه والغلبة على المكذبين.

قال ابن عباس: لما نزلت جمع النبي ﷺ الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم، فقال: «إنكم ستجدون بعدي أَثَرة[١]، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

٥ - لا يحكم الله عز وجل إلا بالحق والعدل، وحكمه مطابق يقيناً للواقع؛ لأنه يعلم السرائر والبواطن كما يعلم الظواهر.

تم الجزء الحادي عشر ولله الحمد

(١) أي حب الذات والمؤاثرة عليكم، فيفضل غيركم مثلاً في نصيبه من الفيء، وتكون الأولوية للأتباع والأشياع، لا للذين سبقوا إلى الإيمان ونصرة الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثاني عشر



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ هُودٍ

مكية وهي مئة وثلاث وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة هود لاشتمالها على قصة هود عليه السلام مع قومه: «عاد» في الآيات [٥٠ - ٦٠] وهي كغيرها من قصص القرآن تمثل صراعاً حاداً عنيفاً بين هود عليه السلام وبين قومه الذين دعاهم إلى عبادة الله تعالى، وهجر عبادة الأصنام والأوثان، فلما أصروا على كفرهم وتكذيبه، عذبهم الله بعذاب غليظ شامل وهو الريح العقيم الصرصر، التي سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ١١/٥٨] ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٦-٨].

نزولها وشأنها ومناسبتها لما قبلها:

هذه السورة مكية أي نزلت في مكة إلا الآيات الثلاث التالية وهي: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [١٢] كما قال ابن عباس ومقاتل،

وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾ [١٧] فإنها نزلت في ابن سَلام وأصحابه، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [١١٤] فإنها نزلت في نبهان التمار.

وقد نزلت بعد سورة يونس، وهي متفقة معها في معناها وموضوعها وافتتاحها بـ ﴿الٓر﴾ واختتامها بوصف الإسلام والقرآن والنبي الذي جاء بالحق من الله، والدعوة إلى الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وتفصيلها ما أجمل في سورة يونس من أمور الاعتقاد من إثبات الوحي والتوحيد والبعث والمعاد والثواب والعقاب والحساب، وإعجاز القرآن وإحكام آياته، ومحاجَّة المشركين في ذلك وتحديهم بالقرآن، وذكر قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

وتمتاز هذه السورة بما فيها من القوارع والزواجر التي اشتملت عليها قصص هؤلاء الأنبياء، والدعوة الشديدة إلى الاستقامة، مبتدأة بالنبي ﷺ، روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يارسول الله، قد شِبْت، قال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

وسئل النبي ﷺ عما شيبه من سورة هود، فقال: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

ومن فضائلها: ما أسنده أبو محمد الدارمي في مسنده عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة». وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود، أعطي من الأجر عشر حسنات..».

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة كسورة يونس أصول الدين العامة وهي التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء، وتوضيح هذه العناصر إجمالاً فيما يأتي:

١ - **إثبات كون القرآن من عند الله**، من طريق إحكام آياته وإتقانها بنظمها نظماً رصيناً محكماً لا نقص فيه ولا خلل، كالبناء المحكم، ثم تفصيلها في الحال دون تراخ، ببيان دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص والتفرقة بين الحق والباطل، ومن طريق إعجاز القرآن وتحديه العرب بأن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١١/١٣] وبعد أن عجزوا عن محاكاته والإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، أعلن الله تعالى إفلاسهم وعجزهم فقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١١/١٤].

٢ - **توحيد الله**: وهو نوعان:

أ - توحيد الألوهية: وهو عبادة الله وحده وعدم عبادة أحد سواه، كما قال تعالى في مطلع هذه السورة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فعبادة كل من سواه كفر وضلال.

ب - توحيد الربوبية: أي الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته. وكان عرب الجاهلية يؤمنون بأن الله هو الرب الخالق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦١] ولكنهم كانوا يقولون بتعدد الآلهة. وورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت توحيد الربوبية، مثل المذكور في هذه السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٧] والخلْق: التقدير المحكم الذي تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة، ثم أريد به الإيجاد التقديري.

٣ - إثبات البعث والجزاء: للإيمان بهما وللترغيب والترهيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [٤] وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٧].

٤ - اختبار البشر لمعرفة إحسان أعمالهم: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٧].

٥ - الموازنة بين طبع المؤمن والكافر في أحوال الشدة والرخاء، فالمؤمن صابر وقت الشدة، شاكر وقت الرخاء، والكافر فرح فخور حال النعمة، يؤوس كفور حال المصيبة [الآيات ٩ - ١١].

٦ - استعجال البشر الخير والنفع، والعذاب الذي يُنْذِرُ به الرسل: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [٨] وقال تعالى في سورة يونس المتقدمة: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١/١٠]

٧ - طبائع البشر مختلفة حتى في قبول الدين إلا من رحم ربك: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [١١٨ - ١١٩] أي أن لهذا الاختلاف فوائد علمية وعملية، كما أن فيه مضارّ إذا أدى إلى التفرق في الدين والاختلاف في أصول الحياة والمصالح العامة.

٨ - إيراد قصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي ﷺ على ما يتعرض له من أذى قريش وصدودهم عن دعوته: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [١٢٠]، وفي كل قصة عبرة وعظة أيضاً للمؤمنين. وقد ذكر الله قصة نوح أبي البشر الثاني وأمره له بصناعة الفلك، لنجاته ومن معه من المؤمنين، وإغراق قومه بالطوفان الذي عم الأرض، ونوح أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً وصبراً [الآيات: ٢٥ - ٤٩] وتبين من قصته أن أتباع

الرسل عادة هم الفقراء، كما حكى تعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ١١/٢٧] .

ثم ذكر الله تعالى قصة هود الذي سميت السورة باسمه، ودعوته قومه «عاد» الأشداء العتاة المتجبرين إلى عبادة الله تعالى، فاغتروا بقوتهم وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية في بحر أسبوع: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦٩/٧] وعبر عن ذلك بأنه عذاب غليظ، بسبب الكفر والجحود بالآيات الإلهية: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ [الآيات: ٥٠ - ٦٠].

ثم ذكر سبحانه قصة صالح مع قومه ثمود [الآيات: ٦١ - ٦٨] وأشار إلى قصة ضيوف إبراهيم من الملائكة [الآيتان: ٦٩ - ٧٠] ثم قصة لوط [الآيات: ٧٠ - ٨٣] ثم قصة شعيب [الآيات: ٨٤ - ٩٥] ثم قصة موسى مع فرعون [الآيات: ٩٦ - ٩٩].

٩ - التعقيب المباشر على ما في تلك القصص من عبر وعظات، بإهلاك الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الآيات: ١٠٠ - ١١١].

١٠ - الأمر بالاستقامة في الدين [الآية: ١١٢] وهو أمر ثقيل شديد على النفس، يتطلب جهاد النفس، والصبر على أداء الواجبات، وحمايتها من الموبقات المهلكات.

١١ - الطغيان سبيل الدمار، والركون إلى الظلم موجب عذاب النار: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الآية: ١١٣].

١٢ - الأمر بإقامة الصلاة في أوقاتها ليلاً ونهاراً؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات [الآية: ١١١] والصبر على الطاعة، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [الآية: ١١٥].

١٣ - محاربة الفساد في الأرض من أجل حفظ الأمة والأفراد من الهلاك: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١١٦].

١٤ - لا إهلاك ولا عذاب للأمم في حال الإصلاح [الآية: ١١٧].

١٥ - تهديد المعرضين عن دعوة الحق بالعذاب، وجعل العاقبة للمتقين. ويلاحظ أن التهديد والترغيب أمران متلازمان مفيدان في إصلاح الأفراد والجماعات، وبناء الأمة وتحقيق غلبتها على خصومها، لذا اقترنا غالباً في القرآن.

١٦ - ختمت السورة بما بدئت به من الأمر بعبادة الله وحده والاتكال عليه، والتحذير من عقابه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ليتناسق البدء مع الختام.

إحكام القرآن ودعوته إلى عبادة الله والتوبة إليه والإيمان بالبعث

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

الإعراب:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ﴾ كتاب: خبر مبتدأ محذوف، و﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ صفة له، وقال الرازي: ﴿الٓرۚ﴾ اسم للسورة وهو مبتدأ، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره، وذكر البيضاوي الوجهين.

﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي من عنده إحكامها وتفصيلها.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ إما أن تكون (أن) مفسرة بمعنى أي؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول؛ كأنه قيل: قال: ألا تعبدوا إلا الله، أو آمركم ألا تعبدوا إلا الله، مثل قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ [ص: ٣٨/ ٦] أي امشوا. وإما أن تكون مفعولاً لأجله، على معنى: لئلا تعبدوا إلا الله.

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ معطوف على ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ على الوجهين السابقين.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿يُمَتِّعۡكُم﴾ مجزوم؛ لأنه جواب الأمر، وهو قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ وجزم جواب الأمر؛ لأنه جواب لشرط مقدَّر.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أصله: تتولَّوْا، فحُذفت إحدى التاءين، لاجتماع حرفين متحركين من جنس واحد، فاستثقلوا اجتماعهما، فحذفوا إحداهما تخفيفاً.

البلاغة:

﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ و﴿فُصِّلَتۡ﴾ بينهما طباق حسن؛ لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور. وكذلك بين ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ طباق أيضاً.

﴿عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير وهو يوم القيامة للتهويل.

المفردات اللغوية:

﴿الٓر﴾ تقرأ بأسمائها ساكنة، كما ذكر في أول سورة يونس، فيقال: ألِفْ، لامْ، رَا، وهي للتحدي والإلزام للعرب الفصحاء، لإثبات إعجاز القرآن وكونه من عند الله، أو هي حروف تنبيه مثل: ألا، لما سيلقى بعدها. والسور المفتتحة بمثل تلك الحروف مكية إلا سورتي البقرة وآل عمران. والسور المكية تعنى بإثبات التوحيد والبعث والوحي وإعجاز القرآن، وفيها غالباً قصص الأنبياء.

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نظمت نظماً محكماً لا خلل فيه من جهة اللفظ والمعنى ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بينت الأحكام والقصص والمواعظ، وبالإحكام والتفصيل يصبح القرآن كامل الصورة والمعنى. وقال الزمخشري: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد (أي عقود النساء) بالفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص، أو جعلت فصولاً سورة سورة، وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل بها ما يحتاج إليه العباد، أي بيِّن ولخص[١].

وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل[٢].

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله الحكيم الصنع في أقواله وأفعاله وأحكامه، العليم بأحوال الناس والكون، في الظاهر والباطن، الخبير بعواقب الأمور.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٨٩

(٢) الكشاف: ٢/ ٩٠

﴿نَذِيرٌ﴾ بالعذاب إن كفرتم أو أشركتم ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب إن آمنتم أو التزمتم عقيدة التوحيد ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا بالطاعة ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في الدنيا ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ بطيب عيش وسعة رزق. والمتاع: كل ما ينتفع به في المعيشة.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الموت أو العمر المقدّر ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي يعط كل محسن ذي فضل في العمل جزاءه ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أصله: تتولوا، فحذفت إحدى التاءين، أي تعرضوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الشدائد، وقد ابتلي مشركو مكة بالقحط حتى أكلوا الجيف.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ القادر على كل شيء، ومنه الثواب والعذاب، وكأنه تقرير لكبر ذلك اليوم.

التفسير والبيان:

موضوع هذه الآيات تقرير أصول الدين وهي إحكام القرآن وتفصيله، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والإنابة إليه، والإيمان بالبعث والجزاء في عالم الآخرة.

والمعنى: هذا كتاب عظيم الشأن جليل القدر، محكم النظم والمعنى، لا خلل فيه ولا نقص، فهو كامل الصورة والمعنى؛ لأنه صادر من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بحوائج عباده وبعواقب الأمور.

ففي هذه السورة كغيرها من السور تبيان حقائق الاعتقاد وتفنيد أباطيل الكافرين، وتوضيح أسلم الأحكام التشريعية للحياة، وأقوم المناهج والفضائل والمواعظ من خلال القصص القرآني والتنبيه إلى غرر الشمائل والأخلاق.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي أن هذا الكتاب المحكم نزل بألا تعبدوا غير الله ولا

تشركوا به شيئاً، أو إنه نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، أو لئلا تعبدوا إلا الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٥] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي، وقل للناس: إنني كائن لكم من جهة الله، نذير من العذاب، إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم، ألستم مصدِّقيَّ؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وهذا بيان مهمة الرسول ﷺ ووظيفته وهي الإنذار لمن عصاه بالنار، والتبشير لمن أطاعه بالجنة.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، أي أن تطلبوا المغفرة من الشرك والكفر والمعاصي، وأن تتوبوا منها إلى الله عز وجل بالندم على ما مضى، والعزم على عدم العودة إلى الذنوب في المستقبل، والاستمرار على ذلك، فإن استغفرتم وتبتم من الذنوب، يمتعكم متاعاً حسناً في الدنيا، أي يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة طيبة ورزق واسع ونعمة متتابعة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى أن يتوفاكم، كقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧]. والجمع بين الاستغفار والتوبة للدلالة على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والاستغفار مطلوب بالذات، والتوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار، هذا على أساس أنهما معنيان متباينان؛ لأن الاستغفار طلب

المغفرة وهي الستر، والتوبة: الانسلاخ من المعاصي، والندم على ما سلف منها، والعزم على عدم العود إليها، والمعنى: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. ومن قال: الاستغفار توبة، جعل قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ بمعنى أخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والعبادة.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل جزاء فضله لا يبخس منه.

والتمتيع في الدنيا والثواب في الآخرة جمع بين الجزاءين، إلا أن جزاء الدنيا موقوت محدود، وجزاء الآخرة دائم مطلق غير مقيد بشيء. وفي هذا دلالة على أن جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس إلا منه تعالى، وليس إلا بإيجاده وتكوينه وإعطائه، كما أن فيه إشارة إلى أن ثواب الدنيا لمجموع الناس، لا لكل فرد فرد، وأما جزاء الآخرة فمخصوص بكل فرد على حدة.

ومن عادة القرآن أن يذكر الشيء وفائدته للترغيب فيه، ثم يذكر مقابله للترهيب والتهديد، والتنفير، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي وإن أعرضتم عما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، فإني أخشى عليكم عذاب يوم كبير هو يوم القيامة، وصف بالكبر لما فيه من الأهوال، كما وصف بالعظم والثقل والشدة والألم، لما فيه من العظائم والشدائد والأثقال والآلام.

ثم بيَّن عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، ومنه العذاب والثواب، أي أن معادهم يوم القيامة، إلى الله القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة. ولفظ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يفيد الحصر، يعني أن مرجعنا إلى الله لا إلى غيره.

وهذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذَّب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة، لا محالة. وهو ترهيب يقابل الترغيب السابق.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - آيُ القرآن الكريم محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل، منظمة بنظم محكم اللفظ والمعنى، لا تناقض فيها ولا اضطراب، مفصلة تفصيلاً تاماً شاملاً جميع الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها، فهي كاملة الصورة والمعنى، محققة للمصالح البشرية في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ دليل على وجود الصانع الخالق.

٢ - دعوة القرآن صريحة تتجه نحو تحقيق العبودية للخالق المنعم المتفضل، وتخصيصه وإفراده بالعبادة، دون أي أحد سواه، فالآية مشتملة على الأمر بعبادة الله، ومنع عبادة غير الله.

٣ - وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف لمن عصاه بالعذاب، والتبشير بالرضوان والجنة لمن أطاعه.

٤ - واجب الإنسان الاستغفار، أي طلب المغفرة من الشرك والذنوب، والتوبة والإنابة إلى الله بالطاعة والعبادة، فمعنى قوله ﴿تُوبُوٓاْ﴾ ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين.

٥ - إن ثمرة الاستغفار والتوبة وهي الفضل الإلهي على الإنسان المؤمن الطائع أمر عظيم واسع شامل الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تمتيع إلى نهاية العمر المقدر بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، وعدم الاستئصال بالعذاب كما فعل بمن أهلك من الأمم السابقة، فالمتاع الحسن: وقاية من كل مكروه وأمر مَخُوف، واستمتاع بطيبات الحياة. وفي الآخرة إيتاء كل ذي عمل من الأعمال الصالحة جزاء عمله. ودلت الآية على أن لكل إنسان أجلاً واحداً فقط.

٦ - مرجع أو معاد الخلائق جميعاً بعد الموت إلى الله تعالى القادر على كل شيء من ثواب وعقاب. وهذا ترهيب بعد الترغيب السابق.

إعراض الكفار عن الحق

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

البلاغة:

﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يعرضون عن الحق، ويطوون صدورهم على مافيها من حقد وحسد وعداوة النبي ﷺ ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي يحاولوا الخفاء من الله أو ليتواروا عن محمد ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطون بها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ في أفواههم، فالله تعالى يستوي في علمه سرهم وعلنهم، فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بالأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها.

سبب النزول:

روى البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال: كان أناس يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم، فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. أي كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، أي في المسلمين.

وأخرج ابن جرير وغيره عن عبد الله بن شداد قال: كان أحدهم إذا مرّ بالنبي ﷺ ثنى صدره لكيلا يراه، فنزلت.

وقيل: إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا، واستغشينا ثيابنا، وطوينا صدورنا على عداوة محمد، كيف يعلم؟

وذكر الواحدي والقرطبي: أنها نزلت في الأخنس بن شرِيق، وكان رجلاً حُلْو المنطق، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

والظاهر لي أن الآية في إعراض الكفار عن الحق، بدليل ما قبلها وما بعدها.

المناسبة:

بعد وصف حالة الكفار وبيان أنهم إن أعرضوا عن عبادة الله وطاعته، تعرضوا لعذاب يوم كبير، بيَّن الله تعالى أن التولي عن ذلك باطناً أو سراً كالتولي عنه ظاهراً، وأن إعراضهم متصف بالحيرة والجهل.

التفسير والبيان:

ألا إن الكفار أو المشركين حين يسمعون الدعوة إلى الله، يعرضون عن النبي ﷺ بصدورهم، كيلا يراهم النبي ﷺ، ولا يراهم أحد، إمعاناً في العناد والكفر. وقوله: ﴿أَلَآ﴾ للتنبيه.

ألا حين يستغشون ثيابهم ويغطون بها رؤوسهم، ليستخفوا أو يتواروا من محمد أو من الله، يظنون أن الله لا يراهم، مع أن الله يعلم ما يسرون في قلوبهم، وما يعلنون بأفواههم، ويعلم ما يسرون ليلاً، وما يظهرون نهاراً.

وكرر ﴿أَلَآ﴾ للتنبيه على وقت استخفائهم. وعود الضمير إلى الله أولى، لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾.

إن الله عليم بالأسرار التي هي ذات الصدور، وبخواطر القلوب، فليحذر من يظن أن أسراره خفية على الله، وليعلم أن الله مطلع على كل شيء في

الوجود، وما تنطوي عليه النفوس من شكوك وأوهام، ويجازي كل إنسان بما أسر وأعلن.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على تصميم الكفار في إعراضهم عن سماع القرآن، ودعوة النبي ﷺ إلى الإيمان برسالته، وأنهم بهذا الإعراض أغبياء جاهلون. ودلت أيضاً على أنه لا فائدة في استخفائهم وتواريهم عن الله أو عن محمد ﷺ؛ لأن الله مطلع على كل شيء في الوجود من النيات والضمائر والسرائر، ومن الأقوال والأفعال العلنية، يستوي علمه بالسر مع علمه بالجهر، ولا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم.

فضل الله وعلمه وقدرته

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

القراءات:

﴿سِحْرٌ﴾:

قرئ:

١- (ساحر) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (سحر) وهي قراءة الباقين.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ : ﴿مِن﴾ : زائدة، والدّابة في اللغة: كل ما يدبّ على الأرض، زحفاً على بطنه أو مشياً على قوائمه. وإطلاق الدّابة على الخيل والبغال والحمير إطلاق عرفي. ﴿رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها، لتكفله إياها تفضّلاً ورحمة. وإنما أتى بلفظ الوجوب بهذا التّعبير تحقيقاً لوصوله وضمانه وحملاً على التّوكل فيه. ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ مكانها من الأرض ومسكنها. ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ما كانت مودعة فيه قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة، والمراد بالمستقر والمستودع: أماكن الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام. ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كل مما ذكر، أي كل واحد من الدّواب وأحوالها ورزقها ومستقرّها ومستودعها مذكور في اللوح المحفوظ، مكتوب فيه مبيَّن، والمراد بالآية كونه عالماً بالمعلومات كلها، وكونه قادراً على الممكنات بأسرها، لتقرير التوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي وكان عرشه قبل خلق السماوات والأرض على الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض. وليس المعنى على سبيل كون أحدهما ملتصقاً بالآخر، وإنما كقوله: السماء على الأرض. والماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. والعرش: مركز التنظيم للملك ومصدر التدبير، وهو أعظم من السماوات والأرض.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلّق بخلق، أي خلق ذلك لحكمة بالغة هي أن يعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم المختبر لأوضاعكم كيف تعملون. والابتلاء: الاختبار والامتحان. ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي أطوع لله، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، وأما أعمال الكافرين فتتفاوت إلى حسن وقبيح. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا القرآن الناطق بالبعث، والذي تقوله يا محمد إلا سحر، أي تخييل وتمويه، ﴿مُّبِينٌ﴾ أي بيِّن ظاهر البطلان. ويجوز

تضمين ﴿قُلْتَ﴾ معنى ذكرت. ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أن السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر، تشبيهاً له به.

المناسبة:

لما بيَّن الله تعالى في الآية السابقة أنه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أردفه بما يدلّ على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، قادراً على كل شيء، فهوالخالق والرّازق والعالم بأحوال البشر، والباعث لهم بعد الموت، فالبعث واقع لا محالة.

التفسير والبيان:

ما من نوع من أنواع دواب الأرض أو البحر أو الجوّ إلا على الله رزقها ومعيشتها وغذاؤها المناسب لها، المعدّ لطعامها بعد البحث والحركة والعمل، ويعلم مستقرّها ومستودعها، أي يعلم منتهى سيرها في الأرض حيث تأوي إليه وهو مستقرّها، والموضع الذي تأوي إليه من وكرها، ومكان موتها ودفنها، وهو مستودعها، وهذا يشمل بداية تكوينها ووجودها في الأصلاب والأرحام وأيام الحياة والممات.

وكل ما ذكر من كل الدّواب وأرزاقها ومستقرّها ومستودعها ثابت مكتوب في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه جميع مقادير الخلق.

وهذا دليل على أن الله تعالى متكفل بأرزاق المخلوقات كلها، وقد أوجب ذلك على نفسه بكلمة ﴿عَلَى﴾ المفيدة للوجوب تفضُّلاً منه ورحمة، إلا أن الرّزق بمقتضى سنّته تعالى في الكون خاضع لمبدأ ارتباط الأسباب بالمسببات، أي أن الحصول على الرّزق مرتبط بالسّعي والعمل، بعد توافر الإلهام المودع في الخلائق، وهدايتهم إلى الطّلب والتّحصيل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٥٠].

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/٣٨]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٥٩].

وبعد أن أثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالماً بالمعلومات، أثبت بكونه خالقاً السماوات والأرض كونه تعالى قادراً على كل المقدورات، وفي الحقيقة كل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي إنه تعالى يخبر عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق أو أبدع وكوّن السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الله في الخلق والتكوين، لا كأيامنا الحالية، وهو الظاهر بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٢٢/٤٧] وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٧٠/٤]. ويقدر علماء الفلك اليوم من أيام التكوين بألوف الألوف من سنوات الدنيا.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ العرش: أعظم المخلوقات، ولا نعلم حقيقته وإنما نؤمن به كما أخبر عنه تعالى، وأما استواؤه عليه، فالاستواء معلوم والكيف مجهول، كما روي عن أم سلمة رضي الله عنها ومالك وربيعة. وهذه الآية تدل على كيفية بدء الخلق قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، وعلى أن العرش والماء كانا قبل السماوات والأرض، وأن العرش كان قبل أن يخلق شيئاً، وأن ماتحت العرش هو الماء أصل المادة الحية، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٠] وهذا ما يسميه علماء الفلك بنظرية السديم، ويعبر عنها القرآن بالدخان، أو الماء أو متن الريح.

ثم ذكر تعالى علة الخلق العجيب بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥].

والتكليف بالعبادة والطاعة واجتناب المعاصي للاختبار والامتحان، ومعرفة الأحسن عملاً: وهو العمل الخالص لله عز وجل، القائم على أساس شريعة الله، فإذا فقد العمل أحد هذين الشرطين حبط وبطل، فمن شكر وأطاع أثابه الله، ومن كفر وعصى عاقبه. ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم، كيف تعملون.

وبما أن للابتلاء والاختبار ثمرة، فلا بُدَّ من حصول الحشر والنشر، المقتضي تخصيص المحسن بالرحمة والثواب، وتخصيص المسيء بالعقاب، ولا بد للعاقل من الاعتراف بالمعاد والقيامة، لذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾.

والمعنى ولئن أقمت يامحمد الأدلة على البعث بعد الموت، وذكرت ذلك للمشركين، لقال الكافرون: هذا سحر، أي غرور باطل؛ لأن السحر في مفهومهم باطل. ومعنى الجملة: ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - تكفل الله بأرزاق المخلوقات، وضمنها لهم تفضلاً من الله تعالى لهم، ورحمة بهم. وهذا دليل على اتصافه تعالى بالعدل والرحمة. ولكن الرزق مرتبط

بالسعي والكسب والعمل، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥].

٢ - علم الله عز وجل محيط شامل بكل مخلوقات الأرض ودوابها البرية والبحرية والجوية، بدءاً من وجود مادتها في الأصلاب والأرحام، إلى ظهورها في ساحة الحياة الحركية، إلى تنقلاتها وتحركاتها ومسيرها حيث تأوي إليه، وإلى الموضع الذي تموت فيه فتدفن.

٣ - الله خالق السماوات والأرض ومابينهما من كائنات حية، وهاتان الآيتان: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ و﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تدلان على كمال علم الله تعالى وكمال قدرته.

٤ - العرش مع كونه أعظم من السماوات والأرض كان على الماء. والله تعالى أمسك الماء لا على قرار، والعرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سماوات، من غير دعامة تحته، ولا عُلاقة فوقه.

٥ - الله خلق السماوات لابتلاء واختبار المكلف، وهذا يقتضي أن الله تعالى خلق هذا العالم الكبير لمصلحة المكلفين.

٦ - الواجب قطعاً وعقلاً حصول الحشر والنشر، والاعتراف بالمعاد والقيامة، لإقامة العدل بين الخلائق، وللجزاء الذي يميز بين المحسنين والمسيئين، فيجازَى المحسن بالثواب والرحمة، والمسيء بالعقاب والعذاب.

موقف الإنسان المؤمن والكافر عند النعمة والنقمة

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿يَأْتِيهِمْ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (ياتيهم).

﴿عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (عنّيَ).

الإعراب:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾ اللام للقسم، والجواب: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾ اللام في ﴿وَلَئِنْ﴾ موطئة لقسم مقدَّر، وليست جواباً للقسم، وإنما جوابه قوله: إنه ليؤوس كفور. وأغنى جواب القسم عن جواب الشرط، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٨] فرفَع ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ على أنه جواب القسم الذي هيأته اللام، وتقديره: والله لا يأتون. ولو كان جواب الشرط، لكان مجزوماً، فلما رفع دل على أنه جواب القسم، واستُغني به عن جواب الشرط.

﴿أَلَا يَوْمَ﴾ منصوب بخبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم عليه، وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء من: ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ لأن المراد به الجنس المفيد للاستغراق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ١٠٣/٢-٣] . وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ١٠٠/٦] . و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٩٦/٦] . وقيل: هو استثناء منقطع.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ من صيغ المبالغة، أي شديد اليأس، كثير الكفران.

﴿نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ المراد: إلى أجل معلوم، أي إلى مجيء أوقات أمة. والأمة في الأصل: الجماعة من جنس واحد، مثل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٣] ، وقد تطلق على الدين والملة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢] وقد تطلق على الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠] وقد تطلق على الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٥] وكما هنا. وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠]. وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي».

﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ما يمنعه من النزول ﴿مَصْرُوفًا﴾ مدفوعاً ﴿وَحَاقَ﴾ نزل بهم العذاب ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ المراد بالإذاقة هنا: الإعطاء القليل. والمراد بالإنسان هنا: الكافر أو مطلق الإنسان ﴿رَحْمَةً﴾ غنى وصحة ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾ سلبناها إياه ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾ شديد اليأس من عود تلك النعمة، قنوط من رحمة الله ﴿كَفُورٌ﴾ شديد الكفر به.

﴿نَعْمَآءَ﴾ هي النعمة والنُّعمى: وهي الخير والمنفعة من صحة وغنى، ويقابلها: الضراء والضُّر: وهو الألم من فقر وشدة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ المصائب ﴿لَفَرِحٌ﴾ بطِر مغتر بالنعمة ﴿فَخُورٌ﴾ متعاظم على الناس بسبب النعم ﴿صَبَرُوا۟﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ في النعماء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هو الجنة.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول ﷺ بقولهم: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ حكى عنهم في الآية الأولى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾ نوعاً آخر من أباطيلهم، وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم به الرسول ﷺ، أخذوا في الاستهزاء، وقالوا: ما سبب حبسه عنا؟

وبعد أن ذكر أن عذاب الكفار، وإن تأخر، فلابد من مجيئه، ذكر بعده ما يدل على كفرهم واستحقاقهم لذلك العذاب، وهو سوء طبع الإنسان، ففي حال النعمة يبطر ويتفاخر، وفي حال الضر يجحد وييأس من رحمة الله، إلا من صبر وشكر وعمل صالحاً.

التفسير والبيان:

والله لئن أخرنا العذاب عن الكفار أو المشركين، بعد أن توعدهم به الرسول ﷺ، إلى حين من الزمان، على وَفْق سنتنا وحكمتنا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ

كِتَابٌ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٨] لقالوا استهزاء وتكذيباً واستعجالاً: ما يحبسه؟ أي ما الذي يؤخر هذا العذاب عنا؟ ومعنى ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ إلى أجل معلوم وحين معلوم.

فأجابهم الله تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عينه الله لنزول ذلك العذاب الذي كانوا يستهزئون به، لم يصرفه عنهم صارف، وسيحيط بهم حينئذ من كل جانب، جزاء بما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٥٢/ ٧-٨] والمضاف الذي هو جزاء محذوف.

ثم أخبر الله تعالى عن صفات الإنسان الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين: أنه إذا أعطاه الله نعمة من صحة ورزق وأمن وولد بارّ، رحمة منه، ثم سلبه تلك النعمة، وأبدله بها نقمة من مرض أو فقر أو خوف أو موت أو كارثة، أضحى شديد اليأس من رحمة ربه، كثير الكفر والجحود للماضي ولما عليه من نعم أخرى، فهو قانط بالنسبة إلى المستقبل، جاحد لماضي الحال كأنه لم ير خيراً، ولما عليه الآن من النعم، وذلك لعدم التزامه بفضيلة الصبر والشكر.

وإن أعطاه الله نعمة من بعد ضراء، كشفاء من مرض، وقوة من بعد ضعف، ويسر من بعد عسر، لقال: ذهب ماكان يسوءُني من المصائب، ولن ينالني بعد اليوم ضيم ولا سوء، وأصبح شديد الفرح والبطر بتلك النعمة أو بما في يده، متفاخراً متعاظماً على غيره، محتقراً من دونه.

فهو في موقفه هذا لا يقابل النعمة بالشكر عليها، بل يبطر ويفخر على الناس، ولا يواسي البائس الفقير.

ويلاحظ أنه عبر في حال النعمة بقوله: ﴿أَذَقْنَا﴾ والذوق: إدراك الطعم، ليدل على التمتيع بالنعمة بأقل أوصافها، وفي حال الضراء بقوله: ﴿مَسَّتْهُ﴾ والمس: مبدأ الوصول، ليشعر بأن الضر في أقل مرتبة من الإصابة.

وهناك مقابلة بين التعبير بـ ﴿أَذَقْنَا﴾ الذي يفيد اللذة والاغتباط، وقوله: ﴿نَزَعْنَاهَا﴾ الذي يفيد شدة تعلقه بالنعمة والحرص عليها.

وكل هذا يدل على أن في الإنسان طبائع سيئة وأمراضاً فتاكة وهي اليأس من رحمة الله والكفر بنعمته، والبطر والفخر والتكبر، ولا علاج لها إلا بالصبر والإيمان والرضا بالقضاء والقدر.

والمراد بالإنسان مطلق الإنسان بدليل استثناء الصابرين الذين يعملون الصالحات منه بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فثبت أن المقصود بالإنسان المؤمن والكافر. وحينئذ يكون الإنسان شاملاً المؤمن والكافر، والاستثناء متصل، قال القرطبي: وهو حسن.

وفي قول آخر: إن المراد منه الكافر، حملاً على المعهود السابق في الآية المتقدمة وهو الكافر، ولأن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر، وهي صفات: اليؤوس، والكفور، وقوله: ذهب السيئات عني، والفرِح، والفخور، وتلك هي صفات الكافرين، وليست من صفات أهل الدين، وحينئذ يجب حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع، حتى لا تلزم هذه المحذورات.

ثم استثنى الله تعالى من جنس الإنسان الصابرين العاملين الصالحات بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي إلا الذين صبروا على الشدائد والمكاره كالجهاد والفقر والمصيبة، وعملوا الصالحات أي الأعمال الطيبة المفيدة في حال الرخاء أو النعمة والعافية، كأداء الفرائض وشكر النعمة وأعمال البر والخير والإحسان للناس، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم بعملهم الصالح أو بما يصيبهم من الضراء، وأجر كبير في الآخرة على ما عملوا من بر وخير وما أسلفوا في زمن الرخاء، أقله الجنة.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١٠٣/١-٣] والحديث النبوي الثابت: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمنَ هَمّ ولا غم ولا نصَب، ولا وصب[1]، ولا حزَن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه» وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته سراءُ فشكر، كان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءُ فصبر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن».

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ما يأتي:

١ً - أقسم الله تعالى على أن كل عذاب أوعد الله أو الرسول به الكفار آتٍ لا ريب فيه، ولا يصرفه عنهم صارف، وهو نازل محيط بهم، جزاء ما كانوا به يستهزئون. والمراد من العذاب إما عذاب الدنيا وهو عذاب الاستئصال أو الهزيمة الساحقة في معركة فاصلة كمعركة بدر، وإما عذاب الآخرة. وأخبر تعالى عن أحوال القيامة بلفظ الماضي: ﴿وَحَاقَ﴾ مبالغة في التأكيد والتقرير.

٢ً - وأقسم عز وجل أيضاً على أن الإنسان (وهو اسم شائع للجنس في جميع الناس، أو الكفّار) إن وجد أقل القليل من الخيرات العاجلة وهو الإذاقة والذوق (وهو أقل ما يوجد به الطعم) يقع في التمرد والطغيان، وإن أدرك أقل القليل من المحنة والبلية، يقع في اليأس والقنوط والكفر. واليؤوس: من الرحمة، والكفور للنعم: الجاحد لها، وكلاهما من صيغ المبالغة، يراد به التكثير، كفخور للمبالغة.

---

(١) النَّصَب: التعب، والوصب: المرض.

وتفسير هذه الظاهرة: هوأن الكافر يعتقد أن سبب حصول تلك النعمة مصادفة ومجرد اتفاق. وأما المسلم فيعتقد أن تلك النعمة من الله تعالى وفضله وإحسانه، فلا يحصل له اليأس، ويأمل خيراً منها، ويصبر على فقدها كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٧].

٣ً - وأقسم تعالى ثالثاً على أن الإنسان إن أمدَّه الله بنعمة كالصحة والرخاء والسعة في الرزق، بعد ضر مسّه كالفقر والشدة، قال: ذهب السيئات عني أي المصائب التي تسوء صاحبها من الضر والفقر، وهو فرح (بطِر) فخور (متعال على الناس) بما ناله من السعة، وينسى شكر الله عليه.

وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، كما قال البيضاوي.

٤ً - استثنى الله تعالى من أوصاف الإنسانِ الذميمة وأحواله حالة المؤمنين الذين يصبرون على الشدائد والمكاره، ويكونون عند الرخاء والسعة من الشاكرين، ويعملون الأعمال الطيبة الخيِّرة في الدنيا، فهؤلاء لهم من الله مغفرة على ما صبروا على عمل الخير وحال المصاب، ولهم ثواب كبير أقله الجنة. وهذا جمع بين المطلوبين: زوال العقاب والخلاص منه، وهو المراد من قوله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ والفوز بالثواب، وهو المراد من قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا دليل على إعجاز القرآن لا بألفاظه فحسب، بل بمعانيه أيضاً.

أما الكافر عند البلاء فلا يكون عادة من الصابرين، وعند الفوز بالنعمة لا يكون من الشاكرين؛ لأن الشكر الحقيقي لا يكون إلا بالإيمان بالمنعم، والصبر لا ثواب له عليه مالم ينبعث من الإيمان، وكثيراً ما يجزع وينفد صبره وربما ينتحر؛ لأنه لا يجد سلوى أو عزاء له بمصابه يعوضه عنه في الآخرة؛ لعدم إيمانه بالبعث والحساب والجزاء الحق من الله تعالى وحده.

والخلاصة: أن الآيات موازنة دقيقة بين أوصاف الإنسان المؤمن وأوصاف الإنسان الكافر، ومنشأ الفرق هو الإيمان والكفر.

٥ - أحوال الدنيا غير باقية، بل هي متغيرة متحولة من النعمة إلى المحنة، ومن اللذات إلى الآفات، وبالعكس وهو الانتقال من المكروه إلى المحبوب، ومن المحرمات إلى الطيبات.

مطالبة مشركي مكّة بإنزال كنز أو مجيء ملك مع النَّبي ﷺ وتحدِّيهم بالقرآن

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿فَأۡتُواْ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فاتوا).

الإعراب:

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾: ﴿وَضَآئِقُۢ﴾: **عطف على** ﴿تَارِكُۢ﴾، و﴿صَدۡرُكَ﴾ **مرفوع به، وهاء** ﴿بِهِۦ﴾ **تعود على** ﴿مَا﴾ **أو على** ﴿بَعۡضَ﴾، **أو على التَّبليغ أو على التّكذيب.** ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ **في موضع نصب، أي كراهية أن يقولوا.**

المفردات اللغوية:

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ **هنا للاستفهام الإنكاري، الذي يراد به النّفي أو النّهي، أي لا**

تترك. والأصل أن «لعلّ» للترّجي وتوقع المحبوب، وقد تكون للإعداد والتّهيئة، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١] [وغيرها]، وقد تكون للتّعليل كما في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٤] .

﴿تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فلا تبلغهم إياه، وهو ما يخالف رأي المشركين، مخافة ردّهم واستهزائهم، ولا يلزم من توقع الشيء وجوده ووقوعه، لجواز أن يكون ما يصرِف عنه وهو عصمة الرُّسل من الخيانة في الوحي مانعاً.

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ عارض لك أحياناً ضيق الصّدر، بتلاوته عليهم، لأجل أن يقولوا، أي مخافة أن يقولوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي هلا صحبه كنز ينفقه لكسب الأتباع كالملوك، والكنز: المال الحاصل بغير كسب .﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدقه كما اقترحنا .﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، لا الإتيان بما اقترحوه .﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ رقيب حفيظ للأمور، فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم، ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ : ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل .﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الضمير لما يوحى وهو القرآن .﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن النّظم، تحدّاهم أولاً بالإتيان بمثل القرآن، ثم بعشر سور، ثم لما عجزوا عنها تحدّاهم بسورة. وتوحيد المِثْل باعتبار كل واحد .﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ مختلقات من عند أنفسكم، إن صحّ أني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب فصحاء مثلي، تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لمعرفتكم بأساليب البيان خطابةً وشعراً ونثراً .﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره إلى المعاونة على المعارضة .﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه مفترى.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي بالإتيان بما دعوتم إليه للمعاونة. والاستجابة:

الإجابة. وجمع ضمير ﴿لَكُمْ﴾ إما لتعظيم الرّسول ﷺ، أو لأن المؤمنين أيضاً كانوا يتحدّونهم أيضاً. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ خطاب للمشركين: فاعلموا أنما أنزل مصحوباً بعلم الله فلا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه سواه، وليس افتراء عليه.

﴿وَأَن﴾ مخففة أي أنه. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إن كان الخطاب للمؤمنين؟ وهل أسلموا بعد هذه الحجة القاطعة إن كان الخطاب مع الكفار؟

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى افتراء المشركين على القرآن بأنه سحر مبين، وإعراضهم عنه كيلا يسمعوه، ذكر تكذيبهم للرّسول ﷺ وللقرآن، وظنّهم أنه مثل الملوك مدعوم بالمال للإغراء وكسب الأتباع، ومطالبتهم دعمه بالكنز أو بالملك، وتحدّيهم بالإتيان افتراء بعشر سور مثل القرآن الكريم.

سبب النّزول:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً. وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوّتك، فقال: لا أقدر على ذلك، فنزلت هذه الآية.

التفسير والبيان:

لعلك أيها الرّسول تارك بعض ما يوحى إليك أحياناً أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به، مثل تسفيه أحلامهم والتّنديد بعبادتهم الأوثان، وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم، أو لأجل أن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾.

والمراد بهذا الاستفهام الإنكاري النّفي أو النّهي، أي لا تترك شيئاً مما أوحينا إليك من تبليغه المشركين وغيرهم، ولا تتضايق من تلاوته عليهم. ويقصد من ذلك المبالغة في التّحذير، والإغراء بأداء الرّسالة، وعدم المبالاة بكلماتهم الفاسدة، تأكيداً على تبليغ كامل الوحي، سواء رضي الناس أو غضبوا، لأن مجاملتهم غير مفيدة. ولا يعني هذا وقوع المنهي عنه، لعصمة الرّسول من التّقصير أو الخيانة في الوحي، فقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أن يخون في الوحي والتّنزيل، وأن يترك بعض ما يوحى إليه؛ لأن تجويزه يؤدي إلى الشّك في كل الشّرائع والتّكاليف، وذلك يقدح في النّبوة.

﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي لا تتضايق لأجل أن يقولوا، أو كراهة أن يقولوا[١]: لولا أي هلا أنزل عليه كنز من عند ربّه يغنيه عن التّجارة والكسب، ويدلّ على صدقه، والقائل عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، أو ينزل معه ملك من السماء يؤيد دعوته، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧-٨] . وإنما قال: ﴿وَضَآئِقٌ﴾ ولم يقل «ضيق» ليشاكل ﴿تَارِكُ﴾ الذي قبله، ولأن الضائق عارض طارئ غير لازم، والضيق ألزم منه.

فهذا إرشاد من الله تعالى لنبيّه ألا يضيق صدره بتبليغ الوحي والرِّسالة، وألا يثنيه شيء عن دعوتهم إلى الله آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٧] .

ثم أكّد الله تعالى مهمّة نبيّه فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي ليس عليك إلا

---

(١) وذلك مثل: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٦] أي لئلا تضلّوا.

إنذارهم بما أوحي إليك، غير مبالٍ بما يقولون، ولا آتٍ بما يقترحون، ولك أُسوة بإخوانك من الرّسل قبلك، فإنهم كُذِّبوا وأُوذوا، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عزّ وجلّ، والله هو الرّقيب على عباده، الحفيظ للأمور، فتوكَّل عليه، ولا تبالِ بهم، فإنه عالم بحالهم، ومجازيهم على أعمالهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢]، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٢]، وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٤٥].

ثم أبان الله تعالى إعجاز القرآن الكريم بدليل تحدِّي العرب به، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل يقول مشركو مكة: افترى محمد القرآن أي اختلقه من عند نفسه، فإن كان ما يزعمون صحيحاً، فليأتوا بعشر سور مثله مفتريات، تضارعه في الفصاحة والبلاغة، وإتقان الأحكام والتّشريعات في شؤون الحياة المختلفة من سياسة واجتماع واقتصاد ونظام تعامل، والإخبار بقصص الأنبياء والغيبيات، وهم أهل السَّبق في البيان والتّفوق في ملكة اللسان. والمختار عند أكثر المفسّرين أن القرآن معجز بسبب الفصاحة، وقيل: بسبب الأسلوب، وقيل: بسبب عدم التناقض، وقيل: بسبب اشتماله على العلوم الكثيرة، وقيل: بسبب إخباره عن المغيبات.

ولكنهم عجزوا؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، بل ولا بأقصر سورة من مثله؛ لأن كلام الرَّبّ تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء.

وهذه الآية اشتملت على خطابين: خطاب الرّسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾، وخطاب الكفار بقوله: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾.

ثم قال الله تعالى بعد هذا التّحدي: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي فإن لم يأتوا

بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن القرآن نزل من عند الله، وبما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه، وتشريع بأمره ونهيه لا يبلغون مستواه. وجاء ضمير ﴿لَكُمْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنه خطاب للرّسول ﷺ وللمؤمنين، والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم في الإتيان بالمعارضة، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله تعالى.

واعلموا أنه لا إله موجود ومعبود بحقّ إلا الله عزّ وجلّ.

فهل أنتم بعد قيام الحجة القاطعة على أنه، أي القرآن، من عند الله مسلمون، مؤمنون بالله وبهذا القرآن، وبما تضمنه من عقائد ووعد ووعيد وأخلاق وآداب ونظام شامل للحياة؟ وهذا يدلّ على أن الخطاب للكفار، فإن كان الخطاب للمسلمين فمعناه: فهل أنتم مخلصون؟

ومعنى هذا أنه بعد ظهور الدَّليل القاطع على صدق النَّبي ﷺ وصدق القرآن، يكون كفرهم مجرد عناد وإعراض واستكبار.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - وجوب تبليغ الوحي بكامله دون إنقاص أو إرجاء شيء منه، ولا يتنافى هذا الحكم مع مبدأ عصمة الرّسول ﷺ من الخيانة في الوحي والتّنزيل، وترك بعض ما يوحى إليه، وهذا كقوله تعالى في تأكيد الأمر بإبلاغ الوحي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] .

وهذا الحكم لا يختلف سواء قلنا: إن معنى الكلام في آية ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ﴾ الاستفهام الإنكاري؛ أي هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ أو معنى الكلام النّفي مع استبعاد، أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أُنزل إليك؛ لأن مشركي مكة قالوا للنّبي ﷺ: لوأتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتَّبعناك، فهمَّ النَّبي ﷺ أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت.

٢ً - لا مجاملة ولا مهادنة ولا إرجاء في تبليغ الوحي، فسواء كره الناس تبليغهم ما أنزل الله أم قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو ملك، فلا تراجع عن تبليغ الوحي.

٣ً - تحدّى الله العرب في هذه السّورة بأن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن، بعد أن كان تحدّاهم بالإتيان بمثل القرآن، فعجزوا في الحالين، كما عجزوا عن الإتيان بمثل سورة منه، في سورة أخرى. والتحدي ليثبت أن القرآن كلام الله المعجز.

٤ً - ثبت بقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ عجزهم عن المعارضة، فقامت عليهم الحجة بأن القرآن ليس من عند محمد أو غيره، وإنما هو كلام الله، وليعلم الجميع ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

٥ً - إن وجوه إعجاز القرآن كثيرة منها البلاغة والفصاحة، ومنها الاشتمال على الغيبيات، ومنها الأحكام التّشريعية، ومنها مواكبة الاكتشافات العلمية الحديثة.

من أراد الدنيا وحدها حرم نعيم الآخرة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

الإعراب:

﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر، أي وباطل عمله.

المفردات اللغوية:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي من قصد بعمله الطّيب وإحسانه

وبرّه الدُّنيا. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ نؤتهم ثمار أعمالهم وافية تامة، جزاء ما عملوه من خير كصدقة وصلة رحم. ﴿فِيهَا﴾ بأن نوسع عليهم رزقهم. ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي الدُّنيا. ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ ينقصون شيئاً من أجورهم. ﴿وَحَبِطَ﴾ فسد وبطل ولم ينتفعوا به.

سبب النّزول:

قيل: إن الآية مختصّة بالكفار، أو بالمنافقين، وقيل: إنها عامّة مطلقة في أهل الرّياء، والظاهر أن المراد بهذا العامِ هو الكافر؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لا يليق إلا بالكفار.

المناسبة:

بعد أن أثبت الله تعالى أن القرآن من عند الله تعالى، وليس بالمفترى من محمد ﷺ كما يزعم المشركون، ذكر أن سبب المعارضة والتّكذيب هو الهوى والشهوة ومحض الحسد وحظوظ الدُّنيا.

التفسير والبيان:

من كانت إرادته مقصورة على حبّ الدُّنيا وزينتها، من متاع ولباس، وزينة وأثاث، ولم يكن طالباً السعادة الأخروية، يوصل الله إليه جزاء عمله في الدُّنيا من الصّحة والرِّياسة وسعة الرّزق وكثرة الأولاد، ويوفّيه ثمرة جهده تماماً دون أن ينقصه شيئاً من مردود العمل ونتيجة الكسب؛ لأن الأرزاق منوطة بالأعمال، لا بالنّيات.

وذلك يدلّ على أن ثمرة العمل في الدُّنيا مرتبطة بالكسب وتقدير الله، وأما جزاء الآخرة فهو محصور بإرادة الله وفضله وإحسانه.

وأولئك الذين لا هم لهم إلا الدُّنيا، لا حظّ لهم في الآخرة إلا النّار في

مقابلة ما عملوا؛ لأنهم استوفوا في الدُّنيا ثمرة العمل الحسن، وبقي لهم في الآخرة وزر العمل السَّيء وتبدد أثر عملهم في الدُّنيا، وبطل ثواب عملهم في الآخرة؛ لأنهم لم يريدوا وجه الله تعالى، والعمدة في الثواب الأخروي هو الإخلاص لله عزّ وجلّ.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٨-١٩]، وقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/٢٠].

ويؤيِّده الحديث المشهور في الصَّحيحين عن عمر رضي الله عنه: «إنما الأعمال بالنّيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» وقال قتادة: من كانت الدُّنيا همه ونيّته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدُّنيا، ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدُّنيا، ويثاب عليها في الآخرة. أي إن للمؤمن على عمله الحسن ثوابين، ثواب الدُّنيا وثواب الآخرة، وللكافر ثوابٌ واحدٌ وهو في الدُّنيا فقط.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيتان على ما يأتي:

١ً - اقتضى عدل الله وحكمته أن من قصد الدنيا وحدها وأتى بعمل البر والخير كصدقة وصلة رحم وكلمة طيِّبة ونحو ذلك، يكافأ بها فقط بصحة الجسم، وكثرة الرّزق، لكن لا حسنة له في الآخرة، ويحرم من ثمرة عمله فيها.

٢ - إن أهل الرّياء والسّمعة يعطون بحسناتهم في الدُّنيا، حتى لا يظلموا شيئاً منها مهما قلّ، ويحرمون من الثواب الأخروي؛ لأن ثواب الجنة يكون بتزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، واجتناب المعاصي، وأما عمل أهل الدُّنيا فمقصور عليها وعلى مظاهرها وشهواتها.

٣ - ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية وأمثالها المذكورة مطلقة، تشمل المؤمن والكافر.

٤ - إن العبد ينوي ويريد، والله سبحانه يحكم ما يريد.

٥ - الكافر يخلد في النّار، والمؤمن لا يخلّد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

٦ - الإسلام يدعو إلى إيثار العمل للآخرة على عمل الدُّنيا، في النِّيّة والقصد، فإن قصد الدُّنيا والآخرة معاً كان ذلك مقبولاً شرعاً.

من كان يريد الآخرة

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

الإعراب:

﴿أَفَمَن كَانَ﴾: (من): مبتدأ، والهمزة للإنكار، والخبر محذوف تقديره: أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن كان يريد الحياة الدُّنيا، والهاء في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ للقرآن، والشاهد: الإنجيل. والهاء في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد لله تعالى، والهاء في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ للإنجيل.

و﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ معطوف مرفوع على قوله: ﴿شَاهِدٌ﴾ ففصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ وتقديره: ويتلوه كتاب موسى من قبله.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ نصب على الحال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿بَيِّنَةٍ﴾ حجة وبيان وبرهان من الله يدلّه على الحقّ والصّواب فيما يأتيه ويذره، والبيّنة: هي القرآن، وهو حكم يعمّ كل مؤمن مخلص، وقيل: المراد به النّبي ﷺ، أو المؤمنون، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتبعه. ﴿شَاهِدٌ﴾ له بصدقه. ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الله، و﴿شَاهِدٌ﴾: الإنجيل، وقيل: جبريل، وقيل: القرآن، وقيل: النّبي ﷺ. ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي الإنجيل، وقيل: القرآن. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التّوراة شاهد له أيضاً. ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتّماً به في الدّين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي من كان على بيّنة، ويراد بكلمة (مَنْ) المعنى الجماعي. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، فلهم الجنة.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أهل مكة وجميع الكفار الذين تحزّبوا معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يردها لا محالة، أي مكان الوعد وهي النّار يَرِدُها. ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ في شكّ من الموعد المذكور، أو القرآن. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أهل مكة وأمثالهم. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلّة نظرهم واختلال فكرهم.

المناسبة:

تعلّق الآية بما قبلها واضح، فبعد أن ذكر الله تعالى من كان يريد الدُّنيا وزينتها ولا يهتم بالآخرة وأعمالها، أعقبه بذكر من كان يريد الآخرة ويعمل لها، ومعه شاهد يدلّ على صدقه وهو القرآن.

التفسير والبيان:

أفمن كان على نور وبصيرة من الله تدلّه على الحقّ والصّواب، ويؤيّده شاهد له على صدقه، وهو كتاب الله من إنجيل أو قرآن، وهم المؤمنون بالفطرة بأنه لا إله إلا الله، كمن كان يريد الحياة الدُّنيا وزينتها؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠].

وكذلك يؤيّده كتاب موسى عليه السّلام وهو التّوراة، الذي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمّة إماماً لهم، أي كتاباً مؤتماً به في الدِّين وقدوة يقتدون به، ورحمة من الله بهم؛ لأنه همزة وصل بخير الدّارين، فمن آمن به حقّ الإيمان، قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ويكون ذلك الكتاب رحمة لمن آمن به وعمل به. وكون الإنجيل والتّوراة تابعين للقرآن ليس في الوجود، بل في دلالتهما على هذا المطلوب، وتبشيرهما بالنَّبي ﷺ وكونه موصوفاً فيهما: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي أولئك الذين يؤمنون بما في التّوراة من البشارة بمحمد النَّبي ﷺ، يؤمنون بهذا القرآن إيماناً حقّاً عن يقين وإذعان.

وفي الجملة: من كان مؤمناً بالفطرة وبالعقل، وبنور القرآن، وبالوحي الثابت الذي نزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرُّسل، فهو على منهج الحقّ والصّواب.

ومن يكفر بالقرآن من أهل مكة ومن تحزَّبوا على النَّبي ﷺ وغيرهم من اليهود والنّصارى والوثنيين، فالنّار موعده لا ريب في وروده إياها، أي أن مآله حتماً إلى جهنم وهو من أهل النّار، جزاء تكذيبه، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١١/ ١٦].

و﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ هم كما قال مقاتل: بنو أميّة، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي، وآل طلحة بن عبيد الله. وقال سعيد بن جبير: الأحزاب: أهل الأديان كلها، وروي عن مقاتل: «من الملل كلها» لأنهم يتحازبون.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النّار».

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي فلا تكن أيها المكلف السّامع في شكٍّ من أمر هذا القرآن، فإنه حقّ من الله لا ريب ولا شكّ فيه، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [السجدة: ٣٢/١-٢] . والخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَكُ﴾ للنّبي ﷺ، والمراد جميع المكلفين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣] ، والسبب أن المشركين مستكبرون مقلّدون زعماءهم، وأن أهل الكتاب حرّفوا دين أنبيائهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى ما يأتي:

١ - إن من تبيّن الرّشد والصّواب بالفطرة والعقل، واهتدى بنور الوحي الإلهي فهو الذي يؤثر الآخرة على الدُّنيا، ولا يستوي إطلاقاً مع من آثر الدُّنيا الفانية وزينتها الموقوتة على الآخرة الباقية الخالدة.

٢ - اليهود والنصارى المؤمنون بحقّ يؤمنون بما في التّوراة والإنجيل من البشارة بالنّبي ﷺ، وأما غير المؤمنين بحقّ، المتأخرون منهم أو من غيرهم، فهم الذين موعدهم النّار، فمن يكفر بالقرآن أو بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، من أهل الملل كلها أو أهل الأديان كلها، فهو من أهل النّار.

٣ - القرآن الكريم حقّ ثابت من عند الله، فلا يشكّنّ أحد بذلك، وليبادر إلى الإيمان بما جاء فيه. ولكن مع الأسف أكثر الناس لا يؤمنون به.

الكافرون والمؤمنون وجزاء أعمال كلٍّ منهم

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿يُضَٰعَفُ﴾ :

قرئ:

١- (يُضَّعف) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر.

٢- (يضاعفُ) وهي قراءة الباقين.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ :

قرئ:

١- (تذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (تذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ إما نعت للظالمين، وإما خبر لمبتدأ أي هم الذين.

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ ما: فيها ثلاثة أوجه:

أ - أن تكون ظرفية زمانية في موضع نصب بيُضاعف، وتقديره: يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار، أي أبداً، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧/١١] أي مدة دوام السماوات والأرض، أي: أبداً.

ب - أن تكون في موضع نصب، على تقدير حذف حرف الجر، وتقديره: بما كانوا، فحُذف حرف الجر، فاتصل الفعل به.

جـ - أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ومعناه لا يستطيعون السمع ولا الإبصار، لما قد سبق لهم في علم الله تعالى.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿لَا جَرَمَ﴾ ردّ لكلامهم، وهو نفي لما ظنوا أنه ينفعهم. و﴿جَرَمَ﴾ فعل ماض بمعنى كَسَب.

﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ في موضع نصب من وجهين: أحدهما - تقديره: كَسَبَ ذلك الفعلَ لهم أنهم في الآخرة هم الأخسرون، أي كسبُ ذلك الفعل الخسرانُ في الآخرة. وهذا قول سيبويه. والثاني - التقدير: لا صدّ ولا منع عن أنهم في الآخرة، وحذف حرف الجر، فانتصب بتقدير حذف حرف الجر، وهذا قول الكسائي.

﴿مَثَلًا﴾ تمييز منصوب.

البلاغة:

﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ﴾ تشبيه مرسل مجمل؛ لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي مثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد. ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك والولد إليه. ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف يوم القيامة مع جملة الخلق، بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم، والمراد: يحاسبهم ربهم. ﴿الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ، وعلى الكفار بالتكذيب. ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ اللعنة واللعن: الطرد من رحمة الله تعالى. ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصرفون عن دين الله: دين الإسلام. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون السبيل معوجة، والعوج: الالتواء. ﴿هُمْ﴾ تأكيد للأولى. ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين لله في الدنيا أن يعاقبهم، ولا يمكنهم أن يهربوا من عذاب الله تعالى. ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أنصار يمنعونهم من عذابه أو عقابه، ولكنه أخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ﴾ بإضلالهم غيرهم. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحق. ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي يبصرونه، لفرط كراهتهم له، كأنهم لم يستطيعوا ذلك. ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم. ﴿وَضَلَّ﴾ غاب. ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله من ادعاء الشريك.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً. قال الفراء: إنها بمنزلة قولنا: لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة (حقاً). تقول العرب: لا جرم أنك محسن، على معنى: حقاً إنك محسن.

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ خشعوا وسكنوا وأخلصوا لله تعالى، وأصل الإخبات: قصد الخبت وهو المكان المطمئن المستوي .﴿مَثَلُ﴾ صفة .﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الكفار والمؤمنين .﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ هذا مثل الكافر، وتشبيهه بالأعمى لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لعدم استماعه كلام الله تعالى وتدبر معانيه .﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ هذا مثل المؤمن لتبصره بالقرآن وسماعه له سماع تدبر وإمعان، فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين .﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، أصله: تتذكرون، فأدغم التاء في الذال.

المناسبة:

بعد أن تحدث القرآن عن فريقي الناس: وهما الذي يريد الدنيا وزينتها، والذي يريد الآخرة، أبان حال كل من الفريقين في الدنيا والآخرة.

وكان القصد من آية ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ذم الحريصين على الدنيا ونسيان الآخرة، والقصد من آية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الردّ على منكري نبوة الرسول ﷺ والطعن في معجزاته، وأما المراد من آية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فهو الردّ على المشركين الذين يزعمون أن الأصنام شفعاؤهم عند الله، وهذا محض الافتراء على الله تعالى، وهو داخل تحت عموم وعيد المفترين على الله تعالى.

التفسير والبيان:

يبين الله تعالى حال المفترين عليه ووصفهم بأنهم أظلم الناس، وفضيحتهم في الآخرة أمام الخلائق كلهم، فيذكر أنه لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن اختلق الكذب على الله تعالى، في صفته أو حكمه أو وحيه، أو زعم وجود شفعاء له بدون إذنه، أو اتخاذه ولداً من الملائكة كالعرب القائلين بأن الملائكة بنات الله، واليهود القائلين بأن عزيراً ابن الله، والنصارى القائلين بأن المسيح ابن الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ﴾ أي أولئك المغرقون في الكفر والشرك والافتراء على الله، يعرضون على ربهم أي يحاسبهم ربهم حساباً شديداً، ويقول الأشهاد من الملائكة الأبرار: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم وافتروا عليه، فلعنة الله على الظالمين، أي إنهم مطرودون من رحمة الله تعالى.

وبما أن العرض عام في كل العباد، فإن المراد به هنا عرض خاص وهو العرض بقصد افتضاحهم، فيحصل لهم الخزي والنكال في أسوأ حال، والعرض يكون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال، أو على من شاء الله من الخلق بأمر الله تعالى، من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

والآية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥١-٥٢] .

وروى الإمام أحمد والشيخان عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة: «إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنَفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين».

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ إن هؤلاء الظالمين يردون الناس عن اتباع الحق والإيمان والطاعة، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، ويحولون بينهم وبين الجنة، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويعدلون بالناس عن سبيل الله إلى المعاصي والشرك، فهم يريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، والحال أنهم كافرون بالآخرة أي جاحدون بها مكذبون، وأعاد لفظ (هم) تأكيداً.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ إن أولئك الظالمين الصادين عن سبيل الله لا يعجزون ربهم أن يعاقبهم بالدمار والخسف كما فعل بغيرهم، بل هم تحت قهره وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدنيا قبل الآخرة، وليس لهم أنصار ينصرونهم من دون الله تعالى، ويحجبون عنهم العذاب، ويضاعف لهم العقاب بسبب إضلالهم غيرهم، كما ضلوا بأنفسهم، وكانوا صُمّاً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢] وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٨٨] وقوله ﷺ في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته».

وعلة مضاعفة العذاب هي: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي لم يستمعوا إلى القرآن سماع تدبر واتعاظ، ولم يبصروا طريق الحق والخير وينظروا إلى آيات القرآن وآيات الكون، الدالة على صدق الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/٢٦] وقال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٦/٢٦]

فليس المراد نفي السمع والبصر، بل المقصود أنهم وإن كانوا يسمعون ويبصرون في الظاهر، إلا أنهم ما استخدموا هاتين الحاستين استخداماً صحيحاً في تلقي المعارف والمعلومات وتكوين العقيدة السليمة، ونظراً لعنادهم وعتوهم وكراهتهم الحق والهدى، ما كانوا يطيقون سمع آيات القرآن والتبصر بآيات الكون.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ أي أولئك الموصوفون بالأوصاف السابقة خسروا أنفسهم؛ لأنهم أدخلوا ناراً حامية يتزايد سعيرها، كما قال تعالى: ﴿مَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧] ولا موت ولا حياة فيها.

وضلَّ عنهم أي ذهب عنهم الذي كانوا يفترونه من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْدِ عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٦] وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨١-٨٢].

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً إنهم في الآخرة أخسر الناس صفقة؛ لأنهم استبدلوا بنعيم الجنان ودرجاتها عذاب جهنم ودركاتها، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن بغضب الديان وعقابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد أن ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا في الدنيا الأعمال الصالحة، فآمنت قلوبهم، وثابروا على الطاعات وترك المنكرات، وخشعوا لله وأنابوا إليه، فلهم جنات العُلا ذات النعم التي لا تعد ولا تحصى، من كل ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون فيها، ماكثون فيها على الدوام، لا يموتون ولا يهرمون، ولا يمرضون، ولا يخرج منهم مستقذر، وإنما هو رشح مسك يعرقون به.

ثم ذكر الله شبه الكافرين والمؤمنين وضرب مثلاً لكليهما فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي مثل الفريقين المذكورين اللذين وصفا سابقاً وهم الكفار بالشقاء، والمؤمنون بالسعادة، كمثل الأعمى والأصم، والسميع والبصير؛ الكافر مثل الأعمى؛ لتعاميه عن وجه الحق في الدنيا والآخرة، وعدم اهتدائه

إلى الخير وعدم معرفته إياه، ومثل الأصم؛ لعدم سماعه الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به؛ والمؤمن مثل متفتح السمع والبصر، لاستفادته بما يسمع من القرآن، ويرى في الأكوان. والسمع والبصر وسيلتا العلم والهدى، وطريقا تكوين العقل.

لا يستوي هذا وذاك صفة وحالاً ومآلاً، أفلا تذكرون أي تعتبرون، فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، وكيف لا تميزون بين هذه الصفات المتباينة؟! كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٩-٢٢] واستعمال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تنبيه على أنه يمكن علاج هذا العمى وهذا الصمم.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ما يأتي:

١ - لا أحد أظلم لأنفسهم من الذين افتروا على الله كذباً، فنسبوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكاً وولداً، وقالوا للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

٢ - ينادى بالكفار والمنافقين على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذَبوا على الله، ألا لعنة الله على الظالمين، أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

والأشهاد المنادون بذلك: هم الملائكة، أو الأنبياء والمرسلون، والعلماء الذين بلّغوا الرسالات.

٣ - إن سبب اللعنة على الظالمين وطردهم من رحمة الله إنما هو صدّ أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة لله تعالى، وعدولهم بالناس عن سبيل الله إلى المعاصي والشرك، وكفرهم وجحودهم بالآخرة.

٤ - الظالمون وغيرهم لا يعجزون الله بعقابهم في الدنيا، ولا يقدرون على الإفلات من سلطان الله وقدرته وخسف الأرض بهم، وليس لهم أنصار ينصرونهم من دون الله تعالى، وعقابهم مضاعف على قدر كفرهم ومعاصيهم بسبب إضلالهم غيرهم، وبسبب تعطيلهم قدرات السمع والبصر في استماع الحق وإبصاره.

٥ - هؤلاء الظالمون خسروا أنفسهم وضاع عنهم افتراؤهم، وتبدد كل ما تعلقوا به من آمال خاسرة، وهم حقاً في الآخرة أخسر الناس صفقة؛ لاستبدالهم بنعيم الجنة عذاب جهنم.

٦ - المؤمنون المصدقون بالله ورسوله، العاملون الصالحات، الخاشعون الخاضعون المنيبون لربهم، هم أصحاب الجنة الماكثون فيها أبداً.

٧ - لا تساوي إطلاقاً بين المؤمنين والكافرين، كما لا تساوي بين الأعمى والبصير، ولا بين الأصم والسميع، أفلا تنظرون في الوصفين وتتعظون وتعتبرون؟!

والخلاصة: إن الله تعالى وصف السعداء أهل الجنة بصفات ثلاث هي: الإيمان، والعمل الصالح، والخشوع إلى الله تعالى؛ ووصف الأشقياء المنكرين الجاحدين أهل النار بأربع عشرة صفة هي:

١ - كونهم مفترين على الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ - إنهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنكال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٣ - حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة لهم: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٤ - كونهم ملعونين من عند الله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥ - كونهم صادّين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٦ - سعيهم في إلقاء الشبهات، وتعويج الدلائل المستقيمة: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٧ - كونهم كافرين: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٨ - كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩ - إنهم ليس لهم أولياء يدفعون عنهم عذاب الله، فليست أصنامهم شفعاء عند الله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

١٠ - مضاعفة العذاب لهم، لسعيهم في الإضلال ومنع الناس عن الدين، مع ضلالهم الشديد: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

١١ - تعطيلهم وسائل الإيمان والمعرفة والاعتقاد الصحيح: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

١٢ - كونهم خاسرين أنفسهم لاشترائهم عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٣ - غيبة افترائهم وذهابه عنهم بحيث لم يعودوا يتنبهون لضلالهم: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

١٤ - كونهم خاسرين في الآخرة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّى لَكُمْ﴾:

قرئ:

١- (إنّي لكم) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (أنّي لكم) وهي قراءة الباقين.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ :

وقرأ السوسي: (بادئ الرأي).

﴿فَعُمِّيَتْ﴾ :

قرئ:

١- (فَعُمِّيَت) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (فَعَمِيت) وهي قراءة الباقين.

﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾ :

قرئ:

١- (أجريَ إلا) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص.

٢- (أجريْ إلا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ﴾ :

وقرأ نافع، والبزي، وأبو عمرو (ولكنيَ أراكم).

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ :

قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ :

وقرأ نافع، وأبو عمرو (إنيَ إذاً).

الإعراب:

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ بدل من ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ أو مفعول ﴿مُّبِينٌ﴾ ويجوز أن تكون (أن) مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير.

﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ الكاف: مفعول أول .﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فاعل ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، و﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ وفاعله: مفعول ثان لنراك إذا كان من رؤية القلب، وفي موضع الحال إذا كان من رؤية العين.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ منصوب على الظرف، أو في بادي الرأي، والعامل فيه: ﴿نَرَىٰكَ﴾ أي ما قبل إلا؛ لأنه يتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها. و﴿بَادِىَ﴾ بغير همز: اسم فاعل من بدا يبدو: إذا ظهر، أي: ظاهر الرأي. وقرئ بالهمز: من بدأ يبدأ، أي أولُ الرأي.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنلزم: يتعدى إلى مفعولين، الأول: الكاف والميم، والثاني: الهاء والألف، وأثبت الواو في: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، رداً إلى الأصل؛ لأن الضمائر ترد الأشياء إلى أصولها، كقولك: المال لك وله. وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً، وقدم الأعرف منهما، جاز في الثاني الفصل والوصل.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ جملة اسمية في موضع الحال، و﴿لَهَا﴾: في موضع نصب لأنه يتعلق بـ (كارهون).

﴿تَزْدَرِىٓ﴾ تقديره: تزدريهم، فحذف المفعول من الصلة وهو العائد، مثل: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١/٢٥] أي بعثه الله. وأصله: تَزْتري على وزن تفتعل، ثم أبدل من التاء دالاً لقرب مخرجهما.

البلاغة:

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ شبّه من لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه بمن سلك الصحراء لا يعرف طرقها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ استفهام للإنكار والتقريع.

المفردات اللغوية:

﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ أي بأني لكم. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الإنذار، أبيِّن لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص. ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ أي بألا تعبدوا. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم في الدنيا والآخرة، وهو في الحقيقة صفة المعذَّب، لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة: جدّ جده، ونهاره صائم للمبالغة.

﴿الْمَلَأُ﴾ الأشراف والزعماء. ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لا فضل لك علينا، ولا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أسافلنا وأخساؤنا وأصحاب الحرف الخسيسة والفقراء، جمع أرذُل الذي هو جمع رذْل، مثل كلب وأكلب وأكالب. ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي من غير تعمق، من البدو، أو أول الرأي أو ابتداء الرأي من غير تفكر فيك، من البدء، أي في بدء الحكم عليك من أول وهلة ووقت حدوث أول رأيهم. وهو منصوب على الظرف، أي وقت حدوث أول رأيهم. ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي زيادة تؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء الرسالة والنبوة، وهذا الخطاب أدرجوا قومه معه فيه، وغلب المخاطب على الغائبين.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي على حجة شاهدة بصحة دعواي الرسالة أو معجزة. ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي النبوة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ خفيت عليكم فلم تهدكم، وحقه أن يقال: فعُمِّيتا، ولكن أفرد الضمير إما لأن البينة في نفسها هي الرحمة، أو لأن حذفها للاختصار أو الاقتصار على ذكره مرة، أو لأنه لكل واحدة من البينة والرحمة. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ يعني أنجبركم أو أنكرهكم على قبولها والاهتداء بها. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها، أي لا نقدر على ذلك.

﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على التبليغ، وهو وإن لم يذكر فمعلوم مما ذكر. ﴿مَالًاۖ﴾ جُعْلاً تعطونيه. ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ أي ما ثوابي المأمول. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم. ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ بالبعث، فيجازيهم ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم. ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ عاقبة أمركم. ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعني من عذابه، أي لا ناصر لي إن طردتهم. ﴿أَفَلَا﴾ فهلا. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، فإن طردهم ليس بصواب.

﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي خزائن رزقه أو أمواله حتى جحدتم فضلي. ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عطف، أي ولا أقول لكم: أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني، أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة ولا تصميم قلبي. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ بل أنا بشر مثلكم. ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾ تحتقر شأنهم لفقرهم. ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ أي فإن ما أعد الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ قلوبهم. ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن قلت شيئاً من ذلك.

المناسبة:

بعد أن أثبت الله تعالى بعثة النبي ﷺ، وأن القرآن وحي من الله تعالى، وبعد أن ذكر حال فريقي المؤمنين والكافرين المكذبين، وحض على الاعتبار والاتعاظ بالحالين بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذكر مجموعة من قصص الأنبياء للعظة والتذكر، وبيان اشتراك النبي ﷺ مع من قبله من الأنبياء في الدعوة إلى أصول واحدة مشتركة بين الأنبياء، وهي عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والجزاء، وتنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم.

التفسير والبيان:

أول هذه القصص المذكورة هنا هي قصة نوح عليه السلام، وكان قد ذكر

تعالى هذه القصة في سورة يونس، وأعاد ذكرها هنا لما فيها من عظات وفوائد، أهمها إعلام الكفار أن محمداً ﷺ كغيره من الرسل، جاء للدعوة إلى توحيد الله وإثبات البعث والحساب والجزاء.

وتضمنت قصة نوح هنا عدة عناصر هي:

وصف دعوته إجمالاً، ومناقشة قومه والردّ عليهم، واستعجالهم العذاب، وكيفية صنع نوح السفينة، وإغراقهم بالطوفان، ونجاة نوح ومن آمن معه، والتماس نوح إنجاء ابنه معه. وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام.

والمعنى: تالله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه المشركين، فقال لهم: إني لكم نذير من الله ظاهر الإنذار، أنذركم عذابه وبأسه إن أنتم عبدتم غير الله، فآمنوا به وأطيعوا أمره، ولا تعبدوا غيره، ولا تشركوا به شيئاً؛ لأني أخاف عذاب يوم القيامة، الذي هو عذاب شديد الألم.

ثم ذكر الله تعالى أجوبة قومه له وهي أربع شبهات:

الأولى - ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي قال السادة الكبراء من الكافرين منهم: ما أنت إلا بشر مثلنا، أي لست بملك، ولكنك بشر مشابه لنا في الجنس، فلا مزية تمتاز بها علينا تستوجب الطاعة.

الثانية - ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ أي ولم يتبعك إلا أراذل القوم الأخساء أصحاب الحرف الخسيسة كالزرّاع والصنّاع، وهم الفقراء والضعفاء، في بادئ الأمر وظاهره دون تأمل ولا تفكر ولا تدبر في عواقب الأمور. ولو كنت صادقاً لاتبعك الأشراف والأكياس من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١/٢٦].

الثالثة - ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ أي ما رأينا لكم علينا امتيازاً

ظاهراً في فضيلة أو قوة أو ثروة أو علم أو عقل أو جاه أو رأي، يحملنا على اتباعكم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/١١] .

الرابعة - ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي بل يترجح لدينا كذبكم في ادعائكم الصلاح والسعادة في الدار الآخرة. ويلاحظ أنهم أشركوا معه أتباعه في هذه الإجابة، وكان الخطاب لنوح ومن آمن معه.

ثم أخبر الله تعالى عن ردود نوح عليه السلام على قومه الذين أثاروا تلك الشبهات، وغيرها مما لم يحكها القرآن وطواها، أو لم يقولوها ولكن كلامهم يستلزمها.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ قال نوح: يا قومي، أخبروني ماذا أفعل وما ترون؟ إن كنت على يقين وحجة ظاهرة فيما جئتكم به من ربي، يتبين لي بها أني على حق من عنده، وآتاني رحمة من عنده وهي النبوة والوحي، فعمِّيت عليكم أي خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، أنكرهكم على قبولها ونغصبكم عليها، وأنتم لها كارهون، معرضون عنها، فلا يعقل الإكراه في الدين.

وهذا دليل النبوة والترفع عن آراء الجهال والسذَّج.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أي لا أطلب منكم على نصحي لكم مالاً أي أجراً آخذه منكم، وإنما أجري على الله عز وجل. وهذا قول تكرر صدوره من جميع الأنبياء بعد نوح، مثل هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي ليس من شأني طرد المؤمنين وتنحيتهم من مجلسي.

ويظهر من هذا أن أكابر الكفار كانوا يبغون تخصيصهم ببعض المزايا والامتيازات، كتخصيص مجلس خاص بهم، لا يلتقون فيه مع الضعفاء

والفقراء، أنفة منهم وكبراً وترفعاً، كما حدث تماماً بين النبي محمد ﷺ وبين قومه قريش، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٢] .

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ إن هؤلاء الأتباع سيلقون ربهم وسيحاسبهم على أعمالهم، كما يحاسبكم، ويعاقب من طردهم، ولكني أراكم قوماً تجهلون الحقائق وتترددون في ظلمات الجهل في استرذالكم لهم، وسؤالكم طردهم، فإن تفضيل الناس بعضهم على بعض إنما هو بالعمل الطيب والخلق الفاضل، لا بالثروة والمال والجاه كما تزعمون.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي﴾ أي يا قوم من ينصرني من عذاب الله إن طردتهم، فذلك ظلم عظيم، كما قال تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٢] أفلا تذكّرون، أي أفلا تتعظون وتتفكرون فيما تقولون؟!

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي لا تعني النبوة والرسالة أني أملك خزائن رزق الله تعالى، وأقدر على التصرف فيها، وإنما أنا بشر كغيري من الناس مؤيد بالمعجزات، أدعو إلى عبادة الله بإذنه، ولا أعلم من الغيب إلا ما أطلعني الله عليه، ولست ملكاً من الملائكة، ولا أستطيع القول لهؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم: لن ينالهم خير، وليس لهم ثواب على أعمالهم، وهو ما وعدهم الله به على الإيمان من سعادة الدنيا والآخرة، الله أعلم بما في صدورهم، فإن كان باطنهم كظاهرهم في الإيمان، فلهم الحسنى، وإن حكم إنسان على سرائرهم، كان ظالماً قائلاً ما لا علم له به.

والمقصود بالآية أن نوحاً عليه السلام أخبرهم بتذلله وتواضعه لله عز وجل. وفي هذا دلالة على الخط الفاصل بين الأنبياء وبين الزعماء، الأولون يهتمون بإرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية دون إغراء بمال أو عطاء نفعي، والآخرون يعتمدون في كسب الأتباع على الوعود بالمنافع المادية وبذل الأموال رخيصة من أجل كسب تأييدهم.

وفيه دلالة على أن النبي بشر لا مَلَك، وأنه لا يعلم الغيب وإنما علمه عند الله، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - دعوة نوح قومه كدعوة سائر الأنبياء إلى عبادة الله وإطاعته وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام.

٢ً - الاستمرار على الكفر أو عبادة الأصنام يوجب العذاب الأليم الموجع الشاق في الدار الآخرة.

٣ً - إن الغالب في إعراض قوم نوح من الأشراف والسادة والكبراء كإعراض كل المكذبين الجاحدين مبني على أعذار واهية، رأسها الاستكبار والاستعلاء على بقية الناس من الفقراء والضعفاء الذين يتبعون الحق غالباً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٣].

وهكذا يكون الغالب على ضعفاء الناس اتباع الحق، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما ذكرت الآية: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

٤ً - قولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب في الواقع؛ لأن الحق إذا وضح، لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق حينئذ لكل ذي عقل وذكاء، ولا يفكر عندئذ بالبعد عنه إلا غبي أو عييّ، والرسل عليهم

السلام إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم» أي ما تردد ولا تروى؛ لرؤيته أمراً عظيماً واضحاً، فبادر إليه وسارع.

٥ - الأنبياء يتمسكون عادة بما ثبت لديهم يقيناً من وحي الله تعالى، والنبوة والرسالة، ولو عارضهم أكثر الناس.

٦ - لا يلجأ الأنبياء عادة إلى إكراه أحد من الناس على قبول دعوتهم: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، أي لا يمكنني أن أضطركم إلى الإيمان والمعرفة بها، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، أو النبوة والرحمة الإلهية أو البينة. وهذا أول نص يمنع الإكراه على الدين.

٧ - لا يصح عقلاً وذوقاً وأدباً طَرْدُ الأنبياء من يؤمنون بهم، لا لشيء إلا لأنهم فقراء ضعفاء، فلو فعل ذلك أحدهم فَرَضاً لخاصموه عند الله، وجازاهم على إيمانهم، وجازى من طردهم، ولا يجد من ينصره ويمنعه من عذاب الله إن طردهم لأجل إيمانهم، ويكون طرد المؤمنين بصفة دائمة لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي، ولا يقدم عليه نبي. والمقصود هو الطرد المطلق على سبيل التأبيد.

٨ - خزائن الرزق في تصرف الله تعالى، والغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل، ولا يقول نبي: إن منزلته عند الناس منزلة الملائكة.

٩ - احتج بعض العلماء بآية: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؟ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم مذ خلقوا إلى يوم القيامة.

١٠ - الفضائل الحقيقية الروحانية ليست إلا ثلاثة أشياء: الاستغناء المطلق فلا أدعيه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ والعلم التام: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ

﴿ٱلْغَيْبَ﴾ والقدرة التامة الكاملة: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ والملائكة أكمل المخلوقات في القدرة والقوة.

والمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة أنه ما حصل لنوح عليه السلام إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الإنسانية، وأما الكمال المطلق فلا يَدَّعيه.

١١ - إن استحقاق المؤمن ثواب الله تعالى لا يمنعه اعتراض أحد: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم، الله أعلم بما في أنفسهم فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به.

استعجال قوم نوح العذاب ويأسه منهم

﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿نُصْحِىٓ إِنْ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (نصحيَ إن).

الإعراب:

﴿إِنْ أَرَدتُّ﴾ شرط، وجواب الشرط دل عليه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ وتقدير الكلام: إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي.

البلاغة:

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ مجاز بالحذف، أي عقوبة إجرامي، على سبيل الفرض، بدليل استعمال كلمة ﴿إِنِ﴾ الدالة على الشك. وأما إجرامهم فهو محقق: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا. ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فأطلته أو أتيت بأنواعه. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى النبوة، والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا. ﴿إِن شَآءَ﴾ تعجيله لكم، أو تأجيله، فإن أمره إليه لا إلي. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه فلستم بفائتين الله تعالى.

﴿نُصْحِيٓ﴾ النصح: قصد الخير للمنصوح وإخلاص القول والعمل له. ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إغواءكم أي الإيقاع في الغيّ والفساد، وقيل: المراد أن يهلككم. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم على وفق إرادته. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقول كفار مكة. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلق محمد القرآن. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي عقوبة ذنبي ووباله. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي من إجرامكم في إسناد أو نسبة الافتراء إلي.

المناسبة:

بعد أن أجاب نوح قومه على شبهاتهم، أوردوا عليه أمرين: الأول - أنهم وصفوه بكثرة المجادلة، والثاني - أنهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به. ثم ذكر تعالى يأسه منهم، واعتراضاً في القصة وهو براءة محمد من نسبة افترائهم إليه.

التفسير والبيان:

قال قوم نوح له: قد حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك، فأتنا بما تعدنا به من العذاب المعجل في الدنيا، إن كنت صادقاً في دعواك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٥-٦] .

قال لهم نوح: إنما الذي يعاقبكم ويعجل تعذيبكم الله الذي لا يعجزه شيء، إن شاء عقابكم عاجلاً أو آجلاً، فما أنتم بمعجزين أي بفائتي الله ولا بمستطيعي الهرب من عذابه؛ لأنكم في قبضته وملكه وسلطانه.

ولا يفيدكم نصحي واجتهادي في إيمانكم، إن أراد الله إغواءكم أي إيقاعكم في الغي والضلال والفساد، ودماركم وهلاككم، هو ربكم أي خالقكم والمتصرف في أموركم، والحاكم العادل الذي لا يجور، وإليه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير أو شر.

ومعنى إرادة الله إغواءهم وإضلالهم: ربط الأسباب بالمسببات، لا خَلْقه للغواية والشقاوة فيهم، فإن ذلك منوط بالعمل والكسب، والنتائج متوقفة على المقدمات.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾

هذا كلام معترض في وسط قصة نوح، مؤكد لها، مقرر لها، وهي حكاية لقوله مشركي مكة في تكذيب هذه القصص: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون في مكة: إن محمداً افترى القرآن، أي اختلقه من قبل نفسه، ومنه ما أخبر به عن نوح وقومه، فرد الله معلماً نبيه أن يقول لهم: إن افتريته فعلي عقوبة إثمي، وعذاب ذنبي، والإجرام: اقتراف المحظورات واكتسابها، وأنا بريء من آثامكم وذنوبكم، وسيجزيكم الله على

أعمالكم، فجرمكم ليس مفتعلاً ولا مفترى؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه، فكل إنسان مسؤول عن ذنبه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٥٣/٣٦-٤١].

ونظير الآية: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/٤١].

والأظهر أن قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هو من محاورة نوح لقومه، كما قال ابن عباس؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه، والخطاب منهم ولهم. وأنهم يقولون: افترى ما أخبركم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الآتي:

١ً - إن عناد الكفار وغباءهم وحماقتهم استوجب كل ذلك التنكر لدعوة النبي نوح عليه السلام، مهما أتى به من الأدلة المثبتة لتوحيد الله ووجوب طاعته وعبادته، وورَّطهم في طلب تعجيل نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق.

٢ً - الجدال في الدين لتقرير الأدلة وإزالة الشبهات أمر محمود، وهو حرفة الأنبياء، ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله نجا، ومن ردّه خاب وخسر.

٣ً - التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار، والجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق أمر مذموم، وصاحبه في الدارين ملوم.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ رد على المعتزلة والقدرية ومن وافقهما الذين زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يَعصي العاصي، ولا يَكْفُر الكافر، ولا يغوي الغاوي، وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك.

والواقع أن الله هو الهادي والمضل، وإرادة الله يصح تعلقها بالإغواء، والمعنى أن الله يبين للناس طريق الهداية وطريق الضلال، ويختار الإنسان ما يشاء مع إرادة الله.

وكلام نوح عليه السلام دليل على أنه تعالى ما أغواهم، بل فوض الاختيار إليهم من وجهين:

الأول - لو أراد الله تعالى إغواءهم، لما بقي في النصح فائدة، ولما أمر الله نوحاً بأن ينصح الكفار، وأجمع المسلمون على أن نبينا كغيره من الأنبياء مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم.

الثاني - لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم أو خلقهم غاوين ضالين، لصار هذا عذراً لهم في عدم إيمانهم، ولصار عمل نوح غير ذي موضوع ولا هدف، ولا داعي له، ولا فائدة منه؛ لأنه يسهل عليهم الاعتذار بذلك، والرد عليه بعدم جدوى دعواه.

والخلاصة: إن مبدأ أهل السنة أن الله تعالى قد يريد الكفر من الإنسان، ولكن لا يأمره بذلك، وإنما يأمره بالإيمان، وإذا أراد الكفر من العبد فإنه يمتنع صدور الإيمان منه.

٥ - كل إنسان مسؤول عن نفسه، فإن افترى أو اختلق نبي الوحيَ والرسالة كما يزعم قومه المعادون له، فعليه عقاب إجرامه، وإن كان محقاً فيما يقول، وهو الحق الأكيد، فعليهم عقاب تكذيبهم وسيئاتهم.

نهي نوح عن الاغتمام بهلاك قومه وأمره بصنع السفينة

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

القراءات:

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ :

بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر، قرأ: قالون والبزي، وأبو عمرو. وبتسهيل الهمزة الثانية قرأ ورش، وقنبل.

وبتحقيقهما قرأ الباقون.

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ :

قرئ:

١- (من كلٍّ زوجين) وهي قراءة حفص.

٢- (من كلِّ زوجين) وهي قراءة الباقين.

﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾:

قرئ:

١- (مَجْراها) مع الإمالة، هي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مُجراها) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿نُوحٍ﴾ منصرف؛ لأنه خفيف، وإن كان فيه العجمة والتعريف.

﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ ﴿مِن﴾ فاعل ﴿يُؤۡمِنَ﴾.

﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ ﴿مَن﴾ موصولة، مفعول العلم.

﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ في موضع نصب لأنه مفعول ﴿ٱحۡمِلۡ﴾. و﴿وَأَهۡلَكَ﴾ معطوف عليه.

﴿مَن سَبَقَ﴾ منصوب على الاستثناء من ﴿وَأَهۡلَكَ﴾.

﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ في موضع نصب؛ لأنه معطوف على اثنين، أو على أهلك.

﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ فيه ثلاثة أوجه: الأول - أن يكون منصوباً على تقدير حذف ظرف مضاف إلى ذلك .﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ عطف عليه، وتقديره: باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أي اركبوا فيها متبركين باسم الله تعالى في هذين الوقتين. و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف في موضع نصب على الحال من واو ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾. و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ هو العامل في ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾.

الثاني - أن يكون ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ مبتدأ، و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ خبره، وتقديره: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، والجملة حال من ضمير ﴿فِيهَا﴾.

والثالث - أن يكون ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ في موضع رفع بالظرف، والظرف حال من هاء: ﴿فِيهَا﴾.

ومن قرأ ﴿مُجۡرِيهَا وَمُرۡسِيهَآ﴾ جعله اسم فاعل من أجراها الله فهو مُجْرٍ، وأرساها فهو مُرْسٍ، وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو مجريها ومرسيها.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مرفوع بفعل: ﴿ءَامَنَ﴾. ولا يجوز نصبه على الاستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم. والتعبير حصر بهم.

البلاغة:

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ كناية عن الرعاية والحفظ.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ تحزن، أي لا تغتم بهلاكهم، وهذا يعني أن الله أيأسه أو أقنطه من إيمانهم، ونهاه أن يغتم بما فعلوه من التكذيب والإيذاء. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ من الشرك، فدعا عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦/٧١] فأجاب الله دعاءه. ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة، ويطلق على الواحد والجمع. ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بحفظنا وعنايتنا ورعايتنا، على طريق التمثيل. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ كفروا بترك إهلاكهم والمقصود: لا تَدْعُني برفع العذاب عنهم. ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، فلا سبيل إلى كفه.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ حكاية حال ماضية. ﴿مَلَأٌ﴾ جماعة. ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة عن الماء، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعدما كنت نبياً. ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ أي سنهزأ بكم إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، ونجونا وتركناكم. وقيل: المراد بالسخرية: الاستجهال. ﴿عَذَابٌ يُخۡزِيهِ﴾ يذله ويفضحه. ﴿وَيَحِلُّ﴾ ينزل. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن كانت غاية فهي غاية للصنع، أي لقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد. ويكون ما بعد ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ من الكلام حالاً من ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ كأنه قال: يصنعها، والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه، سخروا منه. وجواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ إما ﴿سَخِرُواْ﴾ وإما ﴿قَالَ﴾ و﴿سَخِرُواْ﴾ بدل من ﴿مَرَّ﴾ أو صفة لملأ.

﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بإهلاكهم .﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي نبع الماء فيه وارتفع كالقدر تفور، و﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ تنور الخبز، ابتدأ منه النبع، على خرق العادة، وكان ذلك علامة لنوح. وكان في الكوفة في موضع مسجدها، أو في الهند، أو بعين وردة بأرض الجزيرة. وقيل: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ وجه الأرض.

﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ في السفينة. ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ﴾ أي ذكر وأنثى، أي من كل أنواعهما .﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ ذكراً وأنثى. جاء في القصة: إن الله حشر لنوح السباع والطير وغيرهما، فجعل يضرب بيديه في كل نوع، فتقع يده اليمنى على الذكر، واليسرى على الأنثى، فيحملها في السفينة.

﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أي زوجته وأولاده .﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي منهم بالإهلاك والإغراق، وهو ولده كنعان وزوجته، وأخذ معه سام وحام ويافث وزوجاتهم الثلاث.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل: كانوا ثمانين، نصفهم رجال ونصفهم نساء، وقيل: كانوا تسعة وسبعين: زوجته المسلمة، وبنوه الثلاثة (سام وحام ويافث) ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم.

﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ أي جريها ومنتهى سيرها .﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لولا مغفرته للسيئات ورحمته بالعباد، لما أنجاكم، فهو رحيم حيث لم يهلكنا.

المناسبة:

الآيات تتمة لما ذكر قبلها، تتضمن الإعداد لإغراق قوم نوح وإهلاكهم، ومقابلة السخرية والتهكم بالتخطيط للنجاة وغرق القوم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى أنه أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن أحد من قومك بدعوتك إلا من قد آمن سابقاً، فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم، فدعا عليهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦/٧١] .

واصنع الفلك أي السفينة أداة النجاة بأعيننا أي بمرأى منا وبرعايتنا وحفظنا وحراستنا، وبتعليمك بوحينا كيفية الصنع، حتى لا تخطئ، فقوله ﴿وَوَحْيِنَا﴾ يعني تعليمنا لك ما تصنعه، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير.

واستعمل القرآن تعبير الأعين لكمال العناية وتمام الرعاية في قوله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩/٢٠] وقوله للنبي محمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨/٥٢] .

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ أي ولا تراجعني يا نوح ولا تَدْعُني في شأن قومك ودفع العذاب عنهم بشفاعتك، فقد وجب عليهم العذاب، وتم الحكم عليهم بالإغراق. والمقصود ألا تأخذك بهم رأفة ولا شفقة.

وبدأ يصنع السفينة، وكلما مر عليه جماعة من أشراف قومه، استهزؤوا منه ومن عمله السفينة، وكذبوا بما توعدهم به من الغرق. قال نوح متوعداً بوعيد شديد وتهديد أكيد: إن تسخروا منا لصنع ما نصنع مما لا يفيد شيئاً في ظنكم، فإنا نسخر منكم في المستقبل حين الغرق، كما تسخرون منا الآن، أي نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا، والحرق

في الآخرة. فسوف تعلمون قريباً بعد تمام عملنا من يأتيه عذاب يهينه في الدنيا، وهو عذاب الغرق، ويحل عليه عذاب مقيم، أي دائم مستمر أبداً في الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي حتى إذا حان وقت أمرنا بالهلاك من الأمطار المتتابعة، وفار التنور أي نبع الماء من التنور، موقد الخبز، وارتفع كما تفور القدر بغليانها، والفوران: الغليان، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام، وعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء. وهذا هو المعنى الأول؛ لأن العرب تسمي وجه الأرض تنوراً، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١١-١٣].

وقلنا لنوح حينئذ: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين: ذكراً وأنثى، للحفاظ على أصل النوع الحيواني. واحمل فيها أهلك أي أهل بيتك من الذكور والإناث إلا امرأتك وابنك: يام أو كنعان، وهما مِمَّنْ سبق عليه القول إنه من أهل النار، للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه، تعالى الله عن ذلك.

وخذ معك من آمن من قومك، وإن لم يؤمن إلا عدد قليل، أو نزر يسير، مع طول المدة ودعوتهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً. قيل: كانوا ستة أو ثمانية رجال، ونساءهم: نوحاً عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم، وقال ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً، منهم نساؤهم.

ولم ير الحق سبحانه وتعالى حاجة لبيان العدد لقلتهم التي لا تستحق الذكر، ولم يبين أنواع الحيوان المحمولة ولا كيفية حملها، فذلك متروك للبشر.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لمن حملهم معه في السفينة: باسم الله يكون جريها على سطح الماء، وباسم الله يكون

منتهى سيرها وهو رسوها، أي بتسخيره تعالى وقدرته يكون مجراها ومرساها، لا بقوتنا.

إن ربي غفور لذنوب عباده رحيم بهم، فلولا مغفرته لذنوبكم ورحمته بكم لما نجاكم فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لأهل السفينة. أخرج الطبراني عن الحسين بن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: باسم الله الملِك الرحمن الرحيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾».

وفي رواية أخرى لأبي القاسم الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: باسم الله الملك الرحمن: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية. ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ الآية».

وذكر المغفرة والرحمة بعد ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين هو في الجملة شأن القرآن في بيان الأضداد والمتقابلات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧/٧] وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦/١٣] ونحو ذلك من الآيات التي تقرن بين الرحمة والانتقام.

وذكر آية المغفرة والرحمة هنا في وقت الإهلاك وإظهار القهر لبيان فضل الله على عباده الذين نجاهم، فهم في جميع الأحوال بحاجة إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، والإنسان لا ينفك عادة عن أنواع الزلات والخطايا، فإن نجاتهم لا ببركة علمهم كما قد يظنون، وإنما بمحض فضل الله، لإزالة العُجْب منهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ - الإياس من إيمان قوم نوح واستدامة كفرهم، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم. وهذا يدل على صحة قول أهل السنة في القضاء والقدر، فإنه تعالى أخبر

عن قوم نوح أنهم لا يؤمنون، ولا بد أن يقع ما يتفق مع هذا الخبر، وإلا انقلب علم الله جهلاً وكذباً، وذلك محال.

٢ - لطف الله بنبيه نوح، إذ أخبره قبل الهلاك بألا يغتم بهلاك قومه، حتى لا يصبح بائساً حزيناً.

٣ - أول سفينة عبرت البحر هي سفينة نوح، وكان صنعها برعاية الله وتعليمه نوحاً كيفية الصنع. والمقصود من ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ معنى الإدراك والإحاطة، لا التجسيم؛ لأنه سبحانه منزه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف، لا ربّ غيره.

واتخذ نوح عليه السلام السفينة في سنتين، كما قال ابن عباس، وقيل: في ثلاثين سنة، كما قال كعب، وقيل في مئة سنة كما ذكر زيد بن أسلم. وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها. أما طولها وعرضها فعن ابن عباس: كان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعاً؛ وكانت من خشب الساج.

٤ - من الغباوة سخرية الناس من نبي يوحى إليه فيما يفعل، وسخريتهم إما بقولهم: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً، وإما لأنهم لم يشاهدوا سفينة تبنى وتجري على الماء. وسخرية نوح كانت عند الغرق، والمراد بالسخرية الاستجهال؛ أي إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلوننا.

٥ - ماء الطوفان جاء من السماء: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وفوران التنور على وجه الأرض كان علامة.

٦ - من رحمة الله بخلقه نجاة نوح ومن آمن معه من قومه، وهم ثمانون إنساناً، منهم ثلاثة من بنيه: سام وحام ويافث وزوجاتهم. ومن فضله تعالى الحفاظ على أصل الثروة الحيوانية، إذ أمر الله نوحاً عليه السلام باصطحاب الحيوانات من كل شيء زوجين ذكراً وأنثى.

٧ - الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل.

انتهاء الطوفان ونجاة السفينة وهلاك ابن نوح مع استشفاع أبيه

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

القراءات:

﴿يَا بُنَيَّ﴾:

قرئ:

١- (يا بنيَّ) وهي قراءة عاصم.

٢- (يا بنيِّ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَقِيلَ﴾ ... ﴿وَغِيضَ﴾

بإشمام الكسرة الضم فيهما قرأ: الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة.

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾

بإبدال الهمزة الثانية واواً خالصة وصلاً قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وقرأ الباقون بتحقيقها.

﴿عَمَلٌ غَيْرُ﴾:

وقرأ الكسائي (عَمِلَ غيرَ).

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾:

قرئ:

١- (فلا تسألَنّ) وهي قراءة قالون، وابن عامر وصلاً ووقفاً.

٢- (فلا تسألَنِّي) بإثبات الياء وصلاً، وحذفها وقفاً قرأ ورش.

٣- (فلا تسألَنَّ) وهي قراءة ابن كثير وصلاً ووقفاً.

٤- (فلا تسألني) وهي قراءة أبي عمرو بإثبات الياء وصلاً، وحذفها وقفاً.

٥- (فلاتسألنِ) وهي قراءة الباقين وصلاً ووقفاً.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ .. ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبوعمرو: (إنيَ أعظك.. إنيَ أعوذ).

الإعراب:

﴿لَا عَاصِمَ﴾ اسم ﴿لَا﴾، وخبرها: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، وهو متعلق بمحذوف، تقديره: لا ذا عصمة كائن من أمر الله. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ معمول الظرف، وإن تقدم عليه، كقولهم: كل يوم لك درهم. أي في اليوم.

﴿مَن رَّحِمَ﴾ منصوب على أنه استثناء منقطع؛ لأن ﴿عَاصِمَ﴾ فاعل، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ مفعول. وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، فلا يكون ﴿مَن رَّحِمَ﴾ استثناء منقطعاً، وإنما هو بدل مرفوع من ﴿عَاصِمَ﴾. والتقدير: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم أي الراحم، وهو الله تعالى.

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ يعود الضمير إلى السؤال، أي إن سؤالك أن أُنجي كافراً عمل غير صالح، أو يعود إلى الابن، والمراد: إنه ذو عمل غير صالح، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ومن قرأه (عَمِل غيرَ) جعله فعلاً ماضياً، ونصب (غَيْرَ) على أنه مفعول به، وهذه القراءة تدل على أن الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على الابن.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ الأصل فيه أن تأتي بثلاث نونات: نوني التوكيد ونون الوقاية، فاجتمعت ثلاث نونات فاستثقلوا اجتماعها، فحذفوا الوسطى؛ لأن نون الوقاية لا تحذف، وكسرت الشديدة للياء، ثم حذفت اكتفاء بالكسرة.

البلاغة:

﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ بين الأرض والسماء طباق، وبين ابلعي وأقلعي جناس ناقص.

قال أبو حيان: في هذه الآية واحد وعشرون نوعاً من البديع بالرغم من أن ألفاظها تسع عشرة لفظة: المناسبة في قوله: ﴿أَقْلِعِى﴾ و﴿ٱبْلَعِى﴾، والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في قوله ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ المراد مطر السماء.

والاستعارة في قوله: ﴿أَقْلِعِى﴾، والإشارة في قوله ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فإنها إشارة إلى معان كثيرة، والتمثيل في قوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ عبر بالأمر عن

إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في قوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ فلفظ ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ كلام تام، أردفه بقوله ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان، والتعليل في قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فإنه علة للاستواء، والاحتراس في قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو أيضاً ذم لهم ودعاء عليهم، والإيضاح بقوله ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي القوم الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ فالألف واللام في القوم للعهد، والمساواة ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ فلفظها مساوٍ لمعناها، وحسن النَّسَق، لعطف قضايا بعضها على بعض، والإيجاز لذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمة، والتسهيم؛ لأن أول الآية ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ فاقتضى آخرها ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ والتهذيب؛ لأن مفردات الألفاظ موصوفة بكمال الحسن، والتمكين؛ لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، والتجنيس في قوله ﴿أَقْلِعِى﴾ و﴿ٱبْلَعِى﴾ والمقابلة في قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ والذم في قوله: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والوصف: قص القصة ووصفها بأحسن وصف (النهر الماد من البحر لأبي حيان: ٥/ ٢٢٧) بهامش البحر المحيط.

المفردات اللغوية:

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾ أي فركبوا مسمين، وهي تجري وهم فيها ﴿مَوْجٍ﴾ جمع موجة: وهي ما يرتفع من الماء الكثير عند اضطرابه ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ في الارتفاع والعظم ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن السفينة عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ سألجأ ﴿يَعْصِمُنِى﴾ يمنعني ويحفظني ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ عذاب ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿مَن رَّحِمَ﴾ الله، فهو المعصوم ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ اشربي الماء الذي نبع منك، فشربته دون ما نزل من السماء، فصار أنهاراً وبحاراً ﴿أَقْلِعِى﴾ أمسكي عن المطر، فأمسكت.

﴿وَغِيضَ﴾ نقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ تم أمر هلاك قوم نوح الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ وقفت واستقرت السفينة ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل بالجزيرة بقرب الموصل في ديار بكر. وهذا النداء والخطاب بالأمر استعارة مجازية ﴿بُعْدًا﴾ هلاكاً ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين. والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها، والدلالة على كنه الحال، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار للمجهول للدلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه.

﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ إن كنعان من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أعلمهم وأعدلهم.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الناجين أو ليس من أهل دينك. قال ابن عباس: كان ابنه من صلبه، ولكنه لم يكن مؤمناً، وما بغت امرأة نبي قط. ومعنى الآية: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي سؤالك إياي بنجاته أو إن ابنك ذو عمل غير صالح، فإنه كافر، ولا نجاة للكافرين. وفي قراءة بكسر ميم (عَمِلَ) ونصب غير، فالضمير لابنه ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ من إنجاء ابنك ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بسؤالك مالم تعلم؛ لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال، وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه، حتى اشتبه عليه الأمر.

﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ في المستقبل ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مالا علم لي بصحته ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما فرط مني من السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بالتوبة والتفضل علي ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أعمالاً.

المناسبة:

بعد أن أمر نوح عليه السلام أهله والمؤمنين بركوب السفينة قائلين: باسم الله، أعقبه بتصوير إلهي رائع لسير السفينة وسط المياه ذات الأمواج العظيمة، بسبب الرياح الشديدة العاصفة، وبقصد بيان شدة الهول والفزع.

التفسير والبيان:

السفينة تجري بسرعة، سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانين ميلاً.

إنها تجري بهم وسط أمواج كالجبال الشاهقة في ارتفاعها وعظم حجمها، وهذا يدل على حصول رياح عاصفة شديدة حينذاك، والمقصود: بيان شدة الهول والفزع.

وهي تسير بإذن الله وتحت كنفه ورعايته وحراسته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١١-١٢] وقال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١٣-١٥].

واستولت الشفقة وعاطفة الأبوة على نوح، فنادى ابنه وهو الابن الرابع، واسمه يام أو كنعان، وكان في مكان منعزل عنه، وكان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، ناداه بقوله: يا بني اركب معنا الفلك، ولا تكن مع الكافرين الهالكين.

فرد الابن العاصي عليه قائلاً: سآوي وأصير إلى جبل يحفظني من الغرق في الماء، ظناً منه أنه ماء سيل عادي يمكن النجاة منه بالتحصن في مكانٍ عالٍ أو جبل شامخ.

فأجابه نوح عليه السلام: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله وعذابه الذي يعاقب به الكافرين، لكن يحفظ من رحم الله، ومن رحمه الله فهو المعصوم، أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفوراً رحيماً، غفوراً

لذنوبهم رحيماً بهم إذا تابوا وأنابوا. أو إلا الراحم وهو الله، وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: طاعم وكاسٍ، بمعنى مطعوم ومكسو.

وحال الماء الذي بدأ يرتفع بين الوالد والولد أثناء النقاش فكان من المغرقين الهالكين.

وما أدهش هذا المنظر الرهيب، ماء ينهمر من السماء، وأرض تتفجر بالمياه، فيرتفع حتى يغطي أعالي الجبال، ويغمر الأرض.

ولما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، وتم النداء العلوي: يا أرض ابلعي ماءك الذي تفجر منك، ويا سماء كفّي عن المطر، فغاض الماء، أي نقص، امتثالاً للأمر، وقضي الأمر، أي وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه الظالمين، واستقرت السفينة بمن فيها على جبل الجودي بالجزيرة شمال العراق، في الموصل، وقيل: هلاكاً وخساراً للقوم الظالمين، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية، بسبب ظلمهم وكفرهم.

واستبدت العاطفة مرة أخرى بنوح على ابنه، فسأل ربه سؤال تسليم وكشف عن حال ولده، فقال منادياً ربه: رب إن ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاتهم، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فما مصيره، وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم بالحق، فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة، وتمام العدل والصواب، حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق.

فأجابه ربه: يا نوح إن ابنك ليس من أهلك الذين وعدت بإنجائهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، وابنك ذو عمل غير صالح، أي تنكر لدعوة الهدى والصلاح، وانضم مع الكافرين وهذا تعليل لانتفاء كونه من أهله، قال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك، فهو على حذف مضاف.

فلا تطلب مني شيئاً ليس لك به علم صحيح، ولا تلمس مني التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه.

إني أنهاك أن تكون من فئة الجاهلين الذين يطلبون إبطا/ حكمته وحكمه وتقديره في خلقه، رعاية لأهوائهم، ومجمل المعنى: أنهاك ن هذا السؤال وأحذرك أن تكون من الآثمين.

وقد تضمن دعاؤه معنى السؤال أو سمي نداؤه سؤالاً، ولا ؤال فيه، أي وإن لم يصرح به؛ لأن ذكر الوعد بنجاة أهله من الغرق استنز له، فرتب عليه طلب نجاة ابنه. وجعل سؤال مالا يعرف كنهه جهلاً وغباو ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

وفي الآية دلالة على أن العبرة بقرابة الدين، لا بقرابة النسبوأن حكم الله في خلقه قائم على العدل المطلق دون محاباة نبي أو ولي، وأدلأنبياء قد يخطئون في اجتهادهم، ويعد ذلك ذنباً بالنظر إلى مقامهم الرفيع و: معرفتهم بربهم، وأنه لا يجوز الدعاء بطلب ما يغاير سنن الله في خلقه، وأن الجهالة أن يدعو ولي بما نهي عنه الأنبياء.

وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر، وعلى جعل الجهلاية عن الذنب، وهو أمر مشهور في القرآن، كما قال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٧] وقال: ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١١] .

ويحمل كل ما صدر من نوح وغيره من خطأ الاجتهاد على ترك نضل والأكمل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، وبناء عليه حصل اب والأمر بالاستغفار، ولا يدل هذا الأمر على سابقة ذنب، مثل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ١١٠/ ١-٣] ومعلوم أن مجيء نصرا والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ليست بذنب يوجب الاستغف

وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ٤٧/١٩] وليس جميعهم مذنبين، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل.

لذا طلب نوح المغفرة من ربه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي قال نوح: رب إني ألجأ إليك وأستعيذ بك وبجلالك أن أسألك ماليس لي به علم صحيح، وإن لم تغفر لي ذنب سؤالي هذا، وترحمني بقبول توبتي وإنابتي، أكن من الخاسرين عمالاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات العبر والعظات التالية:

١ - إجراء السفن في البحار بقدرة الله تعالى وإرادته، وحفظه ورعايته.

٢ - لم يحقق العناد والاستكبار فائدة أو مصلحة لمن يتصف بهما، فقد أغرق الابن نوح واسمه كنعان، وقيل: يام؛ لأنه كان كافراً، ولم يستفد شيئاً من الاعتصام بأعالي الجبال، فإذا وقع العذاب العام على الكفار فلا مانع منه؛ لا يوم حقَّ فيه ذلك العذاب، إلا من رحمه الله، فهو يعصمه.

٣ - آية ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ في أعلى مستوى البلاغة والفصاحة والإيجاز، لما فيها من التعبير عن قضايا كثيرة تحتاج إلى بيان ضاف، بعبارة محكمة موجزة، محققة لأغراض عديدة، وذات ألوان بيانية بلاغية وآفاق متنوعة.

٤ - إنما سأل نوح عليه السلام ربه ودعا لإنجاء ابنه، لوعده تعالى له بإنجاء أهله في قوله: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ وترك قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بدليل قوله له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تكن منهم؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنه؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان ابنه يُسرُّ الكفر ويظهر الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحاً بما تفرد به من علم الغيوب، أي

علمتُ من حال ابنك مالم تعلمه أنت. وقال الحسن: كان منافقاً؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه. وعنه أيضاً: كان ابن امرأته، بدليل قراءة علي: «ونادى نوحٌ ابنَها» لكنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها، والصحيح أنه كان ابنه، لكن ليس على منهج أبيه في الدين والإيمان والاستقامة.

٥ً - لم يعص نوح الله تعالى فيما سأل من إنجاء ابنه، وإنما كان خطأ في الاجتهاد، بنية حسنة، وعدَّ هذا ذنباً؛ لأنه ما كان ينبغي لأمثاله من أهل العلم الصحيح الوقوع في هذا الخطأ غير المقصود، وترك الأفضل والأكمل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، لذا عاتبه الله تعالى وأمره بالاستغفار.

٦ً - إن رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، ولا علاقة للصلاح والتقوى بالوراثة والأنساب، لذا نَجَّى الله المؤمنين من قوم نوح، وأهلك ابنه وزوجته مع الكافرين. والصحيح أنه كان ابنه، ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدّين، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾.

٧ً - هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم، وإن كانوا صالحين. وفيها أيضاً دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعاً، ومن أهل البيت؛ فمن أوصى لأهله دخل في ذلك ابنه، ومن تضمنه منزلُه، وهو في عياله. قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧٥-٧٦] .

٨ً - العدل الإلهي مطلق، لا محاباة فيه لنبي أو ولي، وإنه تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم، لا بأنسابهم: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٠١] .

فمن يغتر بنسبه ولا يعمل بما يرضي ربه، فهو جاهل بشرع الله ودينه، قال

ﷺ فيما رواه الترمذي: «يا معشر قريش لا يأتيني الناس بالأعمال، وتأتوني بالأنساب».

٩ً - إن غيرة الله على حرماته اقتضت تحذير الأنبياء من الأخطاء ولو كانت غير مقصودة. قال ابن العربي عن آية: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: وهذه زيادة من الله وموعظة، يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه.

١٠ً - كان اعتذار نوح بمثابة توبة كاملة تتضمن عنصري حقيقة التوبة وهما: الأول - في المستقبل: وهو العزم على الترك، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ والثاني - في الماضي: وهو الندم على ما مضى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

١١ً - كان الطوفان عاماً شاملاً لكل الأرض، في رأي المفسرين وأهل الكتاب، ويؤيدهم ما يقول علماء الجغرافية من وجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال، وهي لا تكون إلا في البحر. والذي يجب اعتقاده أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم، وذلك في منطقة الشرق الأوسط، أما أجزاء الكرة الأرضية الأخرى فلا يدل نص قاطع في القرآن على تغطيتها بالطوفان.

العبرة من قصة نوح عليه السلام

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي، وبكسرة خالصة قرأ الباقون.

الإعراب:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾. و﴿نُوحِيهَآ﴾ خبر بعد خبر، أو في موضع نصب على الحال، أي تلك كائنة من أنباء الغيب نوحيها إليك.

ويجوز أن يكون: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و﴿نُوحِيهَآ﴾: خبره، و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: من صلته، وتقديره: تلك نوحيها إليك من أنباء الغيب.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ﴿وَأُمَمٌ﴾ مبتدأ، و﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ صفة، والخبر محذوف تقديره: وممن معك أمم سنمتعهم، ودل عليه قوله ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ انزل من السفينة بسلامة أو بتحية، أي مسلماً من المكاره من جهتنا أو مسلماً عليك ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ خيرات عليك ومباركاً عليك، أو زيادات في نسلك حتى تصير آدم ثانياً ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي وعلى

أمم هم الذين معك في السفينة، أي من أولادهم وذريتهم هم المؤمنون، سموا أمماً لتشعب الأمم منهم، فهم أصول البشرية، وقد تسللت الأعراق والأجناس من أولاد نوح: سام (وهم الساميون) وحام (وهم الأفارقة) ويافث (وهم أهل الصين واليابان وأمثالهم).

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا، ثم يمسّهم منا عذاب أليم في الآخرة، والمراد بهم الكفار من ذرية من معه، وقيل: قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذاب: هو ما نزل بهم.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ من بعض أخبار ما غاب عنك ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ﴿فَاصْبِرْ﴾ على التبليغ وأذى قومك كما صبر نوح ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ المحمودة في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى عن استواء السفينة واستقرارها على الجودي، ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، ذكر تعالى أمرين هما عبرة القصة:

الأول - تكريم نوح عليه السلام والمؤمنين معه بوعده تعالى عند الخروج من السفينة بالسلامة أولاً، ثم بالبركة ثانياً، والسلامة تتضمن الدعوة لهم بالوقاية من المكروه؛ لأنهم كانوا كالخائفين على وضعهم: كيف يعيشون وكيف يحققون حاجاتهم من المأكول والمشروب، بعد أن عم الغرق جميع الأرض، وعلموا أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان.

ثم إنه تعالى لما وعد نوحاً ومن معه بالسلامة، أردفه بأن وعدهم بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الأمل.

والثاني - الإخبار عن أمور غائبة عن الخلق، تكون بمثابة الإنذار والإرهاب والاعتبار، وإعطاء الأمثلة للصبر الذي هو مفتاح الفرج.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عما قيل لنوح عليه السلام، حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

والمعنى: قال الله أو الملائكة لنوح بعد انتهاء الطوفان وحبس المطر وابتلاع الأرض ماءها: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من جبل الجودي إلى الأرض، فقد ابتلعت الماء وجفَّت، بسلام منا، أي بسلامة وأمن أو بتحية، أي مسلماً محفوظاً من جهتنا، أو مسلماً عليك مكرَّماً كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧٩] ، وبركات عليك، والبركات: نعم ثابتة وخيرات نامية، أي ومباركاً عليك في المعايش والأرزاق، تفيض عليك، وعلى أمم ممن معك نسلاً وتولداً، أي هم ومن يتناسل منهم من ذرية، ويصير التقدير: وعلى ذرية أمم ممن معك، وذرية أمم سنمتعهم، فيدخل في قوله ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ كل مؤمن إلى يوم القيامة، وفي قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة، كما روي ذلك عن محمد بن كعب.

والمعنى: إن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين، ينشؤون ممن معك. وممن معك أمم ممتعون بالدنيا، منقلبون إلى النار.

وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة.

وهكذا عم السلام والتبريك كل المؤمنين، على اختلاف تجمعاتهم. لكن من أولئك المؤمنين سيكون من نسلهم أمم وجماعات آخرون من بعدهم، يمتعون في الدنيا بالأرزاق والبركات، ثم يصيبهم العذاب الأليم في الآخرة، لكفرهم

وعنادهم، فانقسم الناس بعد نوح قسمين: قسم مؤمنون صالحون ممتعون في الدنيا والآخرة، وقسم ممتعون في الدنيا فقط معذبون في الآخرة.

ثم ذكر الله تعالى العبرة العامة من قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي تلك الأخبار عن نوح وقومه من أخبار الغيوب السابقة، نوحيها إليك على وجهها، كأنك تشاهدها، ونعلمك بها وحياً منا إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا أحد من قومك، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها من إنسان، بل أخبرك الله بها.

فاصبر على تكذيب المكذبين من قومك، وأذاهم لك، وعلى تبليغ رسالتك كما صبر نوح على أذى الكفار، فإن النصر والفوز والنجاة للمتقين الذين يطيعون الله ويتجنبون المعاصي، وإنا سننصرك ونرعاك ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين، حيث نصرناهم على أعدائهم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/٥١] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧١-١٧٢] .

فقه الحياة أو الأحكام.

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي:

١ - السلامة والأمن، والتحية والتسليم والتكريم، والبركات والنعم من الله تعالى، على كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وذلك بدءاً من نوح عليه السلام ومن آمن معه.

٢ - المتاع والانتفاع بنعم الدنيا، والتعذيب في الآخرة، لكل كافر وكافرة إلى يوم القيامة، بدءاً من ذرية المؤمنين في عصر نوح عليه السلام وذرية أمم من بعدهم.

٣ً - كان خبر نوح وقصته مع قومه من أنباء ما غاب عن النبي محمد ﷺ، أوحى الله بها إليه وأطلعه عليها، دون أن يكون عالماً هو وقومه بها قبل ذلك، فلم يعرف أحد أمر الطوفان، وكانت القصة على النحو الصحيح الدقيق مجهولة عند النبي ﷺ وعند قومه.

٤ً - كان الغرض من ذكر قصة نوح في سورة يونس هو معرفة وجه الشبه بين قوم نوح وقوم محمد عليهما السلام، وهو أن قوم نوح كذبوه؛ لأنه هددهم بنزول العذاب، فاستعجلوه، ثم ظهر في نهاية الأمر، وكذلك قوم محمد ﷺ استعجلوا نزول العذاب مثل قوم نوح. فوجه الشبه في سورة يونس هو استعجال العذاب.

وفي هذه السورة (هود) أعاد الله تعالى ذكر هذه القصة لهدف آخر، وهو بيان أن إقدام الكفار على الإيذاء كان حاصلاً في زمن نوح، فلما صبر عليه السلام، نال الفتح والظفر، فلتكن يا محمد كذلك، لتنال المقصود، فقد عرفت مآل الصبر عند نوح والمؤمنين، وعاقبة الكفر، فوجه الشبه هو الإيذاء، وأن الصبر عليه مؤد إلى النصر.

٥ً - إن الصبر على مشاق تبليغ الرسالة الإلهية، وإذاية القوم، مفتاح الفرج، وسبيل الظفر والنصر، كما صبر نوح ومحمد وأولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد صبر نوح على أذى قومه، ثم نصره الله عليهم، وكذلك صبر النبي ﷺ على أذى العرب الكفار، فأيده الله، وأعزَّه، ونصره عليهم نصراً مؤزراً.

٦ً - إن العاقبة في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز للمتقين عن الشرك والمعاصي، القائمين بأوامر الله، الملتزمين حدوده، المطيعين شرعه.

٧ً - يدل إيراد قصة نوح عليه السلام على نبوة محمد ﷺ، فما كان يعلم هو ولا أحد من قومه ذلك القصص المحكم التام الشامل لأخبار نوح وقومه.

قصة هود عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

القراءات:

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾:

وقرأ الكسائي (من إلهٍ غيرِهِ).

﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص (أجريَ إلا).

﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ﴾:

وقرأ نافع (إنيَ أُشهد).

﴿صِرَٰطٍ﴾ :

وقرأ قنبل (سراط).

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ :

بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر، قرأ: قالون والبزي، وأبو عمرو، وبتسهيل الهمزة الثانية قرأ ورش، وقنبل.

وبتحقيقهما قرأ الباقون.

الإعراب:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بفعل مقدر، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. و﴿غَيْرُهُۥ﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ بالجر صفة على اللفظ.

﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، والعامل فيه ﴿يُرْسِلِ﴾. والأصل في مدرار أن يكون مدرارة، ولكنهم يحذفون هاء التأنيث عادة من مِفْعال كامرأة مِعْطار، ومن مِفْعيل كامرأة معطير، ومن فاعل كامرأة طالق وحائض .﴿عَن قَوْلِكَ﴾ حال من الضمير في تاركي .﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ في موضع رفع بالابتداء. ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ إن: حرف نفي بمعنى ما، أي ما نقول إلا هذه المقالة، فالاستثناء من المصدر الذي دل عليه الفعل، مثل ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٥٨-٥٩] فموتتنا مستثنى من أنواع الموت الذي دل عليها قوله: ﴿بِمَيِّتِينَ﴾. فقد ذكر الفعل ويستثنى من مدلوله، كما يستثنى من الظرف والحال، مثال الأول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٥] ﴿سَاعَةً﴾: مستثنى مما دل عليه ﴿لَّمْ

يَلْبَثُوٓاْ﴾، أي كأن لم يلبثوا في الأوقات إلا ساعة من النهار؛ ومثال الثاني: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٢] أي ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال أينما ثقفوا إلا متمسكين بحبل من الله، أي عهد من الله. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿بُعْدًا﴾ منصوب بفعل مقدر، أي أن المصدر قائم مقام فعله.

البلاغة:

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ عبر بالسماء عن المطر من قبيل المجاز المرسل، لنزوله من السماء، ومدرار: للمبالغة.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أمر بمعنى التعجيز.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ استعارة تمثيلية، شبه الخلق وهم في قبضة الله وملكه بمن يقود دابة بناصيتها، فهي مقدورة له.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استعارة، فإنه استعار الطريق المستقيم للدلالة على كمال العدل.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الأمر كناية عن العذاب.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فيه إطناب، لتكرار لفظ الإنجاء بقصد بيان أن الأمر شديد عظيم الأهوال.

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ المراد عصوا رسولهم هوداً، من قبيل المجاز المرسل من باب إطلاق الكل وإرادة بعضه.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ تكرار حرف التنبيه، وإعادة لفظ ﴿لِّعَادٍ﴾ للمبالغة في تهويل حالهم.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم من القبيلة وواحداً منهم، وهو عطف على قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ و﴿هُودًا﴾: عطف بيان. ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ ﴿مِّنْ﴾: زائدة للتأكيد. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم في عبادتكم الأوثان. ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ كاذبون على الله باتخاذ الأوثان شركاء لله وجعلها شفعاء عند الله تعالى.

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدعاء إلى الله وتوحيده. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما أجري. ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقني على الفطرة السليمة - فطرة التوحيد لله - والمقصود من الآية بيان إخلاصه في النصيحة، فإنها لا تفيد ما دامت مشوبة بالمطامع.

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك. ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أخلصوا التوبة من المعاصي والكفر لله، وارجعوا إليه بالطاعة، أي اطلبوا المغفرة من الله بالإيمان، ثم توسلوا إليها بالتوبة، ثم لا يكون التبري من الغير إلا بالإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ المطر، وكانوا قد مُنعوه واشتدت حاجتهم إليه؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع. ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثير الدر. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي يزدكم قوة مع قوتكم بالمال والولد، أو يضاعف قوتكم بالتناسل والأموال. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ مشركين.

﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ ببرهان على قولك، وبحجة تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك أو لقولك. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

﴿إِن نَّقُولُ﴾ ما نقول في شأنك. ﴿اعْتَرَاكَ﴾ أصابك. ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ بجنون، لسبك إياها وصدك عنها، فأنت تهذي وتتكلم بالخرافات، والجملة

مفعول القول، وإلا لغو؛ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿فَكِيدُونِي﴾ اجتمعوا على الكيد لي في إهلاكي من غير إنظار. ﴿جَمِيعًا﴾ أنتم وأوثانكم. ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ تمهلون. والمراد بيان عجزهم عن إلحاق الضرر به ليعلموا أن آلهتهم جماد لا تضر ولا تنفع. ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي﴾ أي وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني، فإني متوكل على الله، واثق برعايته.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدب على الأرض. ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي إلا وهو مالك لها، قادر عليها، يصرفها على ما يريد بها، فلا نفع ولا ضرر إلا بإذنه، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. وخص الناصية بالذكر؛ لأن من أخذ بناصيته يكون في غاية الذل. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي تعرضوا وتتولوا، وقد حذفت فيه إحدى التاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ أي فقد أديت ما علي من الإبلاغ، وإلزام الحجة، فلا تفريط مني ولا عذر لكم، فقد أبلغتكم رسالة ربي. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم، بأن الله يهلكهم، ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإشراككم. ﴿حَفِيظٌ﴾ رقيب.

﴿أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا بالعذاب. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ﴾ هداية، وكانوا أربعة آلاف. ﴿غَلِيظٍ﴾ شديد، وهذا تعريض بأنهم كما عذبوا في الدنيا بريح السموم، فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الشديد.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة، أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم، أي فانظروا آثارهم في الأرض. ﴿جَحَدُوا۟﴾ كفروا. ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ جمع الرسل؛ لأن من عصى رسولاً، عصى جميع الرسل؛ لاشتراكهم في أصل ما جاؤوا به وهو التوحيد. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ أي السفلة. ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي معاند للحق، يعني كبراءهم ورؤساءهم الطاغين،

والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، في الدنيا من الناس، ويوم القيامة لعنة على رؤوس الناس، توقعهم في العذاب. ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوه أو كفروا نعمه، أو كفروا به، فحذف الجار. ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ﴾ أي من رحمة الله، وهو دعاء عليهم بالهلاك. والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم من العذاب، بسبب أفعالهم. ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد، لتمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم.

المناسبة:

هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وقد ذكرت هذه القصة في سورة الأعراف بأسلوب ونظم آخر. وكان هود أول من تكلم بالعربية من ذرية نوح.

وفي إيراد هذه القصة هنا شبه بقصة نوح مع قومه، ففيها تبليغ هود الدعوة والتكاليف إلى قومه، وردهم عليه، وما انتهت به القصة من إنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين.

التفسير والبيان:

دعا هود قومه إلى أنواع من التكاليف:

النوع الأول - دعوتهم إلى التوحيد، في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وكما أرسلنا نوحاً، أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، والمراد أخاً لهم في النسب والقبيلة، لا في الدين؛ لأن هوداً كان رجلاً من قبيلة عاد، فيقال للرجل: يا أخا العرب، والمراد رجل منهم، وكانت هذه القبيلة قبيلة عربية تسكن بناحية اليمن في الأحقاف (شمال حضرموت) وكانت قبيلة ذات قوة وشدة، وأصحاب زرع وضرع.

إنه أمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها، فقال لهم: آمركم بعبادة الله الذي لا إله غيره، ولا تعبدوا من دونه وثناً ولا صنماً، ولا تشركوا به شيئاً، ما لكم من إله غيره، خلقكم ورزقكم، وأمدكم بالنعم الوفيرة، فما أنتم إلا مفترون الكذب على الله باتخاذكم الشركاء لله، ووصفكم إياهم بأنهم شفعاء.

ويا قوم، لا أطلب على ما أدعوكم عليه من عبادة الله ونبذ عبادة الأوثان أجراً أو مالاً ينفعني، فما أجري أو ثوابي إلا على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة فطرة التوحيد، أفلا تعقلون قول من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، وتقدرون ما يقال لكم من نصح قائم على الإخلاص والأمانة، وتعلمون أني مصيب في المنع من عبادة الأصنام.

والنوع الثاني - من التكاليف التي ذكرها هود لقومه: الاستغفار والتوبة.

فقال: ويا قوم، اطلبوا المغفرة من الله على الشرك والكفر والذنوب السابقة، وأخلصوا التوبة له، وعما تستقبلون، فإذا استغفرتم وتبتم يرسل الله عليكم مطراً كثيراً متتابعاً، وقد كانوا بأشد الحاجة إلى المطر بعد أن مُنِعوه؛ لأنهم أصحاب زروع وبساتين، ويزدكم قوة إلى قوتكم بالأموال والأولاد، وعزاً إلى عزكم، وقد كانوا أشداء أقوياء يهمهم التفوق والغلبة على الناس، والاعتزاز بالقوة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٦٩] وقال سبحانه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٢٨-١٣٣] وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ٤١/١٥].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ولا تعرضوا عني وعن دعوتي وعما أرغبكم فيه، مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

وفائدة الاستغفار المذكورة في الآية، لها ما يؤيدها في السنة النبوية، ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس: «من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وبعد أن حكى تعالى ما ذكره هود لقومه، حكى ما ذكره القوم له: ﴿قَالُوا يَـٰهُودُ﴾ أي قالوا لنبيهم: ما جئتنا بحجة وبرهان على ماتدعيه أنك رسول من عند الله، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك: اتركوهم، وما نحن لك بمصدقين، وما نظن إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب شتمك لها ونهيك عن عبادتها وعيبك لها.

فكان جوابهم متضمناً أربعة أشياء كلها عناد وحماقة واستكبار، وهي المطالبة بالبينة؛ والإصرار على عبادة الآلهة، مع أنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر؛ وعدم التصديق برسالة هود مما يدل على الإصرار والتقليد والجحود؛ وإفساد عقله وجعله مجنوناً بواسطة الآلهة.

فقال لهم هود: أشهد الله على نفسي واشهدوا على أني بريء من شرككم ومن عبادة الأصنام، ولا يعني هذا أنهم كانوا أهلاً للشهادة، ولكنه نهاية للتقرير، أي لتعرفوا، ولم يقل: إني أشهد الله وأشهدكم، لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، فإن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم.

وإذا كنت بريئاً من جميع الأنداد والأصنام، أي مما تشركون من دون الله،

فإني أعلن ذلك صراحة، فاجمعوا كل ماتستطيعون من أنواع الكيد لي، جميعاً أي أنتم وآلهتكم، ولا تمهلوني طرفة عين، إني فوضت أمري كله لله ربي وربكم، ووكلته في حفظي، فهو على كل شيء قدير.

فما من دابة تدب على الأرض أو السماء إلا هي تحت سلطان الله وقهره فهو مصرف أمرها ومسخرها، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، إن ربي على الحق والعدل.

وقد تضمن جوابه الدال على التحدي والمعجزة الباهرة وقلة المبالاة بهم عدة أمور هي: البراءة من الشرك، وإشهاد الله على ذلك، وإشهادهم على براءته من شركهم، وطلبه المكايدة له، وإظهار قلة المبالاة بهم وعدم خوفه منهم ومن آلهتهم. وهذا موقف مشابه تماماً لموقف نوح في قوله السابق: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ١٠/ ٧١] وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٥] .

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي فإن تتولوا وتعرضوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد بلغتكم رسالة ربي التي بعثني بها إليكم، ولا عتاب علي على تفريط في التبليغ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم، فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول. ثم استأنف كلاماً جديداً فقال: ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين، يخلفونكم في دياركم وأموالكم ويكونون أطوع لله منكم، ولا تضرونه شيئاً بتوليكم وكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم، وما تضرون إلا أنفسكم، إن ربي على كل شيء رقيب، مهيمن عليه، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم.

ثم ذكر الله تعالى العذاب وآثاره وعاقبة أمر هود وقومه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي ولما حان وقت نزول أمرنا بالعذاب، ووقع عذابنا، وهو الريح

العقيم، نجينا هوداً والمؤمنين معه من عذاب شديد شاق ثقيل، برحمة من لدنا ولطف منا، وأهلكنا قومه عن آخرهم.

وسبب ذلك العقاب أن عاداً كفروا بآيات ربهم وحججه، وعصوا رسله، وقد جمع الرسل والمقصود رسولهم هوداً؛ لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، فهم كفروا بهود، فصار كفرهم كفراً بجميع الأنبياء، واتَّبعوا أمر رؤسائهم الجبابرة الطغاة المعاندين.

فلهذا لحقت بهم لعنة الله في الدنيا، ولعنة عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق: ألا إن عاداً كفروا بربهم وبنعمه، وجحدوا بآياته، وكذبوا رسله، ألا بعداً وطرداً من رحمة الله لعاد قوم هود، وهذا دعاء عليهم بالهلاك والدمار والبعد من الرحمة.

والخلاصة: إنه تعالى جمع أوصاف عاد في ثلاثة: جحود دلائل المعجزات على الصدق، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم، وعصيان رسولهم، ومن عصى رسولاً واحداً، فقد عصى جميع الرسل، لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥] ، وتقليد القوم رؤساءهم، ثم ذكر تعالى عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة وهي مصاحبة اللعن لهم في الدنيا والآخرة، ومعنى اللعنة: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير، ثم بين تعالى السبب الأصلي في استحقاق تلك الأحوال فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ أي جحدوه، أو كفروا بربهم على حذف الباء، أو نعمة ربهم، على حذف المضاف. وفائدة قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ﴾ الدلالة على غاية التأكيد. وفائدة قوله ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ تعيين عاد القديمة، تمييزاً لهم عن عاد التي هي إرم ذات العماد، فقصد به إزالة الاشتباه، أو لمزيد التأكيد.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت قصة هود مع قومه على مايلي:

١ً - حصر هود عليه السلام دعوته في نوعين من التكاليف هما : الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، والاستغفار ثم التوبة، والفرق بينهما أن الاستغفار: طلب المغفرة وهو المطلوب بالذات، والتوبة: هي السبب إليها، وذلك بالإعراض أو الإقلاع عما يضاد المغفرة، وقدم المغفرة؛ لأنها هي الغرض المطلوب، والتوبة سبب إليها. وقد تقدم في أول السورة توضيح الفرق.

٢ً - اقتصرت إجابة عاد قوم هود له على التركيز على عبادة الآلهة من الأصنام والأوثان، وتقليد الأسلاف، وذلك يدل على تعطيل الفكر والعقل، وعدم النظر الحر الطليق القائم على الاستدلال بالأدلة الكثيرة والمعجزات المتضافرة التي أظهرها الله على يد هود عليه السلام، ومنها تحديهم بالمكايدة والمعاداة والإضرار له جميعاً هم وآلهتهم، وعدم الإمهال ساعة، وهو موقف يدل مع كثرة الأعداء على كمال الثقة بنصر الله تعالى، وهو أيضاً من أعلام النبوة: أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ وكذلك قال النبي ﷺ لقريش، وقال نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ١٠/٧١].

٣ً - التوكل على الله الخالق القاهر المتصرف بالمخلوقات كيف يشاء، والمانع مما يشاء هو من أصول الإيمان التي تمنع وصول الضرر إلى النبي هود عليه السلام وكل مؤمن صادق مخلص، فما من نفس تدب على الأرض أو في السماء إلا وهي تحت سلطان الله وقهره وتصرفه.

٤ً - الله تعالى قادر على الحق والعدل، وهو سبحانه وإن كان قادراً على قوم عاد العتاة الأشداء، لكنه لا يظلمهم، ولا يفعل بهم إلا ماهو الحق والعدل والصواب.

٥ً - مهمة الأنبياء هي تبليغ الرسالات ومحاجة الكفار، فإن أعرض الناس

عن دعواتهم وبيانهم، فهم أي الأنبياء قد أبرؤوا الذمة، وأدوا الغرض، وكان الناس الكافرين المعرضين هم الذين يخسرون، ويتضررون، ويتعرضون للعذاب في الدنيا بالإهلاك، واستخلاف قوم آخرين هم أطوع لله منهم يوحدونه ويعبدونه، وفي الآخرة بدخول جهنم. والله رقيب على كل شيء من أقوال العباد وأفعالهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

٦ً - أحوال قبيلة عاد خطيرة ذات أوصاف ثلاثة: هي الجحود بآيات ربهم، وعصيان رسولهم، واتباعهم أو تقليدهم أوامر رؤسائهم دون تفكير ولا روية.

٧ً - كانت عقوبة قبيلة هود لحوق اللعنة عليهم في الدنيا من الله ومن الناس، وهلاكهم بريح صرصر عاتية وبعدهم عن الخير، والطرد من رحمة الله في يوم القيامة، وما ربك بظلام للعبيد.

قصة صالح عليه السلام

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

القراءات:

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾:

وقرأ الكسائي (من إلهٍ غيرِهِ).

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾:

تقدم في القراءات للآيات (٣٦-٤١)

﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (من خزي يومَئذ).

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾:

قرئ:

١- (ألا إنَّ ثمودَ) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٢- (ألا إن ثموداً) وهي قراءة الباقين.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾:

وقرأ الكسائي (ألا بعداً لثمودٍ).

الإعراب:

﴿ثَمُودَ﴾ ممنوع من الصرف عند الجمهور، على إرادة القبيلة، وقرأه بعضهم مصروفاً على إرادة الحي. ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ إما حال من ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه ناقة الله لكم آية بيِّنة ظاهرة، وعامله معنى الإشارة، وإما تمييز أي: هذه ناقة الله لكم من جملة الآيات. ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ من قرأه بالكسر أعربه على الأصل، ومن قرأه بالفتح بناه لإضافته إلى غير متمكِّن؛ لأن ظرف الزمان إذا أضيف إلى اسم غير متمكن أو مبني أو فعل ماضٍ، بُني، كما في قول الشاعر:

على حين عاتبت المشيب على الصِّبا فقلت: ألَمَّا تصْحُ، والشيب وازع

فبني (حين) على الفتح لإضافته إلى الفعل الماضي. والتنوين في (إذٍ) من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عوض عن جملة محذوفة، ويسمى تنوين التعويض.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قال: أخذ لأنه فصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وهو ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أو لأن تأنيث الصيحة غير حقيقي، أو محمول على المعنى؛ لأن الصيحة في معنى الصياح، كقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ لأن موعظة في معنى وعظ.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ من صرفه جعله اسم الحي، ومن لم يصرفه جعله اسم القبيلة معرفة، فلم ينصرف للتعريف والتأنيث.

﴿كَأَن﴾ مخففة، واسمها محذوف، أي كأنهم.

البلاغة:

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ استفهام معناه النفي، أي لا ينصرني منه إن عصيته أحد.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود ﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلة ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحّدوه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ ابتدأ خلقكم وتكوينكم منها، لا غيره، فإنه خلق آدم ومواد النُّطَف التي خلق نسله منها من التراب ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جعلكم تعمرونها، وأبقاكم عمركم فيها، تسكنون بها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه بالطاعة وأقلعوا عن الذنب ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة من خلقه بعلمه ﴿مُّجِيبٌ﴾ لمن سأله أو لداعيه.

﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ مأمولاً أن تكون لنا سيداً أو مستشاراً في الأمور؛ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد، فلما سمعنا هذا القول الذي صدر منك، انقطع رجاؤنا عنك ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأوثان، على حكاية الحال الماضية ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، والتبري من الأوثان ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة أو الريب أي الظن والشك ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ من رؤية القلب، أي أتدبرتم؟

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان وبصيرة، واستعمل حرف الشك في قوله ﴿إِن كُنتُ﴾ باعتبار المخاطبين ﴿رَحْمَةً﴾ نبوة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ يمنعني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته، والمنع عن الإشراك به

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ أي فما تطلبون مني باتباعكم ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ تضليل أو إيقاع في الخسران باستبدال الشرك بالتوحيد، أو بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ دعوها ترعى نباتها وتشرب ماءها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً، وهو ثلاثة أيام، إن عقرتموها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قتلوها، عقرها قدار بأمرهم ﴿فَقَالَ﴾ صالح ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ عيشوا في منازلكم ثلاثة أيام: الأربعاء والخميس والجمعة، ثم تهلكون ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهم أربعة آلاف ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم القيامة ﴿ٱلْقَوِيُّ﴾ القادر على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ المرة الواحدة من الصوت الشديد المهلك، والمراد بها الصاعقة التي أحدثت رجفة في القلوب، وصعق بها الكافرون ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين، أو ساقطين على وجوههم مصعوقين، والجثوم للطائر كالبروك للبعير ﴿يَغْنَوْاْ﴾ يقيموا ﴿فِيهَآ﴾ في دارهم ﴿بُعْدًا﴾ هلاكاً وطرداً من رحمة الله، وهو اللعن.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، وهي قصة صالح مع ثمود، وصالح هو الرسول الثاني من العرب، ومساكن قبيلته ثمود: الحِجْر: وهي بين الحجاز والشام، وآثار مدائنهم باقية إلى اليوم.

ونظم هذه القصة مثل النظم المذكور في قصة هود، إلا أنه لما أمرهم بالتوحيد ههنا ذكر في تقريره دليلين: الإنشاء من الأرض، والاستعمار فيها أي جعلكم عمارها. وقد ذكرت قصة صالح في سورة الأعراف.

وسيأتي ذكر هذه القصة أيضاً في سورة الشعراء والنمل والقمر والحجر وغيرها، ومضمون القصة تبليغ صالح دعوته، ومناقشتهم، وإنذارهم بالهلاك، وردودهم عليه، وتأييد صدقه بمعجزة الناقة، وقتلهم لها، وإهلاكهم بالصيحة أو الصاعقة.

التفسير والبيان:

ولقد أرسلنا إلى ثمود الذين كانوا يسكنون مدائن الحِجْر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، أرسلنا لهم رجلاً منهم أي من قبيلتهم، وهو صالح عليه السلام، فأمرهم بعبادة الله وحده، وأقام لهم دليلين على التوحيد:

الدليل الأول - قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها، إذ خلق منها أباكم آدم فهو أبو البشر، ومادة التراب هي المادة الأولى التي خلق منها آدم، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين، بالوسائط التالية: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة تكسى بعدئذ بهيكل عظمي ولحم، وأصل النطفة من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء إما من نبات الأرض أو من اللحم الذي يرجع إلى النبات.

والدليل الثاني - ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها بالزراعة والصناعة والبناء والتعدين. فكون الأرض قابلة للعمارة النافعة للإنسان، وكون الإنسان قادراً عليها، دليل على وجود الصانع الحكيم، الذي قدر فهدى، ومنح الإنسان العقل الهادي والأداة لتسخير موجودات الدنيا، وجعل له القدرة على التصرف.

وإذا كان الله هو المستحق للعبادة وحده، فاستغفروه لسالف ذنوبكم، من الشرك والمعصية، ثم توبوا إليه بالإقلاع عن الذنب في الماضي، والعزم على عدم العودة إليه وإلى أمثاله في المستقبل.

إن ربي قريب من خلقه بالرحمة والعلم والسمع، مجيب دعوة الداعي المحتاج المخلص بفضله ورحمته، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

فأجابوه بكلام يدل على الجهل والعناد: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ﴾ أي قال قوم ثمود: ياصالح، قد كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت، أو كنا نأمل أن تكون سيداً أو مستشاراً في الأمور؛ لما نرى لك من رجاحة في العقل وسداد في التفكير، فالآن خيبت الآمال وقطعت الرجاء. وقال كعب: كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم؛ لأنه كان ذا حسب وثروة. وعن ابن عباس: كان فاضلاً خيِّراً. والظاهر الذي حكاه الجمهور أن قوله: ﴿مَرْجُوًّا﴾ مشوراً نؤمل فيك أن تكون سيداً سادّاً مسدّ الأكابر.

ثم تعجبوا من دعوته قائلين:

أتنهانا عن عبادة الآباء والأسلاف؟ وقد تتابعوا على تلك العبادة كابراً عن كابر دون إنكار من أحد.

وإننا نشك كثيراً في صحة ما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك التوسل إليه بالشفعاء المقربين عنده، وهو شك موقع في التهمة وسوء الظن. والشك: هو أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات، والمريب: هو الذي يظن به السوء.

والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد، ووجوب متابعة الآباء والأسلاف. وهذا نظير ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥].

فأجابهم صالح مبيناً ثباته على المبدأ ومنهج النبوة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي كيف أعصي الله في ترك ما أنا عليه من البينة؟ أخبروني ماذا أفعل، إن

كنت على برهان وبصيرة ويقين فيما أرسلني به إليكم، وآتاني منه رحمة، أي نبوة تتضمن تبليغ ما أوحى به إلي.

وقدّروا أني نبي على الحقيقة، وكان على يقين أنه على بيِّنة؛ لأن خطابه للجاحدين، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟! وإذا تابعتكم وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، لما نفعتموني، ولما زدتموني حينئذ غير خسارة وضلال، باستبدال بما عند الله ما عندكم.

ولما كانت عادة الأنبياء ابتداء الدعوة إلى عبادة الله، ثم اتباعها بدعوى النبوة، فإن صالحاً عليه السلام الذي طلبوا منه المعجزة على صحة قوله، أتاهم بمعجزة الناقة. روي أن قومه خرجوا في عيد لهم، فسألوه أن يأتيهم بآية، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا صالح ربه، فخرجت الناقة كما سألوا.

وقال لهم: هذه آية على صدقي: ناقة الله، التي تتميز عن سائر الإبل بأكلها وشربها وغزارة لبنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٥٤/٢٧-٢٨].

فاتركوها تأكل ما شاءت في أرض الله من المراعي، دون أن تتحملوا عبء مؤونتها، ولا تمسوها بسوء أياً كان نوعه، فيأخذكم عذاب عاجل لا يتأخر عن إصابتكم إلا يسيراً وذلك ثلاثة أيام، ثم يقع عليكم.

فلم يسمعوا نصحه، وكذبوه وعقروها، عقرها بأمرهم قدار بن سالف، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/٢٩] فقال لهم: استمتعوا بالعيش في داركم، أي بلدكم، وتسمى البلاد الديار، مدة ثلاثة أيام، ذلك وعد مؤكد غير مكذوب فيه.

ثم وقع ما أوعدهم به: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي فلما حان وقت أمرنا بالعذاب والإهلاك، وحل العقاب ووقعت الواقعة، ونزلت الصاعقة، نجينا صالحاً والمؤمنين معه، برحمة منا، ونجيناهم من عذاب شديد، ومن ذل ومهانة حدثت يومئذ أي يوم وقوع الهلاك أو يوم القيامة، والخزي: الذل العظيم البالغ حد الفضيحة، إن ربك هو القوي القادر الغالب على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وكلمة ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إما بفتح الميم فهو معرب، أو بكسرها فهو مبني مضاف لغير متمكن.

وأصبح أمرهم أنه أخذتهم صيحة العذاب وهي الصاعقة ذات الصوت الشديد المهلك، التي تزلزل القلوب، وتصعق عند سماعها النفوس، فصعقوا بها جميعاً، وأصبحوا جثثاً هامدة ملقاة على الأرض.

وكأنهم لسرعة هلاكهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يقيموا في ديارهم، بسبب كفرهم وجحودهم بآيات ربهم، ألا إنهم كفروا بربهم، فاستحقوا عقابه الشديد، ألا بعداً لهم عن رحمة الله، وسحقاً لثمود، وهلاكاً لهم ولأمثالهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت قصة صالح مع قومه ثمود على العبر والعظات التالية:

١ - إن جحود ثمود وكفرهم بآيات الله وعدم إطاعتهم أوامر رسولهم كان هو شأن هؤلاء القوم إيثاراً لتقليد الآباء والأسلاف، بالرغم من أن صالحاً عليه السلام منهم نسباً وقبيلة، وأقام لهم الأدلة الكافية الشافية على وجوب عبادة الله وتوحيده، من الخلق والإيجاد في الأرض، وجعلهم عماراً لها.

٢ - إن الاستغفار من الذنوب والتوبة من المعاصي سبب سريع لإجابة الدعاء؛ لأن الله قريب من عباده، رحيم بهم، مجيب دعوة المحتاجين والمضطرين، قريب الإجابة لمن دعاه.

٣ً - لا تلاقي بين جحود الجاحدين من ثمود وأمثالهم وبين النبي صالح وأمثاله من الأنبياء؛ لأن الجاحدين متمسكون بتقليد الآباء والأسلاف، والنبي ثابت على مبدئه ثبوت الجبال الراسيات، لأنه على يقين من صحة دعوته، وبصيرة من صدق ما أوحى الله به إليه، ولأنه أشد الناس خوفاً من عذاب الله إن عصاه وخالف أمره.

٤ً - كانت الناقة معجزة عجيبة مدهشة؛ لخلقها من الصخرة وخلقها في جوف الجبل، وخلقها حاملاً من غير ذكر، وخلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة، ولما كان لها من شرب يوم، ولكل القوم شرب يوم آخر، ولإدرارها بلبن كثير يكفي الخلق العظيم، فهذه ستة وجوه، كل وجه منها معجز، مما جعل تلك الناقة آية ومعجزة.

٥ً - اقتضى العدل الإلهي ورحمة الله إنجاء صالح عليه السلام ومن آمن معه، وكانوا أربعة آلاف، وإهلاك قبيلة ثمود بسبب الجحود برسالة نبيهم، وكفرهم بربهم، وإنكارهم وجوده.

٦ً - لا شك بأن وعد الأنبياء صادق صحيح، ووعيدهم مؤكد الحصول، وقد أوعد صالح قومه بالعذاب بعد ثلاثة أيام، وتحقق ذلك في اليوم الرابع.

٧ً - كان عذابهم بالصيحة أو بالصاعقة أو بالرجفة، صيح بهم فماتوا، وأصبحوا جثثاً ملقاة هنا وهناك في أنحاء ديارهم. والصيحة: إما صيحة جبريل، أو صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا، لما أحدثته من رهبة وهيبة عظيمة.

٨ً - سحقاً وهلاكاً لثمود الذين كفروا ربهم، وبعداً وطرداً لهم عن رحمة الله بسبب جحودهم وكفرهم.

قصة إبراهيم عليه السلام
بشارته بإسحاق ويعقوب

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُنَآ﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾:

وقرأ حمزة (سِلْم).

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ﴾:

بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر وصلاً قرأ: قالون، والبزي.

وقرأ بإسقاطها مع القصر والمد وصلاً أبو عمرو.

وقرأ بتسهيل الثانية وصلاً: ورش، وقنبل.

وقرأ الباقون بتحقيقهما.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾:

قرئ:

١- (يعقوبَ) وهي قراءة حفص، وحمزة، وابن عامر.

٢- (يعقوبُ) بالرفع على الابتداء، وهي قراءة الباقين.

﴿رَحۡمَتُ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿جَآءَ أَمۡرُ﴾:

حكمها حكم: جاء أمرنا. وتقدم في القراءات للآيات (٣٦-٤١).

الإعراب:

﴿وَلَقَدۡ﴾ اللام لتأكيد الخبر، ودخلت (قد) هاهنا؛ لأن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقع.

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ الأول منصوب بقالوا أو على المصدر، والثاني مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أي هو سلام، أو مبتدأ محذوف الخبر، أي وعليكم سلام، أو مرفوع على الحكاية.

﴿أَن جَآءَ﴾ إما في محل نصب على تقدير حذف حرف الجرّ، أي عن جاء، وإما في محل رفع على أنه فاعل ﴿لَبِثَ﴾ أي فما لبث مجيئه، أي ما أبطأ مجيئه بعجل حنيذ، أي مشوي.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ منصوب بتقدير فعل دل عليه (بشرناها) أي بشرناها بإسحاق، ووهبنا له يعقوب، أو معطوف على موضع قوله: ﴿بِإِسۡحَٰقَ﴾. ويقرأ بالضم مبتدأ، أو مرفوعاً بالجار والمجرور، ويقرأ بالجر معطوفاً على ﴿إِسۡحَٰقَ﴾.

﴿شَيۡخًاۖ﴾ حال من معنى اسم الإشارة أو التنبيه، ويقرأ بالرفع إما خبراً بعد خبر أو بدلاً من ﴿بَعۡلِي﴾ أو يكون ﴿بَعۡلِي﴾ بدلاً من هذا، وشيخ خبر عن هذا، أو شيخ خبر مبتدأ آخر، أي هذا شيخ، ونظيره في هذه الأوجه الأربعة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾ [الكهف: ١٨/١٠٦].

﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ منصوب على المدح أو النداء بقصد التخصيص، والأصح أنه منصوب على الاختصاص.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ لما ظرف زمان، جوابه محذوف، أي أقبل يجادلنا. وجملة ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ حال من ضمير (أقبل) وهو ضمير إبراهيم.

﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ﴾ مرفوع باسم الفاعل الذي جرى خبراً، فجرى مجرى الفعل، أي فإنه يأتيهم.

البلاغة:

﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهام معناه التعجب.

﴿ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ﴾ بينهما طباق.

﴿جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ كناية عن العذاب الذي حكم به الله عليهم.

المفردات اللغوية:

﴿رُسُلُنَآ﴾ الملائكة، قيل: كانوا تسعة، وقيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل

وإسرافيل ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ ببشارة الولد، وقيل: بهلاك قوم لوط ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ سلمنا عليك سلاماً، أو منصوب بقالوا أي ذكروا سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ أمركم سلام أو جوابي سلام أو وعليكم سلام، وقد أجابهم بالرفع بأحسن من تحيتهم ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أبطأ ﴿حَنِيذٖ﴾ مشوي بالرَّضْف أي بالحجارة المحماة ﴿لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ أي لا تمتد للتناول ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أنكر ذلك منهم، ضد عرفه ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ أحسّ منهم خوفاً في نفسه ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ إنا ملائكة مرسلة إليهم بالعذاب، وإنما لم نمدّ إليه أيدينا؛ لأنا لا نأكل. ولوط: النبي الكريم ابن أخي إبراهيم وأول من آمن به.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ وراء الستر، تسمع محاورتهم، أو تقوم بالخدمة. ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ سروراً بزوال الخوف، أو بهلاك أهل الفساد ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي وهبناها من بعد إسحاق يعقوب ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ أصله يا ويلي وهلاكي أي يا عجبا، وهي كلمة تقال عند التعجب من بلية أو فجيعة أو فضيحة .﴿بَعۡلِي﴾ زوجي، وأصله القائم بالأمر، ويجمع على بعولة ﴿شَيۡخًاۖ﴾ ابن مئة أو مئة وعشرين ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين، فهي عقيم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ يعني الولد من هرمين، وهو تعجب من حيث العادة لا القدرة الإلهية ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ قدرته وحكمته، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات، ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل، فضلاً عمن نشأت وشبت في ملاحظة الآيات .﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ تحمد أفعاله ﴿مَّجِيدٞ﴾ كثير الخير والإحسان ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ الخوف والرعب ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بدل الروع.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم قائلاً: إن فيها لوطاً. ﴿لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه ﴿أَوَّٰهٞ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿مُّنِيبٞ﴾ راجع إلى الله، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط رحمته.

﴿يَٰإِبۡرَٰهِيمُ﴾ على إرادة القول، أي قالت الملائكة: يا إبراهيم ﴿أَعۡرِضۡ﴾ عن هذا الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ قدره بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

المناسبة:

هذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، وقد ذكرت قصة إبراهيم في سورة البقرة، وذكر إبراهيم في القرآن كثيراً، ذكر مع أبيه وقومه، وذكر هنا مع الملائكة مبشرين له بإسحاق ويعقوب، مخبرين له بهلاك قوم لوط، وذكر مع إسماعيل خاصة في موضع آخر، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن ضيافته.

التفسير والبيان:

والله لقد جاءت رسلنا الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل مع جبريل سبعة ملائكة آخرون، وذلك مروي عن عطاء وغيره من التابعين، جاءت الرسل إبراهيم بالبشرى تبشره بالولد إسحاق لقوله تعالى هنا: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ وقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٨/٥١]. وقيل: البشرى بهلاك قوم لوط وسلامة لوط. قالوا: سلاماً عليك، قال: سلام عليكم، وهذا أحسن مما حيوه لأن الرفع بقوله ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ يدل على الثبوت والدوام، كما ذكر علماء البيان.

فمالبث أي فما أبطأ وذهب سريعاً، فأتاهم بالضيافة بعجل (وهو فتى البقر) مشوي على الرَّضْف (جمع رَضْفة) وهي الحجارة المحماة بالنار أو بالشمس، كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ [الذاريات: ٢٦/٥١-٢٧].

فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تمتد إلى الطعام، أنكر ذلك منهم، ووجد في نفسه خوفاً وفزعاً منهم، إذ أدرك أنهم ليسوا بشراً، وربما كانوا ملائكة عذاب.

قالوا له: لا تخف، فنحن لا نريد سوءاً بك، وإنما أرسلنا لإهلاك قوم لوط، وكانت ديارهم قريبة من دياره.

ونحن نبشرك بغلام عليم، يحفظ نسلك، ويبقي ذكرك، وهو إسحاق، ثم يعقوب من بعده وهو الذي من ذريته أنبياء بني إسرائيل.

وكانت امرأة إبراهيم قائمة وراء ستار بحيث ترى الملائكة، أو كانت واقفة تخدم الملائكة، فضحكت سروراً بزوال الخوف وتحقيق الأمن، أو استبشاراً بهلاك قوم لوط لكراهتها لأفعالهم المنكرة، وغلظ كفرهم وعنادهم، فجوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ أي فبشرناها بولد هو إسحاق، وسيلد لإسحاق ولد هو يعقوب كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٤] . وفسر مجاهد وعكرمة: (ضحكت) أي حاضت، وكانت آيسة، تحقيقاً للبشارة. وهو تفسير غريب مخالف لرأي الجماهير.

وذلك لأنه لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر، تمنّت سارّة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبياً، ويلد نبياً، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها.

قالت سارّة لما بشرت بالولد: عجباً كيف ألد وأنا عجوز كبيرة شيخة عقيم، وزوجي في سن الشيخوخة لا يولد لمثله، إن هذا الخبر لشيء عجيب غريب عادة.

فأجابتها الملائكة: كيف تعجبين من قضاء الله وقدره، أي لا عجب من أن

يرزقكما الله الولد، وهو إسحاق، فإن الله لا يعجزه شيء في الكون وهو على كل شيء قدير: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢].

فإن رحمة الله الواسعة وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة، وقد تُوورثت النبوة في نسل إبراهيم إلى يوم القيامة، إنه تعالى المحمود في جميع أفعاله وأقواله، المستحق لجميع المحامد، الممجد في صفاته وذاته، الكثير الخير والإحسان، فهو محمود ماجد.

ثم أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الخوف من الملائكة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، وعلم أنهم ملائكة العذاب لقوم لوط، أخذ يجادل الملائكة وهم رسل الله في قوم لوط، وجعلت مجادلتهم مجادلة لله؛ لأنهم جاؤوا بأمره.

لأن إبراهيم حليم غير متعجل بالانتقام من المسيء إليه، كثير التأوه مما يسوء الناس ويؤلمهم، ويرجع إلى الله في كل أموره، أي إن رقة قلبه وفرط رحمته حملته على المجادلة.

فأجابته الملائكة: يا إبراهيم أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط، إنه قد جاء أمر ربك بتنفيذ القضاء والعذاب فيهم، وإنهم آتيهم عذاب غير مصروف ولا مدفوع عنهم أبداً، لا بجدال ولا بدعاء ولا بشفاعة ونحوها.

فقه الحياة أو الأحكام

أرشدت القصة إلى مايلي:

أ - تبادل السلام بين الملائكة وبين الأنبياء، فقد سلم الملائكة على إبراهيم عليه السلام بقولهم: سلاماً، كما تقول: قالوا خيراً، فرد عليهم بتحية أحسن، فقال: سلام عليكم.

٢ - دلت الآية أن من أدب الضيف أن يُعجِّل قِراه، فيقدم الموجود الميسر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان لديه شيء وسعة، ولا يتكلف المفقود غير المستطاع الذي يتضايق به.

والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وهي سنة وليست بواجبة، لقوله ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي شريح، وأحمد وأبي داود عن أبي هريرة: «الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة، فما كان وراء ذلك، فهو صدقة». وقوله ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي شريح وأبي هريرة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

والمخاطب بالضيافة أهل المدن أو الحضر والبادية في رأي الشافعي، وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة، لحديث القضاعي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الضيافة على أهل الوَبَر، وليست على أهل المدَر» لكنه حديث لا يصح، كما قال القرطبي.

والسنة إذا قُدِّم للضيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل؛ فإن تكريم الضيف من مضيفه تعجيل التقديم، وتكريم صاحب المنزل من ضيفه المبادرة بالقبول. فلما قبض الملائكة أيديهم، تخوف إبراهيم، أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه.

ومن أدب الطعام: أن ينظر المضيف في ضيفه، هل يأكل أو لا؟ وذلك بلمح نظر سريع، لا بتأكيد النظر. روي أن أعرابياً أكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة، فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك؛ فقال له: أتنظر إلي نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟! والله لا أكلت معك.

٣ - مشاركة الزوجة لعواطف زوجها أمر مستحسن، فإن سارّة ضحكت

استبشاراً بتعذيب قوم لوط، لكراهتها خبائثهم، قال الجمهور: هو الضحك المعروف. وأنكر بعض اللغويين أن يكون في لغة العرب: ضحكت بمعنى حاضت.

٤ً - من السنة قيام المرأة بخدمة الرجال الضيوف بنفسها، وترجم البخاري لحديث في ذلك: «باب قيام المرأة على الرجال في العُرْس وخدمتهم بالنفس» قال القرطبي: ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب.

٥ً - امتنع الملائكة من الطعام؛ لأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أتوا إبراهيم في صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها، وهو كان مشغوفاً بالضيافة.

٦ً - ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بثمن؛ فقال لهم: «ثمنه أن تذكروا الله في أوله، وتحمدوه في آخره» فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً.

ودل هذا على أن التسمية في أول الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا.

٧ً - إن رحمة الله متكاثرة، وبركاته على أهل بيت النبوة متعاقبة، فكان التبشير بولادة ولد لزوجين عجوزين معجزة خارقة للعادة، وتخصيصاً لبيت النبوة بكرامة عالية رفيعة، والله تعالى قادر على كل شيء، وإنه حميد مجيد، فلا عجب بعدئذ.

٨ً - إن جدل إبراهيم في شأن إهلاك قوم لوط ليس من الذنوب، بدليل إيراد المدح العظيم عقبه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ أي إن رقة قلبه وفرط رحمته وسعة حلمه حملته على المجادلة، التي كان المراد منها سعي إبراهيم في تأخير العذاب عن قوم لوط، رجاء إقدامهم على الإيمان والتوبة من المعاصي.

٩ - دلت آية ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ على أن زوجة الرجل من أهل البيت، وأن أزواج الأنبياء من أهل البيت، فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي ﷺ؛ وممن قال الله فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٣] .

قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُنَا﴾ :

وقرأ أبو عمرو: (رُسْلنا).

﴿سِيٓءَ﴾ :

قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي بإشمام كسرة السين الضم. وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿ضَيْفِيٓ﴾.

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ضيفيَ).

﴿فَأَسْرِ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير (فاسْر).

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (إلا امرأتُك).

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾:

تقدم في القراءات للآيات (٣٦-٤١)

الإعراب:

﴿يُهْرَعُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿بَنَاتِي﴾ عطف بيان، و﴿هُنَّ﴾ ضمير فصل، و﴿أَطْهَرُ﴾ خبر المبتدأ.

﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ وحَّدَ الضيف وإن كان جمعاً في المعنى؛ لأن ضيفاً في الأصل مصدر يصلح للواحد والاثنين والجماعة.

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ﴿لَوْ﴾ حرف امتناع لامتناع، وجوابه محذوف تقديره: لَحُلْت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد، والحذف هاهنا أبلغ؛ لأنه يوهم تعظيم الجزاء. و﴿ءَاوِيٓ﴾ منصوب بأن، ليكون الفعل معها بتأويل المصدر معطوفاً على ﴿قُوَّةً﴾ وتقديره: لو أن لي بكم قوة أو آوي. مثل قول ميسون بنت الحارث أم يزيد بن معاوية:

ولبس عباءة وتقرّ عيني أحبُّ إلي من لبس الشفوف

أي: وأن تقرَّ عيني.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ مستثنى منصوب من قوله: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ... إلاَّ امْرَأَتَكَ) ويرفع على البدل من ﴿أَحَدٌ﴾. والمراد بالنهي ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ في رأي المبرد المخاطب، ولفظه لغيره، كما تقول لغلامك: لا يخرج فلان، أي لا تدعه يخرج.

البلاغة:

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ استفهام معناه التعجب والتوبيخ.

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ استعارة، والمراد بها قومه وعشيرته؛ لأن الإنسان يلجأ إليهم ويستند كالاستناد إلى ركن.

﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم وحزن بسببهم؛ لأنهم جاؤوا في صورة غلمان، فظن أنهم أناس، فخاف أن يقصدهم قومه، فيعجز عن مدافعتهم .﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه، وهو كناية عن شدة الانقباض، للعجز عن مدافعة المكروه، يقال: مالي به ذرع أي مالي به طاقة ﴿عَصِيبٌ﴾ شديد الأذى .﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون، يقال: هُرع وأُهرِع: إذا حمل على الإسراع ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ قبل مجيئهم ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الفواحش وهي إتيان الرجال في الأدبار .﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فتزوجوهن ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً أو أقل فحشاً، وقال أبو حيان: الأحسن أن تكون الإضافة مجازية أي بنات قومي، أي البنات أطهر لكم؛ إذ النبي يتنزل منزلة الأب لقومه. وفي قراءة ابن مسعود: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم» ويدل عليه: أنه فيما قيل: لم يكن له إلا بنتان، وهذا

بلفظ الجمع، وأيضاً فلا يمكن أن يزوج ابنتيه من جميع قومه. وقيل: أشار إلى بنات نفسه، وندبهم إلى النكاح؛ إذ كان من سنتهم تزويج المؤمنة بالكافر. وقيل: (أحل وأطهر) ليس أفعل التفضيل؛ إذ لا طهارة في إتيان الذكور. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ تفضحوني، من الخزي، أو لا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ أضيافي، يطلق الضيف على الواحد والجمع ﴿رَّشِيدٌ﴾ ذو رشد وعقل يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الرجال.

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ طاقة، أي لو قويت بنفسي على دفعكم ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قوي أمتنع به عنكم، أو عشيرة تنصرني، لبطشت بكم ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ بسوء ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ﴾ طائفة أو بقية من الليل، والسُّرى: السير ليلاً ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو ولا ينظر إلى ورائه، والنهي في اللفظ لأحد، وفي المعنى للوط، وسبب النهي ألا يرى عظيم ما ينزل بهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فلا تسر بها ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ تعليل بطريقة الاستئناف، قيل: إنه لم يخرج بها، وقيل: خرجت والتفتت فقالت: واقوماه، فجاءها حجر فقتلها .﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ كأنه علة الأمر بالإسراء، أو قد سألهم عن وقت هلاكهم، فأخبروه بذلك.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به ﴿جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا﴾ أي قراهم ﴿سَافِلَهَا﴾ بأن رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ طين طبخ بالنار، بدليل آية أخرى ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٣٣] أي طين متحجر.

﴿مَّنضُودٍ﴾ متتابع منظم ومعدّ لعذابهم ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة للعذاب، أي لها علامة خاصة عند ربك أي في خزائنه ﴿وَمَا هِىَ﴾ الحجارة أو بلادهم ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي أهل مكة وأمثالهم، وهذا وعيد لكل ظالم، روي عن

النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام، فقال: يعني ظالمي أمتك، مامن ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة.

المناسبة:

هذه هي القصّة الخامسة من القصص المذكورة في هذه السّورة، وهي قصة لوط عليه السّلام، وقوم لوط: أهل سدوم في الأردن. قال ابن عباس: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط (ابن أخي إبراهيم) وبين القريتين أربع فراسخ، ودخلوا عليه على صورة شباب مُرْد من بني آدم، وكانوا في غاية الحسن، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله.

التفسير والبيان:

ولما جاءت رسلنا من الملائكة لوطاً، بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم هذه الليلة، وكانوا في أجمل صورة بهيئة شباب حسان الوجوه، ابتلاء من الله، فساءه شأنهم ومجيئهم، وضاقت نفسه بسببهم؛ لأنه ظنّ أنهم من الإنس، فخاف عليهم خبث قومه، وأن يعجزوا عن مقاومتهم، وقال: هذا يوم عصيب أي شديد البلاء.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ﴾ وجاء لوطاً قومه عندما سمعوا بالضّيوف وقدومهم، بإخبارامرأته قومها، يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، لإتيان الفاحشة، وليس ذلك غريباً، فإنهم كانوا قبل مجيئهم يعملون السَّيئات ويرتكبون الفواحش، فلم يزل هذا من سجيَّتهم، حتى أخذوا وهم على تلك الحال، كما حكى الله عنهم: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٩] أي ظلوا يقترفون الفاحشة إلى وقت الهلاك.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال لوط: يا قوم، هؤلاء البنات فتزوّجوهنّ، والمراد

بنات القوم ونساؤهم؛ فإن النّبي للأمّة بمنزلة الوالد، كما قال ابن عباس، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدُّنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٦٥-١٦٦] ، قال مجاهد وقتادة وغير واحد: لم يكنَّ بناته، ولكن كنّ من أمته، وكل نبي أبو أمته. وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوّجوا النّساء، لم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم هنّ بناته، وهو أب لهم.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي فاخشوا الله، واقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم، ولا تفضحوني أو لا تخجلوني في ضيوفي، فإن إهانتهم إهانة لي.

أليس منكم رجل فيه رشد وحكمة وعقل وخير يقبل ما آمر به ويترك ما أنهى عنه، ويهديكم إلى الطريق الأقوم.

قالوا: لقد علمت سابقاً ألا حاجة لنا في النّساء ولا نشتهيهنّ، فلا فائدة فيما تقول، وليس لنا غرض إلا في الذّكور، وأنت تعلم ذلك منا، فأي فائدة في تكرار القول علينا في ذلك؟ والمراد أنهم صمموا على ما يريدون.

قال لوط لقومه متوعّداً: لو كان لدي قوة تقاتل معي، أو عشيرة تؤازرني وتنصرني عليكم، وتدفع الشّرّ عني، لكنت قاتلتكم وحُلْتُ بينكم وبين ما تريدون.

وبعد هذه المخاوف من الفضيحة التي أقلقت لوطاً على ضيفانه، بشرته الملائكة بنجاته منهم وهلاكهم بالعذاب: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي قالت الملائكة للوط: إنا رسل ربّك أرسلنا لنجاتك من شرّهم، وإهلاكهم، لن يصلوا بسوء إليك ولا إلى ضيوفك، وحينئذٍ طمس الله أعينهم، فلم يعودوا يبصرون لوطاً ومن معه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٣٧] .

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي فاخرج من هذه القرية في جزء من الليل يكفي لتجاوز حدودها، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٣٥-٣٦].

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ أي ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه أبداً، حتى لا يصيبه شيء من العذاب، أو يتعاطف معهم، وامضوا حيث تؤمرون.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ أي امضِ بأهلك إلا امرأتك فلا تأخذها معك، إنه مصيبها ما أصابهم من العذاب؛ لأنها كانت كافرة خائنة.

ثم ذكر علّة الإسراء ليلاً، فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي إن موعد عذابهم وبدأه هو الصُّبح من طلوع الفجر إلى شروق الشَّمس، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٣].

أليس موعد الصُّبح بموعد قريب، وسبب اختيار هذا الوقت كونهم متجمعين في مساكنهم. روي أنهم لما قالوا للوط عليه السّلام: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ قال: أريد أعجل من ذلك، بل الساعة، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال المفسّرون: إن لوطاً عليه السّلام لما سمع هذا الكلام، خرج بأهله في الليل.

فلما جاء أمرنا بالعذاب، وكان ذلك عند طلوع الشَّمس، ونفذ قضاؤنا، جعلنا عاليها وهي سدوم سافلها، وخسفنا بهم الأرض، وأمطرنا عليهم حجارة من طين متحجّر، منضّد بعضها فوق بعض وتتابع في النّزول عليهم، مسوَّمة أي معلَّمة للعذاب، عليها علامة خاصة عند ربِّك أي في خزائنه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٥٣-٥٤]. فمن لم يمت حتى سقط للأرض، أمطر الله عليه، وهو تحت الأرض الحجارة، حجارة من سجيل، أي طين متحجّر قوي شديد.

وفي التّفسير: أمطرنا في العذاب، ومطرنا في الرّحمة.

ثم ذكر الله تعالى العبرة من القصة متوعّداً بها كل ظالم فقال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما هذه النّقمة أو تلك القرى التي وقعت فيها ممن تشبه بهم في ظلمهم كأهل مكة ببعيد عنه، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها. قال أنس: سأل رسول الله ﷺ جبريل عن هذا، فقال: يعني عن ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم، إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة. وفي هذا عبرة للظالمين في كل زمان ومكان. وجاء ﴿بِبَعِيدٍ﴾ مذكّراً على معنى بمكان بعيد.

ونظير الآية: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٧-١٣٨] ، أي وإنكم لتمرّون على ديارهم في أسفاركم نهاراً أو ليلاً، أفلا تعقلون وتتدبّرون بما نزل بهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت قصة لوط عليه السّلام مع قومه على ما يأتي:

أ - إنّ المؤمن يغار على حرمات الله، ويستبق وقوع الحوادث استعداداً للبلاء قبل نزوله، لذا استاء لوط عليه السّلام من مجيء وفد الملائكة (ملائكة العذاب الذين بشّروا إبراهيم بالولد) وضاق صدره بمجيئهم وكرهه، وقال: هذا يوم شديد في الشَّر.

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، بصرت بنتا لوط - وهما تستقيان - بالملائكة، ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية، قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أَبِها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ، وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم.

٢ً - كان مجيء القوم مسرعين بقصد ارتكاب الفاحشة دليلاً مادياً محسوساً للملائكة وغيرهم على استحقاقهم العذاب الأليم والعقاب السريع. وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم: إنّ لوطاً قد أضاف الليلة فِتْية، ما رئي مثلهم جمالاً؛ وكذا وكذا، فحينئذٍ جاؤوا يُهرعون إليه.

ويذكر أن الرُّسل لما وصلوا إلى بلد لوط، وجدوا لوطاً في حرث (بستان) له. وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سَدُوم.. إلخ ما ذكر سابقاً.

٣ً - كان قوم لوط يعملون السَّيئات، أي كانت عادتهم إتيان الرّجال، فلما جاؤوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً، وقال: هؤلاء بناتي، أي أرشدهم إلى التّزوج بالنّساء، وإيثار البنات على الأضياف.

وقيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النّكاح، وكانت سنّتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نُسخ؛ فزوّج رسول الله ﷺ بنتاً له من عُقْبة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الرّبيع قبل البعثة والوحي، وكانا كافِرَيْن.

وقال جماعة من المفسّرين كمجاهد وسعيد بن جبير: أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النّساء جملة؛ إذ نبي القوم أب لهم، ويؤيِّد هذا أن في قراءة ابن مسعود: «النَّبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، وهو أبٌ لهم»، والظاهر أن هذا هو أمثل الآراء وأقربها إلى الصحة.

٤ً - إن الكريم الشّهم الأبي هو الذي يحافظ على كرامة ضيوفه، لذا قال لوط: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ أي لا تهينوني ولا تذلّوني.

ثم وبّخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أو ذو رشد، أو راشد أو مرشد أي صالح أو مصلح. والرّشد والرّشاد: الهدى والاستقامة.

٥ً - من ألف الفساد والفحش بَعُد عن الصّلاح والطّهر، لذا قال قوم لوط: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي ليس لنا إلى بناتك رغبةً ولا هنّ نقصد، ولا لنا عادة نطلب ذلك، فإن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا أو طريقنا الذي نحن عليه، ولا حاجة لنا بالبنات، أو لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض لا جدِّية فيه، فقوله: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ أي ما لنا في بناتك من حاجة ولا شهوة.

ثم أعلنوا عن شهوتهم فقالوا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة إلى الأضياف، والرّغبة في إتيان الذّكور، وما لهم فيه من الشّهوة.

٦ً - لم يجد لوط عليه السّلام سبيلاً للرّدع والإرهاب إلا التّهديد وإظهار الغضب والضَّجر من موقف قومه، واستمرارهم في غيِّهم، وضعفه عنهم وعجزه عن دفعهم، فتمنى لو وجد عوناً على ردِّهم، وقال على جهة التّفجع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي أنصاراً وأعواناً، لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون، أو لو أجد ملجأ ألجأ وأنضوي إليه من قبيلة أو عشيرة تؤازرني ضدّ البغي والبغاة، والظّلم والظّالمين، والفسق والفاسقين. وهو دليل على أن لوطاً كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حقّ أضيافه.

٧ً - لما رأت الملائكة حزن لوط عليه السّلام واضطرابه ومدافعته، عرّفوه بأنفسهم: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فلما علم أنهم رسلٌ، مكّن قومه من الدُّخول، فأمرَّ جبريل عليه السّلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فجفَّت.

وطمأنوه بقولهم: ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بمكروه، وكان كلام الملائكة متضمّناً أنواعاً خمسة من البشارات هي: أنهم رسل الله، وأن الكفار لن يصلوا إلى ما هموا به، وأنه تعالى يهلكهم، وأنه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب، وأن ركنه شديد، وأن ناصره هو الله تعالى.

٨ً - اقتضت رحمة الله تعالى وعدله إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين، وتلك معجزة للنّبي وتكريم لمن آمن معه، وردع للظّالمين وإرهاب للكافرين. فأنقذ الله لوطاً وأهله وهم بنتاه إلا امرأته، وأهلك قومه.

٩ً - كان إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشمس بقلب جبريل عليه السّلام قرى قوم لوط وجعل عاليها سافلها، وهي خمس: سَدُوم (وهي القرية العظمى) وعامورا، ودادوما، وضعوة، وقتم.

أي أن العذاب له وصفان: الأول: قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض، والثاني قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

وكان هذا العمل معجزة قاهرة من وجهين:

أحدهما - أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادة.

والثاني - أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض، بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها بتاتاً أمر عجيب.

ثم إن عدم وصول الآفة إلى لوط عليه السّلام وأهله، مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضاً.

١٠ً - وصف الله تعالى الحجارة التي رمي بها قوم لوط بصفات ثلاث هي:

الأولى - كونها من سجّيل، أي الشّديد الكثير، أو الطين المتحجّر.

الثانية - قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي متتابع، أو مصفوف بعضه على بعض، أو مرصوص.

الثالثة - ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلّمة، من السِّيما وهي العلامة، أي كان عليها أمثال الخواتيم.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ قال الحسن: دليل على أنها ليست من حجارة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم، وهي أيضاً عبرة لكل ظالم من أهل مكة وغيرهم. روي عن النّبي ﷺ أنه قال: «سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرّجال، ونساؤهم بالنّساء، فإذا كان ذلك، فارتقبوا عذاب قوم لوط، أن يرسل الله عليهم حجارة من سجّيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

١١ - دلّ قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ على أن من فَعَل فِعْل قوم لوط، حكمه الرّجم، كما تقدّم في سورة الأعراف.

قصة شعيب عليه السلام

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

القراءات:

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ :

وقرأ الكسائي (من إلهٍ غيرِهِ).

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم﴾:

وقرأ نافع، والبزي، وأبو عمرو (إنيَ أراكم).

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: (وإنيَ أخاف).

﴿بَقِيَّتُ﴾:

رسمت بالتاء فوقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾:

قرئ:

١- (أصلاتك) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (أصلواتك) وهي قراءة الباقين.

﴿نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ﴾:

بتسهيل الهمزة الثانية، وإبدالها واواً خالصة، وصلاً قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (وما توفيقيَ).

﴿شِقَاقِيٓ أَن﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (شقاقيَ أن).

﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن ذكوان (أرهطيَ أعز).

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾:

تقدم في القراءات للآيات [٣٦-٤١].

الإعراب:

﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لمعنى عاملها: ﴿تَعْثَوْاْ﴾.

﴿أَن نَّفْعَلَ﴾ في موضع نصب، معطوف على ﴿نَّتْرُكَ﴾ أي: أن نترك عبادة آبائنا وفعل ما نشاء في أموالنا.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ فاعل، والضمير مفعول أول، والثاني: ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾.

﴿ضَعِيفًا﴾ حال من كاف (نراك) لأنه من رؤية العين، ولو كان من رؤية القلب لكان مفعولاً ثانياً.

﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب بتعلمون.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ جاء بالتاء هنا على الأصل، ولم يعتَد بالفصل بالمفعول به بين الفعل والفاعل، وقد جاء القرآن بالوجهين، وكأنه جيء بالتاء ههنا طلباً للمشاكلة؛ لأن بعدها: كما بعدت ثمود، وأنث الفعل على لفظ الصيحة، وذكر في قصة صالح على معنى الصياح.

البلاغة:

﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مجاز عقلي، أسند الإحاطة للزمان الذي هو اليوم، مع أنه ليس بجسم والعذاب فيه.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقى وراء الظهر.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين. والمراد أهل مدين، وهو بلد بناه مدين ابن إبراهيم عليه السلام، فسمي باسمه .﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه .﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بثروة، وسعة في الرزق، ونعمة تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله تعالى، حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير، فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه .﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ بكم، لا يشذ منه أحد منكم، يهلككم، ووصف اليوم به مجاز، لوقوعه فيه.

﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ي أوفوهما بالعدل، أمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء، ولو بزيادة لا يتأتى دونها .﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تنقصوا من حقهم شيئاً .﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي تفسدوا، بنقص الحق أو القتل أو غيره كالسرقة والغارة، وكل من الجملتين الأخيرتين تعميم بعد تخصيص، فقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره. وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ يعمّ العثو تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ رزقه الباقي لكم بعد إيفاء الكيل والوزن، أو ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من البخس ومما تجمعون بالتطفيف ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإن ثواب الفعل الصالح والنجاة مشروط بالإيمان ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح، أو رقيب أحفظ عليكم أعمالكم، فأجازيكم عليها، وإنما أنا نذير ناصح مُبلِّغ، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾ قالوا له استهزاء. ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام، أجابوا به بعد أن أمرهم بالتوحيد. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ معطوف على ﴿مَا﴾، أي: وأن نترك فعلنا ما نشاء بأموالنا، والمعنى: هذا أمر باطل لا يدعو إليه داعٍ بخير، وقصدوا الاستهزاء بصلاته، وكان شعيب كثير الصلوات، فخصوا الصلاة بالذكر، وقالوا: إن دعوتك لا يؤيدها داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه من الصلاة. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قالوا ذلك استهزاء، وتهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك. والحليم: العاقل المتأني، والرشيد: المستقيم على الهداية الراسخ فيها.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ضمير ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى الله، وذلك إشارة إلى ما آتاه الله من الحلال، فهل أشوبه بالحرام، من البخس والتطفيف. وجواب الشرط محذوف تقديره: فهل يعقل لي مع هذه السعادة الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه؟! وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء. ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أذهب إلى ما نهيتكم عنه فأرتكبه. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي ما أريد إلا أن أصلحكم بالعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي وما قدرتي على ذلك وغيره من الطاعات، وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت أمري إليه، فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجز في ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع، إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر، بتقديم الصلة على الفعل.

وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق من الله تعالى، والاستعانة به

في أموره كلها، والإقبال عليه، وحسم أطماع الكفار، وعدم المبالاة بمعاداتهم، وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ لا يكسبنكم خلافي الشديد معكم ومعاداتي. ﴿مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي منازلهم أو زمن هلاكهم، أي مكاناً أو زماناً، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم، فاعتبروا بهم. وإفراد ﴿بِبَعِيدٍ﴾ إما لأن المراد: وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد، أو بزمان أو مكان بعيد.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين، عظيم الرحمة بالتائبين. ﴿وَدُودٌ﴾ محب لهم، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل الصادق الود بمن يودّه، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. ﴿قَالُواْ﴾ إيذاناً بقلة المبالاة. ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم، والفقه: الفهم الدقيق المتعمق. ﴿مِّمَّا تَقُولُ﴾ من التوحيد. ﴿ضَعِيفًا﴾ ذليلاً. ﴿رَهْطُكَ﴾ عشيرتك وقومك، والرهط: من الثلاثة إلى العشرة. ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ بالحجارة. ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي كريم عن الرجم. وهذا ديدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد.

﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتتركوا قتلي لأجلهم، ولا تحفظوني لله. ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي الله. ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ جعلتموه بشرككم كالشيء الملقى خلف الظهر، لا تراقبونه، أو كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به وإهانة رسوله. ﴿مُحِيطٌ﴾ علماً بما تعملون، فيجازيكم؛ لأنه لا يخفى عليه شيء منها.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حالتكم وتمكنكم في قوتكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على حالتي. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الذي يعذبه الله تعالى. ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ انتظروا عاقبة أمركم. ﴿رَقِيبٌ﴾ منتظر. وقد سبق مثله في سورة الأنعام بالفاء: ﴿فَسَوْفَ

تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٥] [ومواضع أخرى] والفاء للتصريح بأن الإصرار على الكفر سبب للعذاب، وحذفها هاهنا؛ لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بإهلاكهم .﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ صاح بهم جبريل فهلكوا. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الرُّكَب ميتين .﴿كَأَن﴾ مخففة أي كأنهم ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ يقيموا .﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ شبههم بهم؛ لأن عذابهم أيضاً كان بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم، وصيحة مدين كانت من فوقهم.

المناسبة:

هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة، وقد تقدم ذكر هذه القصة في سورة الأعراف، وجيء بها في كل موضع لعظة وعبرة وأحكام مختلفة، مع اختلاف في الأسلوب والنظم.

وتضمنت القصة هنا تبليغ شعيب عليه السلام دعوته، ومناقشة قومه له وردّه عليهم، وإنذار شعيب لهم بالعذاب، ثم وقوعه بالفعل، ونجاة المؤمنين.

ومدين: اسم مدينة بين الحجاز والشام قرب (معان) بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام.

التفسير والبيان:

ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم في القبيلة شعيباً الذي كان من أشرفهم نسباً، فقال: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فهذا أمر بالتوحيد الذي هو أصل الإيمان، ثم نهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان، كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-٣] والمطففون: المنقصون، و﴿يُخۡسِرُونَ﴾: ينقصون.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي إني أراكم بثروة وسعة في الرزق ورفاه في المعيشة، تغنيكم عن الطمع والدناءة في بخس الناس حقوقهم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله تعالى، وإني أخشى عليكم عذاب يوم يحيط بكم جميعاً، فلا يترك أحداً منكم، وهو إما عذاب الاستئصال في الدنيا، وإما عذاب الآخرة في جهنم.

ويا قوم وفُّوا الكيل والوزن بالعدل، آخذين ومعطين، وهو أمر بالإيفاء بعد النهي عن البخس، للتأكيد والتنبيه على أنه لا يكفي الامتناع عن تعمد التطفيف، بل يلزمهم الإيفاء ولو بزيادة قليلة.

ثم نهاهم عن النقص في كل الأشياء، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ والبخس: النقص في كل الأشياء، أي إياكم والظلم أو الجور في حقوق الناس .﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ العثو: الفساد التام، أي لا تفسدوا شيئاً من مصالح الدين والدنيا، وقد كانوا يقطعون الطريق، وأنتم تتعمدون الإفساد، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ يشمل إنقاص الحقوق وغيره من أنواع الفساد الدنيوية والدينية، وقوله بعدها ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ معناه: حالة كونكم قاصدين الإفساد، فلا إثم في حال الخطأ أو إرادة الإصلاح.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي ما يبقى لكم من الربح الحلال بعد إيفاء المكيال والميزان خير لكم من الحرام، وأكثر بركة وأرجى عاقبة مما تأخذونه بطريق الحرام، بشرط أن تكونوا مؤمنين؛ لأن جعل البقية خيراً لهم إنما هو متحقق في حال الإيمان، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال، ثم إن الإيمان حافز باعث على الطاعة، فإنهم إن كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب، عملوا على تحصيل ما يؤدي إلى الثواب والنجاة من العقاب، وذلك خير من مسعاهم في أخذ الزائد القليل من الحرام في أثناء الكيل والوزن.

وما أنا عليكم برقيب على أعمالكم، ولا مستطيع منعكم من القبائح،

وإنما أنا ناصح أمين، فافعلوا الحلال والواجب بدافع من أنفسكم لله عز وجل، ولا تفعلوه ليراكم الناس، ما علي إلا البلاغ، وعلى الله حساب الأقوال والأفعال.

ثم ذكر الله تعالى ردّ أهل مدين على شعيب عليه السلام في الأمر بعبادة الله وحده، وترك البخس أو عدم نقص الكيل والميزان.

أما الردّ على الأول وهو العبادة لله فقالوا: ﴿يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ أي هل صلاتك (أي الأعمال المخصوصة) - وكان شعيب كثير الصلاة - تأمرك بترك عبادة الآباء والأجداد وهي عبادة الأوثان والأصنام؟! قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية، وأعلنوا التمسك بطريقة التقليد في التدين والإيمان، كما يقال اليوم لعالم الدين المصلح: هل علمك أو مشيختك دافع لك إلى ترك ما نحن عليه؟!

وأما الردّ على الأمر الثاني وهو ترك البخس فقالوا: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا﴾ أي وهل صلاتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نريد فعله؟ والمقصود بيان أنهم أحرار في أموالهم يتصرفون فيها بما هو مصلحة لهم، ولا يؤدون الزكاة، ولا ينفقون منها شيئاً في سبيل الخير، وإنما يزيدونها بمختلف الوسائل، فما أمرتنا به من ترك التطفيف والبخس، والاقتناع بالحلال القليل، وأنه خير من الحرام الكثير، مناف لسياسة تنمية المال وتكثيره، وما ذلك إلا حَجْر على حريتنا الاقتصادية.

والخلاصة: إن ردهم على شعيب في الأمرين تضمن إمعانهم في التمسك بالتقليد، وفي الطمع المادي الذي لا يبالي فيه صاحبه بالحلال والحرام.

ثم أكدوا سخريتهم وهزأهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي إنك لصاحب الحلم والأناة والعقل والتروي، والرشد والاستقامة! وأرادوا وصفه بضد ذلك من الجهالة والطيش وسفاهة الرأي، وغواية الفعل، فعكسوا ليتهكموا به.

ثم حسم أطماع الكفر فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي فيما أدعو إليه، ويقين تام وحجة واضحة فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ورزقني من لدنه رزقاً طيباً من النبوة والحكمة، أو رزقاً حسناً حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف، أخبروني إن كنت على يقين من ربي، وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكف عن المعاصي، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك، فجواب الكلام محذوف.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء، وأخالف أنا في السر، فأفعله خفية عنكم، والمراد لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه، بل أنا متمسك به.

ثم أكد مهمته: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ أي ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي، وأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر، مدة استطاعتي للإصلاح، لا آلو جهداً في ذلك. وفيه إيماء إلى إثبات عقله ورشده، وإبطال تهكمهم.

وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله وهدايته وعونه، عليه توكلت في جميع أموري، ومنها تبليغ رسالتي، وإليه أنيب أي أرجع. وهذا يعني ثباته على المبدأ والدعوة، دون أن يخشى منهم سوءاً.

ويا قوم، لا يحملنكم خلافي معكم، ولا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم ما أصاب غيركم وأمثالكم من العذاب والنقمة، مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، أو قوم هود من الريح الصرصر العاتية، أو قوم صالح من الرجفة.

وما حدث بقوم لوط من العذاب ليس ببعيد زماناً ولا مكاناً، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم، فاعتبروا بهم.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي اطلبوا المغفرة من ربكم على سالف الذنوب من عبادة الأوثان وبخس المكيال والميزان، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، وارجعوا إلى طاعته، فإن ربي رحيم بمن تاب إليه وأناب، كثير الود والمحبة، يحب من تاب، فهو عظيم الرحمة للتائبين، كثير المودة فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه من الإحسان. وهذا دليل على أن الاستغفار والتوبة عن الذنوب يسقطها، ويكون سبباً لخيري الدنيا والآخرة.

وبعد أن فشلت المحاورات والمجادلات، لجأ القوم إلى الإهانة والتهديد وإلصاق التهم الباطلة بشعيب عليه السلام، وعدم المبالاة به.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ قال أهل مدين: يا شعيب ما نفهم كثيراً من قولك، مع أنه كما قال الثوري: كان يقال له خطيب الأنبياء، وأنت واحد ضعيف، لا حول لك ولا قوة ولا قدرة على شيء من النفع والضر، ولولا جماعتك وعشيرتك الأقربون ومعزتهم علينا، لرجمناك بالحجارة، وليس عندنا لك معزة ولا تكريم، ولا حرمة ولا منزلة في الصدور. والرهط: من الثلاثة إلى العشرة، ورهط الرجل: عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم. والمعنى أنك لما لم تكن علينا عزيزاً، سهل علينا الإقدام على قتلك وإيذائك.

وكل ما ذكروه لا يبطل ما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل، بل هو مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة.

فوبخهم شعيب على سفاهتهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ﴾ أي يا قومي وأهلي، أرهطي أعز وأكرم عليكم من الله، أتتركوني لأجل قومي؟ ولا تتركوني لأجل الله، والله تعالى أولى أن يتبع أمره، وقد اتخذتم جانب الله وراءكم ظهرياً، أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه، ولا تخافون بأسه وعقابه إن أقدمتم على الإساءة لنبيه ورسوله. إن ربي محيط علمه بعملكم، عالم بأحوالكم، فلا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم. وذلك تحذير وتهديد ووعيد.

ولما يئس شعيب عليه السلام من استجابتهم لدعوته أعلن موقف الحسم والفصل فيما بينه وبينهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي يا قوم اعملوا على طريقتكم، واعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم على إلحاق الشر بي، فإني أيضاً عامل على طريقتي بما آتاني الله من القدرة، أي أنتم باقون على الكفر والضلال، وأنا ثابت على الدعوة والثقة بقدرة الله تعالى، وهذا تهديد شديد.

سوف تعلمون من ينزل به عذاب يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة، ومن هو كاذب في قوله مني ومنكم، وانتظروا ما أقول لكم من إيقاع العذاب، إني معكم رقيب منتظر. وهذا تصريح منه بالوعيد، بعد الترك على ما هم عليه.

ثم جاء ما يؤيد صدقه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي ولما جاء أمرنا بعذابهم، ونفذ قضاؤنا فيهم، نجينا رسولنا شعيباً والمؤمنين معه، برحمة خاصة بهم، وأخذت الظالمين بظلمهم الصيحة: وهي صوت من السماء شديد مهلك مُرْجف، وفي سورة الأعراف: هي الرجفة، وفي الشعراء: عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، فأصبحوا قعوداً ميتين لا يتحركون، وقد اختلف التعبير في كل سورة بما يناسب الإساءة، ففي الأعراف هددوا بإخراج شعيب ومن معه من قريتهم، فذكر هناك الرجفة، وهنا أساؤوا الأدب في مقالتهم مع نبيهم فذكر الصيحة التي أخمدتهم، وفي الشعراء طلبوا إسقاط كسف من السماء عليهم، فأخذهم عذاب يوم الظلة.

كأنهم لم يقيموا في بلادهم طويلاً في رغد عيش، ولم يعيشوا فيها قبل ذلك، ألا بُعْداً من رحمة الله، وهلاكاً لهم، كما بعدت وهلكت من قبلهم ثمود، وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

فكان عذابهم واحداً وهو الصاعقة ذات الصوت الشديد، التي زلزلت الأرض من شدتها ورجفت، فخروا ميتين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت قصة شعيب مع قومه على ما يأتي، ومجمله: إيقاع العذاب بعد الإعراض عن رسالة السماء:

١ً - اشتملت دعوة شعيب على جانبين: إصلاح العقيدة وإصلاح الحياة الاجتماعية، ففي الجانب الأول: دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي الجانب الثاني: أمرهم بإيفاء الكيل والميزان وترك البخس والنقص أو التطفيف، فإنهم كانوا مع كفرهم أهل بخس ونقص في حقوق الناس؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام، أخذوا بكيل زائد، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا؛ وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحوا عليه بما يقدرون، فأمروا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك، وبالوفاء بالحق التام الكامل نهياً عن التطفيف، علماً بأنهم كانوا بخير وفي سعة من الرزق وكثرة النعم، لكن الطمع والشره المادي أرداهم وجعل سمعتهم سيئة بين الناس.

٢ً - كان عذاب أهل مدين عذاب استئصال في الدنيا، ودمار عام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، أي الإحاطة بهم، فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم، فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد؛ أي شديد حره. وقيل: هو عذاب النار في الآخرة. جاء في الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء».

٣ً - اكتفى شعيب بمرة واحدة بالدعوة إلى توحيد الإله، ولكنه كرر وأكد

النهي عن بخس الحقوق بألوان مختلفة، فأمر بالإيفاء (أي الإتمام) بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً، ووصف الإيفاء بالقسط أي بالعدل والحق، لكي يصل كل ذي حق إلى حقه، وأراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصَّنجات، ثم عمم بعد التخصيص عن بخس الناس أشياءهم، أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً، ثم نهى عن الإفساد في مصالح الدنيا والآخرة: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي إن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض.

وذكر أن البخس بطر وترف وطمع، فلم يكونوا بحاجة، وإنما كانوا بخير: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي سعة في الرزق والمعيشة، وقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم. وشرط للاستقامة وجود الإيمان: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط هذا؛ لأنهم إنما يعرفون صحة كون بقية الله خيراً إن كانوا مؤمنين.

وجعل رقابة الله في السر والعلن على كل تاجر هي الأساس والباعث على الخشية والطاعة وأداء الحقوق: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم، فلا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق.

٤ - كانت ردود القوم المحجوجين بالأدلة والبينات في غاية الجهالة والسفاهة، فأعلنوا تمسكهم بالتقليد في عبادة الأوثان والأصنام، وادعاء حريتهم التجارية التي لا تقوم على العدل والحق، وسخروا من صلاته وعبادته التي كان يكثر منها، ونالوا من صفاته، فقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي أنت ذو سفاهة وطيش، وغواية وضلال، لا لشيء إلا لأن شعيباً عليه السلام أمرهم

بترك ما كان يعبد آباؤهم!! وإنما أقروا له بذلك؛ لأنه كان مشهوراً فيما بين الناس بصفة الحلم والرشد.

٥ً - كان من قبائحهم قرض الدراهم لتنقيص قدرها، وكسرها لإفساد وصفها، قال المفسرون: كان مما ينهاهم عنه، وعُذِّبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم، كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عَدّاً، وعلى المقروضة وزناً، وكانوا يبخسون في الوزن.

وتلك معاصٍ ومفاسد تستحق العقاب، وتوجب ردّ الشهادة.

٦ً - حسم شعيب عليه السلام أطماع الكفار، سواء في العقيدة أو في صلاح التعامل، وأعلن ثباته على مبدئه بقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي ما أريد إلا فعل الصلاح وإزالة الفساد، وهو أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، ولم يتزحزح عن موقفه في توحيد الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ وثقته به وتفويض أمره إليه ورجوعه إليه في جميع النوائب، واعتماده في الرشد والتوفيق عليه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وإذا كانت هذه صفاتي فاعلموا أن أمري بالتوحيد وترك إيذاء الناس هو دين حق، وأن مهمتي هي الإبلاغ والإنذار، وأما الإجبار على الطاعة فلا أقدر عليه.

ولم يتردد شعيب عليه السلام لحظة واحدة في إيفاء الحقوق وإتمام الكيل والميزان: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي واسعاً حلالاً، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به. وهكذا فإن فعل النبي مطابق لقوله؛ لأنه الأسوة الحسنة، ولا يعقل غير ذلك.

والخلاصة: إنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية والجسمانية، وهي المال والرزق الحسن، فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه، وأن أخالفه في أمره ونهيه.

٧ - دلَّ قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند الله تعالى وبإعانته، وأنه لا مدخل للكسب فيه، وفيه تنبيه على أن الإعزاز من الله تعالى، والإذلال من الله تعالى، وإذا كان الكل من الله فإن شعيباً أراد القول لهم: فأنا لا أبالي بمخالفتكم، ولا أفرح بموافقتكم، وإنما أقرر دين الله، وأوضح شرائعه.

٨ - التهديد والإنذار بالعذاب قبل وقوعه رحمة بالناس ولطف بهم، لعلهم يرعَوُون ويرجعون من قريب إلى الله تعالى وإلى طاعته، وإلى توحيده، والتخلص من الشرك والوثنية. وقد أنذر شعيب عليه السلام قومه أهل مدين بقوله: لا يكسبنكم معاداتي أن يصيبكم عذاب الاستئصال في الدنيا، مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق، ولقوم هود من الريح العقيم، ولقوم صالح من الرجفة، ولقوم لوط من الخسف، وكانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط.

٩ - الاستغفار والتوبة من الذنوب الماضية والتصميم على عدم العود إلى مثلها في المستقبل طريق النجاة والأمن من العذاب؛ لأن الله عظيم الرحمة كثير الودّ والمحبة لعباده لينقذهم من العقاب. روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذاك خطيب الأنبياء».

١٠ - بعد أن يئس الكفار أهل مدين من تحقيق مآربهم عن طريق التهكم والاستهزاء والسخرية من شعيب عليه السلام، لجؤوا إلى التهديد والوعيد مظهرين أنه ضعيف لا سند له، وأنهم أعزة أقوياء، ولولا مجاملة عشيرته لقتلوه رجماً بالحجارة، وما هو بعزيز عليهم ولا كريم، ولا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

وهذا شأن الكفار عادة، يعتمدون على القوة المادية، ويهملون النظر إلى تدبير الله وقوته وقهره وقدرته، لذا أراد شعيب أن يلفت نظرهم إلى ضرورة رعاية جانب الله تعالى، وليس مجرد رعاية جانب قومه، فقال: أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكراماً لرهطي، والله تعالى أولى أن يتبع أمره.

١١ً - قابلهم شعيب عليه السلام بتهديد ووعيد أشد وآكد وأوقع وأصدق، وقال لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ سوف تعلمون الصادق من الكاذب، وسوف ترون من يأتيه عذاب يخزيه ويهلكه. وانتظروا العذاب والسخط، فإني منتظر النصر والرحمة.

١٢ً - كان عذاب أهل مدين كثمود بالصيحة، قيل: صاح بهم جبريل صيحة، فخرجت أرواحهم من أجسادهم، وصاروا ميتين، كأن لم يعيشوا في دارهم.

١٣ً - ينضم إلى العذاب الدعاء على الكفار وإعلان الطرد من رحمة الله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أي هلاكاً لهم وبعداً عن رحمة الله، كما هلكت قبلهم ثمود، وبعدت من رحمة الله تعالى.

١٤ً - من فضل الله ورحمته أنه نجى شعيباً ومن معه من المؤمنين، وهو تنبيه على أن كل ما يصل إلى العبد، لا يكون إلا بفضل الله ورحمته، وأن الخلاص والنجاة والإيمان والطاعة والأعمال الصالحة لا تحصل إلا بتوفيق الله تعالى.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبيس).

البلاغة:

﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ استعارة مكنية، شبه النار بماء يورد، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الورود، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء، للري من العطش.

﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ تأكيد لما سبق؛ لأن الورد يكون عادة لتسكين العطش، وفي النار إلهاب للعطش.

المفردات اللغوية:

﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بالمعجزات، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء [الآية ١٠١] وسورة النمل [الآية ١٢] والمفصَّلة في سورة الأعراف [الآية ١٣٣]. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ السلطان: الدلائل والحجج القوية الظاهرة، والمبين: الظاهر الجلي. والفرق بين هذه الكلمات الثلاث: أن الآيات: اسم

للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن، وبين الدلائل التي تفيد اليقين. وأما السلطان: فهو اسم لما يفيد القطع واليقين، لكنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي تؤكد بالحس، وبين الدلائل التي لم تتأكد بالحس. والسلطان المبين: هو الدليل القاطع الذي تأكد بالحس. ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا، وصفها الله بأنها سلطان مبين.

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ الملأ: أشراف القوم وزعماؤهم. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي وما شأنه وتصرفه بمرشد أو سديد أو بذي رشد وهدى، وإنما هو غيّ محض وضلال صريح.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي يتقدمهم يوم القيامة إلى النار، كما كان يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال ويتبعونه في الحالين، يقال: قدم بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أدخلهم فيها، ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه، ونزل النار لهم منزلة الماء، فسمي إتيانها مورداً. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ هي، أي بئس المورد الذي وردوه، فإن المورد يراد عادة لتبريد الأكباد وتسكين العطش، والنار بالضد من ذلك. والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن من هذه عاقبته لم يكن في أمره رشيداً.

﴿وَأُتْبِعُوا۟﴾ ألحقوا ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ طرداً من رحمة الله ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يلعنون في الدنيا والآخرة ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي بئس العون المعان، أو العطاء المعطى. والمخصوص بالذم محذوف، أي رفدهم وهو اللعنة في الدارين.

المناسبة:

هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وهي آخر قصة في هذه السورة، وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فذكرت في سورة الأعراف

[١٠٤ - ١٠٥] وفي سورة الشعراء [١٧ - ٢٨] وفي سورة طه [٤٨ - ٥٥] وفي سورة القصص [٣٨] وفي سورة غافر [٣٦ - ٣٧].

والعبرة منها واضحة وهي نجاة موسى ومن آمن معه، وهلاك فرعون وأشراف قومه، واللعنة عليهم في الدنيا والآخرة، مثل كفار أولئك الأقوام الظالمين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم، كما تقدم، ولكن عذاب فرعون وملئه وهو الغرق في البحر لم يعمّ جميع قومه.

التفسير والبيان:

تالله لقد أرسلنا موسى بآياتنا التسع ودلالاتنا الباهرة الدالة على توحيد الله إلى فرعون ملك القبط وملئه، وفيها السلطان الواضح الجلي أي الدلالة القاطعة المؤيدة بالحس المشاهد، على صدق نبوته.

وقيل: المراد من الآيات: التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام. وقيل: المراد بها الآيات التسع البينات وهي المعجزات، وهي العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص من الثمرات والأنفس. ومنهم من أبدل بنقص الثمرات والأنفس إظلال الجبل، وفلق البحر.

وفي هذه الآيات سلطان مبين لموسى على صدق نبوته.

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي تبع الملأ منهج فرعون ومسلكه وطريقته في الغيّ والضلال، من الكفر بموسى، وظلم بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم. وإنما خصّ الملأ بالذكر؛ لأنهم القادة والرؤساء المستشارون والمنفذون وغيرهم تبع لهم.

﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي وما شأنه وتصرفه ومنهجه بصالح معقول، فليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وظلم وفساد.

وجزاؤهم في الآخرة: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي يتقدم فرعون كبير قومه وقائدهم إلى نار جهنم يوم القيامة، فيدخلهم فيها؛ لأنه كما اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدم يوم القيامة إلى النار، فأوردهم إياها، وله فيها الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١٦] وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨] وأخبر تعالى عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦٨] وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار».

وورد في القرآن أن آل فرعون يعرضون على النار منذ ماتوا صباحاً ومساء كل يوم، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ، ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٥-٤٦] .

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي وبئس المورد الذي يردونه النار وبئس المدخل المدخول فيه وهو النار؛ لأن وارد الماء يرده للتبريد وإطفاء حرّ الظمأ، ووارد النار يزداد احتراقاً بلهبها ويتلظى بسعيرها. والورد قد يكون بمعنى الورود مصدراً، وقد يكون بمعنى الوارد، والمورود: الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ألحق الله بهم زيادة على عذاب النار لعنة عظيمة في الدنيا من الأمم الآتية بعدهم، وكذلك يوم القيامة يلعنهم أهل الموقف جميعاً، وهم من المقبوحين، فعليهم لعنتان في الدنيا والآخرة فوق عذابهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم

مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٢٨/٤٢] قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي بئس العون المعان والعطاء المعطى هذه اللعنة اللاحقة بهم في الدنيا والآخرة، فقد سميت اللعنات رفداً تهكماً بهم، والرفد: هو العطية. قال ابن عباس عن هذه الجملة: هو اللعنة بعد اللعنة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات المذكورة من قصة موسى مع فرعون وقومه إلى العظات التالية:

١ً - تتابعت آيات الله من التوراة وما فيها من شرائع وأحكام، ومن المعجزات الدالة على وحدانية الله تعالى، إلى فرعون وقومه، فما أفادتهم الآيات، وعصوها، واتبعوا منهج فرعون ومسلكه في الغي والضلال.

٢ً - ليس مسلك فرعون وغيره من الفراعنة المتألهين بسديد يؤدي إلى الصواب، ولا بمرشد إلى خير، وإنما هو غيّ وضلال، وكفر وفساد.

٣ً - كل قائد إلى الضلال في الدنيا قائد إلى النار يوم القيامة، وله عذاب مضاعف.

٤ً - لفرعون وآله فوق عذاب جهنم لعنتان: في الدنيا والآخرة، وهم معذبون في قبورهم عذاباً شديداً، ويعرضون فيها على النار صباحاً ومساء.

٥ً - بئست عاقبة الكافرين، وبئس العطاء المعطى لهم وهو نار جهنم، الموصوفة في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢٢].

العبرة من قصص الأمم الظالمة في الدنيا

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

القراءات:

﴿جَآءَ أَمْرُ﴾ :

تقدم في القراءات للآيات (٣٦-٤١).

الإعراب:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ﴾ مبتدأ وخبر، أو على إضمار مبتدأ أي الأمر ذلك، وذلك: يشار به إلى الواحد والاثنين والجماعة .﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر، أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها، أي بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال من القرى.

البلاغة:

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ استعارة مكنية، شبه الباقي من آثار القرى بعد تدميرها بالزرع القائم على ساقه، وشبه ما دمّر مع أهله بالزرع المحصود.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مجاز مرسل، أطلق المحل وأراد الحالّ وهو أهل القرى.

المفردات اللغوية:

﴿ذَٰلِكَ﴾ النبأ المذكور سابقاً. ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ المهلكة. ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ مقصوص عليك يا محمد. ﴿مِنۡهَا﴾ أي من تلك القرى. ﴿قَآئِمٞ﴾ باق كالزرع القائم، وهلك أهله دونه. ﴿وَحَصِيدٞ﴾ أي ومن القرى زال أثره وهلك بأهله، فلا أثر له كالزرع المحصود بالمناجل.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بإهلاكهم بغير ذنب. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ بالشرك الذي عرضوها به للعذاب. ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم، بل ضرتهم. ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ﴾ التي يعبدون. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره. ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ من صلة زائدة. ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ﴾ بعبادتهم لها. ﴿غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ غير هلاك أو تخسير.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ. ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أهلها. ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ بالذنوب، فلا يغني عنهم من أخذهم شيء. ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجوّ الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

المناسبة:

المناسبة ظاهرة بين هذه الآيات وما قبلها من الآيات، فبعد أن ذكر الله تعالى قصص الأنبياء مع الأمم السابقة (وهي سبع: قصة نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام) قال منبهاً إلى ما فيها من العظة والعبرة: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾﴾.

فيتعلم منها الإنسان أسلوب الجدال ومقارعة الحجة بالحجة، وتأييد الأدلة العقلية بالقصص الواقعية، ويتهيأ السامع والقارئ للاستفادة من عبرها

وعظاتها، فيلين قلبه، وترق نفسه، وتخشع جوارحه لذكر الله ويرهب عذابه للعصاة، ويعلم أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فيها، والثواب الجزيل في الآخرة، وأن الكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فيها، والعقاب في الآخرة.

وهي دليل على صدق نبوة محمد ﷺ، لإخباره عن تلك القصص من غير مطالعة كتب، ولا مدارسة مع معلم، ولا تلمذة لأحد، وهي معجزة عظيمة تدل على النبوة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١٢/١١١][١].

التفسير والبيان:

لما أخبر الله تعالى عن الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين، ونجّى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ذلك النبأ المذكور بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك يا محمد، لتخبر به الناس، ويتلوه المؤمنون إلى يوم القيامة تبليغاً عنك. وقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الغائب، والمراد به هنا الإشارة إلى القصص المتقدمة، وهي حاضرة، كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢/٢] .

من تلك القرى ما له أثر باق كالزرع القائم على ساقه، كقوم صالح، ومنها ما عفا أثره ودَرَس حتى لم يعد له أثر كالزرع المحصود، مثل قرى قوم لوط.

وما ظلمناهم بإهلاكهم من غير ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، وشركهم وإفسادهم في الأرض، وثقتهم أن آلهتهم المزعومة تدفع عنهم المخاوف والمخاطر والمحاذير .﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فما نفعتهم شيئاً ولا دفعت عنهم بأس الله، بل ضرتهم أوثانهم التي كانوا

(١) تفسير الرازي: ١٨/٥٥

يعبدونها ويدعونها من دون الله أو غيره، فما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم. وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي يَدۡعُونَ﴾ حذف، أي التي كانوا يدعون أي يعبدون. وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ﴾ فيه إضمار ومضاف محذوف أي ما زادتهم عبادة الأصنام.

وما زادوهم غير تخسير وهلاك؛ لأن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فخسروا الدنيا والآخرة.

ومثل ذلك الأخذ بالعذاب، وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، كذلك نفعل بأشباههم، فنأخذ القرى ونهلكها وهي في حالة الظلم الشديد، إن أخذه وجيع شديد لا يرجى منه الخلاص. وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم. وفي قوله: ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ مضاف محذوف أي وأهلها ظالمون، مثل ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٢] . ومعنى: إن أخذه أليم شديد أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة.

ورد في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - فائدة القصص القرآني العظة والاعتبار، فإن كل من يشاهد آثار تلك القرى المهلكة، أو يعلم بما حدث لها من غير وجود أثر ظاهر، يأخذه الخوف والوجل والرهبة، ويخشى أن يتعرض لما تعرض له الأقدمون من عذاب مخيف.

٢ - إن الله تعالى كما أخذ الأمم المتقدمة كقوم نوح، وعاد ثمود، يأخذ جميع الظالمين على النحو ذاته، كما أفاده قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ ثم زاده

تأكيداً وتقوية بقوله: ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ فوصف العذاب بالإيلام والشدة، والألم وشدته سبب المنغصة في الدنيا والآخرة. والآية تفيد أن كل من شارك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي، فلا بد وأن يشاركهم في الأخذ الأليم الشديد.

٣ً - لم يكن عقاب تلك الأمم الظالمة إلا بما بدر منهم من ظلم وهو الكفر والمعاصي، وكان عقابهم عدلاً وحكمة.

٤ً - كل من أقدم على ظلم، يجب عليه أن يتدارك ظلمه بالتوبة والإنابة، لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد.

٥ً - لم تنفع المشركين والكافرين آلهتهم المزعومة بل أضرت بهم، وما زادتهم عبادة الأصنام إلا خسارة ثواب الآخرة.

العبرة في قصص القرآن بجزاء الآخرة

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (وما نوَخِّره)

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾:

- قرأ ورش، والسوسي وصلاً (يوم ياتي).

- وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (يوم يات).

- وقرأ قالون، والدوري، والكسائي وصلاً، وابن كثير وصلاً ووقفاً (يوم يأتي).

- وقرأ الباقون وصلاً ووقفاً (يوم يأت).

﴿سُعِدُواْ﴾:

قرئ:

١- (سُعِدُوا) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (سَعِدوا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ خبر المبتدأ أو نعت ليوم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ مرفوع لمجموع، أي يجمع له الناس، لأن اسم المفعول بمنزلة اسم الفاعل في العمل لِشبْه الفعل.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ ابتداء وخبر.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ فيه ضمير يعود إلى قوله: ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. و﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ إما صفة ليوم، أي يوم يأتي لا تكلم نفس فيه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٨] أي فيه، وإما حال من ضمير ﴿يَأْتِ﴾ أي يوم يأتي اليوم

المشهود غير متكلم فيه نفس، وتكلم: حذف منه إحدى التاءين. ويوم: منصوب بما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي شقِي حِينئذ من شقِي، وسَعِد من سعِد.

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَٰتُ﴾ ﴿مَا﴾ ظرفية زمانية مصدرية في موضع نصب، تقديره: مدة دوام السماوات والأرض.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ﴿مَا﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء منقطع.

﴿عَطَآءً﴾ منصوب على المصدر المؤكد، أي أعطوا عطاء، أو منصوب على الحال من ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾.

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ حال من النصيب.

البلاغة:

﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بينهما طباق.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ فيه لف ونشر مرتب.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من القصص أو ما نزل بالأمم الهالكة. ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يعتبر بتلك القصص من خاف العذاب الأخروي، لعلمه بأن ما نزل بتلك الأقوام أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ أي يوم القيامة، دل عليه عذاب الآخرة. ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس، واستعمل صيغة ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه، فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٦٤/٩] ومعنى الجمع له: الجمع لما فيه من الحساب والجزاء. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يشهده جميع

الخلائق، والمعنى الأدق: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين، ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه، لبطل المقصود من تعظيم اليوم وتمييزه، فإن سائر الأيام كذلك.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي لوقت معلوم عند الله، فهو على حذف مضاف، أي إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية. ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم والجزاء. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بإذن الله تعالى. ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من الخلق أهل الموقف. ﴿شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد، فالشقي: من استحق النار لإساءته. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة، بموجب الوعد، والسعيد: من استحق الجنة لعمله مع فضل الله ورحمته. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ في علم الله تعالى. ﴿زَفِيرٌ﴾ صوت شديد. ﴿وَشَهِيقٌ﴾ صوت ضعيف، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم. وأصل الزفير: إخراج النَّفَس، الشهيق: إدخال النفس مع السرعة والجهد.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي مدة دوامهما في الدنيا، وليس المراد ارتباط دوامهم في النار بدوام السماوات والأرض، فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم، وانقطاع دوامهما. والمقصود التعبير عن التأبيد بما كانت العرب يعبرون به على سبيل التمثيل. والمفهوم لا يقاوم المنطوق. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ غير ما شاء الله من الزيادة على مدتهما، مما لا منتهى له، والمعنى: خالدين فيها أبداً. أو أن هذا استثناء من الخلود في النار؛ لأن بعضهم وهم فسَّاق الموحدين يخرجون منها.

والخلاصة: إن خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار ثابت بنصوص القرآن العديدة، وأما الاستثناء بالمشيئة هنا، فيراد به الدلالة على الثبوت والاستمرار، وعبر بذلك لبيان أن هذه القضايا بمشيئة الله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي من غير اعتراض أحد.

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع.

﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد. ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ شك. ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ من الأصنام، إنا نعذبهم، كما عذبنا من قبلهم، وهذا تسلية للنبي ﷺ. ﴿كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ أي كعبادتهم، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ﴾ معناه تعليل النهي عن المرية، أي هم وآباؤهم سواء في الشرك. ﴿نَصِيبَهُمۡ﴾ حظهم من العذاب. ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ أي تاماً.

المناسبة:

الآيات متصلة بما قبلها من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظالمة، فبعد أن ذكر الله تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظالمة في الدنيا، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسعداء، وهي إقامة الدليل على صدق الأنبياء وصدق وعد الله في الآخرة، والترهيب من عصيان الله والكفر به، لئلا يكون الإنسان من الأشقياء الذين يصلَون النار، والترغيب بالإيمان وطاعة الله ليصير المؤمن الطائع مع السعداء الذين يتمتعون بالجنة.

التفسير والبيان:

إن في ذلك القصص المتقدم المتضمن إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين لدليلاً واضحاً وحجة قوية على صدق وعد الله في الآخرة، لمن يؤمن بها ويخاف عذابها، فيتقي الكفر والظلم والعصيان في الدنيا؛ لأنه يعلم أن ما أخبر به الأنبياء من البعث والجزاء صدق لا شك فيه، وأن من عذب الظالمين في الدنيا قادر أن يعذبهم في الآخرة، وأن ما أصاب المجرمين في الدنيا ما هو إلا أنموذج لعذاب الآخرة.

قال الزمخشري: قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم وقوله: ﴿لَأٓيَةٗ﴾ أي لعبرة لمن خاف عذاب الآخرة؛

لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عِظَمه وشدته، اعتبر بعظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى، ونحوه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٦][1].

ذلك اليوم يوم عذاب الآخرة يجمع فيه الناس جميعاً أولهم عن آخرهم، ليحاسبوا على أعمالهم، ثم يجازوا عليها، كقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٧] وذلك يوم مشهود، أي عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

والتصرف في الخلائق، سواء في الدنيا بإهلاك تلك الأمم وأمثالها، أو في الآخرة، إنما هو بإرادة الله واختياره لتربية الأمم، لا بالطبيعة كما يزعم الماديون الذين قالوا: إن الطوفان أو الغرق، والصاعقة، وخسف الأرض أو الزلازل أمور طبيعية غير إلهية. وأبسط رد عليهم أن تلك العقوبات حدثت بعد إنذار الرسل لأقوامهم، وحددوا لهم وقتاً معلوماً، كما قال صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ١١/ ٦٥] وقال لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ١١/ ٨١].

ثم أخبر الله تعالى عن تأخير يوم القيامة وعذابه إلى أجل معين: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لانتهاء مدة محدودة في علمنا، لا يزاد عليها ولا ينقص منها، وهي عمر الدنيا، لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم، وتصحيح عقيدتهم، كقوله تعالى:

(١) الكشاف: ٢/ ١١٥

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٨].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى، فهو صاحب الأمر والنهي، ولا يملك أحد فيه قولاً ولا فعلاً إلا بإذنه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٧٨/٣٨] وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٨].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ﴾ أي فمن أهل الجمع من الناس في ذلك اليوم شقي معذَّب لكفره وعصيانه، ومنهم سعيد منعّم في الجنان لإيمانه واستقامته، كما أخبر تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/٧] فمن أريد له الشر فعمل الشر فهو من أهل الشقاوة، ومن أريد له الخير فعمل الخير، فهو من أهل السعادة، وكل ميسر لما خلق له.

روى الترمذي والحافظ أبو يعلى في مسنده عن عمر قال: لما نزلت: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، علامَ نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه، أم على شيء لم يُفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فُرغ منه يا عمر، وجرت به الأقلام، ولكن كلٌّ ميسَّر لما خلق له، وقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٩٢/٥-١٠]».

ثم بيَّن الله تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال عن الفريق الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي فأما الأشقياء فهم في جهنم مستقرهم ومثواهم، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السَّيء لهم من الهم والكرب وضيق الصدر زفير وشهيق، تنفسهم زفير، وإخراجهم النَّفَس شهيق، لما هم فيه من العذاب، كما ذكر ابن كثير، مع أن الزفير في العادة هو إخراج النَّفَس، والشهيق: ردّه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها على الدوام، مدة بقاء السماوات والأرض، والمراد التأبيد ونفي الانقطاع، على سبيل التمثيل وقول العرب: أفعل كذا أو لا أفعله ما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وما تغنَّت حمامة. ويجوز أن يكون المراد سماء الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن للآخرة سماوات (ماهو فوق الخلائق) وأرض (ماهم مستقرون عليه) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٨] وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤] ولأنه لابد لأهل الآخرة مما يقلّهم ويظلهم، وكل ما أظلك فهو سماء. قال ابن عباس: لكل جنة أرض وسماء.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يراد بهذا الاستثناء الدلالة على الثبوت والاستمرار؛ لأنه ثبت خلود أهل الجنة والنار فيهما إلى الأبد من غير استثناء، والمقصود بذلك بيان أن الخلود بمشيئة الله تعالى، ولا يخرج شيء في الدنيا والآخرة عن المشيئة الإلهية. وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٨] وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٧/١٨٨] وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٦-٧] والمراد بذلك كله تقييد الأحكام بمشيئة الله تعالى فقط، لا لإفادة عدم عمومها.

وهذا هو الظاهر الراجح. قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار.

وللعلماء المفسرين أحد عشر قولاً ذكرها القرطبي(١)، قال الزمخشري: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٩٩ وما بعدها، تفسير الرازي: ١٨/ ٦٥ وما بعدها.

النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، بما هو أغلظ منها كلها، وهو سخط الله عليهم وإهانته إياهم. وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ماهو أكبر منها، وأجلّ موقعاً منهم وهو رضوان الله، ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة، مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء، والدليل عليه قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

أي إنهم خالدون في كل من الجنة والنار إلا ما شاء ربك من تغيير هذا النظام المعدّ، أو الإضافة أو النقص منه، ويكون المراد أن كل شيء في قبضته وتحت تصرفه، إن شاء أبقاه وإن شاء منعه.

وقال أبو حيان: والظاهر أن قوله ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الزمان الدال عليه قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ والمعنى إلا الزمان الذي شاءه الله تعالى، فلا يكون في النار ولا في الجنة، ويمكن أن يكون هذا الزمان المستثنى هو الزمان الذي يفصل الله بين الخلق يوم القيامة، إذا كان الاستثناء من الكون في النار والجنة؛ لأنه زمان يخلو فيه الشقي والسعيد من دخول النار أو الجنة.

وأما إن كان الاستثناء من الخلود، فيمكن ذلك بالنسبة إلى أهل النار، ويكون الزمان المستثنى هو الزمان الذي فات أهل النار العصاة من المؤمنين الذين يخرجون من النار، ويدخلون الجنة، فليسوا خالدين في النار؛ إذ قد أخرجوا منها، وصاروا في الجنة. وأما بالنسبة إلى أهل الجنة فلا يتأتى منهم ما تأتى في أهل النار؛ إذ ليس منهم من يدخل الجنة، ثم لا يخلد فيها[2].

---

(١) الكشاف: ٢/١١٦

(٢) البحر المحيط: ٥/٢٦٣

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، على وفق علمه ومقتضى حكمته، فهو يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له.

ثم ذكر الله تعالى جزاء الفريق الثاني وهم السعداء: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ أي وأما أهل السعادة وهم أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، خالدين فيها، أي ماكثين فيها أبداً، مدة دوام السماء والأرض، بمشيئة الله تعالى، عطاء غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢٥].

قال ابن كثير: معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَس(١).

فكل من جزاءي أهل النار وأهل الجنة دائم بمشيئة الله تعالى، فعذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته تعالى، وأنه بعدله وحكمته موافق لأعمالهم، وثواب أهل الجنة في الجنة بحسب مشيئته تعالى أيضاً جزاء بما كانوا يعملون، إلا أنه تعالى أورد فرقاً في ختام آية كل من الفريقين، فقال عقب بيان حال الأشقياء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٣] وقال عقب بيان حال السعداء: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ لتطييب القلوب، والإشارة إلى أن جزاء المؤمنين هبة منه تعالى وإحسان دائم، قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٠

وجاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: ياأهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت» وفي الصحيح أيضاً: «فيقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تَنْعَموا، فلا تيأسوا أبداً».

وبعد ذكر أحوال الأشقياء والسعداء، أنذر الله تعالى أعداء النبي ﷺ بتعذيبهم كما عذب الأمم المهلكة المتقدمة، فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي إذا علمت يامحمد كل ما ذكر، وعرفت سنة الله في عباده، فلا تك في شك في عاقبة ما يعبد المشركون، وفي نهايتهم، فكل ما يعبدون باطل وجهل وضلال، وعذابهم محقق لا شك فيه، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ووعيد لقومه.

إنهم يعبدون الأوثان والأصنام مثلما يعبد آباؤهم، فهم مثلهم في الجهل، وهم مقلدون لهم، فليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً، أما حسنات أعمالهم في الدنيا فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة تماماً غير منقوص، فإذا كانوا محسنين فيها كِبر الوالدين وصلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء، وفعل الخير، فإن الله تعالى يوفيهم جزاءهم عليها في الدنيا بسعة الرزق والصحة، والسرور، ودفع الضرر، وهو جزاء عاجل زائل، وتمام غير نقص؛ بمقتضى العدل الإلهي، فلا يغترن أحد بما يراه في الكفار أحياناً من نعمة ورخاء في الدنيا، فإن لهم الدنيا فقط، ويحرمون من نعيم الآخرة، وليس لهم فيها إلا العذاب الشديد بسبب كفرهم بالله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

أ - الأنبياء على صدق تام فيما أخبروا به من أخبار الماضين، ومغيبات

المستقبل، سواء في عالم الدنيا، أو في عالم الآخرة، من وقوع العذاب والعقاب، والحشر والحساب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي لعبرة وموعظة لمن يخشى عذاب القيامة. وقوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ يدل على إثبات الحشر، فالجمع: الحشر، أي يحشرون ليوم القيامة. وهو يوم يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء.

٢ً - البعث حق، ولكن اقتضت حكمة الله تأخير يومه لأجل معلوم معدود سبق به قضاؤه.

٣ً - السلطان المطلق في يوم القيامة لله عز وجل، فلا يتكلم فيه أحد بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه تعالى. قال قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطن ومواقف، في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم الكلام. وهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه.

٤ً - الناس يوم القيامة صنفان: شقي وسعيد، الأشقياء في النار، والسعداء في الجنة، وكلاهما خالد مخلد فيما هم فيه، من العذاب أو الثواب، بمشيئة الله وإرادته.

وهذا الحكم من الله لا يتغير ولا يتبدل، فمن حكم الله عليه بحكم، وعلم منه عمله وأمره، امتنع أن يصير بخلافه، وإلا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذباً، وعلمه جهلاً، وذلك محال، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقياً، وأن الشقي لا ينقلب سعيداً.

٥ً - اتفق الجمهور الأعظم من الأمة على أن عذاب الكافر دائم؛ لأن الخلود المذكور في الآية المرتبط بدوام السماوات والأرض يقصد به الدوام، على نحو تعبير العرب الذين يعبرون عن الدوام والأبد بقولهم: ما دامت السماوات والأرض، وقولهم: ما اختلف الليل والنهار، وما طما البحر، وما أقام الجبل. أو أن المراد سماوات الآخرة وأرضها، وفي الآخرة سماء

وأرض، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٨] وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٣٩/٧٤] وأيضاً لابد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم، وذلك هو الأرض والسماوات.

٦ً - قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يدل على أن خلود أهل النار فيها وخلود أهل الجنة فيها حاصل بمشيئة الله تعالى، ولا يخرج شيء في الدنيا والآخرة عن المشيئة الإلهية، والمراد بالآية الدلالة على الثبوت والاستمرار. واستدل الرازي بالآية على أنه تعالى يخرج الفساق المؤمنين من أهل الصلاة من النار، وهو المراد بهذا الاستثناء في ترجيحه المشابه له ترجيح أبي حيان، فالآية استثناء من الخلود، وهي في الذين زال حكم الخلود عنهم وهم عصاة المؤمنين.

وأما الاستثناء بالنسبة لأهل السعادة فيراد به في وجه ذكره الرازي رفع المنازل، فقد يرفع الله من الجنة إلى العرش، وإلى المنازل الرفيعة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٩/٧٢].

٧ً - نعيم أهل الجنة دائم غير منقطع ولا ممنوع، لقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٣٣].

٨ً - إن عبادة المشركين أوثانهم وأصنامهم لا دليل عليها من العقل والمنطق، وإنما صادرة عن محض الجهل وتقليد الآباء والأسلاف، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية، أي فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع، وأن الله عز وجل ما أمرهم بعبادتها، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم.

٩ - الله تعالى عادل أيضاً في حق الكفار، فيوفيهم ثواب أعمالهم الحسنة في الدنيا، ولا يكون لهم ثواب عليها في الآخرة؛ لأن قبول الأعمال حينئذ منوط بالإيمان، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أي إنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية. ويحتمل أن يكون المراد: ما وُعدوا به من خير أو شر، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أيضاً إرادة أنه يوفيهم نصيبهم من العذاب، وربما كان الكل مراداً.

أهداف القصة في القرآن:

قد يتكرر إيراد القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة، لمناسبات متعددة، وتأثير نفسي متفاوت، وإيحاء متنوع الهدف. ويظهر لنا من بيان قصص الأمم السابقة في هذه السورة وغيرها من السور المكية غالباً أنها تهدف إلى تحقيق أغراض معينة أهمها ما يأتي:

أ - الإخبار عن تواريخ بعض الأمم الماضية، وإلقاء الأضواء على حوادث غيبية مهمة جداً، لم يكن يدري بها النبي ﷺ ولا أحد من قومه ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٢] ، فيكون ذلك دليلاً على صدق نبوته، وأن هذا القرآن من عند الله، وليس افتراء منه، كما زعم المشركون إذ قالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤-٦][١].

(١) أساطير الأولين: القصص والأكاذيب القديمة، وكانت العرب لجهلها تزعم ذلك.

٢ - إخبار الناس جميعاً عن جهود الأنبياء والرسل في سبيل نشر دعوتهم، وصراعهم مع أقوامهم، ومجادلاتهم ومناقشاتهم السديدة المتنوعة لإظهار الحق وإبطال الباطل، ومدى استجابة أقوامهم لهم وإعراضهم عنهم، وتسلية لنبينا ﷺ عما كان يؤلمه من صدود الناس عن الإيمان برسالته، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١١/١٢٠] وفيها بيان كونهم الأسوة الحسنة للجهاد والصبر الشديد على الدعوة: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٣٥].

٣ - إظهار كون الأنبياء متفقين في أصول رسالتهم، وتأييد بعضهم بعضاً في الدعوة إلى توحيد الله، والإيمان بالبعث والجزاء واليوم الآخر، وتبيان أصول الخير المشترك من الفضائل والأخلاق والقيم العليا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٢/١١١].

٤ - القصة عنصر مشوق، جذاب محبب، مرغوب فيه في التربية والتعليم وإثبات البراهين العقلية بالوقائع الحسية، لا يختلف في التأثر بأسلوبها وحكاية عناصرها الكبار والشباب، والنساء والفتيات، وذلك يؤدي إلى غرس بذور الإيمان، والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية، مما يجعل القصة مدرسة إلهية للمؤمنين، أساتذتها الأنبياء، وواقعها الأقوام، وتاريخها قديم عريق، وموضوعها إهلاك الظالمين، وغايتها التهذيب والإصلاح والتربية الحسنة.

٥ - تهدف القصة القرآنية في المرتبة الأولى إلى إثبات توحيد الله وتقرير وجوده، وإثبات النبوة، والبعث، ويتخللها أحكام تشريعية هادفة مفيدة للفرد والجماعة، وللأمة والدولة، ولكل الشعوب والحكام.

٦ً - تبين القصة أن مهمة النبي مجرد تبليغ الوحي، وإعلام الناس بالإنذارات الإلهية بوقوع العذاب قريباً أم بعيداً، دون أن يكون لديه سلطان ما في التأخير والتغيير، والنفع والضر.

٧ً - تظهر القصة أيضاً مدى التماثل في طباع البشر، ومدى استعدادهم للإيمان والكفر، والخير والشر.

٨ً - في القصة إظهار سلطان الله وقدرته وقوته القاهرة في تعجيل العذاب، الذي هو أنموذج عن عذاب الآخرة.

٩ً - تتضمن القصة التأييد الإلهي للرسل، وإظهار آيات الله ومعجزاته وحججه على الناس، مما يحمل على الإقناع بصحة الدعوة الإلهية، والإيمان بأصحابها الرسل.

١٠ً - كان لكل قصة مواعظ وعبر خاصة، تختلف باختلاف أصحابها، فقصة قوم نوح مثلاً تمثل الغرور المستحكم والإصرار على الوثنية، وقصة قوم عاد تظهر مدى الاعتداد بالبطش والقوة والتجبر والعتو، وقصة قوم لوط تدل على انحطاط المستوى الإنساني، والشذوذ الجنسي، والفحش الأخلاقي، وقصة قوم شعيب مظهر من مظاهر الانحراف الاجتماعي أو الظلم الاجتماعي وأخذ حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل، وقصة قوم فرعون مثل بارز للاعتماد على السلطان والثروة والجاه، تهز عروش وكيان المتفرعنين الجبابرة في كل زمان ومكان، وجميع تلك القصص لمقاومة الوثنية والفوضى في نظام المجتمع، فإن كل أولئك الأمم كانوا وثنيين عبدة أصنام، وكانت جهود الأنبياء المكثفة مركزة على تخليص الناس من عبادة الأوثان والأصنام.

١١ً - القصة في الجملة عظة وعبرة، وعلاج للنفوس، واعتبار بما حل بالعصاة والكفار المتمردين، مما يذهل العقل، ويشيب الرأس، ويقطّع نياط القلب، ويجعل الإنسان في دهشة وخوف ورعب.

١٢ً - إن إخبار نبي أمي غير كاتب ولا قارئ، ولا راوٍ ولا حافظ، وهو نبينا عليه الصلاة والسلام، عن تلك القصص، دليل قاطع على نبوته، وسمو رسالته، وحرصه على نشر العلوم والمعارف، وخفق ألوية الهدى والرشاد، ودليل قبل كل شيء على أن هذا القرآن كلام الله ودستوره لبني البشر إلى يوم القيامة.

١٣ً - تضمنت القصص صلابة كل نبي على مبدئه ودعوته، وإن تعرض للإساءة وتسفيه الرأي، والتصميم أحياناً على قتله أو إبعاده، والأمثلة كثيرة، منها: ما حكاه القرآن عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٨/١١] وتكرر مثل ذلك على لسان شعيب [هود: ٨٨/١١] وغيره من الأنبياء.

ومنها ما حكاه عن هود: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٦-٦٧].

ومنها ما قال قوم شعيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١/١١].

١٤ً - تكرار القصة الواحدة في سور القرآن أكثر من مرة إنما هو لتحقيق مقاصد وأهداف ومعان كثيرة، لتكون ماثلة أمام الأعين في كل جيل. ولكن تكرارها لم يكن مملاً وإنما كان بأساليب متنوعة تجتذب الأنظار، وتنبه العقول، وتطرد السآمة والملل من نفس القارئ والسامع.

التذكير بعاقبة الاختلاف في التوراة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

القراءات:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾:

قرئ:

١- (وإنْ كلّاً لمَا) وهي قراءة نافع، وابن كثير.

٢- (وإنَّ كلاًّ لمَا) وهي قراءة أبي عمرو، والكسائي.

٣- (وإنَّ كلاًّ لمَّا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ إن بالتشديد هو الأصل فيها، و﴿كُلًّا﴾: اسمها المنصوب. ومن قرأ (إنْ) بالتخفيف، أعمل (إن) المخففة، كما أعملها مشددة، كما يعمل الفعل تاماً ومخففاً. وأما ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد فهو مشكل، إذ ليست هنا بمعنى الزمان، ولا بمعنى إلا، ولا بمعنى لَمْ، وقيل فيها بأوجه منها: أن الأصل فيها «لَمَنْ ما» ثم أدغم النون في الميم، فاجتمع ثلاث ميمات، فحذفت الميم المكسورة، وتقديره: وإن كلاً لَمَنْ خَلَقَ ليوفينهم. ومنها: أن تكون «ما» زائدة، وتحذف إحدى الميمات، وتقديره: لخلق ليوفينهم. ومن خفف الميم من «لَمَا» جعل «ما» زائدة، أتى بها ليفصل بين اللام التي في خبر (إنّ) ولام القسم

التي في ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾. وقال الزمخشري: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، يعني وإن كلهم، وإن جميع المختلفين فيه. و﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف واللام في ﴿لَمَّا﴾ موطئة للقسم، وما: مزيدة للفصل، والمعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم، ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ للتأكيد.

البلاغة:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب فآمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف مشركو مكة في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحساب والجزاء للخلائق يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا فيما اختلفوا فيه، بإنزال ما يستحقه المبطل، ليتميز به من المحق ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار مكة، أو المكذبين بالتوراة ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ لفي شك في القرآن أو في التوراة، موقع في الريبة.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ إن بالتشديد والتخفيف، أي وإن كل المختلفين، المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين: بدل المضاف إليه ﴿لَّمَّا﴾ ما: زائدة، واللام موطئة لقسم محذوف مقدر، واللام الثانية التي في ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ للتأكيد، أو بالعكس، وما: مزيدة للفصل بين اللامين. ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جزاءها ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم ببواطن العمل كظواهره.

المناسبة:

بعد أن ذكَّر الله تعالى مشركي مكة بمصير الأمم الهالكة لكفرهم، ذكَّرهم هنا أيضاً بقوم موسى الذين اختلفوا في التوراة، بين مؤمن وكافر، فعاقبهم الله وجازاهم بسوء أعمالهم. وهو يدل على أن سيرة الكفار الفاسدة مع كل

الأنبياء واحدة، فكما أنكر كفار مكة التوحيد، أنكروا أيضاً نبوة محمد ﷺ، وكذبوا بكتابه، شأنهم في ذلك شأن وعادة الكفار من قبلهم.

التفسير والبيان:

والله لقد آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل من بعده، ظلماً وبغياً، وتنازعاً على الزعامة والمصالح المادية، فآمن به قوم وكفر به آخرون، مع أن الكتاب نزل لتوحيد الكلمة وجمع الناس على منهج واحد، فلا تبال يامحمد باختلاف قومك في القرآن، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك أسوة، فلا تجزع لتكذيبهم.

ولولا كلمة من ربك أي لولا سبق القضاء والقدر بتأخير العذاب إلى أجل مسمى، لقضي بينهم في الدنيا، بإهلاك العصاة، وإنجاء المؤمنين، كما حدث لأمم آخرين.

وإن المكذبين لفي شك موقع في الريبة والقلق، والظاهر عود الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على قوم موسى عليه السلام؛ إذ هم المختلفون في الكتاب، الشاكون في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٤] والذين أورثوا الكتاب: هم اليهود والنصارى، والتوراة قد فقدت مع إحراق البابليين لهيكل سليمان، وقيل: يعود الضمير على المختلفين في الرسول من معاصريه. قال ابن عطية: وأن يعمهم اللفظ أحسن عندي. وهذه الجملة من جملة تسليته ﷺ[1].

وإن كلاً من المؤمنين والكافرين المختلفين في كتاب الله ليوفينهم الله جزاء أعمالهم، وما وعدوا به من خير أو شر؛ لأنه خبير بتلك الأعمال كلها، ولا يخفى عليه شيء منها. وهذا أيضاً تسلية للنبي ﷺ، وتهديد ووعيد لقومه.

(١) البحر المحيط لأبي حيان: ٥/ ٢٦٦

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيتين ما يأتي:

١ - عادة الناس واحدة مع كل الأنبياء، فمنهم من يقبل دعوتهم، ويؤمن برسالتهم، ومنهم من ينكرها، وكفار قوم موسى وغيرهم أنكروا التوحيد، وأصروا على إنكار النبوات، والتكذيب بالكتب السماوية، وكذلك كفار مكة وغيرهم من قوم محمد ﷺ وغيرهم مثل من تقدمهم فيما ذكر، فيكون جزاؤهم واحداً.

٢ - الاختلاف في الكتاب الإلهي كالتوراة والقرآن، بأن يؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم الآخر، موجب للعقاب والعذاب في الآخرة.

٣ - حكم الله عز وجل أن يؤخر عقاب الكافرين كبني إسرائيل لانقسامهم بالنسبة إلى التوراة بين مكذب بها ومصدِّق بها، إلى يوم القيامة، لما علم في حكم التأخير من الصلاح؛ ولولا التأخير، لقضي بينهم أجلهم، بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر، وينزل عذاب الاستئصال عليهم، لكن المتقدم من قضاء الله أخر العذاب عنهم في دنياهم.

٤ - إن أولئك المختلفين في التوراة من اليهود لفي شك من كتاب موسى، وهم في شك أيضاً من القرآن.

٥ - إن كل الأمم والأفراد، المؤمن منهم والكافر، يرون في الآخرة جزاء أعمالهم، سواء من أقوام الأنبياء السابقين أو من قوم محمد عليهم السلام، فمن عجلت عقوبته ومن أخّرت، ومن صدّق الرسل ومن كذب، حالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة، وهو مأخوذ من الآية ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ التي جمعت بين الوعد والوعيد، فإن إيفاء جزاء الطاعات وعد عظيم، وإيفاء جزاء المعاصي وعيد عظيم.

وتأكد الوعد والوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لأنه تعالى لما كان عالماً بجميع المعلومات، كان عالماً بمقادير الطاعات والمعاصي، وعالماً بالقدر المناسب لكل عمل من الجزاء، فلا يضيع شيء عنده من الحقوق والجزاءات.

وأكد الله تعالى توفية الجزاءات على المستحقين في الآية المذكورة: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ بسبعة أنواع من المؤكدات: وهي إنّ، وكل، واللام الداخلة على خبر إن، وحرف «ما» إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً، والقسم المضمر، فإن تقدير الكلام: وإن جميعهم والله ليوفينهم، واللام الثانية الداخلة على جواب القسم، والنون المؤكدة في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ فكل هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد، تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر، ثم أردفه بقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كما تقدم، وهو من أعظم المؤكدات[1].

الاستقامة على أوامر الله تعالى

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الإعراب:

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ مرفوع بالعطف على ضمير (استقم) وجاز العطف على الضمير المرفوع؛ لأن الفصل بالظرف، وهو قوله تعالى: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ ينزل منزلة التأكيد، فجاز العطف. ويجوز أن يكون ﴿وَمَن تَابَ﴾في موضع نصب؛ لأنه مفعول معه.

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ٧٠

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواو للحال.

المفردات اللغوية:

﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ على العمل بأمر ربّك والدُّعاء إليه، والاستقامة شاملة للاستقامة في العقائد والأعمال، من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أُنزلت، والقيام بوظائف العبادات من غير إفراط ولا تفريط. والاستقامة في غاية العسر، لذا قال عليه الصّلاة والسّلام: «شيَّبتني سورة هود».

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي وليستقم من تاب معك، بأن تاب من الشرك والكفر وآمن معك. ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ لا تجاوزوا حدود الله، والطغيان: مجاوزة الحدّ بالإفراط أو التفريط. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التّعليل للأمر والنّهي.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾ لا تميلوا إليهم أدنى ميل، والرّكون: الميل اليسير. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ لا تميلوا إلى الظالمين بمودة أو مداهنة أو رضىً بأعمالهم. ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ فتصيبكم النّار بركونكم إليهم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره. ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿مِنْ﴾: زائدة، و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مناصرون يحفظونكم منه، أو أنصار يمنعون العذاب عنكم. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ تمنعون من عذابه، ولا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقي عليكم. و﴿ثُمَّ﴾: لاستبعاد نصره إياهم بعد أن أوعدهم بالعذاب على فعلهم، وأوجبه.

المناسبة:

لما بيّن الله تعالى أمر المختلفين في التّوحيد والنّبوة، وأطنب في بيان وعدهم ووعيدهم، أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثلما أمر بها غيره، وهي كلمة شاملة لكل ما يتعلّق بالعقيدة والعلم والعمل والأخلاق.

التفسير والبيان:

فالزم يا محمد ومن آمن معك طريق الاستقامة في الاعتقاد والأعمال

والأخلاق، دون إفراط ولا تفريط. فالاستقامة تقتضي توحيد الله في ذاته وصفاته، والإيمان بالغيب من جنّة ونار وبعث وحساب وجزاء، وملائكة وعرش، والتزام ما أمر به القرآن في نطاق العبادات والمعاملات. وهي درجة عليا وعسيرة إلا على من جاهد نفسه، وترفّع عن أهوائه وشهواته، وقد أمر بها موسى وهارون بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ١٠/٨٩] ، وكان جزاؤها تطمين الملائكة بعدم الخوف والحزن، والتّبشير بالجنّة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٤١/٣٠] . وأجاب النبي ﷺ سائلاً - هو سفيان الثقفي فيما رواه مسلم - قال: يارسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لاأسأل عنه أحداً بعدك؟ فقال: « قل آمنت بالله ثم استقم ».

ولايعني أمر الرّسول بالاستقامة أنه لم يكن مستقيماً، وإنما كان على العكس في غاية الاستقامة، والمقصود بهذا الأمر الدّوام والاستمرار على ما هو عليه. فالله تعالى يأمر رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدّوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النّصر على الأعداء. وخطاب الرّسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بالاستقامة للتّثبيت على الاستقامة.

وفي الآية دليل على وجوب اتّباع النّصوص الشّرعية من غير تصرّف وانحراف، ولاتقليد وعمل برأي فاسد غير صحيح، ومن حاد عن منهج السّلف زاغ وضلّ، فكانوا كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠/٣٢] .

وطريق رفع الخلاف الرّد إلى القرآن والسُّنّة، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٤/٥٩] .

وبعد أن أمر الله تعالى بالاستقامة، نهى عن ضدّها وهو الطّغيان، أي البغي وتجاوز حدود الله، فإنه مزلقة إلى الهلاك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾.

ثمّ حذّر الله تعالى من المخالفة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي إنه تعالى بصير بأعمال العباد، لايغفل عن شيء، ولايخفى عليه شيء، فيجازي عليها.

والدَّعوة إلى الاستقامة وتجنُّب الطُّغيان هو هدف القرآن الكريم المتكرر فيه، فقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٥].

ثم نبَّه الله تعالى إلى خطر الميل مع الظالمين، فقال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ أي ولا تميلوا إلى الظالمين بمودة أو مداهنة أو رضىً بأعمالهم، أو استعانة بهم، أو اعتماد عليهم، فتصيبكم النّار بركونكم إليهم، فالرّكون إلى الظَّالمين ظلم، وليس لكم من غير الله أنصار أبداً ينفعونكم، ويمنعون العذاب عنكم، ثم لا ينصركم الله، أي لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة؛ لأنه تعالى لا ينصر الظَّالمين: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٠] ، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧١] ، [فاطر ٣٥/ ٣٧].

والآية تدلّ على عاقبة الرّكون، وعلى أن الميل إلى الظَّالمين موقع عادة في الظّلم، ومزلقة تستدعي إقرارهم على ما يفعلون، والرّضى بما هم عليه من الظّلم، واستحسان طريقتهم، وتزيينها عندهم وعند غيرهم، ومشاركتهم في أعمالهم الظَّالمة. قال البيضاوي: ولعل الآية أبلغ ما يتصوّر في النّهي عن الظّلم والتّهديد عليه.

وإذا كان الرّكون إلى الظّلم مُوجِباً عذاب النّار، فكيف يكون حال الظَّالم في نفسه؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

تدلّ الآيتان على الأمر بالاستقامة والثّبات والدّوام عليها، وعلى تحريم ضدّها وهو الطّغيان، أي تجاوز حدود الله تعالى، وعدم الاعتماد على الظّلمة والرِّضا بظلمهم.

والاستقامة: امتثال أمر الله، وليست تلك مهمة سهلة وإنما هي شاقّة عسيرة تستدعي الطّاعة الدّائمة، ومراقبة الإنسان نفسه، والحذر من المخالفة، قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشّيب! فقال: «شيّبتني هود وأخواتها». وروي عن أبي علي السّرِي قال: رأيت النّبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شيّبتني هود»، فقال: «نعم»، فقلت: ما الذي شيّبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال: «لا، ولكن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾».

والاستقامة تقتضي اتّباع نصوص القرآن والسُّنّة، والبُعد عن التّأويلات الباطلة، والعمل بالرّأي الفاسد المخالف روح الشّريعة ومبادئها العامة.

ثم حذّرت الآية من الاعتماد على الظّلمة، والرّضا بظلمهم، والاستعانة بهم، والتعاون معهم، وودِّهم وإطاعتهم؛ لأن ودَّهم يستدعي إطراءهم وتملُّقهم، وتزييف الحقائق، وكتمان الحقّ، والسُّكوت عن المنكر، وعدم الأمر بالمعروف.

والظّلم: يشمل الشّرك وكل أنواع القبائح والمعاصي والمنكرات، والآية دالّة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصّحبة لا تكون إلا عن مودّة. أما صحبة الظّالم على التّقيَّة، فهي مستثناة من النّهي بحال الاضطرار.

روى الإمام أحمد وأصحاب السُّنن عن أبي بكر أنه قام، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها النَّاس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ ألا وإن النّاس إذا رأوا الظّالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك الله أن يعمّهم بعقابه، ألا وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ النّاس إذا رأوا المنكر بينهم، فلم ينكروه، يوشك أن يعمَّهم الله بعقابه».

وقد تضمّنت الآية صراحة بيان عاقبة الرّكون إلى الظَّلمة، وهي الإحراق بالنّار، بسبب مخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على ما هم عليه، وموافقتهم في أمورهم.

والظَّلمة: هم أعداء المؤمنين، من المشركين، أو كل ظالم، سواء أكان كافراً أم مسلماً، والرّأي الثّاني أصح؛ لأن الأخذ بعموم الكلام أولى.

ويلاحظ من اختلاف التّعبيرين: ﴿فاستقمْ﴾ و﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ أن الأوامر بأفعال الخير أُفردت للنَّبي ﷺ، وإن كانت عامة في المعنى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وقوله في الآية التالية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَٱصْبِرْ﴾. أما المنهيّات فقد جمعت للأمة: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْۚ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

الأمر بالصَّلاة والصَّبر

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

الإعراب:

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ منصوب على الظَّرف؛ لأنه مضاف إليه.

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بينهما طباق.

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عدول عن المضمر، ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلاً على أن الصَّبر والصَّلاة إحسان، وإيماء بأنه لا يعتدّ بهما دون الإخلاص.

المفردات اللغوية:

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي في الغداة والعشي، أي الصّبح والظُّهر والعصر كما قال الحسن وقتادة والضَّحَّاك، وطرف الشيء: الطَّائفة منه من النّهاية والبداية. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ جمع زلفة أي طائفة وجزء من أول الليل قريب من النّهار، وذلك يشمل صلاة المغرب وصلاة العشاء، كما قال الحسن البصري.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يكفرنها، وفي الحديث الذي أخرجه أبو نعيم عن أنس: «الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» والحسنات كالصلوات الخمس وغيرها من أعمال البر، والسيئات: الذنوب الصغائر . ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الطاعات وعن المعاصي .﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالصبر على الطاعة.

سبب النزول:

روى الشيخان، وابن جرير، عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: إلي هذه؟ قال: لجميع أمتي كلهم.

وأخرج الترمذي وغيره عن أبي اليَسَر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت: في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويتُ إليها فقبلتها، فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: أخْلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟! وأطرق طويلاً، حتى أوحى الله إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

وروي ذلك من حديث أبي أمامة ومعاذ بن جبل وابن عباس وبريدة وغيرهم. ومنه يفهم أن ذنب الرجل لا حدّ فيه، وإنما هو ذنب يكفره العمل الصالح، من إقامة الصلاة وإحسان القول والعمل.

ورواية الترمذي عن ابن مسعود هي: قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسَّها، وأنا هذا، فاقضِ فيَّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل، فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا، بل للناس كافة» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بالاستقامة، وعدم تجاوز حدود الدين، وعدم الركون إلى ذوي الظلم، أردفه بالأمر بالصلاة والصبر، وهو يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله هو الصلاة، ويليها الصبر، فإنه نصف الإيمان، فهما عدة الامتثال، والصلاة أساس العبادات، وعمود الدين.

التفسير والبيان:

موضوع هاتين الآيتين: الاستعانة بالصلاة والصبر، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٣] .

أما بالنسبة إلى الصلاة فالآية في تحديد أوقاتها، ومعناها: أدّ الصلاة تامة كاملة الأركان والشروط والأوصاف، باعتبارها صلة بين العبد والرب، مطهرة للنفس، مرضاة للرب، مانعة عن الفحشاء والمنكر، وأداؤها في جميع أجزاء اليوم، فقوله: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ يشمل ثلاث صلوات هي الصبح والظهر والعصر، وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ يشمل صلاتي المغرب والعشاء.

فتكون الآية شاملة جميع أوقات الصلاة، كما جاء في آيات أخر هي:

أ - ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٨] .

٢ - ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ١٧-١٨] فصلاة الصبح عند الإصباح، وبقية الصلوات تدخل تحت تعبير المساء؛ لأنه يشمل ما بين الظهر والغروب فما بعده.

٣ - ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٠] والتسبيح يكون بالصلاة وغيرها.

ثم ذكر الله تعالى فائدة الصّلاة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ أي إنّ فعل الخيرات أو الأعمال الحسنة، ومنها الصّلوات الخمس، تكفّر الذّنوب السّالفة، والسّيئات الصّغائر، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السُّنن

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدّثني عنه أحد، استحلفته، فإذا حلف صدّقته، وحدَّثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً، فيتوضأ، ويصلِّي ركعتين، إلا غُفِر له».

وفي الصَّحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، وقال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين، لا يحدّث فيهما نفسه، غُفِر له ما تقدّم من ذنبه».

والحسنات: جميع الأعمال الصَّالحة، حتى ترك السَّيئة، والسَّيئات: الذُّنوب الصَّغائر؛ لأن الكبائر لا يكفِّرها إلا التَّوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٤/٣١] ، ولما رواه مسلم: «الصَّلوات الخمس كفّارة لما بينهن، إذا اجتُنِبت الكبائر».

وأمّا شروط التَّوبة الصَّادقة فهي أربعة: الإقلاع عن الذَّنب، والنَّدم عليه، والعزم على عدم العود إلى مثله في المستقبل، والعمل الصَّالح الذي يساعد على محو أثر الذَّنب، ومنه ردّ الحقوق لأصحابها، وطلب السَّماح ممن آذاه.

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي إنّ النّصح السَّابق بفعل الحسنات والاستقامة، وعدم تجاوز حدود الدِّين، وعدم الرّكون إلى الظَّلَمة، عظة للمتّعظين الذي يعقلون الأحداث ويقدّرون مخاطرها ويخشون الله عزّ وجلّ.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي الزم الصَّبر على الطّاعة ومشاقّها، وعن المعصية ومغرياتها، وابتعد عن المنكر والمحرَّمات، وفي حال الشَّدائد والمصائب، فإن الله لا يهدر ثواب المحسنين أعمالاً، الصَّابرين على مراد الله وقدره. وهذا دليل على أن الصَّبر إحسان وفضيلة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي:

١ - الأمر بالصّلوات المفروضة وإيجابها، وخصّت بالذّكر هنا؛ لأنها ثانية الإيمان، وإليها يفزع في النّوائب، وكان النّبي ﷺ إذا حَزَبَه[1] أمر، فزع إلى الصّلاة.

٢ - الآية دليل على قول أبي حنيفة رحمه الله في أنّ التّنوير بالفجر أفضل، وفي أنّ تأخير العصر أفضل؛ لأنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على وجوب إقامة الصّلاة في طرفي النّهار، وطرفا النّهار: الزّمان الأوّل لطلوع الشّمس والزّمان الثاني لغروبها، وبما أنّ ظاهر الآية غير مراد بالإجماع، فوجب حمله على المجاز، وهو إقامة الصّلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النّهار؛ لأنّ ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه. وإقامة صلاة الفجر عند التّنوير أقرب إلى وقت الطُّلوع من إقامتها عند التّغليس، وكذلك إقامة صلاة العصر عندما يصير ظلّ كل شيء مثليه أقرب إلى وقت الغروب من إقامتها عندما يصير ظلّ كل شيء مثله، والمجاز كلما كان أقرب إلى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى.

٣ - أوضحت الآية أوقات الصّلوات الخمس المفروضة؛ لأنّ طرفي النّهار يشملان صلاة الصّبح، وصلاة الظّهر والعصر، والزّلف من الليل يقتضي الأمر بإقامة صلاتي المغرب والعشاء. والزُّلَف: الساعات القريبة بعضها من بعض، وزلف الليل تشمل المغرب والعشاء.

٤ - الحسنات وهي الأعمال الصّالحة ومنها الصّلوات الخمس، وقول الرّجل: سبحان الله والحمد لله، ولاإله إلا الله، والله أكبر، والأولى حمل

(١) حزبه: نزل به مهمّ، أو أصابه غم.

اللفظ على عمومه. وأما السَّيئات فهي الذّنوب الصَّغائر، للحديث المتقدّم: «ما اجتنبت الكبائر».

٥ً - دلّت الآية على أنّ المعصية لا تضرّ مع الإيمان؛ لأنّ الإيمان أشرف الحسنات وأجلِّها وأفضلها. وعلى أنّ الحسنات يذهبن السَّيئات، فالإيمان الذي هو أعلى الحسنات درجة، يذهب الكفر الذي هو أعلى درجة في العصيان، فلأن يقوى على المعصية التي هي أقل السَّيئات درجة، كان أولى، فإن لم يفد إزالة العقاب بالكليّة، فلا أقل من أن يفيد إزالة العذاب الدائم.

٦ً - دلّت الآية مع الأحاديث الواردة في سبب نزولها على أن القبلة واللَّمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ. واختار ابن المنذر أنه لا يجب فيهما أدب أو تعزير.

٧ً - القرآن الكريم موعظة وتوبة لمن اتَّعظ وتذكَّر، وخصَّ الذَّاكرين بالذّكر؛ لأنهم المنتفعون بالذّكرى.

٨ً - الصَّبر على الصّلاة كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ٢٠/١٣٢] ، والصَّبر على الطَّاعات، وعلى ما يلقاه المؤمن من أذى الأعداء، وعلى الشَّدائد والمصائب، الصَّبر على كل ذلك إحسان وفضيلة، وله ثواب عظيم، وقد قال النّبي ﷺ فيما رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان: «الصَّبر نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله» إلا أنه ضعيف.

سبب إهلاك القرى والأمم السّالفة

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

الإعراب:

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ﴾ منصوب؛ لأنه استثناء منقطع، ويجوز فيه الرّفع على البدل من ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ كما جاز الرّفع في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ١٠/٩٨] وإن كان استثناءً منقطعاً، وهي لغة بني تميم.

﴿وَٱتَّبَعَ﴾ عطف على مضمر دلّ عليه الكلام؛ إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد، واتّبع الذين ظلموا.

﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ عطف على ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ أو جملة اعتراضية.

﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من الفاعل، أي واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَوْلَا﴾ (لولا): للتّحضيض والحثّ على الفعل، أي فهلا كان .﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قرن، وهو الجيل من الناس المقترنون في زمن واحد، وشاع تقديره بمئة سنة .﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أولو عقل ورأي وبصر بالأمور، أو أولو

فضل، والأصل في البقية: ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره، واستعمل كثيراً في الباقي الأصلح؛ لإنفاق الأردأ عادةً وإبقاء الأجود، وتلك قاعدة بقاء الأصلح، ومنه يقال: فلان من بقيّة القوم، أي من خيارهم. ويجوز أن يكون مصدراً كالتّقية، أي ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب.

﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي ما أُنعموا فيه من الشهوات. ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي كافرين، وهو سبب استئصال الأمم، وهو فشو الظلم فيهم، واتّباعهم الهوى، وترك النّهي عن المنكرات مع الكفر. ﴿بِظُلْمٍ﴾ بشرك. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم، لا يضمون إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمة الله ومسامحته في حقوقه، ولذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد على حقوق الله تعالى.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مسلمين كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد، وأن ما أراده يجب وقوعه. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، لا تكاد تجد اثنين يتّفقان مطلقاً. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا أناساً هداهم الله من فضله، فاتّفقوا على ما هو أصول دين الحقّ والعمدة فيه. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: إن كان الضمير للناس، فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة، أي الصَّيرورة، أو إن الضَّمير يعود للنّاس وإلى الرّحمة. وإن كان الضَّمير يعود لمن رحم، فإلى الرّحمة.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيده وقضاؤه وأمره. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الجنّ، سموا بهذا لاستتارهم. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي من عصاتهما. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ صفة للعصاة، أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى ما حلَّ بالأُمم السَّابقة المكذِّبة لرسلها، من عذاب

الاستئصال في الدُّنيا، واستحقاق النّار في الآخرة، ذكر هنا سبب العذاب وهو أمران: الأول - أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض، والثاني - أن الظّالمين اتَّبعوا طلب الشَّهوات واللّذات، واشتغلوا بتحصيل الرِّياسات. والظّالمون: هم تاركو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

التّفسير والبيان:

فهلا وُجد من القرون، أي الأُمم والأقوام الماضية الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم جماعة أولو عقل ورأي وبصيرة وأهل خير ينهون عما كان يقع بينهم من الشّرور والمنكرات والفساد في الأرض. وهذا توبيخ للكفار.

لكن قد وجد قليل من هؤلاء، وهم الذين أنجاهم الله تعالى عند حلول غضبه وفجأة نقمته، قد نهوا عن الفساد في الأرض. فهذا استثناء منقطع، ولا يمكن جعله استثناءً متّصلاً، وإلا كان القليل من النّاجين غير مرغّبين في النّهي عن الفساد.

واتَّبع الظّالمون أنفسهم، وهم الأكثرية ما أُترفوا فيه من نعيم وعزّة وسلطان. والمترف: الذي أبطرته النّعمة وسعة المعيشة. والمراد بالذين ظلموا: تاركو النّهي عن المنكر. واتّباعهم التّرف: اشتغالهم بالشّهوات والمال واللّذات والرِّياسات، واستمرارهم على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، وعدم التفاتهم إلى إنكار المصلحين منهم، وإيثار الترف على الآخرة.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي والحال أنهم كانوا ظالمين. فالله تعالى لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١١/١٠١] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] .

وفي الآية إيماء إلى أن التّرف مدعاة إلى الإسراف، والإسراف يفضي إلى

الفسوق والعصيان، والظّلم والانحراف، وتلك عادة متّبعة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٦].

ثم بيّن تعالى عدله وسنّته في المصلحين، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ أي ليس من شأن الله تعالى أن يهلك أهل القرى، ظالماً لها، وأهلها قوم مصلحون، تنزيهاً لذاته تعالى عن الظّلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظّلم. وقيل: الظّلم: الشّرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم، أو في أمورهم الاجتماعية، يتعاطون الحقّ فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر، أي لا ينزل عذاب الاستئصال لأجل كون القوم مجرّد كونهم معتقدين للشّرك والكفر، بل إنما ينزل العذاب إذا أساؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظّلم، كما فعل قوم شعيب، وقوم هود، وقوم فرعون، وقوم لوط. ويؤيده أنّ الأُمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظّلم.

ثم أخبر الله تعالى أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان أو كفر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال الزّمخشري معبّراً عن مذهب المعتزلة: يعني لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملّة واحدة، وهي ملّة الإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥٢]. فهم يحملون الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار، والمراد نفي الاضطرار، وأنه لم يقهرهم على الاتّفاق على دين الحقّ، ولكنه مكّنهم من الاختيار الذي هو أساس التّكليف، فاختار بعضهم الحقّ، وبعضهم الباطل، فاختلفوا، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربّك أي إلا أُناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتّفقوا على دين الحقّ غير مختلفين فيه.

ويرى أهل السّنّة: أن الآية بيان لقدرة الله تعالى على جعل الناس كلهم على

منهج واحد من إيمان أو كفر، بخلقهم قابلين ديناً واحداً، لكنه تعالى لم يشأ ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ١٠/٩٩] وإنما شاء أن يكون لهم دور اختياري في الاتّجاه إلى الحقّ والإيمان ونبذ الضّلالة والشّرك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من رحم ربُّك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي في الأديان والاعتقادات والمذاهب والآراء، وقيل: في الهدى، أو في الرّزق يسخر بعضهم بعضاً، قال ابن كثير: والمشهور الصّحيح الأول.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي المرحومين من أتباع الرُّسل الذين تمسّكوا بما أُمروا به من الدِّين، الذي أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى جاء خاتم الرُّسل، ففاز من اتَّبعه بسعادة الدُّنيا والآخرة، فهم الفرقة النّاجية.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الزّمخشري ممثلاً رأي المعتزلة: (ذلك): إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام الأول وتضمّنه، يعني: ولذلك المذكور من التّمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف، خلقهم، ليثيب مختار الحقّ بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره[(١)].

ويرى أهل السُّنة كما ذكر أبو حيان: أنّ اللام ليست للتّعليل، وإنما هي على التّحقيق لام الصّيرورة في ذلك المحذوف، أي ليس الاختلاف والرّحمة علّة الخلق، وإنما خلقهم ليصير أمرهم إلى الاختلاف. مثل قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨]. ولا يتعارض هذا

---

(١) الكشّاف: ٢/١٢٠

مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦] لأن معنى هذا الأمر بالعبادة[١].

والإشارة في قوله تعالى: (ذلك): إشارة إلى الاختلاف والرّحمة معاً في رأي ابن عباس، واختاره الطّبري، وقال مجاهد وقتادة: (ذلك): إشارة إلى الرّحمة التي تضمّنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ والضّمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ عائد على المرحومين.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي سبق في قضاء الله وقدره لعلمه التّام وحكمته النّافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنّة، ومنهم من يستحق النّار، وأنه لا بدّ أن يملأ جهنّم من هذين الثّقلين: الجنّ والإنس، وهم الذين لا يهتدون بما أرسل الله به الرُّسل من الآيات والأحكام. قال ابن عباس: خلقهم فريقين: فريقاً يُرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يُرحم فيختلف، فذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ ﴿مِنَ﴾: لبيان الجنس، أي من جنس الْجِنَّة وجنس النّاس.. وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد.

وفي الصّحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنّة والنّار، فقالت الجنّة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء النّاس وسَقَطهم[٢]، وقالت النّار: أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين، فقال الله عزّ وجلّ للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنّار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنّة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خَلْقاً يسكن فضل الجنّة، وأما النّار فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع لها ربّ العزّة قدمه، فتقول: قَطْ قَطْ[٣]، وعزّتك».

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ٢٧٣

(٢) السَّقَط: رديء المتاع.

(٣) قط بمعنى حَسْب، وهو الاكتفاء. والقِطّ: الكتاب والصَّكُّ بالجائزة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - وجوب النّهي عن المنكر والفساد، والأمر بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤] ، وفي الحديث الصّحيح: «إن الناس إذا رأوا المنكر، فلم يغيّروه، أوشك أن يعمّهم الله بعقاب».

٢ - المصلحون في كل زمان، النّاهون عن الفساد في الأرض كقوم يونس، وأتباع الأنبياء وأهل الحقّ ناجون من عذاب الله تعالى.

٣ - التّرف يدعو عادة إلى الإسراف المؤدّي إلى الفسوق والعصيان والظلم، والمترف: الذي أبطرته النّعمة وسعة المعيشة.

٤ - الظّلم أو الإجرام كالشّرك والكفر وإلحاق الأذى والضّرر بالنّاس سبب موجب للعقاب في الدُّنيا والآخرة، لكن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدُّنيا من الشّرك، وإن كان عذاب الشّرك في الآخرة أصعب.

٥ - لم يكن الله ليهلك قوماً بالكفر وحده، حتى ينضم إليه الفساد في المعاملات والعلاقات الاجتماعية، كما أهلك الله قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط.

٦ - الله تعالى قادر على جعل النّاس كلهم أمّة واحدة من إيمان أو كفر. قال الضّحّاك في آية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ : أهل دين واحد، أهل ضلالة، أو أهل هدى. وقال سعيد بن جبير: على ملّة الإسلام وحدها، وهو رأي حسن.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فقال مجاهد وقتادة: أي على أديان شتّى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء: الإشارة إلى الاختلاف، أي وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضَّحّاك: ولرحمته خلقهم. واختار الطَّبري وتابعه القرطبي: الإشارة بذلك للاختلاف والرّحمة، وهو أولى في تقديري؛ لأنه يعمّ، أي ولما ذُكر خلقهم. ولام ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ للعاقبة والصَّيرورة كما بيَّنا.

والقول بعموم إشارة ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ أشار إليه مالك رحمه الله؛ قال أشهب: سألت مالكاً عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنّة، وفريق في السَّعير، أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرّحمة للرّحمة. وقال ابن عباس أيضاً كما تقدّم: خَلَقَهم فريقين: فريقاً يرحمه وفريقاً لا يرحمه.

٧ - استدلّ أهل السّنّة بآية: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ على أنّ الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى؛ لأن تلك الرّحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل، وإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب، وإزالة العذر، فإنّ كل ذلك حاصل في حقّ الكفار، فلم يبقَ إلا أن يقال: تلك الرّحمة هي أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة[١].

٨ - مما ثبت في الأزل وأخبر تعالى عنه وقدر أنه يملأ ناره، ويملأ جنّته، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وأخرج البخاري عن أبي هريرة أنّ النَّبي ﷺ قال عن الجنّة والنّار: «ولكل واحدة مِلْؤها».

---

(١) تفسير الرّازي: ١٨/ ٧٧ - ٧٨

الفائدة العملية من قصص الأنبياء والأمر بالعبادة والتوكل على الله تعالى

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿يُرْجَعُ﴾:

قرئ:

١- (يُرْجَع) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (يَرْجِع) وهي قراءة الباقين.

﴿تَعْمَلُونَ﴾:

قرئ:

١- (تعملون) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (يعملون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَكُلًّا﴾ منصوب على المصدر بـ ﴿نَّقُصُّ﴾ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، أي كل ما يحتاج إليه، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك.

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بيان لقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ أو بدل منه، أو مفعول به.

المفردات اللغوية:

﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَّقُصُّ﴾ نخبرك به، والقص: تتبع أثر الشيء للإحاطة به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ٢٨/١١]. ﴿مِنْ أَنبَآءِ﴾ جمع نبأ: وهو الخبر المهم. ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾ نقوّي ونطمئن. ﴿فُؤَادَكَ﴾ قلبك، أي نجعله راسخاً كالجبل، وهو المقصود من الاقتصاص، وهو زيادة يقينه، وطمأنينة قلبه، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار. ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ الأنباء أو الآيات ﴿ٱلْحَقُّ﴾ ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة، وخُصَّ المؤمنون بالذكر؛ لانتفاعهم بالآيات والموعظة في الإيمان، بخلاف الكفار.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم أو على تمكنكم واستطاعتكم. ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على حالتنا، وهو تهديد لهم. ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ عاقبة أمركم. ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب فيهما، لا يخفى عليه خافية مما فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي يرجع إليه أمرك وأمرهم، لا محالة، فينتقم ممن عصى. ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ثق به، فإنه كافيك. وتقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على ما هو الأنفع للعابد. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم، فيجازي كلاً ما يستحقه، وإنما يؤخرهم لوقتهم.

المناسبة:

بعد أن قص الله على نبيه أخبار الأنبياء مع أقوامهم، ذكر فائدة تلك القصص وحصرها في نوعين من الفائدة وهما: تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة

وعلى الصبر واحتمال الأذى، وبيان ما هو حق وعظة وعبرة وذكرى تذكر المؤمنين. ثم ختم السورة بما بدأها به وهو الأمر بالعبادة، والتوكل على الله، وعدم المبالاة بعداوة المشركين.

التفسير والبيان:

وكل خبر من الأخبار التي هي من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم نقصها عليك لفائدتين:

الأولى - ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ أي ما به يقوى الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى؛ لأن الأنبياء الذين من قبلك تحملوا في محاجة أقوامهم الأذى الكثير، فصبروا على ما كذبوا به، فنصرهم الله وخذل أعداءهم الكافرين، فلك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة.

الثانية - ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وتبين لك في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، أو في هذه الأنباء والآيات، ما هو الحق والصدق واليقين: وهو وحدانية الله وعبادته وحده، وإثبات البعث، وفضيلة التقوى والخلق الفاضل، وفي تلك الأنباء عظة وعبرة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون. وخصَّ هذه السورة بالذكر؛ لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار.

والحق: البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة.

والموعظة: التنفير من الاعتماد الكلي على الدنيا وما فيها من شقاوة، وإيثارها على الآخرة وما فيها من سعادة.

والذكرى: الإرشاد إلى الأعمال الصالحة الباقية.

وبعد هذا الإنذار والترهيب والترغيب أمر الله رسوله بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ﴾

أي وقل للكافرين الذين لا يؤمنون بما جئت به من ربك، على وجه التهديد: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم وحالكم، وافعلوا كل ما تقدرون عليه في حقي من الشرّ، كما قال شعيب عليه السلام لقومه، فنحن أيضاً عاملون على طريقتنا ومنهجنا وما نقدر عليه من الدعوة إلى الخير، وانتظروا بنا نهاية أمرنا، إما بموت أو غيره مما تتأملون، إنا منتظرون عاقبة أمركم، وما ينزل بكم من عقاب نزل بأمثالكم، إما من عند الله أو بأيدي المؤمنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وانتظروا الهلاك، فإنا منتظرون لكم العذاب.

والتهديد بقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ مثل قوله تعالى لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٤] وقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩] .

وتمني انتهاء أمر النبي حكاه الله عن المشركين بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٠] .

وانتظار مصير الفريقين له شبيه في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٥] .

ثم ختم الله تعالى السورة بخاتمة جامعة سامية، جمعت كل مطالب الخير، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾ أي أنه تعالى عالم غيب السماوات والأرض في الماضي والحاضر والمستقبل، وعلمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات، والمعدومات والموجودات، والحاضرات والغائبات، ومرجع الكل ومصير الخلائق والكائنات إليه؛ لأنه مصدر الكل ومبدأ الكل، وهو عظيم القدرة نافذ المشيئة، قهار للعبيد، وسيحاسب كل عامل بما عمل يوم الحساب، من صغير أو كبير.

وإذا كان الله هو المتصف بما ذكر، فاعبده وحده ومن معك من المؤمنين، وتوكل عليه في كل أمورك حق التوكل، وثق به تمام الثقة فيما تستطيع وما لا

تستطيع، فمن توكل على الله فهو حسبه وكافيه، وما ربك بغافل عما تعملون، أي ليس بخفي عليه كل ما يعمل به المكذبون والمصدقون، وما عليه أحوالهم، وما تصدر عنه أقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين، فلا تبال بهم.

روى أحمد والترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «الكيِّس: من دان نفسَه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - في إيراد قصص الأنبياء وما كابدوه من مشاق من أجل دعوتهم تسلية للنبي ﷺ، وتثبيت له على أداء الرسالة، والصبر على ما يناله فيها من الأذى. وفيها بما تضمنته من بيان ما هو الحق واليقين عظة وعبرة وذكرى لكل مؤمن. والموعظة: ما يُتَّعظ به من إهلاك الأمم الماضية. والذكرى: تذكر المؤمنين ما نزل بمن هلك فيتوبون. وخصّ الله تعالى المؤمنين؛ لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

٢ - فيها تهديد ووعيد الكافرين على أعمالهم، وندب لهم أن يفعلوا في حق النبي ﷺ كل ما يقدرون عليه من الشر، فلن ينالوا منه شيئاً. وفي هذا إعلان الثقة التامة بعصمة الله له، وتأكيد الإيمان بصحة عمله، والإنذار بسوء عاقبة المخالفين.

٣ - العلم بالغيب والشهادة في جميع السماوات والأرض، في الحاضر والماضي والمستقبل مختص بالله تعالى.

٤ - المرجع والمآب في الدار الآخرة إلى الله تعالى، وليس لمخلوق أمر إلا بإذنه.

٥ً - إيجاب العبادة بالإخلاص لله وحده، وإيجاب التوكل على الله في كل شيء، أي اللجوء إليه والثقة به وتفويض الأمور إليه.

٦ً - الله مطلع على أحوال العباد وأقوالهم وأفعالهم، ويجازي كلاً بعمله، فلا يضيع طاعات المطيعين، ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين، والجزاء بإحضارهم في موقف القيامة، وحسابهم على الصغير والكبير، والعتاب على كل شيء. وتحصل عاقبة الأمر: فريق في الجنة وفريق في السعير.

ملاحظة في الإعجاز العددي:

هناك ارتباط عددي بين سورتي هود والنجم، على الرغم من اختلافهما في الموضوع، فالآيات في سورة هود (٦-١٢٣) نجد فيها ثمانياً وعشرين آية (٢٨) تنتهي بحرفي (ي ن) مثل ﴿مُّبِينٍ﴾(٦)، وثمانياً وعشرين آية تنتهي بحرفي (و ن) مثل ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٨)، ينقسم العدد (٥٦) إلى نصفين متساويين.

وفي سورة النجم نجد أيضاً ثمانياً وعشرين آية هي أفعال معتلة مثل ﴿هَوَىٰ﴾(١)، و(٢٨) آية هي أسماء مقصورة، مثل ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾(٣) في الآيات (١-٥٦)، ينقسم العدد (٥٦) إلى نصفين متساويين. وذلك دليل آخر على أن القرآن كلام الله المعجز.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

مكية وهي مئة وإحدى عشرة آية

تسميتها وسبب نزولها:

سميت سورة يوسف، لإيراد قصة النبي يوسف عليه السلام فيها، روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - فيما رواه عنه الحاكم وغيره -: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٢/٣] و[الكهف ١٨/ ١٣] فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو حدثتنا؛ فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣]. وقد نزلت بعد اشتداد الأزمة على النبي ﷺ في مكة مع قريش، وبعد عام الحزن الذي فقد فيه النبي زوجته الطاهرة خديجة، وعمه أبا طالب الذي كان نصيراً له.

روي في سبب نزولها أن كفار مكة لقي بعضهم اليهود وتباحثوا في شأن محمد ﷺ، فقال لهم اليهود: سلوه، لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف، فنزلت.

وبالرغم من أنها سورة مكية، فأسلوبها هادئ ممتع، مصطبغ بالأنس والرحمة، واللطف والسلاسة، لا يحمل طابع الإنذار والتهديد كما هو الشأن

الغالب في السور المكية. قال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة، أسلموا؛ لموافقتها ما عندهم.

مناسبتها لما قبلها:

نزلت هذهِ السورة بعد سورة هود، وهي مناسبة لها، لما في كلٍّ من قصص الأنبياء، وإثبات الوحي على النبي ﷺ. وقد تكررت قصة كل نبي في أكثر من سورة في القرآن، بأسلوب مختلف، ولمقاصد وأهداف متنوعة، بقصد العظة والاعتبار، إلا قصة يوسف عليه السلام، فلم تذكر في غير هذه السورة، وإنما ذكرت جميع فصولها بنحو متتابع شامل، للإشارة إلى ما في القرآن من إعجاز، سواء في القصة الكاملة أو في فصل منها، وسواء في حالة الإجمال أو حالة التفصيل والبيان. قال العلماء: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكرّرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل[١].

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذهِ السورة قصة يوسف عليه السلام، بجميع فصولها المثيرة، المفرحة حيناً والمحزنة حيناً آخر، فبدأت ببيان منزلته عند أبيه يعقوب وصلته به، ثم علاقته بإخوته (مؤامرتهم عليه، وإلقاؤه في البئر، وبيعه لرئيس شرطة مصر، وشراؤهم الطعام منه في المرة الأولى ومنحهم إياه دون مقابل، ومنعهم شراء الطعام في المرة الثانية إن لم يأتوه بأخيهم (بنيامين) وإبقاء أخيه بنيامين لديه في حيلة مدروسة وسرقة مزعومة، حتى يأتوه بأخيهم لأبيهم، ثم تعريفه

(١) تفسير القرطبي: ١١٨/٩

نفسه لإخوته)، ومحنة يوسف وجماله الرائع، وقصة يوسف مع امرأة العزيز، وبراءته المطلقة، يوسف في غياهب السجون يدعو لدينه، بوادر الفرج وتعبير رؤيا المِلك، توليته وزيراً للمالية والتجارة ورئاسة الحكم، إبصار يعقوب حين جاء البشير بقميص يوسف، لقاء يوسف في مصر مع أبويه وجميع أسرته.

ثم إيراد العبرة من هذه القصة، وإثبات نبوة محمد ﷺ، وتسليته، وبشائر الفرج بعد الضيق، والأنس بعد الوحشة، فإن يوسف عليه السلام انتقل من السجن إلى القصر، وجُعل عزيزاً في أرض مصر، وكل من صبر على البلاء فلا بد من أن يأتيه الفرج والنصر، وتحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم، والدروس والأخلاق المستفادة من قصة يوسف عليه السلام، وأهمها نصر الرسل بعد الاستيئاس.

أضواء من التاريخ على قصة يوسف عليه السلام[1]:

نسب يوسف:

هو يوسف بن يعقوب (إسرائيل الله) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وهوأحد أولاد يعقوب الاثني عشر ذكراً الذين ولدوا في فدان آرام أثناء رعاية غنم خاله (لابان) مقابل تزوجه ابنتيه، إلا بنيامين فقد ولد في أرض كنعان بعد رحيله إليها. قال النبي ﷺ عن يوسف فيما أخرجه أحمد والبخاري عن ابن عمر: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وكان يوسف رائع الجمال، محبوباً لدى أبيه، مما أثار حقد إخوته عليه وتآمرهم عليه. وقد رأى في منامه في صغره في سن السابعة عشرة سنة أو الثانية عشرة أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدوا له، فقصّ الرؤيا على أبيه، فبشره بالنبوة وتعبير الأحلام.

---

(١) انظر قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ١٢٠ وما بعدها.

إلقاء يوسف في البئر:

أخذه إخوته معهم إلى البرية بقصد السياحة واللعب، ثم ألقوه في البئر، وأخبروا أباهم كذباً أن الذئب أكله، فلم يقتنع الأب الصالح بكلامهم، واتهمهم بمكيدة أوقعوها فيه، ثم أنقذه الله بتعلقه بحبل دلو أدلي في البئر، ثم باعه آخذوه في مصر بثمن بخس، وادعوا أنهم اشتروه من سيده، باعوه لرئيس الشرطة وهو العزيز في محافظة الشرقية قرب بحيرة المنزلة، واسمه (فوطيفار) أو (أطفير) فأحبه وقال لامرأته زليخا: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ وجعله صاحب أمره ونهيه، ورئيس خدمه والمتصرف في بيته، وتولاه الله تعالى بالهداية والتربية والتوفيق.

محنة يوسف:

وكان جماله الرائع سبب محنته، روى مسلم في صحيحه أنه ﷺ قال: «فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن» فأحبته امرأة العزيز، وراودته عن نفسه، فأبى إيماناً بالله، وامتثالاً لأمره، واجتناباً لمنهياته، وتقديراً لأفضال زوجها عليه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وامتنع همه بها لوجود البرهان عنده، وهو حرصه على الطاعة، والتمسك بآداب آبائه، لأن ﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود، امتنع الهم لوجود البرهان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ١٠] أي امتنع إبداؤها بما في نفسها على ابنها، لوجود الربط على قلبها.

مكيدة امرأة العزيز:

ولما خابت في تحقيق رغبتها منه، حقدت عليه، كما هو شأن السادة عندما يخالفهم أحد الأتباع. ولما رأت زوجها لدى الباب يريد الدخول، لفّقت عليه التهمة، وأفهمته أنه يريدها بسوء، فكذبها يوسف الصدّيق، فاحتكم الزوج

العاقل إلى القرائن: إن كان قميصه مزّق من الأمام فهي الصادقة، وإن مزق من الخلف فهو الصادق، لأن المقدم على المرأة يظهر أثر مقاومتها ودفاعها من الناحية الأمامية، والهارب من المرأة يظهر أثر لحاقها به من الْخَلْف، فظهرت براءته، والتصقت التهمة بها، وأمر يوسف بكتمان الخبر، وأمرها بالاستغفار لذنبها.

ومع هذا، شاع خبر امرأة العزيز وفتاها في أرجاء المدينة، ولامتها النساء، فأعدت لهن طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين، وآتت كل واحدة سكيناً، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن، فبهرهن جماله، فقطعن أيديهن، وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فعذرنها، ثم هددته بالسجن إن لم يستجب لها، وفشا أمره بين الناس، فرأى سيده أن يزجه في السجن، ليحمي سمعة امرأته.

دخول يوسف إلى السجن ودعوته لدينه فيه:

وأدخل يوسف السجن، ودخل معه السجن فتيان: أحدهما: رئيس الخبازين عند الملك، والثاني: رئيس سقاته، فرأى الثاني في منامه أنه يعصر في كأس الملك خمراً، ورأى الأول أنه يحمل فوق رأسه خبزاً وطيراً تأكل من رأسه، وطلبا من يوسف تعبير الرؤيا.

فأظهر يوسف مقدرته على تأويل الرؤيا، ولكنه قدم لذلك بدعوته السجناء إلى توحيد الله، قائلاً لصاحبيه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وقال للساقي: إنه يسقي ربه خمراً، وقال للآخر: إنه سيصلب، فتأكل الطير من رأسه. وتأمل يوسف الفرج وقال لمن ظن أنه ناج منهما: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

رؤيا الملك:

ثم رأى الملك أن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنابل خضراء حسنة في ساق واحدة يأكلهن سبع يابسات، فدعا بالسحرة لسؤالهم عن تأويل المنام، فقالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

فتذكر ساقي الملك يوسف في السجن، فعرض الأمر على الملك، فوافق على أن يرسله إلى السجن ليأتي له بالتفسير الصحيح للمنام، فجاءه فيه، ثم عاد بالجواب إلى الملك، فقال الملك: ائتوني بيوسف، فأبى يوسف الخروج من السجن، حتى تظهر براءته وحقيقة أمره مع النساء، فأحضرهن الملك، وسألهن عنه، قلن: حاشا لله ما علمنا عليه من سوء، وأقرت امرأة العزيز (زليخا) ببراءته، وقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ، ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وآية: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ﴾ من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف كما يذكر بعض المفسرين خطأ.

خروج يوسف من السجن إلى القصر:

وخرج يوسف من السجن بريئاً من التهمة، وسأله الملك عن أي عمل يرضاه لنفسه؟ فقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ فجعله على كل أرض مصر، وصاحب الأمر والنهي، ووزيراً للمالية والتجارة ورئاسة الحكم، وجعل خاتمه في يد يوسف الذي أصبح عمره ثلاثين سنة.

طلب إخوة يوسف الطعام منه:

ومرت السنوات السبع المخصبة، ثم جاءت السبع المجدبة، فباع يوسف المصريين من مخازن القمح التي كان قد ادخرها أثناء الخصب، ثم جاءه أهل

فلسطين، وأرسل يعقوب أولاده مع الجمال والحمير لحمل الطعام من مصر، فلما قدموا عرفهم يوسف ولم يعرفوه، إذ أصبح في سن الأربعين، وطلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم مرة أخرى، وأعطاهم الطعام بلا ثمن، ليأتوه بأخيهم، دون أن يعلموا أنه ردّ عليهم الثمن، ووضع نقودهم في أوعيتهم؛ لأنهم سيعودون بها إليه؛ لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم.

ولما اشتد القحط بأهل فلسطين، سمح يعقوب بسفر ابنه (بنيامين) مع إخوته، فلما قدموا أحسن يوسف ضيافتهم واستقبالهم في حفل غداء ظهراً، ولكنه لم يأكل معهم جرياً على عادة المصريين الذين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة، وأخبروا خادماً ليوسف أنهم عادوا بالفضة ثمن الطعام سابقاً، وبفضة أخرى لشراء القمح.

حيلة يوسف في إبقاء أخيه عنده:

أمر يوسف بتجهيز إخوته من الطعام، وأمر أن توضع فضة كل واحد في عدله، وأن يوضع صواع الملك في رحل أخيه بنيامين، وعندما عزموا على المسير، نودوا بأنهم سرقوا سقاية الملك، وأن من سرقه فهو فداؤه في قانون الملك. ففتشت أعدالهم، ثم أخرج الصواع من عدل بنيامين، فتوسطوا لدى الملك واسترحموا أن يأخذ أحدهم بدلاً عنه؛ لأن له أباً شيخاً كبيراً، فأبى، فقالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، فأَسَرَّها يوسف في نفسه، وقال لهم: أنتم شرّ مكاناً من هذا السارق.

وسرقة يوسف المزعومة:

أن أمه ماتت وهو صغير، فكفلته عمته، ولما أراد أبوه أن يأخذه منها، ألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها، وأخفتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سرقت منها، ثم أخرجتها من تحت ثيابه، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء له بما صنع.

فلما قدم إخوة يوسف على أبيهم يعقوب ما عدا أكبرهم وأصغرهم، أخبروه بما حدث، فازداد حزناً حتى ابيضت عيناه، وتذكر يوسف فقال: يا أسفا على يوسف.

تعارف الإخوة ولقاء الأسرة:

ثم جاء إخوة يوسف إلى مصر في المرة الثالثة، وطلبوا إمدادهم بالطعام، لما تعرضوا له من الضرّ (الجوع) قائلين: وجئنا ببضاعة مزجاة أي قليلة، كما طلبوا إطلاق سراح أخيهم، فذكرهم يوسف بإساءتهم القديمة قائلاً: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فعرفوا أنه يوسف: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾.

وأعطاهم قميصه لإلقائه على وجه أبيهم، والإتيان بأهله أجمعين إليه، فلما وصلوا فلسطين ألقوا القميص على وجه يعقوب، فارتد بصيراً، وبشره البشير بسلامة يوسف وأخيه.

فجاء يعقوب وآله إلى مصر، فآوى يوسف إليه أبويه: يعقوب وزوجه خالة يوسف، لموت أمه وهو صغير، وسجد له أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر سجود تحية وتعظيم، لا سجود عبادة، وتلك هي تأويل رؤياه السابقة بسجود أحد عشر كوكباً له مع الشمس والقمر، وكان هذا اللقاء فرحة كبرى للأسرة برئاسة يعقوب، استوجبت من يوسف إعلان شكر الله تعالى على نعمه عليه، من العلم والملك، وطلب من الله تعالى أن يتولاه في الدنيا والآخرة، وأن يتوفاه مسلماً أي مطيعاً لله، غير عاص، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه الأنبياء.

العبر والعظات المستفادة من قصة يوسف:

يمكن استخلاص عبر كثيرة وعظات عديدة، وأخلاق وفضائل سامية من قصة يوسف عليه السلام، منها:

١ً - قد تؤدي النقمة إلى النعمة، فقد بدأت قصة يوسف بالأحزان والمفاجآت المدهشة، من الإلقاء به في البئر، ثم بيعه عبداً لرئيس شرطة مصر، ثم كانت محنته الشديدة مع النساء، فزُجّ به في غياهب السجون، ثم آل الأمر به إلى أن يصبح حاكم مصر الفعلي.

٢ً - قد توجد ضغائن وأحقاد بين الإخوة ربما تدفع إلى الموت أو الهلاك.

٣ً - كانت نشأة يوسف في بيت النبوة نشأة صالحة، تربى فيها على الأخلاق الكريمة، والخصال الرفيعة، فشب على تلك الأوصاف الكاملة التي ورثها من آبائه وأجداده الأنبياء، وقد أفاده ذلك في مختلف الأحداث الكبرى التي مرّ بها، وانتصر بها على المحن، وجاءه الفرج بعد الشدة، والعز والنصر بعد الذل والانكسار.

٤ً - إن العفة والأمانة والاستقامة مصدر الخير كله، للرجال والنساء، على حدّ سواء، وإن الاستمساك بالدين والفضيلة مصدر الاحترام وحسن السمعة، وإن الحق وإن استتر زمناً لا بدّ من أن يظهر ولو بعد حين.

٥ً - إن مثار الفتنة هو خلوة الرجل بالمرأة، لذا حرمها الإسلام، وحرم سفر المرأة لمسافة قصيرة بغير مَحْرم، ولو بوسائط النقل السريعة الحديثة، لما يطرأ لها من عثرات ومضايقات ملحوظة ومشكلات تصاحب الأسفار، ثبت في الحديث الذي أخرجه الترمذي والنسائي: «لايخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان».

٦ً - الإيمان بالمبدأ، وصلابة الاعتقاد سبيل لتخطي الصعاب، والترفع عن الدنايا، وذلك هو الذي جعل ليوسف نفساً كريمة، وروحاً طاهرة، وعزيمة صماء لا تلين أمام الشهوات والمغريات.

٧ً - الاعتصام بالله عند الشدة، واللجوء إليه عند الضيق، فلم يأبه يوسف

عليه السلام بتوعد امرأة العزيز له بالسجن، وإنما لجأ إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

٨ً - المحنة لا تثني المؤمن عن واجبه في الدعوة إلى الله تعالى، فإن يوسف عليه السلام بالرغم من كونه في السجن، انتهز فرصة تأويل رؤيا سجينين معه، فبادر إلى الدعوة إلى التوحيد ودين الله، لعل الموجودين معه يؤمنون بدعوته، وقد أسلم فعلاً الملك، ومستعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال.

٩ً - الفطنة لاستغلال الأحداث والاتصاف بالإباء والشمم، فلم يبادر يوسف عليه السلام إلى الخروج من السجن، حتى تعلن براءته، وتظهر طهارته، وشرف نفسه، حتى لا يوصف بأنه مجرم، أُودع السجون بجرمه.

١٠ً - إظهار فضيلة الصبر، فقد كان يوسف متدرعاً بدرع الصبر على الأذى، لاجتياز العقبات والصعاب والمصائب التي تعرَّض لها وهي ما ذكر، والصبر مفتاح الفرج، ونصف الإيمان، وطريق تحقيق النصر، وقد نصره الله كما نصر باقي الرسل بعد الاستيئاس. وتوَّج نصره بالعفو عن إخوته وكرمه في العفو الذي أصبح مضرب الأمثال، حتى قال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾.

١١ً - أسفرت قصة يوسف عن براءته المطلقة، كبراءة الذئب من دمه، فقد تضافرت شهادات عديدة على براءته، كما ذكر الرازي[١]:

أولها - شهادة رب العالمين: فقد شهد الله تعالى ببراءته عن الذنب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ شهد تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات، بقوله: ﴿لِنَصۡرِفَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة، وقوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ وقوله: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

(١) تفسير الرازي: ١٨/١١٦ وما بعدها.

وثانيها - شهادة الشيطان ببراءته بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٢-٨٣] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين، للآية السابقة.

وثالثها - شهادة يوسف عليه السلام بقوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وقوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

ورابعها - شهادة امرأة العزيز: فإنها اعترفت ببراءته وطهارته، فقالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وقالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وخامسها - الشهود من أهل العزيز: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الآية.

وسادسها - شهادة النسوة اللائي قطّعن أيديهن بقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾.

كل تلك الشهادات قاطعة ببراءة يوسف عليه السلام، فمن أراد أن يتهمه بالهمّ على السوء - علماً بأن الهمَّ أمر نفسي لا عقاب عليه - فهو من دعاة السوء، وأهل الجهالة والغباوة، وأدنى من الشيطان الذي شهد كما أوضحنا بطهارة يوسف.

١٢ً - أرشدت قصة يوسف إلى أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قدر الله تعالى، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة، لم يمنعه عنه أحد ولو اجتمع العالم عليه.

١٣ً - دلت القصة على أن الحسد سبب للخذلان والخسران.

١٤ً - الصبر مفتاح الفرج، فإن يعقوب عليه السلام لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك يوسف عليه السلام لما صبر فاز كما تقدم بيانه.

عربية القرآن ومنزلة القَصص القرآني

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

القراءات:

﴿قُرْءَٰنًا﴾، ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قراناً، القران).

الإعراب:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال من هاء .﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلناه مجموعاً. وكذلك ﴿عَرَبِيًّا﴾ حال أخرى.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ﴿أَحْسَنَ﴾ منصوب نصب المصدر؛ لأنه مضاف إلى المصدر، وأفعل: إنما يضاف إلى ما هو بعضٌ له، فينزل منزلة المصدر، فصار بمنزلة قولهم: سرت أشدَّ السير، وصُمْت أحسن الصيام .﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ مفعول به، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ بدل أو عطف بيان أو نعت.

﴿وَإِن كُنتَ﴾ إن مخففة من الثقيلة، واللام: هي التي تفرق بينها وبين النافية، وضمير ﴿قَبْلِهِۦ﴾ راجع إلى قوله ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ والمعنى: وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه.

البلاغة:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أشار إلى القرآن بالبعيد لبيان علو منزلته وبعد مرتبته في الكمال.

المفردات اللغوية:

﴿الٓر﴾ البدء بالحروف المقطعة إشارة إلى إعجاز القرآن، فمن هذه الحروف العربية الأبجدية ونحوها التي تكونت منها لغة العرب، تألفت آيات الكتاب المعجز، كما بينا في أول سورة البقرة وآل عمران وغيرهما من السور المتقدمة.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة. ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي السورة، أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، أو الواضحة معانيها لنزولها بلسان العرب، أو المبينة لمن تدبرها أنها من عند الله، لا من عند البشر. و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الموضّح المفصل ما يريد. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب الذي فيه قصة يوسف. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ مجموعاً بلغة العرب، وسمي بعض القرآن قرآناً؛ لأن القرآن اسم جنس، يقع على كله وبعضه، وصار علماً للكل بالغلبة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علة لإنزاله بهذه الصفة، أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه.

﴿ٱلْقَصَصِ﴾ إما مصدر بمعنى الاقتصاص، وإما اسم مفعول بمعنى المقصوص من الخبر والأحاديث. وقص الخبر: حدثه على وجهه الصحيح. و﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ لأنه اقتص على أبدع الأساليب، أو أحسن ما يقص؛ لاشتماله على العجائب والحكَم والآيات والعِبَر.

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن، يعني السورة. ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصة، الجاهلين بها، فلم يكن لك فيها علم قط، ولا عرفت شيئاً منها.

سبب النزول:

نزول الآية (٣):

﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾: روى ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

التفسير والبيان:

تشبه فاتحة هذه السورة فاتحة سورة يونس، لكن وصف القرآن هنا بالمبين وهناك بالحكيم، والسبب أن سورة يوسف تعبر عن أحداث جسام مرَّ بها نبي كريم صبور فناسبها الوصف بالبيان، وأما سورة يونس فموضوعها إثبات أصول الدين من توحيد الله، وإثبات الوحي والنبوة، والبعث والجزاء، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة.

والمعنى: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب، وهذا تفسير الزمخشري. وقال أبو حيان: والظاهر أن المراد بالكتاب: القرآن، و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ إما البيِّن في نفسه، الظاهر أمره في إعجاز العرب وتبكيتهم، وأما المبين الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وما يحتاج إليه من أمر الدين، أو المبين الهدى والرشد والبركة.

وعلى أي حال، فإن الكتاب اسم جنس يطلق على البعض وعلى الكل، فسواء قلنا: إن المراد به هذه السورة، أو كل القرآن، فالمقصود إثبات صفة القرآن، وصفاته لا تختلف بين السور جميعها، فكلها واضحة جلية تفصح عن أشياء مبهمة، وآياتها تبين وتفسر غوامض الأمور، وتوضح أحكام الشريعة، وترشد إلى ما هو خير في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي وابن كثير: هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها، يعني

بالكتاب المبين: القرآن المبين، أي المبين حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه، وهُداه وبركته.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي إنا أنزلنا هذا القرآن على النبي محمد العربي، بلغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، لتتعلموا ما لم تكونوا تعلمون من قصص وأخبار، وآداب وأخلاق، وأحكام وتشريعات، ومناهج حياة سليمة في السياسة والاجتماع والاقتصاد وشؤون الدولة، ولتتدبروا ما فيها من معانٍ وأهداف، تبني الفرد والجماعة على أقوم الأسس.

قال ابن كثير: فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، فكمل من كل الوجوه.

ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ أي نحن نخبرك بأحسن الأخبار، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، الذي جاء تاماً كاملاً مفصلاً كل شيء، وجاءت قصة يوسف كاملة تامة مفصلة ذات أهداف سامية وعبر كثيرة. وإن كنت من قبل ما أوحينا أي من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عما عرفناك به، أي من الجاهلين به، فلا علم لك به قط، شأنك شأن قومك، لا يعلمون من قصص الماضين وأخبارهم شيئاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

أ - القرآن الكريم كتاب مبين، أوضح الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والشرائع والأخلاق، ليكون هدىً للعالمين، وبركة وخيراً للناس أجمعين، فهو معجزة بيِّنة لمحمد ﷺ.

٢ً - القرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين، يقرأ بلغة العرب، فكان معشر العرب أولى الناس بالإيمان به، وفهم ما فيه، وتعلم معانيه.

٣ً - القرآن بيان جلي متضمن أحسن القصص، وأثبت الأخبار، وأجدى الآثار وتواريخ الأمم الماضية. والمراد بأحسن القصص: أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب، أي إن المراد من الحسن حسن البيان وكون الألفاظ بالغة بالفصاحة حد الإعجاز.

٤ً - قصة يوسف عليه السلام أحسن القِصص، والسبب في تسمية هذه السورة أحسن القَصَص من بين سائر الأقاصيص هو ما تضمنته هذه القصة من العِبر والحكم، وما اشتملت عليه من التوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجميل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا، وذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجنّ والإنس، والأنعام والطير، وأخبار الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهَّال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن.

فهي قصة جامعة شاملة للدين والدنيا والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية الملأى بالعبر والعظات، ولعل من أهمها الصبر على الأذى والعفو عند المقدرة.

الفصل الأول من قصة يوسف عليه السلام
رؤيا يوسف وتعبير يعقوب الرؤيا

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿يَا أَبَتِ﴾:

وقرأ ابن عامر (يا أبتَ).

﴿يَا بُنَيَّ﴾:

وقرأ باقي السبعة (يا بُنيِّ).

﴿رُؤْيَاكَ﴾:

وقرأ السوسي (روياك).

الإعراب:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب على الظرف، وعامله (الغافلين) وهو بدل اشتمال من ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص، أو بإضمار «اذكر».

و﴿ يُوسُفُ ﴾ ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة، ووزنه يُفْعُل، وليس في كلام العرب يُفْعُل.

﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ من قرأ بكسر التاء، جعلها بدلاً عن ياء الإضافة، ويوقف عليها بالهاء عند سيبويه؛ لأنه ليس ثم «ياء» مقدرة. وذهب الفراء إلى أن الياء في النيَّة، والوقف عليها بالتاء، وعليه أكثر القراء اتباعاً للمصحف.

ومن قرأ بفتح التاء ففيه وجهان: إما أصله «يا أبتي» فأبدل من الكسرة فتحة، ومن الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت الألف فصارت (يا أبَتَ). وإما أنه محمول على قول من قال: يا طلحة بفتح التاء، كأنه قد رخّم، ثم ردَّ التاء وفتحها، تبعاً لفتح الحاء، فقال: يا طلحة.

﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ أجرى الكواكب والشمس والقمر مجرى العقلاء؛ لأن السجود من صفات من يعقل، فوصفها بصفات من يعقل. و﴿ سَٰجِدِينَ ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾.

﴿ فَيَكِيدُواْ ﴾ منصوب بأن مضمرة، وعدي باللام مع أنه متعد بنفسه، لتضمينه معنى فعل يتعدى باللام، للتأكيد والمبالغة في التخويف.

البلاغة:

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ فيها استعارة؛ لأن الكواكب والمذكور معها مما لا يعقل، فكان الأصل أن يقال: ساجدة، فلما وصفها بصفات العقلاء وهو السجود، أطلق عليها فعل من يعقل على طريق الاستعارة.

﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ أي اذكر، أو بدل من أحسن القصص بدل اشتمال إن جعل

﴿أَحۡسَنَ﴾ مفعولاً به. ﴿لِأَبِيهِ﴾ هو يعقوب، روى أحمد والبخاري أن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ في المنام من الرؤيا لا من الرؤية. ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ هم إخوة يوسف، وكانوا أحد عشر، والشمس والقمر: أبوه وأمه. ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ إما تأكيد، أو استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها، فلا تكرار.

وإنما أجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم، وهو السجود الذي هو من صفات العقلاء. والسجود المراد هنا: هو الانحناء، مبالغة في الاحترام، وليس سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لا يكون إلا بنية التقرب لمن يعتقد أن له عليه سلطاناً غيبياً فوق السلطان المعتاد.

﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ قص الرؤيا: الإخبار بها، والرؤيا كالرؤية، غير أنها مختصة بما يكون في النوم، ففرق بينهما بتاء التأنيث المربوطة، كالقربة والقربى. والرؤيا: انطباع الصورة المنحدرة من الخيال إلى الحس المشترك، فتصير مشاهدة. ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ يحتالون في هلاكك حسداً. ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة؛ لما فعل بآدم وحواء. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الاجتباء. ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ يختارك ويصطفيك، أي وكما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه، كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك. ﴿مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤيا: أي الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود، وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها، وتعبير الرؤيا يميز بين أحاديث الملَك الصادقة وبين أحاديث النفس والشيطان الكاذبة.

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بالنبوة. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ أي أهله وأولاده.

والآل: خاص بمن لهم شرف وخطر. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾ بالنبوة. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه وبمن يستحق الاجتباء. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه بهم، يفعل الأشياء على ما ينبغي.

المناسبة:

هذا شروع في بيان أحسن القصص، وهذه بداية مثيرة مجملة في حلقات أو فصول قصة يوسف، تجتذب ذهن القارئ والسامع لتعرف ما هو المصير، وكيف يتم حل اللغز المبهم المبدوء بقصّ يوسف رؤياه الغريبة على أبيه وهو صغير، وما أجابه به، من إخفاء الرؤيا على إخوته حتى لا يحسدوه ويكيدوا له. وهذا الأسلوب يحتذيه واضعو القصص، إذ يبدؤون القصة بلغز أو نبأ مثير، ثم يتدرجون في حل اللغز وبيان أبعاد النبأ وحقيقته.

هل أبناء يعقوب أنبياء؟

يفسر بعض المفسرين الأسباط في آية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦/٢] بأنهم إخوة يوسف وأنهم أنبياء. والصحيح كما ذكر ابن كثير أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب[١].

التفسير والبيان:

اذكر يا محمد لقومك قصة يوسف حين قال لأبيه يعقوب: إني رأيت في منامي أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر تسجد لي، سجود احترام وانحناء وخضوع وتواضع، لا سجود عبادة، وقد وصف فعل غير العاقل بوصف

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤٦٩/٢ - ٤٧٠

العاقل وهو السجود، للدلالة على أنها رؤيا إلهام، لا مجرد أضغاث أحلام. قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي. والرؤيا الصالحة جزء من النبوة، ونوع من الإخبار بالغيب إذا رآها صالح وتأولها عالم صالح. وتكون بارتسام الوقائع على الروح الصافية، وتظهر غالباً موافقة لحديث النفس.

والأحد عشر كوكباً هم إخوته الأحد عشر نفراً، والكواكب هم الإخوة، والشمس والقمر أبوه وأمه. وهذا رأي جماعة من المفسرين؛ لأن الكواكب لا تسجد في الحقيقة، فيحمل الكلام على الرؤيا، ولقول يعقوب عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾.

وذكر ابن جرير الطبري عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود، يقال له: بستانة اليهودي، فقال له: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال؛ فسكت النبي ﷺ ساعة، فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل عليه السلام، فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه، فقال: «هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم، قال: «جريان، والطارق والذيال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، ودو الفرغ، والضياء والنور» فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها[١].

﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ﴾ قال يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا المتضمنة خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه إجلالاً واحتراماً وإكراماً: لا تخبر إخوتك بما رأيت، حتى لا يحسدوك، ويحتالوا لك حيلة توقعك في مكروه، فإن الشيطان عدو لآدم وبنيه، ومن دأبه إيقاع الفتنة بين الناس، كما

(١) ورواه البيهقي في الدلائل عن الحكم بن ظهير، والحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير ابن كثير: ٢/٤٦٨) لكن الحكم بن ظهير ضعيف.

قال يوسف نفسه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠].

وثبت في السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب، فليحدِّث به، وإذا رأى ما يكره، فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره»[1]. وروى الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن معاوية بن حَيَدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رِجْلِ طائر ما لم تعبّر، فإذا عبرت وقعت».

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ أي كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، يختارك لنفسه ويصطفيك لنبوته على آلك وغيرهم، ويعلمك تعبير الرؤيا.

وتعبير الرؤيا: الإخبار بما تؤول إليه في الوجود. وتعليم الله يوسف التأويل: إلهامه الصواب فيها، أو صدق الفراسة، كما قال يوسف لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠] وقال لصاحبي السجن: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ١٢/٣٧].

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك، وعلى آل يعقوب، أي أبيك وإخوتك وذريتهم، وآل الإنسان: أهله، وهو خاص بمن لهم مجد وشرف، كآل النبي ﷺ.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾ أي كإتمام تلك النعمة من قبل هذا الوقت على جدك إسحاق، وجد أبيك إبراهيم، وقُدِّم إبراهيم؛ لأنه الأشرف، إن ربك عليم بخلقه وبمن يستحق الاجتباء والاصطفاء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، كما في آية أخرى، حكيم في صنعه وتدبيره، يفعل الأشياء على ما ينبغي.

---

(١) رواه البخاري عن أبي سَلَمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

أ - رؤيا الأنبياء حق، ورؤيا الصالحين جزء من النبوة، والكواكب هي إخوة يوسف، والشمس والقمرأبوه وأمه، وهذا هوالأصح. قال الحكماء: إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين.

والرؤيا حالة شريفة ومنزلة رفيعة، قال ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: «لم يبق بعدي من المبشِّرات: الرؤيا الصالحة الصادقة، يراها الرجل الصالح، أو تُرى له» وقال في رواية لحديث عند الشيخين عن أبي هريرة: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً» وحكم ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وهو أصح الروايات.

وإنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع، كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب. والرؤيا الصادقة من الله، وهي التي خلصت من الأضغاث[1] والأوهام، قال ﷺ فيما رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي قتادة: «الرؤيا الصالحة من الله، والحلْم من الشيطان». والتصديق بالرؤيا الصالحة حق.

أما رؤيا الكافر والفاجر والفاسق والكاذب، وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدَق في حديث عن غيب، يكون خبره ذلك نبوة. ومن المعلوم أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك نادر وقليل، فكذلك رؤيا هؤلاء.

---

(١) سميت الرؤيا الكاذبة أو الحُلْم ضغثاً: لأن فيها أشياء متضادة، وهي من الشيطان.

وحقيقة الرؤيا: هي إدراك حقيقة في أثناء النوم، وأكثر ما تكون في آخر الليل، لقلة غلبة النوم، وتسمى أحلام اليقظة، فيخلق الله للرائي علماً ناشئاً. ولا يرى الرائي في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، فلا يرى المستحيل، وإنما يرى الجائزات المعتادات. ويمثل الله في الرؤيا للرائي صورة محسوسة، قد توافق الواقع، وقد تكون لمعانٍ معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين قد تكون مبشِّرة أو مُنذرة.

٢ً - لا تقص الرؤيا على غير عالم ولا محب ولا ناصحٍ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها، أخرج الترمذي حديثاً: «الرؤيا معلَّقة برِجْل طائر، ما لم يحدِّث بها صاحبها، فإذا حدّث بها وقعت، فلا تحدّثوا بها إلا عاقلاً أو مُحبّاً أو ناصحاً».

٣ً - يطلب كتمان النعمة أمام من تخشى غائلته حسداً وكيداً، حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث أخرجه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن عمر: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

٤ً - يباح أن يحذِّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب (إسرائيل) عليه السلام قد حذَّر يوسف عليه السلام أن يقص رؤياه على إخوته، فيكيدوا له كيداً.

٥ً - في الآية دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه عرف أن يوسف سيظهر على إخوته، فسرّه ذلك ودل على أن محبته له كانت مبنية على مقومات فيه، والرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه، أما الأخ فلا يودّ ذلك لأخيه.

ودلت الآية أيضاً على أن يعقوب عليه السلام كان أحسَّ من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف المكيدة والحسد، والعمل على هلاكه. ودل هذا وفعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء؛ لأن

الأنبياء معصومون من الحسد الدنيوي، ومن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، وتآمر على قتله.

٦ - اشتمل كلام يعقوب مع ابنه يوسف على عدة بشائر، فأخبره أنه كما أكرمه الله بالرؤيا، فإن الله يجتبيه ويحسن إليه بتحقيق الرؤيا، بالسجود له. والاجتباء: اختيار معالي الأمور للمجتَبَى، ويعلمه كيفية تعبير الرؤيا وتأويل أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، وهي إشارة إلى النبوة، ويتم نعمته عليه بالنبوة، كما أتم تلك النعمة على أجداده: إسحاق وإبراهيم، فجعل الله إبراهيم خليلاً ونبياً ونجاه من النار، وجعل إسحاق نبياً أيضاً، وفي قول غير راجح: إنه الذبيح، والنعمة: الذبح.

والخلاصة: إن القول الصحيح في تفسير النعمة على يوسف وغيره هي النبوة؛ لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها. وإن يعقوب وعد يوسف بدرجات ثلاث: هي الاجتباء أو الاصطفاء، وتعبير الرؤيا أو تأويلها، والنبوة.

الفصل الثاني من قصة يوسف
يوسف وإخوته

- ١ -

اتفاقهم على إلقائه في البئر

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

القراءات:

﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ :

وقرأ ابن كثير (آية للسائلين).

﴿مُّبِينٍ ، ٱقْتُلُواْ﴾ :

بكسرِ التنوين وصلاً قرأ أبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وحمزة.

وبضمه قرأ الباقون.

﴿غَيَٰبَتِ﴾ :

قرئ:

١- (غيابات) وهي قراءة نافع.

٢- (غيابت) وهي قراءة الباقين، ووقف بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي. ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمع آية، وآية على وزن «فَعِلة» بكسر العين، فتقلب العين ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فتصير آية «ليوسف.. وأخوه» مبتدأ وخبر.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والواو حالية.

﴿أَرْضًا﴾ منصوب على أنه ظرف مكان، وتعدَّى إليه .﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ وهو لازم؛ لأنه ظرف مكان مُبْهَم، وليس له حدود تحصره ولا نهاية تحيط به، لأنه نكرة، فنصبت كالظروف المبهمة. أو انتصب على إسقاط حرف الجر.

﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ جواب الأمر .﴿وَتَكُونُوا۟﴾ مجزوم بالعطف على ﴿يَخْلُ﴾ أو منصوب بإضمار (أن).

المفردات اللغوية:

﴿فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي في خبرهم وقصتهم، وهم أحد عشر وإخوته العشرة هم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، ولاوي، وربالون، ويشجر، ودينة، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر. والسبعة الأولون كانوا من «ليا» بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سُرِّيّتين (أمتَين): زلفة وبلهة، فلما توفيت «ليا» تزوج يعقوب أختها «راحيل» فولدت له بنيامين ويوسف[1].

﴿ءَايَٰتٌ﴾ عبر، أو علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل

(١) الكشاف: ٢/ ١٢٤

شيء لمن سأل عنهم وعرف قصتهم، والظاهر أنها الدلالات على صدق الرسل .﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن خبرهم .﴿إِذْ قَالُواْ﴾ اذكر حين قال بعض إخوة يوسف لبعضهم .﴿وَأَخُوهُ﴾ بنيامين .﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة رجال ما بين الواحد والعشرة .﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بيِّن، بإيثارهما علينا وتفضيله المفضول، أو لترك العدل في المحبة. روي أن يوسف كان أحب إلى أبيه، لما يرى فيه المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، بحيث لم يصبر عنه، فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله: إذ قالوا، كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال: لا تقتلوا يوسف. ﴿أَرْضًا﴾ أي بأرض بعيدة من العمران. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يصْفُ لكم، فيقبل عليكم ولا يلتفت إلى غيركم. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف أو من بعد قتله أو طرحه. ﴿صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم، بأن تتوبوا، أو صالحين مع أبيكم، أو في أمر دنياكم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً، وقيل: روبيل ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعره سمي به لغيبوبته عن أعين الناظرين. ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرين، الذين يسيرون في الأرض. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أردتم من التفريق بينه وبين أبيه، أو فاعلين بمشورتي، فاكتفوا بذلك.

المناسبة:

هذه بداية قصة يوسف مع إخوته، بعد أن قدم الله تعالى لها بمقدمتين: الأولى - وصف القرآن، وأنه تنزيل من عند الله بلسان عربي مبين، دال على رسالة النبي ﷺ، ورتب عليه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾. والثانية - الكلام على رؤيا يوسف وتأثيرها في نفس يعقوب، وبنى عليها العبرة منها وهي ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

التفسير والبيان:

تالله، لقد كان في قصة يوسف مع إخوته لأبيه عبرة ومواعظ للسائلين الذين سألوا عنهم، دالة على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء لكل سائل عن أحداث القصة، ودالة على صدق الرسول يوسف وغيره، وعلى ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه، وصدق رؤياه، وصحة تأويله، وضبط نفسه وقهرها، حتى قام بحق الأمانة(١). فذلك خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه.

إنه لعبرة حين قالوا: والله ليوسف وأخوه بنيامين شقيقه أحب إلى أبينا منا، فهو يفضلهما علينا في الحب، وهما صغيران، ونحن جماعة عشرة رجال. حلفوا فيما يظنون، و﴿أَحَبُّ﴾ أفعل تفضيل أي أكثر حباً منا. والعصبة: ما بين الواحد إلى العشرة.

إن أبانا لفي خطأ واضح مجاف الصواب في ذلك، بإيثار يوسف وأخيه علينا بالمحبة، وتركه العدل والمساواة في المحبة، فكيف يفضِّل صغيرين ضعيفين لا كفاية فيهما ولا منفعة، على رجال أشداء، نقوم بكل ما يحتاج إليه من منافع معاشية ودفاعية، وكيف يحب الاثنين أكثر من الجماعة؟!

وهذا في الحقيقة خطأ منهم لا من أبيهم؛ لأن يوسف وأخاه صغيران يتيمان ماتت أمهما، ولأنه كان يرى في يوسف إرهاصات النبوة والعقل والحكمة، وتأكد توقعه بما فهم من رؤياه.

ومع ذلك يطلب الاحتياط في معاملة الأولاد والتسوية بينهم في المحبة والمعاملة ولو في القبلة، وتجنب ما يثير التحاسد والتباغض بينهم، كما أوصى النبي ﷺ فيما يرويه البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن النعمان بن بشير: «اتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم» وما يرويه الطبراني عن

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ٢٨٢

النعمان بن بشير أيضاً: «اعدلوا بين أولادكم في النُّحل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف».

ثم ذكر الله تعالى مؤامرتهم بقوله: ﴿اقْتُلُوا﴾ أي ومما قالوا، أي قال بعض إخوة يوسف لبعض: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ حسماً للمشكلة، أو انبذوه في أرض مجهولة عن العمران، فلا يستطيع الرجوع إلى أبيه، فإن فعلتم ذلك تستريحوا منه، ويصْفُ لكم وجه أبيكم، وتخلوا أنتم مع أبيكم، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها، وتكونوا من بعد يوسف أو بعد قتله أو طرحه أرضاً قوماً تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه، أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده، بخلوّ وجه أبيكم، فيرضى عنكم ربكم وأبوكم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي قال أكبرهم وهو يهوذا، وقيل: روبيل: لا تقدموا على قتله، فإن القتل جريمة عظيمة، وهو أخوكم، ولكن ألقوه في أسفل البئر، يلتقطه بعض المسافرين الذين يسيرون في الأرض للتجارة، فتستريحوا منه بهذا، ويتحقق غرضكم وهو إبعاده عن أبيه، ولا حاجة إلى قتله، إن كنتم فاعلين، أي عازمين على ما تقولون، وفاعلين ما هو الصواب، فهذا هو الرأي. وقوله: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فيه حذف، أي قال قائل منهم: اقتلوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - في قصة يوسف وإخوته دلالة على صدق الرسل، وعبرة تمخضت عنها وهي التنبيه على عاقبة البغي والحسد، وفضيلة ضبط النفس، والتصديق بتعبير الرؤيا وصحة تأويلها إن كانت من نبي أو عالم ناصح.

٢ - لقد دفع التباغض والتحاسد والغيرة إخوة يوسف على تدبير مؤامرة

لقتله أو إلقائه في بادية بعيدة عن الناس حتى يهلك، أو يأخذه بعض التجار المسافرين ويتملكونه؛ لأن خبر المنام بلغهم، فتآمروا على كيده، أو لمجرد الغيرة الشديدة من عاطفة أبيهم نحو يوسف وأخيه.

٣ - إن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، لكن يعقوب عليه السلام العالم بذلك لم يفضل ولديه يوسف وأخيه إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر، فكان معذوراً فيه، ولا لوم عليه.

٤ - دل قوله: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي تائبين، بأن تحدثوا توبة بعد ذلك، فيقبلها الله منكم، وهو دليل على أن توبة القاتل مقبولة؛ لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم، كما ذكر القرطبي[١].

٥ - علق محمد بن إسحاق على مؤامرة أولاد يعقوب على أخيهم يوسف فقال فيما رواه ابن أبي حاتم: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنه، ورقة عَظْمه، مع مكانه من الله، ممن أحبه طفلاً صغيراً، وبين الأب وابنه على ضعف قوته، وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه، يغفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً[٢].

٦ - أفعال إخوة يوسف المتقدمة تدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، لا أولاً ولا آخراً؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. ومما يرد قول من قال إنهم أنبياء: أن الأنبياء

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٣١

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧٠

معصومون من الكبائر. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء، ثم نبأهم الله[١]. وقد سبق بيان الرأي الأصح في هذا عن ابن كثير وغيره.

حكم الالتقاط:

الالتقاط: تناول الشيء من الطريق، ومنه اللقيط واللُّقْطَة. أما اللقيط: فالأصل فيه الحرية، لغلبة الأحرار على العبيد، فهو قضاء بالغالب، وهو مسلم أخذاً بالغالب أيضاً، فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون، قال ابن القاسم، يُحكم بالأغلب؛ فإن وجد عليه زِيّ اليهود فهو يهودي، وإن وجد عليه زِيّ النصارى فهو نصراني، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غير الإسلام.

وقال غير ابن القاسم: لو لم يكن في القرية إلا مسلم واحد، قضي للقيط بالإسلام، تغليباً لحكم الإسلام الذي يعلو، ولا يُعلى عليه.

أما النفقة عليه: فقال أبو حنيفة: إذا أنفق الملتقط على اللقيط فهو متطوع، إلا أن يأمره الحاكم.

وقال مالك: إذا أنفق عليه الملتقط، ثم أقام رجل البينة أنه ابنه، فإن الملتقط يرجع على الأب، إن كان طرحه متعمداً، وإن لم يكن طرحه، ولكنه ضل منه فلا شيء على الأب، والملتقط متطوع بالنفقة.

وقال الشافعي: إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال، فإن لم يكن ففيه قولان: أحدهما - يستقرض له في ذمته. والثاني - يقسط على المسلمين من غير عوض.

والخلاصة: اتفق العلماء على أنه إذا لم يكن للقيط مال: إن شاء تبرع

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٣٣

الملتقط بالإنفاق عليه، وإن شاء رفع الأمر إلى الحاكم، لينفق منه على حساب بيت المال المعدّ لحوائج المسلمين. وإن كان للقيط مال، بأن وجد معه مال، فتكون النفقة من مال اللقيط؛ لأنه غير محتاج إليه.

ولو أنفق عليه الملتقط من مال نفسه: فإن أنفق بإذن القاضي، فله أن يرجع على الملتقط بعد بلوغه، وإن أنفق بغير إذن القاضي، يكون متبرعاً، ولا يرجع على اللقيط بشيء.

وأما اللقطة والضوالّ - وهما بمعنى واحد على الأصح[١] - فأجمع العلماء على أنها ما لم تكن تافهاً يسيراً، أو شيئاً لا بقاء لها، فإنها تعرَّف حولاً كاملاً، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول، وأراد صاحبها أن يضمِّنه، فإن ذلك له، وإن تصدق بها فصاحبها مخيّر بين التضمين وبين الرضا بالثواب أو الأجر على التصدق بها، وليس لملتقطها التصدق بها أو التصرف قبل الحول. وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها، له أكلها.

وللعلماء آراء في الأفضل من ترك اللقطة أو أخذها، فقال المالكية: إن شاء أخذها وإن شاء تركها، ونقل عن مالك وأحمد كراهة الالتقاط، ودليلهم حديث أصحاب الكتب الستة عن زيد بن خالد الجهَني في الشاة: «هي لك أو لأخيك، أو للذئب» ولا تلزم صاحبها بيِّنة عندهم وعند الحنابلة، ويكفي بيان علاماتها، من وعاء ووكاء مثلاً.

وذهب الحنفية، والشافعية في الأصح إلى أنه يجوز الالتقاط، لحفظ اللقطة لصاحبها، صيانة لأموال الناس، ومنعاً من ضياعها ووقوعها في يد خائنة. ولكن لا تدفع لصاحبها إلا إذا أقام البيِّنة أنها له.

---

(١) وقيل: إن الضالة لا تكون إلا في الحيوان، واللقطة في غير الحيوان، وأنكر أبو عبيد القاسم ابن سَلام ذلك.

وكذلك للعلماء آراء في النفقة على الضوالّ، فقال المالكية: للملتقط الرجوع بالنفقة على صاحبها، سواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره.

وقال الشافعية والحنابلة: لا يرجع الملتقط بشيء من النفقة؛ لأنه متطوع. وكذا قال الحنفية: إن أنفق الملتقط على اللقطة بغير إذن الحاكم فهو متبرع أو متطوع، وإن أنفق عليها بإذن الحاكم، كان ما ينفقه ديناً على المالك، فيرجع عليه.

وأما تملك اللقطة بعد تعريفها سنة، فقال الحنفية: إذا كان الملتقط غنياً، لم يجز له أن ينتفع باللقطة، وإنما يتصدق بها على الفقراء، وإذا كان فقيراً فيجوز له الانتفاع بها بطريق التصدق، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البزار والدارقطني عن أبي هريرة: «فليتصدق به».

وقال الجمهور: يجوز للملتقط أن يتملك اللقطة، وتكون كسائر أمواله، سواء أكان غنياً أم فقيراً، فإن عرف صاحبها في المستقبل ضمنها له.

- ٢ -

تنفيذ إخوة يوسف مؤامرتهم وتدليسهم الأمر على أبيهم

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾

القراءات:

﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾:

قرئ:

١- (يرتعِ ويلعبْ) وهي قراءة نافع.

٢- (نرتعِ ونلعبْ) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (نرتعْ ونَلعبْ) وهي قراءة أبي عمرو، وابن عامر.

٤- (يرتعْ ويلعبْ) وهي قراءة الباقين.

﴿لَيَحْزُنُنِيَ أَن﴾:

قرئ:

١- (لَيُحْزِنُني) وهي قراءة نافع.

٢- (لَيَحْزُنُنِيَ) وهي قراءة ابن كثير.

٣- لَيَحْزُنُنِيْ) وهي قراءة الباقين.

﴿ٱلذِّئْبُ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، والكسائي، وحمزة وقفاً (الذيب).

﴿غَيَٰبَتِ﴾:

تقدمت في القراءات للآيات ٧-١٠

الإعراب:

﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾: أصله: تأمننا، فاجتمع حرفان متحركان من جنس واحد، فاستثقلوا اجتماعهما فسكنوا الأول منهما وأدغموه في الثاني، وبقي الإشمام يدل على ضمة الأولى. والإشمام: ضم الشفتين من غير صوت، وهذا يدركه البصير دون الضرير.

﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ العين في ﴿يَرۡتَعۡ﴾ ساكنة للجزم على وزن «يفعل»، ويقرأ بكسر العين، وأصله يَرْتَعِي على وزن يفتعِل، من الرَّعْي، إلا أنه حُذفت الياء للجزم.

﴿أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ أن الأولى وصلتها: في تأويل مصدر فاعل (يحزنني) وأن الثانية وصلتها: في تأويل مصدر مفعول ﴿وَأَخَافُ﴾. والواو في قوله ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ للحال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ جواب «لما» محذوف، وتقديره: فلما ذهبوا به حفظناه.

﴿عِشَاءً﴾ أي ليلاً، وهو ظرف في موضع الحال.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: إما مبتدأ وخبره محذوف، أي فصبر جميل أمثلُ من غيره، أو خبر مبتدأ محذوف، أي فصبري صبر.

البلاغة:

﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الدم لا يوصف بالكذب، والمراد: بدم مكذوب فيه، وجيء بالمصدر على طريق المبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿لَنَاصِحُونَ﴾ لقائمون بمصالحه، والناصح: المشفق المحب للخير، أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا استنزاله عن رأيه في حفظه منهم، لما تنسم من حسدهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى البرية أو الصحراء، والغد: اليوم التالي ليومك ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ يرتع: يتسع في أكل الفواكه ونحوها، من الرتعة: وهي الخصب، والرتْع: التوسع في الملاذ، والأكل من الفاكهة حيث شاء. ويلعب: ينشط ويلعب بالاستباق والانتضال بالسهام ﴿لَحَافِظُونَ﴾ أن يناله مكروه ﴿لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ ذهابكم، لشدة مفارقته أو فراقه علي وقلة صبري عنه، والحزن: ألم في النفس لفقد محبوب أو وقوع مكروه. والخوف: ألم في نفس مما يتوقع من مكروه.

﴿أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ المراد به الجنس، وكانت أرضهم مذأبة كثيرة الذئاب ﴿غَافِلُونَ﴾ مشغولون عنه بالرتع واللعب، أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿لَئِنْ أَكَلَهُ﴾ اللام لام قسم، وجوابه ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة ﴿لَخَاسِرُونَ﴾ عاجزون أو ضعفاء مغبونون، أو مستحقون

لأن يدعى عليهم بالخسار ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ أي وعزموا على إلقائه في البئر: بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين، بأن نزعوا قميصه بعد ضربه وإهانته وإرادة قتله، وأدلوه إلى البئر، فلما وصل إلى نصف البئر، ألقوه ليموت، فسقط في الماء، ثم أوى إلى صخرة، فنادوه فأجابهم ظاناً رحمتهم، فأرادوا رضخه بصخرة، فمنعهم يهوذا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ في البئر، أي ألهمناه، وله سبع عشرة سنة أو دونها تطميناً لقلبه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ لتخبرنهم بعد اليوم ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ بصنيعهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بك حال الإنباء أنك يوسف، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم ﴿عِشَآءً﴾ وقت المساء، آخر النهار ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين ﴿نَسْتَبِقُ﴾ نتسابق في العَدْو أو في الرمي ﴿مَتَٰعِنَا﴾ ثيابنا ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ بمصدِّق .﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي ولو ثبت صدقنا لا تهمتنا، فكيف وأنت تسيء الظن بنا؟! أو ولو صدقنا لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ محله نصب على الظرفية، أي فوقه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب، بمعنى مكذوب فيه، بأن ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها، وذهلوا عن شقه، وقالوا: إنه دمه ﴿قَالَ﴾ أي يعقوب، لما علِم كذبهم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ففعلتموه به ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا جزع فيه، وهو مالا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه العون ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ تذكرون من أمر يوسف أو من هذه المصيبة وهلاكه.

المناسبة:

الكلام مرتبط بما قبله، مبين مكيدة إخوة يوسف له، وخداعهم أباهم، وإظهارهم أنهم في غاية المحبة ليوسف والشفقة عليه، وهم يعلمون أن أباهم كان يحب يوسف محبة شديدة، ويحرص عليه، ويحب تطييب قلبه، فأرسله معهم، وهو غير مقتنع بكلامهم ويخافهم عليه.

التفسير والبيان:

لما تواطأ إخوة يوسف على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم يهوذا أو روبيل، جاؤوا أباهم يعقوب عليه السلام، فقالوا: ما بالك لا تأتمنا على يوسف، وتخافنا عليه، ونحن له ناصحون، أي نحبه، ونشفق عليه، ونريد الخير له، ونخلص له النصح؟ وهم يريدون خلاف ذلك، لحسدهم له، بعدما علموا من رؤيا يوسف، وأدركوا حب أبيه له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة.

أرسله معنا، أي ابعثه معنا في الغد حين نخرج كعادتنا إلى المرعى في الصحراء، يرتع أي يأكل ما يطيب له من الفاكهة والبقول، ويلعب أي ويسعى وينشط ويشاركنا في السباق بالسهام، وإنا له لحافظون من أي أذى ومكروه يصيبه، ونحفظه من أجلك. فأجابهم يعقوب بقوله: إني ليحزنني ويؤلمني ذهابكم به وفراقه لي على أي نحو، وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب، فيأكله وأنتم غافلون عنه لا تحسون به.

وبه يتبين أنه اعتذر إليهم بشيئين: أن فراقه إياه مما يحزنه، وخوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم، لقلة اهتمامهم به، وكأنه لقنهم الحجة، وشدة الحذر دفعته لقول ذلك.

فأجابوه في الحال: والله لئن أكله الذئب، ونحن جماعة أشداء ندافع عن الحرمات، لكنا خاسرين، أي هالكين عاجزين لا خير فينا ولا نفع.

ثم بدؤوا تنفيذ المؤامرة بالفعل، فلما ذهبوا به من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، صمموا على مرادهم، وعزموا عزماً لا تردد فيه على إلقائه في قعر بئر وأسفله، وهو البئر المعروف لديهم، ليذهب حيث شاء، أو يهلك، فيستريحوا منه.

ولكنّ الله تعالى ذو القدرة الشاملة، والإرادة النافذة، والرحمة واللطف، وإنزاله اليسر بعد العسر، والفرج بعد الكرب، أوحى إليه وحي إلهام على الأظهر، مثل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨/١٦] وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧/٢٨] تطميناً لقلبه وتثبيتاً له ألا تحزن مما أنت فيه، فإن لك فرجاً ومخرجاً، وسينصرك الله عليهم، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع السيء وهم لا يعرفون ولا يشعرون بأنك يوسف. وهو وعد بالخلاص من هذه المحنة، والنصر عليهم، وصيروتهم تحت سلطانه.

ثم جاء دور الاعتذار بالأعذار الكاذبة لأبيهم يعقوب عليه السلام، فحينما رجعوا إليه في آخر اليوم وقت العشاء في ظلمة الليل، أخذوا يتباكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، وقالوا معتذرين عما زعموا: إنا ذهبنا نتسابق ونترامى بالنبال، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا، حارساً لها، فأكله الذئب، وهذا الذي كان قد جزع منه وحذر عليه، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا صادقين موثوقين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟! وأنت معذور في هذا لغرابة ماوقع، وعجيب ما حدث. والحاصل أنا وإن كنا صادقين، لكنك لا تصدقنا؛ لأنك تتهمنا في يوسف، لشدة محبتك إياه، ولظنك أنا قد كذبنا.

وهذا إيماء بعدم قناعتهم بما يقولون، وإحساسهم بالكذب ضمناً.

وزاد في التلبيس والتدليس أنهم جاؤوا بقميصه ملطَّخاً بدم مكذوب مفترى، أخذوه من دم سخلة ذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، لذا قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ولكن إرادة الله أبت إلا أن يظهر آثار جريمتهم، فنسوا أن يخرقوا الثوب ويشقُّوه؛ إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميص، فلم يصدقهم يعقوب وأعرض عنهم وعن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لَبْسهم عليه، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾

أي بل زينت أو سهلت وهونت لكم أنفسكم السيئة أمراً منكراً غير ما تصفون وتذكرون، فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، وأستعين بالله حتى يفرج الكرب بعونه ولطفه، فالصبر الجميل أولى بي، يروى أن النبي ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال: «هو الذي لا شكوى معه». والله المستعان على ما تذكرون من الكذب، وهو المعين على شر ما تصفون من الحدث الأليم.

روي أن يعقوب قال استهزاء: ما أحلمك ياذئب تأكل ابني ولا تشق قميصه؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - نجح إخوة يوسف في حبك المؤامرة، وخداع أبيهم، والمؤمن غِرّ (غير مجرِّب) كريم، وتلك حيلة يلجأ إليها الأولاد عادة؛ لأن لعب الصبيان المباح وتنشيطهم مرغوب فيه، ولا سيما أنهم قد أظهروا شفقتهم عليه وحبهم له، وتعهدوا بحفظه ورعايته من المخاوف.

٢ً - كانت إجابة يعقوب لأولاده متضمنة بحكم العاطفة الأبوية المألوفة تحذيراً من التقصير، وتنبيهاً على شدة الصون والحفظ، وإشعاراً بحب ابنه يوسف وعدم تحمله الصبر على فراقه، وهذا أمر طبيعي.

٣ً - موَّه إخوة يوسف على أبيهم الحقيقة، وأظهروا كاذبين أنهم حماة يصونون أخاهم، فهم عصبة أقوياء، وجماعة أشداء، يخشى الناس بأسهم، أفلا يقدرون على مطاردة ذئب يهاجم أخاً لهم.

٤ً - كان إخوة يوسف في أشد ما يكونون قسوة وشدة على أخ لهم من أبيهم، فرموه في البئر، ونزعوا عنه قميصه، ووجد عند كل واحد من الغيظ والحسد والظلم أشد مما عند الآخر.

٥ً - إن رحمة الله ولطفه قريب من المحسنين، فلا يدع سبحانه مظلوماً حتى ينصره، ولا مفجوعاً حتى يسلي قلبه ويطمئنه، ويبشره بالسلامة، فألهم يوسف أنه سينجو مما هو فيه، وأنه سينصره عليهم، وأنه سيخبرهم بسوء ما يصنعون به ويوبخهم على ما صنعوا، وسيكونون تحت قهره وسلطانه، وهم لا يدرون أنه يوسف.

وهذا يدل على أن الوحي ليوسف بعد إلقائه في الجب كان تقوية لقلبه، وتبشيراً له بالسلامة.

٦ً - إنما جاؤوا عشاء، أي ليلاً ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تَطْلبِ الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذرْ بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

٧ً - ودلت آية ﴿يَبْكُونَ﴾ على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنّعاً، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى.

٨ً - الاستباق مباح في السهام أو الرمي، وعلى الفرس، وعلى الأقدام؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو؛ لما له من فائدة في قتال الأعداء، ومطاردة الذئاب. قال ابن العربي: إن المسابقة شِرْعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعَوْن على الحرب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيله؛ فروي أنه سابق عائشة فسبقها، فلما كبر رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، فقال لها: هذه بتلك[١]. وتسابق النبي أيضاً مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسبقهما.

وسابق سَلَمة بن الأكوع - فيما رواه مسلم - رجلاً لما رجعوا من «ذي

(١) أحكام القرآن: ٣/١٠٦٣ وما بعدها.

قَرَد» إلى المدينة، فسبقه سَلَمة. وروى مالك عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أُضمرت[١]، وسابق بين الخيل التي لم تضمَّر، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها.

وكذلك المسابقة بالنّصال والإبل، أخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا سَبَق[٢] إلا في نَصْل أو خُفّ أو حافر». وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العَضْباء، لا تُسبَق، فجاء أعرابي على قَعُود فسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

وأجمع المسلمون على أن السَّبَق على وجه الرهان المباح الآتي بيانه لا يجوز إلا في الخف والحافر والنصل. قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قمار. وقد زاد أبو البَخْتَري القاضي في الحديث السابق: «أو جناح» لإرضاء الرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال.

ولا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة، ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة.

والسبق الجائز اثنان: ما يخصصه الوالي أو غيره من ماله تطوعاً، وما يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإلا بقي له. والسبق غير الجائز أو الحرام: هو ما يكون من الطرفين المتسابقين، بأن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سَبَقه وسبَق

(١) تضمير الخيل: هو علف الخيل حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتاً لتخف.

(٢) السَبَق: ما يجعل للسابق على سبقه من المال، أي لا يحل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة. والسَّبْق بالسكون: مصدر. والصحيح رواية الفتح.

صاحبه. ولا يجوز هذا الوجه إلا بمحلِّل لا يأمنان أن يسبقهما، فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعاً وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين، أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شيء للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما.

وسمي محلِّلاً لأنه يحلل السَّبَق للمتسابقين أوْ: له.

واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل، واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبه، أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أدخل فرساً بين فرسين، وهو لا يأمن أن يَسبق، فليس بقمار، ومن أدخله وهو يأمن أن يَسْبق فهو قِمار» وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال: ليس برِهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلِّل، فإن سبق أخذ السَّبَق، وإن سُبق لم يكن عليه شيء. وهذا قول الجمهور.

ولا يكون سباق الخيل والإبل إلا لمحتلم، أو لأربابها، وهو أولى.

٩ً - استفاد أولاد يعقوب الحجة من قول أبيهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأنه كان أظهر المخاوف عليه.

١٠ً - لم يصدقهم يعقوب، لما ظهر له منهم من قوة التهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه.

وأحسَّوا هم بضعف حجتهم حينما قالوا: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولا تتهمنا في هذه القضية؛ لشدة محبتك ليوسف.

١١ً - دلسوا على أبيهم بالدم المكذوب فيه، فهو دم ظبية، كما قال قتادة، ولما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم، قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التمزيق المعتاد عند اعتداء الذئب على

إنسان. قال ابن عباس: لما نظر إليه، قال: كذبتم؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص.

حكى الماوردي أن في القميص - أي في جنسه - ثلاث آيات: حين جاؤوا عليه بدم كذب، وحين قُدّ قميصه من دُبُر، وحين أُلقي على وجه أبيه، فارتد بصيراً.

١٢ً - استدل الفقهاء بقصة القميص الملوث بالدم على جواز الاعتماد على الأمارات، في مسائل فقهية كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص وسلامته من التخرق. وهكذا على الناظر ملاحظة الأمارات والعلامات، ويقضي بالراجح منها.

١٣ً - الاعتصام بالصبر، والاستعانة بالله، على التزوير والظلم والكذب والمصيبة وفي المحنة والشدة، فذلك مؤذن بالفرج بعد الكرب، وباليسر بعد العسر، وهو دليل الإيمان بأن لهذا الكون رباً يفعل فيه ما يشاء.

١٤ً - الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى معه، وهو أن يعرف أن منزل البلاء هو الله تعالى، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك، ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه.

ولا يكون الصبر جميلاً مالم يكن فيه رضا بقضاء الله وقدره.

والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات: أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى، كان حسناً، وإلا فلا.

والجمع بين الصبر والاستعانة في كلام يعقوب دال على أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، للتغلب على الجزع أو الحزن بسبب الدواعي القوية إليه.

الفصل الثالث من قصة يوسف
نجاة يوسف وإكرامه في بيت العزيز
- ١ -
تعلق يوسف بالدلو ومسيره مع السيارة

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾

القراءات:

﴿يَا بُشْرَىٰ﴾:

قرئ:

١- (يا بشرى) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢-(يابشراي) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿يَا بُشْرَىٰ﴾ منادى مفرد، كأنه جَعَل (بُشرى) اسمَ المنادى أي هذه آونتك كقولك: يازيد، ومن قرأ (يابُشْرايَّ) كان منادىً مضافاً.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ المراد بالواو: التجار، والمراد بالهاء: يوسف، أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في البئر، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء، لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس: أن الضمير لإخوة يوسف قالوا للتجار: هذا غلام لنا قد أبَق، فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. وذلك لأن يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم، فأتاه يومئذ، فلم يجده، فأخبر إخوته، فأتوا الرفقة، وساوموهم على بيعه لهم، فاشتروه منهم.

و﴿ بِضَٰعَةً ﴾ منصوب على الحال من يوسف، ومعناه: مبضوعاً، أي أخفوه متاعاً للتجارة.

﴿ دَرَٰهِمَ ﴾ بدل من «ثمن». و﴿ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ في موضع نصب خبر كان. و﴿ فِيهِ ﴾ متعلق بفعل دل عليه من ﴿ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾، ولا يجوز أن يتعلق بالزاهدين؛ لأن الألف واللام فيه بمعنى الذي، وصلة الاسم الموصول لا يعمل فيما قبله.

المفردات اللغوية:

﴿ سَيَّارَةٌ ﴾ جمع مسافرون معاً، كالكشافة والتجار، وكانوا قوماً مسافرين من مدين إلى مصر ﴿ وَارِدَهُمْ ﴾ هو الرائد الذي يرد الماء أو يبحث عنه ليستقي للقوم، وهو مالك بن دعر الخزاعي من العرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ فأرسل دلوه في الجب ليملأها، فتدلى بها يوسف، والدلو: إناء يستقي من البئر ﴿ يَٰبُشْرَىٰ ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه، كأنه تعالى قال: فهذا أوانك، كما تقول: يا هناي، ويكون هذا النداء مجازاً، أي احضري فهذا وقتك.

﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أخفوه وأخفوا أمره عن الرفاق ﴿ بِضَٰعَةً ﴾ أي أخفوه حال كونهم جاعليه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة، أي قطع ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لم يخف عليه إسرارهم ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ باعوه؛ لأن لفظ الشراء والبيع من ألفاظ الأضداد، فيقال: اشتراه أي ابتاعه، وشراه: باعه ﴿ بَخْسٍ ﴾ مبخوس أي ناقص ومعيب، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٥] وغيرها، والمراد بالبخس هنا قول الحرام أو الظلم؛ لأنه بيع حر، والأصح أن المراد به الناقص عن ثمن المثل ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ قليلة، قيل: كان عشرين درهماً أو اثنين وعشرين ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ ﴾ في يوسف ﴿ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ الراغبين عنه. والضمير إن كان للإخوة

فظاهر، وإن كان للرفقه التجار، فزهدهم فيه؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، مستعجل في بيعه. وباعته السيارة في مصر للذي اشتراه بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى ما فعله إخوة يوسف بإلقائه في أعماق الجب (البئر) ذكر هنا طريق خلاصه من تلك المحنة عن طريق قافلة تجار ذاهبة إلى مصر، فأخذوه وباعوه فيها.

التفسير والبيان:

ومرّ بالبئر جماعة مسافرون مارّون من مَدْين إلى مصر، روي أنهم من العرب الإسماعيليين، بعد أن مكث يوسف في البئر ثلاثة أيام، كان يتردد عليه بالطعام أخوه يهوذا، وذكر محمد بن إسحاق أن إخوته بعد إلقائه في الجب، جلسوا قريباً من تلك البئر، فساق الله له سيارة، ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ (وهو الذي يبحث عن الماء ليسقي القوم) فلما جاء إلى البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبَّث يوسف عليه السلام بها، وخرج من البئر.

فقال مبشراً جماعته السيارة: يابشرى هذا غلام، أي هذه أوان البشرى فاحضري، هذا غلام وسيم جميل صبوح ظريف، كما تقول: يا أسفا، وياحسرتا. فاستبشروا به فهو غلام يباع.

وأخفوه عن الناس، ليكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر، والله عليم بما يعملون لا يخفى عليه شيء من أفعال هؤلاء وغيرهم، وعليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير الواقع ودفعه، ولكن له حكمة وقدراً سابقاً، فترك الأمر ليمضي ما قدره وما قضاه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٤] .

والبائع: إما إخوة يوسف، كما روي عن ابن عباس، والتجار هم الذين اشتروه والذين أسرّوه بضاعة هم إخوة يوسف، لما استخرج من الجبّ. وإما أن البائع هم السيارة، والمشتري: واحد من أهل مصر.

وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقاه من أذى قومه المشركين، وإعلام له بأن الله عالم بأذى قومك لك، فإنه قادر على تغيير الأذى، ولكن اصبر كما صبر يوسف على كيد إخوته وأذاهم، وسأنصرك عليهم، كما نصرت يوسف على إخوته، وجعلته سيداً عليهم.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعه إخوة يوسف، قال ابن كثير: وهو الأقوى، أو باعته السيارة القافلة في مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن المثل من الدراهم المعدودة عداً، لا وزناً، وكانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية (أربعين درهماً) فما فوقها، فباعوه بعشرين أو باثنين وعشرين درهماً، فالمراد بالبخس هنا الناقص أو المعيب أو كلاهما، أي باعوه بأنقص الأثمان. وقيل: المراد به الظلم أو الحرام، لكونه بيع حر، والراجح هو المعنى الأول، كما ذكر ابن كثير؛ لأن الحرام معلوم يعرفه كل أحد؛ لأن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد؛ لأنه نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

وكانوا في يوسف وبيعه من الزاهدين أي الراغبين عنه الذين يودون التخلص منه بأي حال دون أن يعلموا منزلته عند الله تعالى. وقد اشتراه عزيز مصر رئيس الشرطة وصار فيما بعد مسلماً آمن بيوسف ومات في حياته.

والخلاصة: أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث: كونه بخساً، وبدراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - إن مجيء السيارة وإرسال الدلو في البئر تدبير خفي من الله، وتيسير ولطف بعبده يوسف، لإنقاذه من الموت أو الهلاك في البئر؛ لأن الله عليم بكل شيء في هذا الكون، ومدبر ما يراه خيراً على وفق حكمته وإرادته.

٢ً - كان بيع يوسف بثمن ناقص عن ثمن المثل، بدراهم معدودة هي عشرون درهما كما قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما، فلم يستوف ثمنه الحقيقي بالقيمة؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدون من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه؛ وإن كان الذين باعوه هم السيارة الواردة، فإنهم التقطوه، ومن أخذ شيئاً بلا ثمن، باعه بأرخص الأسعار، فما يأخذونه فيه ربح كله.

٣ً - في الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازماً.

٤ً - الله تعالى عليم بأفعال الخلائق وأقوالهم، لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيهم عليها.

وبمناسبة الكلام على الدراهم، قال العلماء: أصل النقدين الوزن، لقوله ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: «الذهب بالذهب الفضة بالفضة وزناً بوزن مِثْلاً بِمثْل، فمن زاد أو استزاد فهو رباً» ولكن جرى في النقود العدّ تخفيفاً عن الخلق، لكثرة المعاملة، ومشقة الوزن.

وهل تتعين الدراهم والدنانير أو لا؟ رأيان: قال أبو حنيفة، ومالك في الظاهر من قوله: لا تتعين بالتعيين. وقال الشافعي: إنها تتعين. وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا قال: بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم، فعلى الرأي الأول: تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها، فلو تلفت، ظل البيع صحيحاً ولم يتأثر بتلف شيء من العوضين؛ لأن مال الذمة لا يتلف.

وعلى الرأي الثاني: لو تلفت الدراهم والدنانير، لم يتعلق بذمة صاحبهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

- ٢ -

يوسف عند ملك مصر وإيتاؤه النبوة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، واسمه قطفير أو أطفير، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي من العماليق، وقد آمن بيوسف ومات في حياته. روي أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان وكان ابن ثلاثين، وآتاه الله الحكمة والعلم، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مئة وعشرين.

واختلف فيما اشتراه به، فقيل: عشرون ديناراً وزوجا نعل وثوبان أبيضان ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ زليخا أوراعيل ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ مقامه عندنا، أي اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً، والمعنى: أحسني تعهده ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستعين به في مصالحنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبناه، وكان عقيماً، لما تفرّس به من الرشد، ولذلك قيل: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٨/٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما نجيناه من القتل والبئر، وعطفنا عليه قلبَ العزيز ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مكنا له في أرض مصر وجعلنا له مكانة رفيعة فيها، حتى صار رئيس حكومتها ووزير ماليتها ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤيا، وهو معطوف على محذوف مقدر متعلق بمكَّنا، أي لنملكه أو ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه، أو الواو زائدة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي لا يعجزه شيء، فلا يُمنع عما يشاء، ولا ينازع فيما يريد.

﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى اشتداد جسمه وكمال قوته الجسمية والعقلية، وهو رشده، وهو سن مابين الثلاثين والأربعين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي حكمة، وهو العلم المؤيد بالعمل، أو حكماً بين الناس، أو حكماً صحيحاً يزن به الأمور بميزان صادق ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث، وفقه الدين قبل أن يبعث نبياً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنفسهم، وهو تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره.

المناسبة:

بعد مسيرة يوسف مع السيارة إلى مصر، أبان الله تعالى بداية قصة يوسف في بيت عزيز مصر الذي اشتراه، وإيتاءه النبوة والعلم والحكمة وتعبير الرؤيا وجعله من زمرة المحسنين.

التفسير والبيان:

بعد تلك المأساة الحزينة التي مرَّ بها يوسف في البئر، ثم اعتباره كالعبيد يباع ويشترى، قيَّض الله له الذي اشتراه من مصر، ولم يذكر هنا اسمه، وإنما وصفه النسوة بأنه عزيز مصر على خزائنها، وذكر في التاريخ أنه رئيس الشرطة والوزير بها، وكان اسمه «قطفير» أو أطفير بن روحيب وزير المالية، حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به، لما توسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته زليخا

أوراعيل بنت رعابيل: أكرمي مقام هذا الغلام ومنزله عندنا أي أحسني تعهده؛ لما تفرس فيه من الرشد.

روى أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصرحين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٨/٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وقيل: كان فرعون موسى الذي عاش أربع مئة سنة هو الذي اشترى يوسف، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٤٠/٣٤] قال البيضاوي: والمشهور أن المشتري من أولاد فرعون، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء.

ثم علل عزيز مصر طلبه من امرأته حسن تعهد يوسف بقوله كما قال الله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي لي رجاء أن ينفعنا في أعمالنا الخاصة واستثمار أموالنا، أو مصالحنا العامة، أو نتبناه ولداً تقر به أعيننا؛ لأنه كان عقيماً لا يولد له ولد، وكان حصوراً.

والآية تدل على أن العزيز كان عقيماً، وأنه كان صادق الفراسة.

ثم أبان الله تعالى أفضاله الأدبية المعنوية بعد أن قيض له من يعينه مادياً فقال: وكما أنعمنا عليه بالسلامة من الجبّ، وأنقذناه من إخوته، وهيأنا له المنزل والمثوى الطيب الكريم، عطّفنا عليه قلب العزيز، وجعلنا له مكانة عالية في أرض مصر، يملك الأمر والنهي وتدبير أمور المالية وشؤون الدولة والحكم، بسبب حدوث ما حدث له في بيت العزيز، ثم السجن، الذي كان سبباً في التعرف على ساقي الملك، ثم الاتصال بالملك نفسه، حتى قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٥٤] وقال يوسف للملك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ١٢/٥٥].

وتحقيق الكمال يكون بأمرين هما القدرة والعلم، أما تكميله في صفة القدرة فبقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأما تكميله في صفة العلم، فبقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهو معطوف على مقدر متعلق بمكنا، أي لنملّكه ولنعلمه. وتأويل الأحاديث: تعبير الرؤيا، ومعرفة حقائق الأمور، وكيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات على قدرة الله تعالى وحكمته وجلاله.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يعجزه شيء، فلا يُمنع عما يشاء، ولا ينازع فيما يريد، إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب، وهو الفعال لما يشاء، كما قال سعيد بن جبير: «ولكن أكثر الناس لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد، ويأخذون بظواهر الأمور، كما ظن إخوة يوسف أنه لو أُبعد خلا لهم وجه أبيهم، وكانوا من بعده قوماً صالحين».

وقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ دليل على أن الأقل يعلمون الحقائق كيعقوب عليه السلام، الذي يعلم أن الله غالب على أمره.

ثم بيَّن الله تعالى ما جازى به يوسف لما صبر على إساءة إخوته إليه، وعلى الشدائد والمحن التي مرَّ بها، فمكنه الله تعالى في الأرض، وهو القدرة التي أشرنا إليها، ولما بلغ أشده آتاه الله النبوة التي عبر عنها بالحكم والعلم، وهي أكمل درجات العلم، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي ولما استكمل يوسف قواه الجسمية والعقلية، آتيناه حكماً وعلماً، أي النبوة التي حباه بها بين أولئك الأقوام، كالجزاء على صبره على تلك المحن وعلى الأعمال الحسنة.

واكتمال الرشد وبلوغ الأشد: مابين سن الثلاثين والأربعين، فقال جماعة: ثلاث وثلاثون سنة، أو بضع وثلاثون، وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة وهو تقدير الأطباء: خمس وعشرون سنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء، نجزي المحسنين الذين يحسنون لأنفسهم أعمالهم. وهذا دليل على أن يوسف عليه السلام كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى، وأن ما آتاه الله من سلطان ونفوذ، وعلم وحكمة، ونبوة ورسالة كان جزاء على إحسانه في عمله، وتقواه في حال شبابه، إذ للإحسان تأثير في صفاء العقول، وللإساءة تأثير في تعكير النفوس وسوء فهم الأمور.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما تفضل الله به على يوسف عليه السلام جزاء صبره من نعم وفضائل مادية ومعنوية وهي ما يأتي:

١ً - تهيئة البيت الكريم، والمثوى والمقام المريح، والمطعم واللباس الحسن، والحفظ والرعاية المادية والأدبية في ظل بيت العزيز الذي كان وزيراً للمالية على خزائن مصر، وهو المنصب ذاته الذي تولاه يوسف عليه السلام بعدئذ.

٢ً - كان عزيز مصر صادق الفراسة، ثاقب الفكرة، أصاب فيما توقعه ليوسف من مكانة عالية في البلاد.

٣ً - التمكين المادي ليوسف في أرض مصر، بأن عطف الله عليه قلب الملك، حتى تمكن من الأمر والنهي في بلد الملك نفسه، فصار وزيراً للمالية ورئيساً للحكومة.

٤ً - التمكين المعنوي ليوسف ليوحي الله إليه بكلام منه، وليعلمه تأويل الكلام وتفسيره، وتعبير الرؤيا، والفطنة للأدلة الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

٥ً - إيتاؤه الحكم والعلم، أي النبوة بعد بلوغ الرشد واكتمال البنية الجسدية والقوى العقلية، فقوله: ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية.

٦ً - جعله من المؤمنين المحسنين المطيعين أوامر ربه، المتجنب نواهيه، الصابرين على النوائب، حتى قال بعضهم: إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى، وشكر نعماء الله تعالى، وجد منصب الرسالة، بدليل أنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن، ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة.

٧ً - دل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف، فإن الله يعطيه تلك المناصب.

٨ً - الله تعالى غالب على أمره، فعال لما يشاء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، نافذ أمره في الخلائق، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٣٦/٨٢].

٩ً - أكثر الناس لا يعلمون حقائق الأمور الإلهية، ويكتفون بظواهر الأمور، والأقل كالأنبياء والمؤمنين الأتقياء هم الذين يدركون أن الله غالب على أمره.

الفصل الرابع من قصة يوسف
يوسف وامرأة العزيز

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿هَيْتَ لَكَ﴾:

قرئ:

١- (هِيْتَ لك) وهي قراءة نافع، وابن ذكوان.

٢- (هَيْتُ لك) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (هَيْتَ لك) وهي قراءة الباقين.

﴿رَبِّي أَحْسَنَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ).

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المخلِصين).

الإعراب:

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ اسم لهلُمَّ، ولذلك كانت مبنية، وكان الأصل أن تبنى على السكون، إلا أنه لم يُمكن أن تبنى على السكون؛ لأنهم لا يجمعون بين ساكنين وهما الياء والتاء. ومنهم من بناها على الفتح لأنه أخف الحركات. ومنهم من بناها على الكسر؛ لأنه الأصل في التحريك لالتقاء الساكنين، ومنهم من بناها على الضم لحصول الغرض من زوال التقاء الساكنين.

ومن قرأ: (هُيِّئتُ لك) بالهمز فمعناه: تهيأت لك، وتكون التاء مضمومة؛ لأنها تاء المتكلم.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، يقال: عاذ يعوذ مَعاذاً وعوذاً وعِياذاً.

﴿رَبِّيٓ﴾ في موضع نصب على البدل من هاء ﴿إِنَّهُۥ﴾ وهي اسم إن.

﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فعل ومفعول، ومن قرأ (أحسنُ) فهو خبر إنّ، أي إن ربي أحسن مثواي.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ الهاء ضمير الشأن والحديث. وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جملة فعلية خبر إن.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ ﴿لَوْلَآ﴾ حرف يمتنع له الشيء لوجود غيره. و﴿أَن رَّءَا﴾ في موضع رفع لأنه مبتدأ. ولا يجوز إظهار خبره بعد ﴿لَوْلَآ﴾ لطول الكلام بجوابها، وقد حذف خبر المبتدأ هنا والجواب معاً، والتقدير: لولا رؤية برهان

ربه موجودةٌ لهمَّ بها. ولا يجوز أن يكون ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب ﴿لَوْلَآ﴾ لأن جواب ﴿لَوْلَآ﴾ لا يتقدم عليه.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ الكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يجوز أن تكون رفعاً، بأن تكون خبر مبتدأ محذوف، التقدير: البراهين كذلك، ويجوز أن تكون نعتاً لمصدر محذوف، أي أريناه البراهين رؤية كذلك.

البلاغة:

﴿فَصَدَقَتْ﴾ و ﴿فَكَذَبَتْ﴾ و ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ و ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث.

المفردات اللغوية:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ طلبت منه زليخا مواقعتها برفق ولين ومخادعة، ومنه قوله: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ١٢/٦١] أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته، ليرسل أخاه بنيامين معنا، ومنه الرائد: الذاهب لطلب شيء. والمراد من آية ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ تحايلت لمواقعته إياها، ولم تجد منه قبولاً . ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أحكمت إغلاق أبواب البيت، قيل: كانت سبعة، والتشديد: للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق . ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي هلم وأقبل وبادر، أو تهيأت، وهي لغة عرب حوران والكلمة: اسم فعل مبني على الفتح، ولام ﴿لَكَ﴾ للتبيين، كالتي في «سقيا لك».

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله وأتحصن من الجهل والفسق . ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إن الذي اشتراني سيدي قطفير، أو إن الشأن ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ مقامي، أي أحسن تعهدي، إذ قال لكِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فلا أخونه في أهله. وقيل: إن الضمير لله تعالى، أي إنه الذي خلقني وأحسن منزلتي بأن عطف علي قلب سيدي، فلا أعصيه . ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المجازون الحسن بالسَّيء وقيل: الزناة، فإن الزنى ظلم على الزاني والمزني بأهله.

﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ قصدت منه الجماع ومخالطته أو أن تبطش به لعصيانه أمرها، والهم بالشيء: قصده والعزم عليه ومنه الهمام: وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه. ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي لولا وجود النبوة، أو مراقبة الله تعالى وطاعته ورؤية ربه متجلياً عليه، لقصد مخالطتها، والمفهوم من ﴿لَوْلَآ﴾ أنه لم يقصد ذلك أصلاً، لوجود خشية الله في قلبه؛ لأن ﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود، فعندما تقول: لولا إتيان ضيف إلي البارحة لجئت إليك، تعني تعذر المجيء لصاحبك بسبب مجيء ضيف يزورك، فالضيف مانع من حصول المجيء، وكذلك هنا: لولا برهان النبوة ومراقبة الله لهمَّ بها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه وأريناه البرهان. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الخيانة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المختارين الذين اجتباهم الله واختارهم لطاعته وعلى قراءة كسر اللام (المُخلِصينَ) يكون المراد: المخلصين في الطاعة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحذف الجار، أو ضمن الفعل معنى الابتدار، أي أسرع كل منهما نحو الباب، وذلك أن يوسف فرّ منها ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، فمبادرته كانت للفرار، ومبادرتها كانت للتشبُّث فيه، فأمسكت ثوبه وجذبته إليها. ﴿وَقَدَّتْ﴾ شقت قميصه من دبر، أي من الخلف والقد: الشق طولاً. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ وجدا زوجها وصادفاه عند الباب. ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي نزهت نفسها، وأوهمت زوجها أنها فرَّت منه تبرئة لساحتها عنده وإغراء به للانتقام من يوسف. و﴿مَا﴾ نافية أو استفهامية، والمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن أي الحبس. ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم بأن يضرب. وتعبير ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ من اختصار القرآن المعجز، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى﴾ قال يوسف: هي طالبتني بالمواتاة، دفاعاً عن نفسه لما عرضت له من السجن أو العذاب، ولو لم تكذب عليه لما قال ذلك. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل: ابن عمها، أو ابن خالها، وكان صبياً في المهد، أنطقه الله تعالى.

﴿مِن قُبُلٍ﴾ من قدام أو أمام. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ من خلف. ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ زوجها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي إن قولك: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي من حيلتكن أيها النساء، والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي إن كيد النساء ألصق وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس، ولا قدرة للرجال عليه ولا يفطنون لحيلهن.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي ثم قال زوجها: يا يوسف أعرض عن هذا الأمر، ولا تذكره واكتمه لئلا يشيع الخبر بين الناس. ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ يا زليخا. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي الآثمين المذنبين، ولكن شاع الخبر واشتهر. والتذكير للتغليب.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى ما أكرم به يوسف من المكارم المادية بالإقامة في قصر عزيز مصر، والمعنوية من النبوة أو العلم والحكمة، ذكر هنا محنته مع امرأة العزيز، والتزامه العفة والنزاهة والطهارة، حتى إنه آثر دخول السجن على ارتكاب الفاحشة، والتخلص من افتتان النساء به.

التفسير والبيان:

كان يوسف عليه السلام في غاية الحسن والجمال، وقد أوصى عزيز مصر امرأته بإكرامه وحسن تعهده، فأحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، ودعته لمخالطتها، وتمحلت لمواقعته إياها،

وأحكمت إغلاق الأبواب عليه قيل: كانت سبعة، وقالت: هيت لك، أي هلم أقبل وبادر، وتهيأت لك، وزيدت كلمة ﴿لَكَ﴾ لبيان المخاطب، مثل: سقياً لك ورعياً لك. وهذا أسلوب في غاية الاحتشام.

فامتنع من ذلك أشد الامتناع، وقال: أعوذ بالله معاذاً، وألتجئ إليه وأعتصم به مما تريدين مني، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين ﴿إِنَّهُۥ﴾ (الضمير للشأن والحديث) ربي أي سيدي ومالكي (قطفير) ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي منزلي ومقامي وأحسن إلي، حين قال لك: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ فلا أقابله بالخيانة، وإتيان الفاحشة في أهله، إنه لا يفلح الظالمون الذين يجازون الإحسان بالإساءة، أو لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومنهمْ الخائنون المجازون الإحسان بالسوء.

ولقد همت بالانتقام منه والتنكيل به، لعصيانه أمرها، وعدم نزوله عند رغبتها، ومخالفته مرادها، وهي سيدته وهو عبدها، أو همت بمخالطته.

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ كثر كلام الناس وتعليقاتهم حول معنى هذه الآية، والأمر فيها سهل يسير، لا يصح تفسير كلمة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وحدها دون بقية الجملة، وإذا فسرت الجملة مع بعضها، تبين أنه لم يهمّ بها قط؛ لأن رؤية برهان ربه قد منعه من ذلك، بدليل أن ﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود وجوابها محذوف دائماً، وتقديره: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ولخالطها؛ لأن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدل عليه، كقولك: (هممت بقتله لولا أني خفت الله) معناه: (لولا أني خفت الله لقتلته) ففي الكلام تقديم وتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها.

ثم إن المراد بالهم: خطرات حديث النفس، والميل إلى المخالطة بحكم الطبيعة البشرية، وهذا لا مؤاخذة فيه شرعاً، فلا يقال: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ ودليل رفع المؤاخذة على الهم الذي هو

مرتبة دون العزم والحزم ما أورده البغوي من حديث عبد الرزاق والصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة، فاكتبوها له حسنة، فإن عملها، فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها».

والبرهان الذي رآه: هو برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، أو هو حجة الله تعالى في تحريم الزنى، والعلم بما على الزاني من العقاب. وقيل: هو تطهير نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة، وقيل: هو النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، وجائز أن يراد كل هذه المعاني؛ لأنها متقاربة غير متعارضة، تحقق هدفاً واحداً وهو طاعة الله عز وجل.

والخلاصة: لم يرتكب يوسف عليه السلام المعصية قط، ولولا حفظ الله ورعايته وعصمته لهمّ بها. وللعلماء في الآية تفسيران: الأول - إنه لم يهمّ بها لرؤية برهان ربه، فهو الذي منعه من الهمّ، والثاني - إنه هم بمقتضى الطبيعة البشرية، ثم تنبه للمانع من وقوع المعصية، ورأى برهان الله وتذكره، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٤].

وبه تبين وجود الفارق بين الهمين: همها به وهمه، فهي قد همت بالانتقام منه والتنكيل به، شفاء لغيظها، أو همت بمخالطته، فكان همها المعصية، وهو هم عزم وتصميم. وهو قد هم بالدفاع عن نفسه، والتخلص منها، حين رأى بوادر الإقدام عليه، ولكنه رأى برهان ربه وعصمته التي جعلته يهم بالفرار من هذا المأزق، فكان همه النجاة منها، وما هم بالسوء بها لما رأى برهان ربه؛ لعصمة الأنبياء، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ

﴿عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لذا أتبعه بقوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي فبادر إلى الباب هرباً، وبادرت هي إلى الباب صداً له عن الهرب. وأراد الله صرف السوء عنه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي مثل ذلك التثبيت على العفة أمام دواعي الفتنة والإغراء ثبتناه، وكما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره. والسوء: المنكر والمعصية وخيانة السيد، والفحشاء: الزنى والفجور.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي إن يوسف من عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته وصفاهم من الشوائب، فلا يستطيع الشيطان إغواءهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٧].

وحدثت المفاجأة الغريبة المحرجة بقدوم زوجها، وهما يتسابقان إلى الباب، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي وتسابقا إلى الباب، بناء على حذف الجارّ وإيصال الفعل كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٥] أو بناء على تضمين (استبقا) معنى: ابتدرا، والتسابق مختلف الغرض، فيوسف فرّ منها مسرعاً يريد الباب ليخرج، وهي أسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي لحقته في أثناء هربه، فأمسكت بقميصه من الخلف، فقطعته.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وحينئذ وجدا سيدها وهو زوجها عند الباب، فحاولت بمكرها وكيدها التنصل من جرمها وإلصاق التهمة بيوسف، فقالت: ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة إلا أن يحبس، أو عذاب مؤلم موجع، فيضرب ضرباً شديداً. وكانت نساء مصر تلقب الزوج بالسيد، ولم يقل: سيدهما؛ لأن استرقاق يوسف غير شرعي.

وهنا ذكر الرازي علامات كثيرة دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق وهي[١]:

أً - إن يوسف عليه السلام كان في اعتبارهم عبداً، والعبد لا يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

٢ً - شوهد يوسف يعدو عدواً شديداً ليخرج، وطالب المرأة لا يفعل ذلك.

٣ً - زيَّنت المرأة نفسها على أكمل الوجوه، خلافاً لما كان عليه حال يوسف.

٤ً - لم تكن سيرة يوسف في المدة الطويلة دالة على حالة تناسب هذا الفعل المنكر.

٥ً - لم تصرح المرأة بنسبته إلى الفاحشة، بل أجملت كلامها، وأما يوسف فصرح بالأمر.

٦ً - إن زوج المرأة كان عاجزاً، فطلب الشهوة منها أولى.

لكل هذا لم تطلب عقوبة شديدة، وإنما أرادت أن يحبس يوماً أو أقل، على سبيل التخفيف والتخويف؛ لأن حبها الشديد ليوسف حملها على أن تشفق عليه، ولكنها من جانب آخر استحيت أن تقول: إن يوسف قصدني بالسوء، وأرادت تَصَيُّد عذر ما، وحماية سمعتها وكرامتها أمام زوجها.

ذكر بعضهم: ما زال النساء يملْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوة، فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه.

---

(١) المرجع السابق: ١٨/ ١٢٣

ثم جاء دور براءة يوسف: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ قال يوسف بارّاً صادقاً مدافعاً عن نفسه حينما اتهمته بقصد السوء: هي التي راودته عن نفسه، فامتنع منها، وأنها تبعته وجذبته حتى قدت قميصه، ولم تترك حيلة إلا لجأت إليها لمواقعتها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وللعلماء قولان في هذا الشاهد، هل هو صغير أو كبير؟ وهل هو إنسان أو القميص؟، فصار في تعيين هذا الشاهد ثلاثة أقوال:

الأول - أنه كان ابن عم لها كبير، وكان رجلاً حكيماً عاقلاً حصيف الرأي، فقال: إن كان[1] شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب، وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة، فلما نظروا إلى القميص، ورأوا الشق من خلفه، قال ابن عمها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي من عملكن، ثم قال ليوسف: أعرض عن هذا واكتمه، وقال لها: استغفري لذنبك. وهذا قول طائفة كبيرة من المفسرين.

والثاني - وهو قول ابن عباس وجماعة: أن ذلك الشاهد كان صبياً أنطقه الله تعالى في المهد. روى ابن جرير حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم».

والثالث - أن ذلك الشاهد هو القميص. قال الرازي: وهذا في غاية الضعف؛ لأن القميص لا يوصف بهذا، ولا ينسب إلى الأهل.

---

(١) إن كان قميصه: كان في موضع جزم بالشرط، وفيه إشكال نحوي؛ لأن حروف الشرط ترد الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان، فقال المبرد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى: إن يكن، أي إن يُعلم، والعلم لم يقع.

ولما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به وظهر للقوم براءة يوسف عن هذا المنكر، قال العزيز أو الشاهد: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ إن هذا الاتهام من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي إن مكر المرأة وكيدها شديد التأثير في النفوس، غريب لا يفطن له الرجال، ولا قِبَل لهم به، ولا لحيلها وتدبيرها.

ويا يوسف أعرض عن ذكر هذه الواقعة واكتم خبرها عن الناس، ويا أيتها المرأة اطلبي المغفرة لذنبك، إنك كنت من زمرة الخاطئين أي المذنبين. وقوله هذا؛ لأنه لم يكن غيوراً، فكان ساكناً، أو لأن الله تعالى سلبه الغيرة، وكان فيه لطف بيوسف، حتى كُفي ما قد يبادر به وعفا عنها.

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات بيان محنة يوسف، وإظهار براءته، واتهام زوجة العزيز، وتكون الآيات دالة على ما يأتي:

١ - اتهام امرأة العزيز بمراودة يوسف عن نفسه، وذكر في الآية ثلاثة تصرفات تؤكد تهمتها وهي: المراودة، وإغلاق الأبواب، ودعوتها يوسف لنفسها قائلة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[١] وهي لغة أهل حوران جنوب سورية، أي هَلُمَّ أقبل وتعال.

٢ - دفاع يوسف عن نفسه، مستخدماً في الجواب ثلاثة أشياء: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، استعاذ بالله واستجار به مما دعته إليه، وتذكر فضل سيده عليه إذ آواه وأحسن مثواه ومقامه وتعهده

(١) قال النحاس: فيها سبع قراءات: هَيْتَ وهَيْتُ وهَيْتِ (الهاء فيهن مفتوحة) وهِيتَ لك بكسر الهاء وفتح التاء، وهِيْتُ لك بكسر الهاء والياء الساكنة والتاء المضمومة، وهِئْتُ لك، وهِئْتَ لك.

بالرعاية والحفظ، ونظر إلى المستقبل نظرة العاقل المتأمل الذي يصون مستقبله، وقرر أنه لا يظفر الظالمون الخائنون الذين يقابلون الإحسان بالإساءة.

٣ - هناك فرق واضح بين همها به وهو المعصية من مخالطة وانتقام، وبين همه بها وهو الفرار والنجاة منها؛ لأن الأنبياء معصومون عن المعاصي.

وأدلة عصمة الأنبياء(١):

الدليل الأول - إن الزنى من منكرات الكبائر، وكذلك الخيانة من منكرات الذنوب، وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموقعة بالفضيحة التامة والعار الشديد من منكرات الذنوب، ثم إن إقدام الصبي الذي تربى في حجر إنسان على الإساءة إلى المنعم عليه من أقبح المنكرات والأعمال.

الدليل الثاني - إن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عن النبي، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ثم إن الله تعالى جعل يوسف عليه السلام من عباده المخلَصين - بفتح اللام - الذين خلصهم الله من الأسواء، وبكسر اللام: من الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٦-٤٧].

الدليل الثالث - من المحال أن يصدر عن الأنبياء عليهم السلام زلة أو هفوة ثم لا يتبعونها بالتوبة والاستغفار.

الدليل الرابع - كل من كان له تعلق بتلك الواقعة، فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

---

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ١١٥ وما بعدها.

والذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين، وإبليس، الكل شهدوا ببراءة يوسف عن الذنب والمعصية، كما تقدم سابقاً.

٤ً - قال العلماء: لما برّأت نفسها؛ ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب - قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه.

٥ً - الشاهد من أهلها: إما طفل في المهد تكلم، قال السهيلي: وهو الصحيح، للحديث المتقدم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» وذكر فيهم شاهد يوسف، وإما رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها.

٦ً - في آية قدّ القميص مقبلاً ومدبراً دليل على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لأن القميص إذا جُبذ من خلف تمزَّق من تلك الجهة، وإذا جُبذ من قدَّام تمزق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب.

٧ً - إذا كان الشاهد على براءة يوسف طفلاً صغيراً، فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات؛ وإذا كان رجلاً صحّ الاعتماد على الأمارة، كالعلامة في اللقطة وغيرها؛ فقال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتعة، فجاء قوم فادعوها، وليست لهم بينة، فإن السلطان ينظر في ذلك، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم. وقال الحنفية وغيرهم: إذا اختلف الرجل والمرأة في متاع البيت: إن ما كان للرجال فهو للرجال، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومة؛ وأصل الاعتماد على الأمارات هذه الآية.

٨ً - الحذر من فتنة النساء، فإن كيدهن عظيم؛ لعظم فتنتهن، واحتيالهن في التخلص من ورطتهن، ذكر مقاتل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٤/٧٦] ، وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾».

الفصل الخامس من قصة يوسف

انتشار الخبر بين نسوة المدينة ومؤامرة امرأة العزيز بهن وتقرير سجن يوسف

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ﴾:

قرئ:

١- (وقالتِ اخرج) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (وقالتُ اخرج) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿حُبًّا﴾ تمييز.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ حذف الألف للتخفيف، ومن قرأ: حاشى لله، أتى به على الأصل. وحاشى: فعل في رأي الكوفيين، بدليل تعلق حرف الجر بها في قوله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وحرف الجر إنما يتعلق بالفعل لا بالحرف. وهي حرف في رأي سيبويه وأكثر البصريين؛ لأن ما بعدها يجيء مجروراً، يقال: حاش أبي ثوبان، ولو كان فعلاً لما جاز أن يجيء ما بعده مجروراً. وأما تعلق حرف الجر بها في قوله ﴿لِلَّهِ﴾ فإن اللام في قوله: (حاشَ لله) زائدة لا تتعلق بشيء، مثل لام: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٤] وباء ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ٩٦/ ١٤] ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٥] فاعل بدا: مصدر مقدر، دل عليه .﴿بَدَا﴾ أي ثم بدا لهم بداء، وهو الراجح، وقيل: دل عليه ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ وقام مقامه، وقيل: الفاعل محذوف تقديره: ثم بدا لهم رأي. واللام جواب ليمين مضمر، وهو فعل مذكر لا فعل مؤنث.

البلاغة:

﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ استعار المكر للغِيبَة؛ لأنها تشبهه في الإخفاء.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ استعار لفظ القطع للجرح أي جرحن أيديهن.

المفردات اللغوية:

﴿نِسْوَةٌ﴾ اسم لجمع امرأة، وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي .﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مدينة مصر، وهو ظرف لقال، أي أشعن الحكاية في مصر، أو هو صفة نسوة، وكن خمساً: زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب .﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فتاها: عبدها، أي تطلب مواقعة غلامها إياها. والعزيز بلغة العرب: الملك .﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل حبه شغاف قلبها. أي غلافه المحيط به حتى وصل إلى فؤادها .﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ في خطأ أي انحراف عن طريق الرشد ومقتضى العقل .﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيّن واضح، بحبها إياه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن لها، وإنما سمي مكراً؛ لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، ولأنهن أردن إغضابها لتعرض عليهن يوسف، فيفزن بمشاهدته. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أعدّت وهيَّأت لهن. ﴿مُتَّكَأً﴾ ما يتكئ عليه من الوسائد في مكان يجلسن فيه متكئين. وقيل: المتكأ: طعام يقطع بالسكين للاتكاء عنده، وهو الأترج. ﴿وَءَاتَتْ﴾ أعطت. ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف. ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه. ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحن أيديهن بالسكاكين، ولم يشعرن بالألم لشغل قلبهن بيوسف، ودهشتهن من جماله الرائع.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً لله من صفات العجز، وتعجباً من قدرته على خلق مثله. ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي ما يوسف من جنس البشر؛ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ما هذا إلا ملك، لما حواه من الحسن الفائق، جاء في الحديث: «أنه أعطي شطر الحسن» أو لما جمع الله له من الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة التي هي من خواص الملائكة.

﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز، لما رأت ما حل بهن: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ أي فهذا هو. ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في حبه والافتتان به قبل تصوره حق التصور، ولو تصورتُنَّه بما عاينتُنَّ لعذرتُنَّني، والمراد بيان عذرها. ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ امتنع امتناعاً شديداً، مأخوذ من العصمة وهي المنع من الوقوع في المعصية. ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الذليلين المهانين، فقلن له: أطع مولاتك. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهن وأوافقهن على أهوائهن. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وأصِرْ من المذنبين، والقصد بذلك الدعاء.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دعاءه. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ للقول ودعاء الملتجئ إليه. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفعل والأحوال وما يصلحهم. ﴿بَدَا﴾ ظهر لهم رأي جديد، وهو أن يسجنوه. ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ الشواهد الدالة على براءة يوسف. ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي ليدخلنه السجن إلى زمن، ينقطع فيه كلام الناس، فسجن سبع سنين أو خمس سنين. والحين: الوقت غير المحدود من الزمن.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى محنة يوسف مع امرأة العزيز، ونجاته من تلك المحنة وقناعة زوجها ببراءته بناء على شهادة حكم شاهد من أقاربها بما رأى، أورد تعالى ما تمخضت عنه المحنة والمحاولة من نتائج طبيعية هي انتشار الخبر وشيوعه في مصر، ومحاولة امرأة العزيز تبرئة ساحتها أمام النساء بمكيدة محكمة وخطة مدروسة، واعترافها أمامهن بأنها التي راودته عن نفسه، فامتنع، وأنها ما تزال مصرة مصممة على ما تريد، وإلا أودع في قيعان السجون، وتم اتخاذ القرار بالسجن، وآثره يوسف ابتغاء مرضاة الله، بل دعا إليه ربه، فسجن سبع سنين أو خمس سنين.

التفسير والبيان:

وقال جماعة من نساء الكبراء والأمراء في مدينة مصر، منكرات على امرأة العزيز وعائبات عليها ومتعجبات منها: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها، وما تزال محاولاتها مستمرة، بدلالة فعل ﴿تُرَاوِدُ﴾ الذي يفيد الاستمرار في الطلب في المستقبل، وما زال قلبها متعلقاً به.

وأكدوا إنكارهم عليها بأمرين؛ لأن المألوف أن المرأة مطلوبة لا طالبة، وهي امرأة الوزير الأول، وتطلب مخالطة عبدها وخادمها:

الأول - ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه المحيط به، ونفذ إلى سويدائه، فلم تعد تبالي بالعواقب وما يؤول إليه الحال.

والثاني - ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنا لنعتقد ونعلم أنها في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه لفي خطأ واضح وبعد عن الصواب وجهل يتنافى مع مكانتها. وأردن من هذا القول المكر والحيلة،

ودفعها إلى دعوتهن والاقتناع بعذرها فيما فعلت. قال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي باغتيابهن، وسوء مقالتهن، وكلامهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني، وسمي الاغتياب مكراً؛ لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره، فكما أن الغيبة تذكر على سبيل الخفية، فكذلك المكر.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي لما بلغها ما تقوله النساء عنها غيابياً، أرسلت إليهن، أي دعتهن إلى منزلها للضيافة، وأعدت لهن ما يتكئن عليه من الكراسي والوسائد والطعام الذي يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، وأعطت كل واحدة من النساء سكيناً لقطع اللحم والفاكهة. ونحوها، وذلك مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، فمكرت بهن كما مكرن بها.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي وبينا هم في تناول الفاكهة والطعام، وكلٌ تمسك بسكينها، أمرته بالخروج عليهن، بعد أن كانت قد خبأته في مكان آخر، وكانت ذكية ماهرة في اختيار الوقت المناسب وهو أن يفجأهن وقت انشغالهن بما يقطعنه ويأكلنه.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي فلما خرج ورأينه، أعظمنه، ودهشن لجماله الفائق وحسنه الكامل، وجعلن يقطعن أيديهن، اندهاشاً برؤيته، فجرحن أيديهن، وهن يظنن أنهن يقطعن ما قدم لهن من طعام، وهكذا يفعل المدهوش الذي اجتذب نظرَه حادثٌ مؤثرٌ، أو منظر غريب، أو شيء مثير.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ بحذف الألف للتخفيف واتباع المصحف، وقرأ أبو عمرو: (وحاشا لله) بإثبات الألف وهو الأصل، لأنها من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد، وحاشا: كلمة تفيد معنى التنزيه، أي وقلن لها على الفور

تنزيهاً لله تعالى عن العجز، وتعجباً حيث قدر على خلق جميل مثله: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا؛ لأنهن لم يرين في البشر مثله، ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مرّ بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، فقال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن».

ما هذا الذي رأيناه من جنس البشر، وما هو إلا ملك كريم من الملائكة تمثل في صورة بشر، والمقصود إثبات الحسن العظيم له؛ لأنه استقر في الطباع أن لا حي أحسن من الملَك، وأن لا حي أقبح من الشيطان. فلما رأت النساء روعة جمال يوسف شبهنه بالملَك، ونفين عنه البشرية، لغرابة جماله وروعة حسنه.

والأقرب عند الرازي: أن النسوة لما رأين عليه هيبة النبوة والرسالة، وعلامة التطهر والعفة، نفوا عنه آثار الشهوة البشرية والصفات الإنسانية، وأثبتوا له طهر الملائكة.

قالت، وقد نجحت في انبهارهن بجماله الأخاذ: فذلكن هو الذي وجهتن اللوم إلي بسببه، وعبتُنَّ علي فعلي. وإنما قالت ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ ولم تقل «فهذا» بالرغم من أنه حاضر أمامهن، رفعاً لمنزلته في الحسن، وجدارة حبه والافتتان به، واستبعاداً لمحله السامي، أي فذلك يوسف البعيد السامي في الكمال والجمال، فأنا معذورة، فهو حقيق أن يحب لجماله وكماله.

وإذا كان هذا حالكن معه في لحظة، فماذا أفعل وهو معي دائماً في المنزل، وإني أعترف وأقر أني والله لقد راودته عن نفسه، فامتنع بإباء وشمم عما أردته منه؛ لأنه عفيف طاهر، ورث العفة عن أسلافه.

قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال.

ثم قالت متوعدة إياه بالعقاب: ولئن لم يفعل ما آمره به في المستقبل القريب، ليسجنن وليكونن من الذليلين المقهورين؛ لأن زوجي لا يخالف أمري ورغبتي.

وهذا دليل على أن حبه استولى على مجامع نفسها، وأن السجن المؤكد الدائم سيكون عقابه، لا مجرد الحبس المؤقت الذي كانت قد أشارت به على زوجها، عند اكتشاف أمرها لدى الباب، وأنها بهذا التهديد واثقة بسلطانها على زوجها، مع علمه بأمرها، واستنكاره سلوكها، فقد أصبح عشقها له، وحبها المتناهي أمراً علنياً لا تواري فيه، ولا تخشى أحداً من نقدها وتوجيه اللوم لها.

فعندئذ استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن. والكيد: الاحتيال والاجتهاد، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ أي يا رب، أنت ملاذي وملجئي، إن السجن الذي توعدت به أحب إلي مما يدعونني إليه هؤلاء النسوة من الفاحشة وارتكاب المعصية.

وكنى عن امرأة العزيز في قوله ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ بخطاب الجمع، إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والأولى حمل اللفظ على العموم، أي كيد النساء، وليس كيد امرأة العزيز فقط.

وقد أسند الدعوة إلى النساء جميعاً؛ لأنهن زينَّ له مطاوعتها ونصحنه بالاستجابة لرغبتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار.

وهو في دعائه هذا آثر المشقة على اللذة؛ لأن العذاب المكروه وهو السجن مع البراءة أهون من الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، فإن البريء المسجون يشعر بسعادة عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة، وقد اختار أهون الشرين وأخف الضررين: السجن والزنى، ففي السجن راحة بال وهدوء نفس وخروج عن بيئة الفساد، وتخلص من التحكم في أمره.

ثم أكد دعاءه مبيناً عجزه وضعفه، ومفوضاً أمره لمن له القدرة والقوة، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي وإن لم تبعد عني أثر كيدهن، أمل إلى موافقتهن على أهوائهن، وأكن من الجاهلين السفهاء الذين تستهويهم الشهوات، والذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن الحكيم لا يفعل القبيح، ولأن من لا ينتفع بعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أي إن وَكَلْتَني إلى نفسي، فليس لي منها قدرة، وإنما أعتصم وألجأ إلى حولك وقوتك، فأنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي. وهذا فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه من الصبر.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي فأجاب ربه دعاءه المفهوم من قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ الذي فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف، فصرف عنه كيدهن، وعصمه عصمة عظيمة، وحماه من التورط في المعصية أو الجهل والسفه باتباع أهوائهن، إنه تعالى السميع لدعاء الملتجئين إليه، العليم بصدق إيمانهم وبأحوالهم وما يصلحهم.

وهذا دليل على حراسة ربه له وعنايته به وتربيته تربية مثلى تليق بالأنبياء.

وقد ترفع مع شبابه وجماله وكماله عن مواقعة امرأة عزيز مصر التي كانت أيضاً في غاية الجمال والأبهة، واختار السجن خوفاً من الله ورجاء ثوابه، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل تصدَّق بصدقة، فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ ثم ظهر من المصلحة والرأي للعزيز وامرأته والشاهد الذي شهد عليها من أهلها بعد شيوع الخبر، وبعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، ظهر لهم أن يسجنوه لأجل غير معلوم، إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك، وتنفيذاً لرغبة زوجة العزيز التي تبين أنها ذات سلطان على زوجها، وأنه فقد الغيرة عليها، وآثر رضاها بأي ثمن كان.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن خبر السوء سرعان ما يشيع في أنحاء المجتمع، وأشد ما يكون شيوعاً ما يكون النساء وراءه.

٢ - كان نقد كبريات النساء في المجتمع المصري لامرأة العزيز لأول وهلة، وبحكم العادة المألوفة، حقاً وصواباً، إذ كيف تراود امرأة الوزير الأول عبداً لها وخادماً عندها، وهذا مستعظم عادة، لترفع السادة وأنفتهن من مخالطة الخدم والأتباع. لذا انتقدوا شدة حبها للغلام، ووجدوا أنها حائدة عن طريق الصواب.

٣ - قابلت امرأة العزيز المكر بمثله، فدعت نساء المدينة إلى وليمة، لتوقعهن فيما وقعت فيه، ولتبدي معذرتها أمامهن، فانبهرن ودهشن بجمال يوسف لحسن وجهه وزينته وما عليه، وجرحن أيديهن بالسكاكين التي كانت معهن لقطع ما يحتاج إلى تقطيع من الطعام، وكن يحسبن أنهن يقطعن الأترجّ (وهو النارنج أو الكبّاد أو الكريفون وهو ثمر أكبر من الليمون الحامض يؤكل بعد إزالة قشرته).

٤ - لم يملك النساء أنفسهن عن التعبير بما دهشن به عند رؤية يوسف،

وقالوا: ليس هذا من النوع الإنساني، وإنما هو من جنس الملائكة، والمقصود منه إثبات الحسن الفائق والجمال الرائع، وأنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة، وقوله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تبرئة ليوسف عما رمته به امرأة العزيز من المراودة، أي بعد يوسف عن هذا.

٥ - لما رأت امرأة العزيز افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي بحبه، واللوم: الوصف بالقبيح.

٦ - آثر يوسف الصديق دخول السجن ابتغاء مرضاة الله، وأن السجن أحب أي أسهل عليه وأهون من الوقوع في المعصية، لا أنَّ دخول السجن مما يُحَبُّ حقيقة. حكي أن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أوحى الله إليه: «يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت: السجن أحبّ إلي، ولو قلت: العافية أحبُّ إلي لعوفيت».

٧ - جمع يوسف عليه السلام في دعائه ليكون قدوة للبشر بين التأثر بالنوازع البشرية والميل الإنساني إلى النساء وبين جهاد النفس الذي استعان بالله عليه، وأوضح أن الوقوع في أهواء النساء جهل، وكون المنزلق من زمرة الجاهلين، أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال الذين يعملون بنقض ما يعلمون. ودل هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودل أيضاً على قبح الجهل والذم لصاحبه.

٨ - استجاب الله تعالى دعاء يوسف، ولطف به، وعصمه عن الوقوع في الزنى لصبره والاستعاذة بالله من الكيد. وهو شأنه تعالى يستجيب دعاء كل ملهوف، مستعصم به، ممتنع عن المعاصي ابتغاء رضوان الله تعالى.

٩ - اتخذ العزيز وأهل مشورته قراراً بسجن يوسف إلى مدة غير معلومة، كتماناً للقصة ألا تشيع بين الناس، بالرغم مما ثبت لهم من عفته ونزاهته، ورأوا الآيات، أي العلامات على براءته من قدّ القميص من دُبُر، وشهادة الشاهد، وحَزّ الأيدي بالسكاكين، وقلة صبر النساء عن لقاء يوسف.

١٠ً - لم يرض يوسف عليه السلام بارتكاب الفاحشة لعظم منزلته وشريف قدره، بالرغم من إكراهه على ذلك بالسجن، وأقام خمسة أعوام. وبناء عليه قال العلماء: لو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعاً.

فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحاً، فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يجعله بين بلاءين، فإنه من أعظم الحرج في الدين: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٢٢/٧٨].

الفصل السادس من قصة يوسف

يوسف في السجن ودعوته إلى الدين الحق

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾:

وقرأ نافع وأبو عمرو (إنيَ).

﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أرانيَ).

﴿رَأۡسِي﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (راسي).

﴿نَبَّأۡتُكُمَا﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (نباتكما).

﴿رَبِّيٓۚ إِنِّي﴾ :

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ربيَ).

﴿ءَابَآءِيٓ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (آبائيَ).

الإعراب:

﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ﴾ سمى: يتعدى إلى مفعولين، يجوز حذف أحدهما، فالأول: ها في ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ والثاني: محذوف، وتقديره: سميتموها آلهة. و﴿أَنتُمۡ﴾ تأكيد تاء سميتموها، ليحسُن العطف على الضمير المرفوع المتصل فيها.

البلاغة:

﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما سيكون، أي أعصر عنباً يؤول إلى خمر.

المفردات اللغوية:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي أدخل يوسف السجن، وصادف أن دخل معه غلامان آخران للملك، أحدهما: ساقيه، والآخر صاحب طعامه أي خبازه، فرأياه يعبر الرؤيا، فقالا: لنختبرنه .﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو الساقي. ﴿خَمْرًا﴾ أي عنباً يكون خمراً .﴿وَقَالَ ٱلْأَخَرُ﴾ وهو صاحب الطعام الخباز. ﴿نَبِّئْنَا﴾ خبرنا .﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ بتعبيره .﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين.

﴿قَالَ﴾ مخبراً أنه عالم بتعبير الرؤيا .﴿تُرْزَقَانِهِۦ﴾ في منامكما .﴿نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ في اليقظة أي بتفسيره الذي يؤول إليه في الواقع .﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ تأويله ويتحقق المراد منه، كأنه أراد أن يدعوهما إلى التوحيد، ويرشدهما إلى الطريق القويم، قبل أن يجيبهما عن سؤالهما.

﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالإلهام والوحي، وليس من قبيل التكهن أو التنجيم، وهذا أيضاً فيه حثّ على إيمانهما ثم قواه بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ﴾ دين ﴿قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ هم: تأكيد كفرهم بالآخرة، وهذا تعليل لما قبله، أي علمني ذلك؛ لأني تركت ملة أولئك.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ﴾ معطوف على ﴿تَرَكْتُ﴾ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق به. وهو دليل على أنه يجوز لغير المعروف أن يصف نفسه حتى يعرف، فيستفاد منه .﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي ما كان ينبغي لنا أو ما صحّ لنا معشر الأنبياء .﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي شيء كان، لعصمتنا .﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد .﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي .﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس، ببعثتنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه .﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم، وهم الكفار ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على هذا الفضل، فيشركون ويعرضون عنه.

ثم صرح يوسف بدعوتهما إلى الإيمان فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي يا ساكنيه أو يا صاحبيَّ فيه. ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ استفهام تقرير. ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي هل الأرباب الشتى المتعددون خير أم الله الواحد المنفرد بالألوهية، الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره؟ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي غيره. ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ سميتم بها أصناماً. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي بعبادتها ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ حجة وبرهان، أي فليست هي إلا أشياء ذات أسامي أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة، والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ أي ما القضاء في أمر العبادة إلا لله وحده؛ لأنه المستحق لها بالذات، من حيث إنه الواجب لذاته، الموجد للكل، المالك لأمره. ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ أمر على لسان الأنبياء ألا تعبدوا إلا الذي دلت عليه الحجج. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستقيم الحق، وأنتم لا تميزون المعوج من القويم. وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، فإنه عليه السلام بين لهم:

أولاً - رجحان التوحيد على تعدد الآلهة.

وثانياً - برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الألوهية، فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير، وكلا القسمين منتف عن تلك الآلهة.

وثالثاً - نص على ماهو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيخبطون في جهالاتهم، ولا يدرون ما يصيرون إليه من العذاب، فهم يشركون.

المناسبة:

بعد أن اتخذ العزيز وأهل مشورته قرارهم بحبس يوسف، بالرغم من اقتناعهم بعفته ونزاهته وبراءته، ذكر الله تعالى هنا تنفيذهم ذلك القرار الذي عزموا عليه، من إدخاله السجن، وأنهم لما أرادوا حبسه حبسوه وحبسوا معه اثنين من عبيد الملك، وأن الله لطف به إذ علَّمه تعبير الرؤيا، وكان ذلك طريقاً لإنقاذه من السجن.

التفسير والبيان:

لما أرادوا حبس يوسف حبسوه، وحبسوا معه غلامين من عبيد الملك، أحدهما: ساقيه، والآخر: خبازه؛ لأنه رفع إليه أنهما تمالأا على سمه في طعامه وشرابه، وليس ذلك مصادفة، ولكن تقدير العزيز العليم، وكان يوسف مشهوراً في السجن بصدق الحديث وتعبير الرؤيا.

فرأيا رؤيا، فقال الساقي: إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يصير بعدئذ خمراً، وقال الخباز: إني رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، فقالا ليوسف: أخبرنا بتأويل وتفسير ما رأينا، فهل سيحدث حقاً أو هو مجرد أضغاث أحلام؟ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ إنا نعلم أنك من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أي من المحسنين في علم التعبير؛ لأنه متى عَبَّر لم يخطئ، كما قال: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أو من المحسنين الذين يريدون الخير والإحسان للناس.

فانتهز يوسف هذه الفرصة، وهي ثقة هذين الرجلين به وبعلمه وإخلاصه، فاندفع يدعوهما ومن معهما في السجن إلى توحيد الله الخالص، وترك الأوثان، فكان دخوله السجن لحكمة.

ومهد لدعوته بما يدل على المعجزة على صدقه، فقال لهما: لا يأتيكما طعام في يومكما إلا أخبرتكما به قبل وصوله إليكما.

وهذا من تعليم الله إياي بوحي منه وإلهام، لا بكِهانة ولا عِرافة ونحوهما من علوم البشر، وهذا يدل على أن يوسف أوحي إليه، وهو في السجن ليدعو الضعفاء والفقراء والمظلومين والمذنبين، فهم أقرب إلى التصديق بدعوته من غيرهم.

وسبب الوحي أني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر وهم الكنعانيون وغيرهم من أهالي فلسطين، والمصريون الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة كالشمس (رع) والعجل (أبيس) والفراعنة (حكام مصر) فهؤلاء لا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، وهم كافرون بالآخرة والحساب والجزاء على الوجه الصحيح الذي دعا إليه الأنبياء، كالاعتقاد بأن الفراعنة يعودون إلى الآخرة بأجسامهم المحنطة، ويكون لهم فيها الحكم والسلطان، كما كانوا في الدنيا. وتكرير لفظ ﴿هُمْ﴾ للتأكيد وبيان اختصاصهم بالكفر، ولمبالغتهم في إنكار المعاد.

وقد هجرت طريق الكفر والشرك، وتركت ملة الكافرين الذين لا يصدقون بالله ولا يقرون بوحدانيته، وأنه خالق السماوات والأرض، واتبعت ملة آبائي الأنبياء المرسلين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين يدعون إلى التوحيد الخالص. وتعبيره ﴿ءَابَآءِيٓ﴾ مفيد أن الجد أب، وأنه من بيت النبوة، بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه لإخباره بالمغيبات، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله.

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه مالم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. وذلك ترغيب بالإيمان بالله وتوحيده.

ثم قرر منهج الأنبياء بصفة عامة، فقال: ماصح لنا وما ينبغي لنا معشر

الأنبياء أن نشرك بالله، أي شيء كان، من ملَك أو جني أو إنسي، فضلاً عن أن نشرك به صنماً أو وثناً لا يسمع ولا يبصر.

ذلك التوحيد، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو من فضل الله علينا، إذ هدانا إلى الإقرار بوجوده وتوحيده في ربوبيته وألوهيته، وعلى الناس بإرسالنا إليهم، ننبههم إلى الصواب ونرشدهم إليه، ونبعدهم عن طريق الضلال، فهو فضل إلهي على الرسل وعلى المرسل إليهم.

ولكن أكثر الناس المبعوث إليهم لا يشكرون فضل الله، فيشركون ولا يتنبهون، ولا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨/١٤] .

وبعد أن أبطل يوسف عليه السلام عبادة الشرك والمشركين، وأثبت النبوة، دعا إلى التوحيد الخالص القائم على الاعتراف بإله واحد ورب واحد، لا بآلهة متعددة، وهكذا مبدأ الأنبياء يهدمون عبادة الوثنية أولاً، ثم يقيمون الأدلة العقلية على وجود الله ووحدانيته، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾.

أي ياصاحبيَّ في السجن، هل تعدد الآلهة وتشتت الأرباب المتفرقين في الذوات والصفات التي تدعو إلى النزاع والتصادم وفساد الكون خير لكما ولغيركما في طلب النفع ودفع الضر والإعانة في عالم الغيب، أو الله الواحد الأحد الذي لا يحتاج لغيره ولا ينازع في تصرفه وتدبيره، القهار بقدرته وإرادته، الذي ذل كل شيء لجلاله وعظمته؟!

ثم بين حقيقة آلهتهم فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي إن تلك الآلهة التي تعبدونها وتسمونها آلهة إنما هي أسماء مجردة لمسميات وضعوها من تلقاء أنفسهم، ليس لها مقومات، ولا مستند من عند الله، وما أنزل الله بتسميتها أرباباً حجة ولا برهاناً، حتى تصح عبادتها ويطيعها الناس، إنها تسمية لا دليل عليها من عقل ولا نقل سماوي.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، وهذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك هو الدين الحق الذي لا عوج فيه، فلهذا كان أكثرهم مشركين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايلي:

١ - قدَّر الله تعالى مع سجن يوسف سجن اثنين آخرين من عبيد الملك، كانا سبب الإفراج عنه من السجن في المستقبل.

٢ - إن تعبير الأحلام يحتاج إلى علم وصلاح وتقوى وإحسان، وإن الرؤيا قد تكون حقاً، قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان عن أنس: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

٣ - كان يوسف بشهادة السجناء من زمرة المحسنين، وإحسانه: أنه كان يعود المرضى ويداويهم، ويُعزِّي الحزانى. وأنه كان من العالمين الذين أحسنوا العلم، فقولهم فيه يعني أنه عالم يؤثر الإحسان، ويأتي بمكارم الأخلاق، وجميع الأفعال الحميدة.

٤ - أعلن يوسف للسائلَين اللذين سألاه عن تفسير رؤيا في المنام: أنه كان يخبرهما عن نوع الطعام وصفاته الذي يأتيهما من جهة الملك أو غيره، قبل الإتيان به، بوحي من الله عز وجل، لا تكهُنّاً وتنجيماً، وهو إخبار بالغيب دال على نبوته، ومعجزة مثبتة لرسالته.

٥ً - النبي المكلف بالدعوة ينتهز كل الفرص المناسبة للقيام بواجبه، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام، فإنه دعا إلى محاربة الشرك والوثنية، وإبطال عبادة المشركين، وإلى توحيد الله تعالى، متبعاً ملة أجداده وآبائه الأنبياء: إبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أنبياء على الحق، وفائدة ذكر هؤلاء الأنبياء أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب، قرن به كونه من أهل بيت النبوة.

وليس من شأن الأنبياء الإشراك بالله أياً كان نوع الشرك.

وهذا من فضل الله على الرسول مما يشير إلى عصمته من الزنى، والمرسل إليهم وهم المؤمنون الذين عصمهم الله من الشرك. وقوله ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ رد على كل أصناف الشرك كعبادة الأصنام، وعبادة النار، وعبادة الكواكب، وعبادة الطبيعة، وإرشاد إلى الدين الحق، وهو أنه لا موجد إلا الله، ولا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله.

ولكن أكثر الناس لا يشكرون على نعمة الإيمان والتوحيد. وقوله ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أن عدم الإشراك وحصول الإيمان من الله تعالى.

٦ً - نفى يوسف بالدليل العقلي والنقلي تعدد الآلهة، وأثبت صحة القول بوحدانية الإله وربوبيته.

٧ً - إن الآلهة المزعومة من الأصنام والأوثان وغيرها أسماء مخترعة من عند الناس أنفسهم، ليس لها من الألوهية شيء إلا الاسم؛ لأنها جمادات، وأما مسمياتها فليست لها حقيقة موضوعية، ويرفضها العقل والنقل.

٨ً - لا حكم إلا لله، لأنه خالق الكل، فهو المستحق العبادة وحده لا شريك له، لذا أمر ألا يعبد سواه.

٩ً - الدعوة إلى توحيد الإله هو الدين المستقيم أو القويم الذي لا عوج فيه، ولكن أكثر الناس لا يدرون حقيقة الدين الصحيح.

١٠ - أورد الرازي خمس حجج على بطلان تعدد الآلهة وهي بإيجاز وتصرف ما يأتي[1]:

الأولى - أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٢] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل والتنازع والصراع، أما توحيد الإله فيقتضي حصول النظام وحسن الترتيب.

الثانية - أن هذه الأصنام ونحوها من البشر والكواكب معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة.

الثالثة - أن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته؛ لأنه لو كان له ثانٍ، لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا، فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك. وهذا دليل على فساد القول بعبادة الأوثان؛ لأنها على فرض كونها نافعة ضارة لا نعلم حصول النفع ودفع الضرر من هذا الصنم، أو من ذاك، أو بالتعاون والاشتراك، فلا يعرف المستحق للعبادة، هو هذا أم ذاك.

الرابعة - لو فرض بعض هذه المعبودات تنفع وتضر، على ما يزعم أصحاب الطلاسم، فإن ذلك في وقت مخصوص وواقعة مخصوصة، والإله تعالى قادر على جميع المقدورات في كل الأوقات، فكان الاشتغال بعبادته أولى.

الخامسة - إن اتصاف الإله بصفة ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ يقتضي ألا يقهره أحد سواه، وأن يكون هو قهاراً لكل ما سواه، وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته؛ إذ لو كان ممكناً لكان مقهوراً لا قاهراً، ويجب أن يكون واحداً لا متعدداً، إذ لو تعدد لما كان قاهراً لكل ما سواه، فالإله لا يكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً، وهذا لا ينطبق على الأفلاك والكواكب والنور والظلمة والطبيعة ونحوها من الآلهة المزعومة.

---

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ١٤٠ وما بعدها.

١١ً - يستحسن للعالم إذا استفتاه أحد الجهال والفساق أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ماهو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك.

١٢ً - إذا جهلت منزلة العالم فوصف نفسه بما هو ملائم المسألة، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين، لم يكن ذلك من باب تزكية النفس المنهي عنها[١]: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢].

الفصل السابع من قصة يوسف

- ١ -

تأويل يوسف رؤيا صاحبيه في السجن ووصيته للناجي منهما

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

القراءات:

﴿رَّأۡسِهِۦ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (راسه).

المفردات اللغوية:

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ أي الساقي فيخرج بعد ثلاث ﴿رَبَّهُۥ﴾ سيده ﴿خَمۡرٗاۖ﴾

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ١٣٧

يسقيه خمراً على عادته ﴿وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ﴾ الخباز، فيخرج بعد ثلاث، فيصلب، فقالا: كذبنا وما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي سألتما عنه، صدقتما أم كذبتما. والاستفتاء: طلب الفتوى عن السؤال المشكل، والفتوى: جواب السؤال.

﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾ أيقن ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ سيدك، فقل له: إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ أي الساقي ﴿ذِكْرَ﴾ يوسف ﴿فَلَبِثَ﴾ مكث يوسف ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع: من الثلاث إلى التسع، قيل: إنه مكث سبعاً في السجن.

المناسبة:

بعد أن قرر يوسف عليه السلام مسألة التوحيد وعبادة الله والنبوة، عاد إلى الإجابة عن السؤال، وتعبير الرؤيا.

التفسير والبيان:

قال يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي الذي رأى أنه يعصر خمراً - ولكنه لم يعينه في خطابه لئلا يحزن - فيسقي سيده خمراً كما كان في عادته. وقوله: ﴿رَبَّهُۥ﴾ لم يقصد ربوبية العبودية، فإن ملك مصر في زمن يوسف لم يدَّع الألوهية كفرعون مصر أيام موسى عليه السلام. روي أن يوسف قال له: ما أحسن ما رأيت، أما حسن العنبة فهو حسن حالك، وأما الأغصان: فثلاثة أيام، يوجه إليك الملك عند انقضائهن، فيردك إلى عملك، فتصير كما كنت، بل أحسن[١]. وهذا دليل على أنه كان بريئاً من تهمة المشاركة في تسميم الملك.

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ١٤٢

وأما الآخر: وهو الخباز الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه: فيصلب، فتأكل الطيور الجوارح كالنسر والعقاب والصقر والحدَأة والرخمة من رأسه. روي أن يوسف قال له: بئسما رأيت، السلال الثلاث ثلاثة أيام، يوجه إليك الملك عند انقضائهن، فيصلبك، وتأكل الطير من رأسك، وهذا يدل على أن الخباز هو الذي اتهم بتسميم الملك وثبتت عليه التهمة. لكن تفاصيل هذه الرواية والتي قبلها تعارض ظاهر الآية.

ثم نقل في التفسير: أنهما قالا: ما رأينا شيئاً فقال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي لا تناقشا فإن الأمر قد نفذ، وسبق الحكم الذي تسألان عنه. والاستفتاء لغة: السؤال عن المشكل، والفتوى: جوابه.

وهذا صحيح؛ لأن يوسف أعلم الصاحبين أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رِجْل طائر، مالم تعبّر، فإذا عبرت وقعت. روى الإمام أحمد عن معاوية بن حَيْدة عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر، فإذا عبرت وقعت».

وجواب يوسف ليس مجرد تعبير رؤيا مبني على الظن والحسبان، وإنما اعتمد على الوحي من الله تعالى، والوحي يفيد القطع واليقين، لا الظن والتخمين.

ثم أخبر يوسف عليه السلام خفية لمن ظن أي تيقن أنه ناجٍ وهو الساقي، دون علم الآخر، لئلا يشعره أنه المصلوب، وقال له: اذكر قصتي عند سيدك وهو الملك، لعله يخرجني من السجن بعد أن علم براءتي، وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرية المطلوبة عادة وشرعاً، للنجاة والإنقاذ.

فأنسى الشيطان ذلك الناجي تذكير الملك بقصة يوسف، وكان النسيان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يخرج نبي الله يوسف من السجن، فيدعو إلى توحيد الله وعبادته، ومقاومة الشرك، ومطاردة وساوس الشيطان.

فلبث يوسف في السجن منسياً مظلوماً بضع سنين أي من الثلاث إلى التسع، قيل: إنه مكث سبعاً، قال وهب بن مُنَبِّه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً، وعذِّب بُخْتُنَصَّر سبعاً. وقال مقاتل: مكث يوسف في السجن خمساً وبضعاً.

وقال ابن عباس: ثنتا عشرة سنة، وقال الضحاك: أربع عشرة سنة. والرأي الأول أصح؛ لأنه داخل في معنى البضع.

ومن المعلوم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن الأولى بالصدّيقين ألا يلجؤوا إلا إلى الله في رفع الأسباب، فهو مسبب الأسباب ورافعها.

روي أن جبريل جاء إلى يوسف، وهو في السجن، معاتباً له إذ استغاث بالآدميين، فقال له: يايوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجبّ؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف تركتَ ربك، فلم تسأله، ووثقت بمخلوق؟! قال: ياربّ، كلمةٌ زَلَّت مني، أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيتان إلى ما يلي:

أ - إن تعبير الرؤيا يعتمد على العلم والصلاح والتقوى، فلا يفيد ذلك

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٩٥ - ١٩٦

من العالم إلا الظن، وأما يوسف عليه السلام فكان تعبيره الرؤيا مقترناً بالوحي من ربه، فيفيد اليقين.

٢ً - من كذب في رؤياه، ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قال: العلماء: لا يلزمه، وإنما كان ذلك في يوسف؛ لأنه نبي، وتعبير النبي حكم، فأوجد الله تعالى ما أخبر به الرائي كما قال، تحقيقاً لنبوته.

٣ً - الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة، لا إنكار عليه، لكن الأمر بالنسبة ليوسف الصدّيق كان خلاف الأولى؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٤ً - كان من جملة مكايد الشيطان إنساء الناجي من السجن تذكير مولاه الملك بقصة يوسف عليه السلام، لئلا يطلع من السجن.

٥ً - لبث يوسف في السجن بضع سنين، وهي إما خمس سنين، وإما سبع سنين، كما روي عن بعض المفسرين. وعلى أي حال فهي مدة طويلة، صبر فيها يوسف على مراد الله، وآثر السجن على الوقوع في معصية الزنى.

- ٢ -

تأويل يوسف رؤيا الملك

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أرى).

﴿ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾:

بإبدال الهمزة الثانية واواً خالصة وصلاً قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

﴿رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (روياي، للرويا).

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾:

بإثبات ألف (أنا) وصلاً قرأ نافع، وقرأ الباقون بحذفها.

﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (لعلِّيَ أرجع).

﴿دَأَبٗا﴾ :

قرئ:

١- (داباً) وهي قراءة السوسي، وحمزة وقفاً.

٢- (دَأَباً) وهي قراءة حفص.

٣- (دَأْباً) وهي قراءة الباقين.

﴿يَعۡصِرُونَ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (تعصرون).

الإعراب:

﴿لِلرُّءۡيَا﴾ اللام زائدة للبيان أو لتقوية العامل، كما في آية: ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٤] لأنها تزاد في المفعول به إذا تقدم على الفعل، وقد جاء أيضاً زيادتها معه، وليس بمتقدم، مثل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٢] لكن زيادتها مع التقديم أحسن .﴿دَأَبٗا﴾ منصوب على المصدر، وقرئ بسكون الهمزة وفتحها.

البلاغة:

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾ استعمل صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية بين كل من ﴿سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ و﴿خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ طباق.

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ شبه اختلاط الأحلام المشتملة على المحبوب والمكروه، والسارّ والمحزن باختلاط الحشيش المجموع من أصناف متنوعة.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ براعة استهلال تتضمن الاستعطاف بالثناء للوصول إلى الجواب .﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ مجاز عقلي من قبيل الإسناد إلى الزمان والمراد به الناس؛ لأن السنين لا تأكل، وإنما يأكل الناس ما ادخروه فيها.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ ملك مصر وهو الريان بن الوليد ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي رأيت ﴿سِمَانٍ﴾ جمع سمينة ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ يبتلعهن ﴿عِجَافٌ﴾ سبع من البقر هزيلة ضعيفة، جمع عجفاء ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ جمع سنبلة وهي التي تحمل الحب الذي انعقد، واليابسات: ما آن حصاده ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ أشراف القوم ﴿تَعْبُرُونَ﴾ تفسرون ببيان المعنى المراد ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ بينوا لي تعبيرها، وهو الانتقال من الصور الخيالية إلى الواقع الحسي المشاهد.

﴿أَضْغَٰثُ﴾ أخلاط، واحدها ضِغْث: وهو حُزْمة النبات أو مجموعة الحشيش فاستعير للرؤيا الكاذبة ﴿أَحْلَٰمٍ﴾ جمع حُلُم بضم اللام وتسكينها: ما يرى في النوم، وهو قد يكون واضح المعنى كأفكار اليقظة، وقد يكون غامضاً مضطرباً يشبه مجموعة الحزَم والحشائش التي لا تناسب بينها. وإنما جمعوا الأحلام للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان والكذب والزيف ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة، أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، وهو مقدمة ثانية للاعتذار بالجهل بتأويله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي من الفتيين وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي تذكر يوسف، وفيه أبدل التاء في الأصل دالاً، ثم أدغم في الدال أصله «اذتكر»

﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي تذكر يوسف بعد طائفة من الزمن مجتمعة أي مدة .﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ إلى من عنده علم أو إلى السجن، فأتى يوسف.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي يايوسف الكثير الصدق أو المبالغ في الصدق؛ لأنه جرب أحواله، وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إلى الملك وأصحابه أو إلى أهل البلد؛ إذ قيل: إن السجن لم يكن فيه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبت الكلام فيهما؛ لأنه لم يكن جازماً من الرجوع.

﴿تَزۡرَعُونَ﴾ ازرعوا ﴿دَأَبٗا﴾ متتابعة، على عادتكم المستمرة، وهي تأويل السبع السمان ﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه وادخروه ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا يفسد أو يسوس ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ في تلك السنين، فادرسوه.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد السبع المخصبات ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ مجدبات صعاب، وهي تأويل السبع العجاف ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن، فأسند إلى السنين على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به ﴿مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ تُحرزون وتدخرون للبذر ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي السبع المجدبات ﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ بالمطر من الغوث والإغاثة من القحط ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ الأعناب وغيرها لخصوبته. وهذه بشارة، بعد أن أوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله علم ذلك بالوحي، أو بما جرت به السنة الإلهية على أن يوسع على عباده، بعد ما ضيق عليهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى تأويل يوسف رؤيا صاحبيه في السجن، ذكر تأويل رؤيا ملك مصر الذي كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس) بعد

أن أعلن الكهنة والعلماء وأهل الرأي عجزهم عن تأويلها، وقالوا: أضغاث أحلام، فكان هذا سبباً في اتصال يوسف بالملك.

التفسير والبيان:

هذه رؤيا ملك مصر التي قدر الله أن تكون سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً، والقصة أن الملك هالته هذه الرؤيا وتعجب من أمرها، وكيفية تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار رجال دولته وأمراءه، فقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا عن تأويلها بأنها ﴿أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ﴾ أي أخلاط أحلام.

والمعنى: وقال ملك مصر: إني رأيت في منامي رؤيا أدهشتني، وهي أن سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، أكلتهن سبع بقرات عجاف هزيلات، وسبع سنبلات خضر انعقد حبها، غلبتها سبع أخر يابسات آن حصادها، فالتوت عليها.

فقال للملأ من قومه وهم الكهنة والعلماء: عبّروا علي هذه الرؤيا، إن كنتم تعلمون تعبير الرؤيا، وبيان معناها الخيالي، وترجمتها إلى الواقع الحقيقي.

فقالوا: هذه أحلام مختلطة من خواطر وخيالات تتراءى للنائم في دماغه، ولا معنى لها، وتنشأ من اضطراب الهضم، وتلبّك المعدة، وتعب النفس أحياناً، ولسنا عالمين بتأويل أمثالها، فلو كانت رؤيا صحيحة، لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها.

وحينئذ تذكر الذي نجا من الموت من صاحبي يوسف في السجن، وهو الساقي، وكان الشيطان قد أنساه ما أوصاه به يوسف، من عرض أمره للملك، وكان تذكره بعد مدة من الزمان أي بعد نسيان، فقال للملك والملأ الذين جمعهم حوله: أنا أخبركم بتأويل هذا المنام، فابعثوني (وهو خطاب

للملك والجمع، أو للملك وحده على سبيل التعظيم) إلى يوسف الصديق الموجود حالياً في السجن.

فبعثوه فجاء فقال: يا يوسف، أيها الرجل كثير الصدق في أقوالك وأفعالك وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام، أفتنا في منام رآه الملك، لعل الله يجعل لك فرجاً ومخرجاً بسبب تأويلك رؤياه.

فذكر له يوسف النبي عليه السلام تعبيره من غير لوم وعتاب على نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، فقال: مبيناً لهم خطة أربع عشرة سنة: إنه يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات.

ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تكون سبباً للثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر.

ثم أرشدهم إلى ما يفعلون في سني الخصب، فقال: مهما جنيتم في هذه السبع السنين الخصب من الغلال والزروع، فادخروه في سنبله، لئلا يأكله السوس، إلا المقدار القليل الذي تأكلونه، فادرسوه، ولا تسرفوا فيه لتنتفعوا بالباقي في السبع الشداد الصعاب، وهن السبع السنين الجدب التي تعقب هذه السنوات السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف، اللاتي تأكل السمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، ففي سني القحط لا تنبت الأرض شيئاً، وما بذروه لا يرجع منه شيء، لهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي إن أهلها يأكلون كل ما ادخرتم في تلك السنين السابقة لأجل السنين الجُدْبُ، إلا قليلاً مما تخزنون وتُحرزون وتدخرون لبذور الزراعة. ويلاحظ أنه نسب الأكل للسنين وأراد به أهلها.

والخلاصة: تأول يوسف عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة.

ثم بشرهم بمجيء عام يغاث فيه الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس فيه ما كانوا يعصرون عادة من زيت الزيتون وسكر القصب وشراب التمر والعنب ونحوها.

وهذا الإخبار بمغيبات المستقبل من وحي الله وإلهامه، لا مجرد تعبير للرؤيا، فهو بشارة في العام الخامس عشر بعد تأويل الرؤيا بمجيء عام مبارك خصيب، كثير الخير، غزير النعم، وهو إخبار من جهة الوحي.

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات تعبير رؤيا الملك الذي كان سبباً في خروج يوسف من السجن، وقد دلت على الآتي:

١ - لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك الأكبر: الرّيان بن الوليد رؤياه، فعرضها على الكهنة والعلماء، فاعتذروا عن تأويلها، وكان عجزهم عن التعبير سبباً في إحالة الأمر إلى يوسف.

٢ - كانت رؤيا الملك في آخر الأمر بشرى ورحمة ليوسف.

٣ - الرؤيا نوعان: منها حق، ومنها أضغاث أحلام وهي الكاذبة، كما قال ابن عباس.

٤ - في الآية دليل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على أوّل ما تعبر؛ لأن القوم قالوا: ﴿أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ﴾ ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسّرها على سِني الجدب والخصب، فكان كما عبَّر، وأما حديث أبي يعلى عن أنس مرفوعاً: «الرؤيا لأول عابر» فيظهر أنه ضعيف.

وفيها دليل أيضاً على فساد أن الرؤيا على رِجْل طائر، فإذا عبرت وقعت. وأما الحديث المتقدم الذي رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ والمعنى فلم تثبت صحته.

٥ً - إن تذكر الخير والإقدام على فعله بعد نسيان، كما حدث للناجي الذي نسي ذكر أمر يوسف للملك، مردُّه إلى القضاء والقدر والتوفيق الإلهي.

٦ً - كان ذهاب ساقي الملك إلى يوسف في سجنه سبباً في معرفة مكانه في الفضل والعلم، فخرج من السجن، كما كان تأويل الرؤيا سبباً في إنقاذ أهل مصر من المجاعة مدة سبع سنوات، وهكذا فإن الأنبياء والرسل عليهم السلام رحمة للناس جميعاً، سواء في تصحيح العقيدة وتقويم الأخلاق، وتصحيح السلوك، أو في الحياة المعيشية والاقتصادية.

وقد استفيد من فعل يوسف سلامة الخطة ونجاح سياسة التخطيط، وتعليم الناس كيفية حفظ الحبوب من التسوس، وهو إرشاد زراعي رفيع المستوى.

٧ً - قال القرطبي: آية ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يُفوت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف في أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل، ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق[(١)].

٨ً - كان إخبار يوسف عليه السلام عن عام الإنقاذ والخصب بعد أربع عشرة سنة وحياً من الله وإلهاماً له، وتلك معجزة تدل على صدق نبوته.

٩ً - دل قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي مما تحبسون أو تدخرون لتزرعوا، على أن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وهو يدل أيضاً على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة.

١٠ً - قال القرطبي أيضاً: هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٢٠٣

تخرّج على حسب ما رأى، ولا سيما إذا تعلقت بمؤمن؛ فكيف إذا كانت آية لنبي، ومعجزة لرسول، وتصديقاً لمصطفى للتبليغ، وحجة للوسيط بين الله جل جلاله وبين عباده[١].

١١ - لم يكن لإخبار يوسف عليه السلام عن عام الغوث إشارة في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله، وفيه تطمين لأهل مصر بشيوع الرخاء الاقتصادي، والرفاه المعيشي، واستقرار أحوال الناس بحسب عاداتهم القديمة بعصر الأعناب، واستخراج الأدهان، وحلب الألبان لكثرتها، وكثرة النبات، وذلك دليل على رحمة الإنسان والحيوان، وهو فضل من الله وإحسان.

الفصل الثامن من قصة يوسف

- ١ -

طلب الملك رؤية يوسف والأمر بإخراجه من السجن وامتناعه من الخروج حتى تثبت براءته

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿فَسْـَٔلْهُ﴾:

(١) المرجع السابق: ٩/ ٢٠٤

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (فسله).

الإعراب:

﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول، أي لم أخنه وأنا غائبة عنه، أو وهو غائب عني، أو ظرف مكان أي بمكان الغيب.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ بعدما جاءه الرسول بتعبير الرؤيا وأخبره بتأويلها ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ أي بالذي عبرها ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي لما جاء الرسول إلى يوسف وطلبه للخروج ﴿قَالَ﴾ قاصداً إظهار براءته ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ اطلب منه أن يسأل ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ أي ما حال النسوة الذي يشغل البال ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سيدي ﴿بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ حين قلن لي: أطع مولاتك، وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه، وعلى أنه بريء مما قذف به، والوعيد لهن على كيدهن، فرجع فأخبر الملك فجمعهن. وإنما تريث يوسف في الخروج، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءته، ويعلن أنه سجن ظلماً، وهذا يدل على أنه ينبغي على المرء أن يجتهد في نفي التهم، ويتقي مواضعها. وإنما قال: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ ولم يقل: فاسأله أن يفتش عن حالهن، إغراء له بالبحث وتحقيق الحال. وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب.

﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ ما شأنكن وأمركن العظيم، والخطب: أمر يحق أن يخاطب به صاحبه ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ هل وجدتن منه ميلاً إليكن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه لله وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مِن سُوٓءٖۚ﴾ ذنب ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ ظهر الحق وثبت واستقر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: هي راودتني عن نفسي.

فأخبر يوسف بذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ أي طلب البراءة والتثبيت ليعلم

العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لم أخنه في أهله بظهر الغيب أي وراء الأستار والأبواب المغلقة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم، فأوقع فعل ﴿يَهْدِي﴾ على الكيد مبالغة. وفيه تعريض بامرأة العزيز: زليخا أو راعيل في خيانتها زوجها وتوكيد لأمانته.

المناسبة:

بعد أن عاد الساقي إلى الملك يخبره بتعبير يوسف عليه السلام للرؤيا، استحسنه، وطلب الملك رؤيته حتى يتحقق بنفسه صدق ما تشير إليه الرؤيا، إذ ليس الخبر كالعيان.

وهذا الطلب يدل على فضيلة العلم، وأن العلماء يستشارون في مهام الأمور، وأن العلم كان سبباً لخلاص يوسف من المحنة الدنيوية، وهو أيضاً سبب للخلاص من المحن الأخروية، لذا طلب يوسف التحقيق في التهمة المشهورة: تهمة امرأة العزيز له.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن موقف الملك الذي استراح لتعبير يوسف رؤياه، فعرف فضل يوسف وعلمه، وسعة اطلاعه، واهتمامه بأهل بلده ورعاياه، وأدرك أن تفسير الرؤيا بما سمع كلام خطير يدل على رجاحة عقل يوسف وقوة ذكائه، فهو جدير بمقابلته شخصياً ليسمع منه الأمر.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ أي أخرجوه من السجن، وأحضروه لي، كي أستمع إلى كلامه، وأتلمس مصداق الرؤيا بنفسي، فلما جاءه الرسول بذلك، امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن كان ظلماً وعدواناً.

وقد مدح النبي ﷺ موقف يوسف عليه السلام، ونبه على فضله وشرفه،

وعلو قدره وصبره، ففي مسند أحمد والصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ولو لبثت في السجن مالبث يوسف، لأجبت الداعي».

﴿قَالَ ٱرْجِعْ﴾ قال يوسف رداً على طلب مثوله أمام الملك: ارجع إلى سيدك، فاسأله عن حال النسوة اللاتي جرحن أيديهن؛ إذ لا أحب أن آتيه وأنا متهم بمسألة سجنت من أجلها، واطلب من الملك أن يحقق في تلك القضية قبل أن آتيه، ليعرف حقيقة الأمر، إن ربي العالم بخفايا الأمور عليم بكيدهن وتدبيرهن وما دبرن لي من كيد.

فجمع الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز: ما خطبكن أي ما شأنكن وخبركن حين راودتن يوسف عن نفسه يوم الضيافة، أو ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى ارتكاب الفاحشة؟!

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أجبن الملك: معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تعبير أُريد به تبرئته والتّعجب من نزاهته وعفّته، أي حاشا لله أن يكون يوسف متّهماً، والله ما علمنا عليه سوءاً في تاريخه الطويل.

وحينئذ قالت امرأة العزيز: الآن تبيَّن الحقّ وظهر، أنا راودت يوسف عن نفسه، لا هو، فإنه استعصم وامتنع أيّما امتناع، وإنه لصادق في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وقد أرادت بذلك مكافأة يوسف على صون سمعتها، وإخفاء أمرها، وإعراضه عن شأنها. وهو اعتراف صريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف من الذّنوب والعيوب.

ثم قالت: ذلك الاعتراف منّي بالحقّ، ليعلم يوسف في سجنه أنّي لم أخنه أثناء غيبته، أو أطعن في شرفه وطهارته وعفَّته. ويجوز كما رأى الزّمخشري أن يكون ذلك الكلام كلام يوسف عليه السّلام وهو متّصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي

﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ والمعنى: ذلك الأمر الذي فعلته من ردّ الرّسول والتّثبُّت ومطالبة الملك بالتّحقيق في أمري، حتى تظهر براءتي أمام الملك والنّاس، وليتيقّن العزيز أنّي لم أخنه في زوجته أثناء غيابه، بل تعففت عنها[١]. وعقّب أبو حيان على ذلك فقال: ومن ذهب إلى أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ إلخ من كلام يوسف يحتاج إلى تكلف ربط بينه وبين ما قبله، ولا دليل يدلّ على أنه من كلام يوسف[٢]. وقال الزّمخشري: كفى بالمعنى دليلاً قائداً إلى أن يجعل من كلام يوسف عليه السّلام. والظاهر لي هو رأي أبي حيان.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ وليعلم الجميع أن الله تعالى لا ينفذ ولا يسدّد كيد الخائنين، بل يبطله ويبدد أثره.

وإذا كان هذا من كلام يوسف فكأنه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانة زوجها، وتعريض بزوجها في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

أ - دلّ رجوع الملك إلى يوسف عليه السّلام على فضيلة العلم والمعرفة التي تميّز بها يوسف عليه السّلام على جميع الكهنة والعلماء حول الملك في مصر.

٢ - العلم المقرون بالعمل الصالح سبب للخلاص من المحنة الدّنيوية والأُخروية، فقد نَجّى الله يوسف من السّجن، وجعله من المحسنين الذين اختارهم الله لديه في الآخرة.

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٤٢

(٢) البحر المحيط: ٥ / ٣١٧

٣ً - لابأس بانتهاز الفرصة لإثبات الحقّ والصّدق والبراءة، فقد تريَّث يوسف وتمهَّل عن إجابة طلب الملك له.

٤ً - الاعتصام بالصَّبر والحلم وعزّة النّفس وصون الكرامة من أُصول أخلاق الأنبياء، فإنّ يوسف تذرَّع بالصَّبر وحرص على إعلان براءته وعفَّته، وصون سمعته في المجتمع. ورد في الصَّحيحين مرفوعاً: «ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعي». وفي رواية: «يرحم الله أخي يوسف، لقدْ كان صابراً حليماً، ولو لبثت في السّجن ما لبثه، أجبت الدّاعي، ولم ألتمس العُذْر»، وفي رواية أحمد: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر»، وفي رواية الطَّبري: «يرحم الله يوسف، لو كنت أنا المحبوس، ثم أرسل إلي، لخرجت سريعاً، أنْ كان لحليماً ذا أناة».

٥ً - الواجب شرعاً عدم المبادرة إلى الاتّهام بالسّوء والطَّعن بالأعراض، فإن يوسف عفَّ عن اتّهام النّساء بالسّوء حتى يتحقَّق الملك ذاته من التّهمة. وقدَّر جميل أو معروف سيدته امرأة العزيز، فلم يذكرها بسوء، وفاءً لزوجها وبرّاً له، ورحمة لها وستراً عليها، وعفّة القول أجدى في مستقبل الزّمان.

٦ً - من الخصال الحسنة: الجرأة في إعلان الحقّ، والصّراحة في إظهار الحقائق، وعدم التّردُّد في إنصاف الأبرياء وتصديق الأتقياء، فإن امرأة العزيز أعلنت براءة يوسف في مجتمع النّسوة أثناء الضّيافة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، وكررت اعترافها بالحقّ بعد مضي سنوات على الحادث بعد أن زُجّ بيوسف في قيعان السُّجون، فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ثم أكَّدت ذلك بقولها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي أقررتُ بالصدقِ ليعلم أنِّي لم أكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وترفَّعت عن الخيانة.

٧ً - المؤمن الصَّادق هو الذي يؤثر مرضاة الله تعالى، وإعزاز دينه على أي

شيء في هذا الوجود، فإن يوسف حرص على تمسُّكه بدينه وبمرضاة ربِّه في كل ظروف المحنة التي مرَّ بها مع النِّساء.

٨ - إن مصير الخيانة والكيد الفشل وعدم تحقيق النّتائج: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ومعناه: أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم، وإنما يبطله، ولا يسدِّده، ولا ينفذه، وتكون عاقبة الكيد الفضيحة والاضمحلال.

تم الجزء الثاني عشر ولله الحمد



فهرس المجلد السادس

فهرس الجزء الحادي عشر

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء الثاني عشر

الموضوع	الصفحة

* * *